التسلل الفكري الصهيوني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بديعة امين

عبر رموز الفكر العربي
"نجيب محفوظ"

ليس من شك في ان الكيان الصهيوني يدين بقيامه الى حد كبير الى عملية التسلل الفكري الذي مارسته الحركة الصهيونية لما يقرب من مائة عام في اوساط الراي العام العالمي . لقد استطاعت هذه الحركة ان تنجز بذكاء مهام كل مرحلة من مراحل الصراع الذي خاضته منذ نشوئها طبقا [illegible] ومتطلبات كل من تلك المراحل . فقبل ان يشتد عودها ، وقبل ان يكون لديها شعب تستند اليه ، وقبل ان تتمكن من بناء او امتلاك الاسس المادية التى تمكنها من دخول النادي الامبريالي في اواخر القرن التاسع عشر وفي مقدمتها دولة سياسية مستقلة ووجود قومي بلغ في تطوره الاقتصادي الراسمالي مرحلة تمكنه من الانتقال من مرتبة « كيان مستقل » الى مرتبة « دولة مستعمرة » ـ بكسر الميم ـ ، وقبل ان يكون لديها غير « جيش من الشحاذين والحمقى » طبقا لما قاله هرتزل ، لجات الحركة الصهيونية الى خوض المرحلة الاولى من معركة المائة عام لا في المنطقة العربية التي كانت نقطة الهدف الاساسية في برنامجها ، وانما في القارة الاوربية نفسها ، اول الامر ، ثم اميركا فبقية اجزاء العالم . وقد تميزت تلك المرحلة بكونها عملية تسلل فكري ووجداني يشكل التراث اللاهوتي بما فيه من اساطير ورؤى غيبية وخرافات السند الرئيس للدعاوى الصهيونية مستغلة في ذلك المؤثرات الانجيلية في الفكر البورجوازي الاوربي انذاك . ومن خلال تلك العملية استطاعت الصهيونية ان تستقطب الراي العام العالمي الى جانبها ، بالاضافة بالطبع الى التاييد الرسمي الذي محظته اياها القوى الاستعمارية ، وفي مقدمتها بريطانية التى تبنت فكرة « العودة » ودفعت اليها من اليهود من دفعت ليكونوا واجهة عرض امامية تخفى وراءها اغراضها الاستعمارية في المنطقة .

غير انه بالرغم مما ترتب فيما بعد على تلك المرحلة من دعم مادي وعسكري وسياسي ووجداني للحركة مما مكنها من الاستيلاء على فلسطين وتشريد شعبها واحتلال مناطق شاسعة من الارض العربية ، فان هناك برايي ما هو اشد فداحة وخطرا . فبالرغم من اكداس المؤلفات عن الحق الصهيوني وبالرغم من حملة التزييف الثقافي وتحريف الوقائع التاريخية ، وبالرغم من أن تلك الحملة استطاعت ان [illegible] وما تزال عملية غسل دماغ رهيبة سيطرت الحركة الصهيونية بواسطتها على عواطف الشعوب وعقولها ، مما مكنها [illegible] القوى الاستعمارية ، من تحقيق اغراضها ؛ وبالرغم من سيطرة الصهيونية على مختلف وسائل النشر والاعلام على نطاق عالمي ، فقد ظلت الحملة الفكرية الصهيونية عاجزة عن ان تجد لها منافذ تتسلل عبرها الى اعماق وقناعات الفرد العربي . ان هذه مسالة في غاية الخطورة . فطالما بقيت المقولات والموضوعات الصهيونية خارج قناعات الانسان العربي ، وبالتالي وطالما بقيت الدعاوى الصهيونية والوجود الصهيوني مرفوضين من جانب الراي العام العربي ، فان التجربة الصهيونية لن يكون مصيرها افضل من مصير المستعمرين الاوائل الذين تقف وراءهم تجربة استعمارية طويلة تغطي بضعة قرون . واذا ما بقي الامر كذلك ، فانه لن يبق امام الاستعمار الصهيوني ، ان عاجلا ام آجلا ، الا ان يحمل عصاه ويرحل .و اذن .. فان من الضروري البحث عن وسيلة تنقذ الصهيونية من هذا المصير الحتمي . والوسيلة المثلى لبلوغ هذا الهدف هي اشاعة الموت والشلل في وعي الانسان العربي وعقله عن طريق اخضاعه لعملية غسل دماغ منتظمة تهيؤه بالتالي الى قبول الاستعمار الصهيوني .

حين خطط منظرو الغزوة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين ، كانوا يدركون تماما ان ليس بمقدورهم تحقيق مخططاتهم دون ان يخضعوا الراي العام العالمي فكريا ووجدانيا لهيمنتهم الفكرية . غير انهم لم يكونوا يشعرون بحاجة الى القيام بعملية مماثلة على صعيد البلاد العربية . وكانوا في موقفهم ذاك لا ينطلقون في تعاملهم مع العرب من مواقع القوة والعنف حسب ، مثلهم في ذلك مثل من سبقهم من المستعمرين ، وانما كانوا ينطلقون ايضا من موقع ـ مقولة الشعب المختار ـ ومن هنا لم يخطر ببالهم ان يلجاوا الى اقناع الراي العام العربي بقبولهم حينما حل الوقت المناسب لنقل جانب من عملهم الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلسطين نفسها . في هذه المرحلة ـ وهي مرحلة زامنت عهد الانتداب البريطاني ، كان مخططهم يقضي بفرض وجودهم في المنطقة العربية ابتداء بفلسطين عن طريق سياسة الامر الواقع والقوة . وعليه فقد لجاوا قبل كل شيء الى بناء الركائز الاقتصادية والتربوية الاساسية ، والى اقامة تنظيمات عسكرية في فلسطين في ظل سلطة الانتداب ، ليتمكنوا من السيطرة عليها والحلول محل المستعمرين البريطانيين فور اعلان انتهاء الانتداب البريطاني .

غير ان ثلاثين عاما دامية تخللتها اربعة حروب استطاعت ان تقنع الصهاينة والمستعمرين الذين يمدونهم بالمال والسلاح والرجال ، ان « أسرائيل » ستظل جسما غريبا في الجسد العربي مهما طال به البقاء. شيء اخر لا يقل اهمية أدركه الصهاينة والمستعمرون بحسهم المتمرس . ان الانتصارات التى حققها « الكيان الصهيونى » تمثل خط الصعود في منحنى العلاقات العربية ـ الصهيونية . وأن حتمية التطور التاريخى لابد ان تقود ذلك المنحنى في اتجاه معاكس : مرحلة الهبوط وانحسار المد الصهيوني والاستعماري . هذه النتيجة لا تستند الى مجرد تقديرات نظرية لحركة التاريخ ، وأنما هى مستمدة من الواقع المادي في حركته وتطوره سواء على صعيد المنطقة او على الصعيد العالمى ـ تلك الحركة التى تختزل عادة في القول الشائع : « أن الزمن يعمل في غير صالح اسرائيل والاستعمار . »

من هنا انبثقت فكرة مشروع التسوية السلمية وعقد مصالحة بين العرب و « أسرائيل » وتدشين مرحلة من الاستقرار بالنسبة للعدو . أن أستقرار « أسرائيل » لفترة زمنية معينة في ما احتلته من اراض عربية مسالة بالغة الاهمية . اذ أن مثل هذا الاستقرار لحين من الزمان يمكن هذا الكيان ، كما يعتقدون ، من تحويل الاحتلال الى امتلاك وذلك من خلال تحويل الكثافة السكانية العربية الى كثافة يهودية ـ هجرة ومستوطنات ، كما يجري الان في الضفة الغربية . وبعد ان يصبح الامر الواقع « حقوقا مكتسبه عبر الممارسة التاريخية » ، فانه لن يبقى امام العرب الا أن يقبلوا ذلك . وهكذا .. ودون ان ننسى ارتباط استقرار « أسرائيل » مرحليا بالمصالح النفطية الغربية ، تكون أسرائيل ، بمداها الجغرافي الجديد مستعدة ، بعد فترة زمنية محددة ، لخوض سلسلة جديدة من الحروب والمعارك من أجل الاستيلاء على اراض عربية جديدة تصبح بحكم سياسة الامر الواقع « والحقوق المكتسبة عبر الممارسة التاريخية » ، جزء من أرض « أسرائيل » الكبرى . وهكذا .. حتى يتحقق اخيرا الوعد الربانى « لنسلك اعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات . » [تكوين / 15 ـ 18] .

ولكن .. ثمة حقيقة تقف بكل ثقلها في طريق المستعمرين الجدد : تلك هى أن عملية تسوية سلمية لن يكتب لها النجاح ما لم ترافقها عملية غسل دماغ جذرية تستهدف أستلاب الشخصية العربية وشل وعيها وافراغها فكريا وروحيا من كل موروثاتها الحضارية والثقافية لتصبح أخيرا شخصية هزيلة خاوية مهياة لالتقاط كل ما يلقى اليها من افكار ومفاهيم مشوهة لا تبقى امامها غير خيار واحد : قبول « الوجود الاسرائيلى » بارتياح كبير ومن ثم قبول الدور الموكل اليه في هذه المنطقة ، وبالتالى الاستكانة لقدرها المرسوم : قدر عنصر استهلاكى متخلف لا دور له في هذه الحياة غير أن يرتدي من اللباس ما تنتجه معامل « أسرائيل » والغرب ، ومن الاجهزة والادوات اليومية يستعمل ما تنتجه مصانع « أسرائيل » ، ومن الطعام ياكل ما يحفظ في علب يحمل كثير منها ، داخل الاغلفة الجميلة ، السموم ومحفزات الاورام السرطانية والامراض .. حتى يموت !

هذه المرحلة الخطيرة ـ مرحلة غسل الدماغ العربي ـ قد بدات في الواقع منذ ما بعد تشرين ولكي يؤمن المخططون لهذه العملية الخطيرة حصادا وفيرا فقد شرعوا بتنفيذها من خلال خطين متلازمين . الاول ويستهدف اشاعة الاحساس بالعجز والعقم لدى الانسان العربي واقناعه بانه غير قادر على استعادة حقوقه حتى وان خرج منتصرا في حرب له مع « أسرائيل » ، وأنه بغير ارادة « أسرائيل » والدول الاستعمارية يظل عاجزا عن أي فعل ولا مستقبل له . وحتى اذا ما استطاع العرب أن يحققوا تفوقا عسكريا يمكنهم من دحر « أسرائيل » فان ذلك لن يفت في عضد اولئك المخططين .. اذ لا أسهل على حوارييهم من أن يفرغوا ذلك التفوق من مزاياه وفاعليته بطريقة او باخرى ، ثم ينزلوه من عليائه درجة او اثنتين ويسمونه اخيرا تكافؤا مع العدو ، ليكون بمقدورهم بعد ذلك ان يتحدثوا عن التسوية وان يرفعوا شعار « لا يوجد هناك حل عسكري لمشكلة الشرق الاوسط » . وهذا بالضبط هو ما حدث في اعقاب حرب تشرين بفضل المخطط الصهيوني ـ الامريكي وبفضل موقف القيادة السياسية في مصر ، القيادة التي أستطاعت ان (تجير) أنتصار تشرين لحساب أسرائيل وأميركا .

أما الخط الثاني فيستهدف أحداث هزة فكرية عميقة على امتداد الوطن العربي تقود أخيرا الى قناعات جديدة تجعل قبول أسرائيل في نهاية المطاف امرا ممكنا .

الا أنه تظل هناك عقبة لا يمكن اغفالها . فطالما كان حملة الفكر الصهيوني ودعاته كتابا صهاينة او كتابا غير أسرائيليين ولكنهم ليسوا عربا ، فان من غير المؤمل ان تحقق الغزوة الفكرية الصهيونية نجاحا كبيرا . وبالنتيجة يظل مصير المشروع الصهيوني الاستعماري ، طال الزمان به ام قصر ، الفشل والانهيار . واذن .. فان الطريق الاسلم لتمرير المفاهيم والقناعات الصهيونية الى الانسان العربي انسان عربي ينطق بلسان عربي !

صحيح اننا كثيرا ماكنا نلاحظ تسرب العديد من المقولات الصهيونية في عديد من البحوث والدراسات العربية التي تتناول القضية الفلسطينية وتفرعاتها بالبحث . من تلك المقولات الاضطهاد اليهودي واستمراريته مكانا وزمانا ، طرد اليهود من فلسطين بعد سقوط القدس عام 70 م كون الصهيونية حلا للمشكلة اليهودية الخ .. غير اننا نعتقد ان ذلك لم يحدث الا نتيجة لاعتماد تلك الدراسات اجمالا على مؤلفات غربية او يهودية على علاتها دون تمحيص ودون ان يكون للكتاب العرب الذين يعتمدونها نظرة نقدية . وبرغم قصور هذا الموقف الا أنه لم يكن امرا مقصودا يستهدف امرار الفكر الصهيوني الى مدارك الراي العام العربي غير أنه بالرغم مما كان يتسلل من أفكار ومفاهيم صهيونية الى النتاج الفكري العربي ، الا أنه لم يكن بمقدور الاجهزة الصهيونية في زمن « ما قبل العبور » أن تخترق حاجز الصوت في ميدان الفكر العربي . غير أنه « بعد العبور » وبعد أختراع معادلة التكافؤ العربي الاسرائيلي وأستحالة أن يهزم أحدهما الاخر بصورة نهائية ، طبقا لهذه المعادلة ، لم يجد حواريو التسوية ايما حرج في أن يقدموا « خدماتهم الفكرية » « لسالومي » العصر ! وهكذا .. وعلى أيقاع « رحلات كيسنجر » صرنا نقرا كتبا عربية لكتاب عرب تقول ان « لا مفر من وجود أسرائيل .. وان جوهر الخلاف بين العرب وأسرائيل يعود لتفوق أسرائيل

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

تكنولوجيا ، وان لاسرائيل حقوقا مكتسبة انشأتها الممارسة التاريخية ؛ وحيث أنه لا مفر من الوجود الاسرائيلي ، لمَ لا يناط به دور وظيفي في المنطقة .. وان لحظة التسوية هي لحظة ذات حدين وأنها ستؤدي الى نفي وظيفة أسرائيل ثم الى نفي الوجود الاسرائيلي بعد الانطلاقة التي سيحققها العرب بفضل الوظيفة الاسرائيلية الجديدة والخ .. »(1)

وهكذا يستدرج الانسان العربي عبر هذا التسلسل من المحاججة الفكرية وصولا به الى نقطة اعتبار أن قبول الكيان الاسرائيلي تطور طبيعي بل وحتمي . فاذا ما وصلت الامور الى هذا المنعطف ، تكون الصهيونية قد اطمأنت الى انها ستكون الوريث الشرعي للاستعمار او شريكه وربما الشريك الاكبر ، لمدى غير قصير من الزمان .

ليس من الصواب بالطبع أن يقتصر امرار مثل هذه الافكار على مجال دون آخر ، وانما ينبغي أن تعزف النغمة الجديدة على مختلف المستويات . ومن هنا فقد سمعنا الحاكم المصري يتحدث عن « حدود آمنة » و « حقيقة واقعة » بل وحتى انه قال ما لم يقله الصهاينة انفسهم فاتهمهم بانهم يريدون العيش معنا وانهم يريدون السلام .. وليت الامر اقتصر على مستوى صحفي من مصر لا تعرفه غير قلة من العرب .. وليته اقتصر على مستوى ضابط سابق أصبح في غفلة من الدهر ، حاكما . فلو كان الامر كذلك لهانت المسالة برغم بشاعتها .. اذ ان كلمة الخيانة سرعان ما تنطفيء سواء جاءت على لسان صحفي محترف او حاكم لا يفكر بغير عدد الاصفار التي تقف على يمين رقم سري في المصارف الاجنبية . لكن الامر يتخذ معنى اخر وينتحل بعدا اعمق حين يسمح بعضادباء العرب ــ ومن كبار ادباء العرب ــ ممن يقفون كرموز تجسد ضمير الامة وتختزن في أعماقها كل ما أبدعته من موروث حضاري وقيم وتقاليد وفضائل ادبية وفكرية لتقدم هذا الارث المجيد للاجيال الحاضرة والمقبلة مترجما في قيم ومثل وفكر متجددة تمتلك من الحيوية وروح العصر ما يمكنها من ان تكون مسارب ينساب عبرها نسغ حضارتنا وموروثنا الثقافي فيصل ما بين الاجيال التي كانت وبيننا وبين الاجيال التي ستأتي ــ اقول ان الامر يتخذ معنى اخر حين يسمح مثل هؤلاء الادباء لانفسهم ان يستحيلوا قنوات يمر عبرها الفكر الصهيوني والرجعي بكل ما يحمله من بؤس ومرض وخداع وتزييف الى الانسان العربي . فالمسالة هنا ببساطة لا يمكن ان توصف باقل من كارثة. اذ انه اذا كان قادة الفكر على مثل هذه ، أاقول ، (الجهالة ؟) فالى اي ظلام تقاد الجماهير ؟!

بالامس وقف اديب عربي كبير يتحدث عن أسرائيل والصهيونية والقضية الفلسطينية . وتحدث كاتبنا الكبير ــ نجيب محفوظ ــ الذي كان يعتبر واحدا من منائر الادب الشامخة عن اتفاقيات كامب ديفيد وعن السلام مع اسرائيل . والا ادري والله ان كان يتحدث بنية حسنة ام انه قال ما قال عن سوء قصد . وكائن ما كان دافعه ، فان موقفه مرفوض في الحالتين . ان موقفه هذا يسير ، سواء ادرك محفوظ ذلك ام لم يدرك ، في نفس المخطط الصهيوني الذي يستهدف في احد شقيه اشاعة روح العجز والانهزامية في أعماق الانسان العربي ، ويرمي بالاخر الى اقناعه بقبول الكيان الاسرائيلي الاستعماري . ففي معرض تبريره قبول السلام مع أسرائيل ، امام الاجيال القادمة ، يقول محفوظ :

« اننا نقول لهم : لقد فعلنا افضل ما نستطيع .. وفي ظروف بالغة السوء .. بدأنا الحرب وفوق رؤوسنا جميعا ملوكا خونه .. فانهزمنا ثم حاولنا مرة ثانية وثالثة (أي عدوان 56 و 67) في ظروف سيئة وبسياسة خاطئة . وقتل منا من قتل .. وخسرنا ما خسرنا .. حتى وصلنا الى الحضيض .. فاضطررنا الى ان نقبل هذا .. والاتفاقيتان ــ ومهما قيل عنهما ــ تغشاهما روح الهزيمة بدون شك .. فهذا هو ما استطعناه .. ونحن نسلمكم بلادا تهيء قاعدتها لكم ان تقفوا على أرجلكم .. لا ان تكونوا راكعين مثلنا .. »

أيمكن ، بعد انتصار تشرين ، أن نسمع في هذا الاعتذار غير اصداء الهزيمة والتخاذل واشاعة الاحساس بالعجز والعقم ؟

لنمضي مع كاتبنا الكبير في ما قال . قال محفوظ أنه لم يكتب ادبا عن القضية الفلسطينية لانه يعتقد « انه لا يجوز للاديب أن يكتب عن شيء لا يعرفه » . وهذا ، كرأي عام ، صحيح تماما . غير ان مثل هذا الموقف السليم مرفوض تماما بالنسبة لكاتب كبير يفترض فيه أن يعبر عما تعانيه الجماهير وعن تطلعاتها وامانيها . كما يفترض ان يكون على اطلاع كلي بالقضايا الرئيسية التي تمارس ضغوطا متعمقة على مختلف جوانب حياتنا وتؤثر فيها تأثيرا حاسما كالقضية الفلسطينية . وهو في الواقع لا يجهل القضية الفلسطينية ، غير ان ما يعرفه عنها يفتقر الى متطلبات العمل الفني . اما ما لا يعرفه « على حقيقته فهو الصهيونية». يقول محفوظ :

« ان قضية فلسطين واضحة في ذهني كقضية عربية .. ولا يوجد شيء من جوانبها لا اعرفه وقد عاصرتها منذ بدايتها .. اي انني اعرفها جيدا .. اما بالنسبة للصهيونية كظاهرة .. فقد عرفتها عن طريق اعدائها .. اي نحن .. »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليت كاتبنا الكبير امتثل لنصيحته هو ولزم جانب الصمت فيما يتعلق بالصهيونية . فهو ، بالرغم من اعلانه جهارا انه لا يعرف الصهيونية على حقيقتها ، الا أنه يحاول ، في رده على ما اذا كان المشروع الصهيوني بجذوره وطبيعته مشروع أستعمار أستيطاني ، ان يجرد الصهيونية من صفتها وطبيعتها الاستعمارية . يقول محفوظ :

« عندما أستعمر الانجليز والهولنديون جنوب افريقيا لم تكن لهم صلات تاريخية او عاطفية او تراثية مع جنوب أفريقيا .. ولقد ذهبوا الى هناك بقصد الاستعمار الاستيطاني .. ولكن الصهيوني ــ على العكس من ذلك ــ كان يرجع الى وطن كان يقطنه من قبل . »

ويقول ايضا :

« .. هل كان احد يتصور أن الاسرائيليين بعد ان يتركوا فلسطين 2000 عاما .. واصبحوا فرنسيين وانجليزا والمانا .. وتغيرت الدنيا كلها هل كان احد يتصور أنهم سيرجعون ؟ أمامك اذن شعب ظل مصرا على فكره طوال 2000 عاما .. »

هكذا اذن .. نجيب محفوظ الذي يعلن انه لا يعرف الصهيونية على حقيقتها يقول عن الفرد الصهيوني انه « كان يرجع الى وطن كان يقطنه ». ويصف الاسرائيليين حتى منذ ما قبل 2000 سنة بانهم « شعب » وان الاسرائيليين « أصبحوا فرنسيين وانجليز والمانا » !! وفي قوله ان الانجليز والهولنديين « لم تكن لهم صلات تاريخية او عاطفية او تراثية مع جنوب افريقيا » الخ .. انما يقرر ضمنا ولكن بما يفصح عن صراحة ما بعدها صراحة ان للصهاينة صلات تاريخية وعاطفية وتراثية مع فلسطين وأنهم ليسوا مستعمرين . ويؤكد هذا في موضع اخر بقوله ان هناك خلافا بين

بواعث أستيطان جنوب أفريقيا واستيطان فلسطين من حيث أن الاخير ، كما يقول ، نقلا عن اليهود الاوربيين « أنهم يرجعون الى ارض الميعاد » بعد ان تركوها الفي عام .

ماذا نقول لنجيب محفوظ ؟ انقول له انه لا يفعل شيئا هنا غير تكرار المقولات الاساسية التي أستندت اليها الصهيونية في دعـواها التي مـا فتئت ترددها منذ ما يقارب المائة عام ؛ وان محفوظ لو تحمل مسؤوليته كاديب ومفكر عربي وفتح كتابا واحدا من كتب الصهيونية لقرأ فيه نفس هذا الكلام الذي يقوله .

ان اغرب ما في اقوال محفوظ هي أنها غير مترابطة . فالغالبية العظمى من الكتاب العرب الذين كتبوا عن القضية الفلسطينية والذين قرأ للكثيرين منهم كما يقول يتفقون على ان الصهيونية ظاهرة أستعمارية ، وهذا مـا يقوله هو : « .. ان من حاولـــوا الربط بين الصهيونيـــة والاستعمار الاستيطاني كثيرون .. وهم يكتبون هنا وبشكل دائم . »

حسنا .. من اين اذن أستقى محفوظ معلوماته عن الروابط التراثية والعاطفية الخ .. الصهيونية بفلسطين وعن أن الصهاينة يعودون الـى وطن كانوا يقطنوه من قبل وانهم شعب ظل مصرا على فكره طوال الفي عام اذا كانت مصادره الوحيدة ما يكتبه العرب عن هذه القضية ؟

ماذا نقول لنجيب محفوظ ؟ اذا كان يعرف القضية الفلسطينية من كل جوانبها ؛ كيف حدث اذن أنه لا يعرف الصهيونية على حقيقتها وهو كاتب عربي كبير مطالب بمعرفة ما لا يعرفه الاخرون عن قضايانا الوطنية .. وهل القضية الفلسطينية غير افراز للحركة الصهيونية ؟ ايمكن الفصل بينهما وكل منهما وجه اخر للعملة ذاتها ؟ أكان يمكـن ان تكون هنـاك قضية فلسطينية لو لم تكن هناك حركة صهيونية ؟

ومرة ثالثة .. ماذا نقول لنجيب محفوظ ؟ انقول أنه على خطأ كبير وخطأ لا يغتفر من حيث أن ما يقوله لا يصدر عن انسان بسيط وانما عن اديب كبير ولانه كذلك فانه مطالب بما لا يطلب من غيره .. أنه مطالب بان يكون على علم بأخص خصوصيات تاريخ المنطقة والشعوب والاقوام التي عاشت فيها على مر الدهور والحضارات التي شادتها ، وانه ليس كافيا ان يعرف شيئا عن تاريخ مصر او عن الوجه العربي من القضيـــة الفلسطينية . فهو قبل كل شيء .. وهو بعد كل شيء يكتب للعـــرب اجمعين .. أم هل ينبغي أن نتخلى عن التساؤلات لنقـول له ان فلسطين ومنذ قديم الزمان كانت معبرا قاريا وموطيء قدم لكل العابرين ، وأن من بين الذين اقاموا في جزء من أرضها ردحا من الزمـان قصيرا ، وبعـد أن أستقرت في مختلف أرجائها ولالف وبضعة قرون من السنين قبائل عربية سامية انشأت فيها حضارة زراعية ـ تجارية رفيعة ـ أقول أن من بيـن الذين عاشوا في جزء منها ، وهو الجزء الجبلي الاجرد ، قبائل اسرائيل التي يصفها ويليام فوكسويل اولبرايت ، عالم الاثار الامريكي اليهودي ، بانها كانت « قطيعا متوحشا شبه مترحل »(2) وانه طيلة الحقبة التي اقامـوا فيها هناك ، حتى في عهد توحيد مملكتي يهودا واسرائيل ، ظل الاسرائيليون محاطين باقوام معادية وفي مقدمتها الكنعانيون والفلسطينيون ، وان تلك الاقوام أستمرت في مقاومتها لهم حتى أنهيار الكيـــان الاسرائيلي . وان الاسرائيليين لم يستطيعوا ، حتى في أكثر عهودهم أزدهارا وهو عهد الملك سليمان ، بناء قاعدة مادية زراعية صناعية من شأنها ان تضع أسس نظام اقتصادي مستقر ، يبنى عليه نظام سياسي راسخ ، لتشاد من ثم حضارة ويولد تراث يقاوم تقلبات الزمان كما الامر بالنسبة للاقوام الاخرى التي أستوطنت فلسطين وتركت شواهد حضارية ما زالت قائمة .

انقول لمحفوظ ان اسس النظام الاقتصادي في مملكة اسرائيل القديمة ـ وهي أسس ربوية ـ صيرفية ـ ضرائبية ـ والفوضى والانقسامات داخل الكيان الاسرائيلي نفسه من جهة ، وبين الاسرائيليين والاقوام الاخرى من جهة اخرى ، ما كانت تسمح ببناء حضـــارة وتراث ، انما كانت تمارس ضغوطا مستمرة على الاسرائيليين حتى في أكثر عهودهم استقرارا. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن سجل تاريخ الوجود الاسرائيلي أوسع حركـة هجرة متتالية قام بها اليهود من فلسطين عدة قرون قبل سقوط القدس عام 70 م . في حين بقيت الاقـــوام الاخـرى كالكنعانيين والفلسطينيين والمؤابيين والنباتيين والامونيين وغيرهم في فلسطين . هل نكرر لمحفوظ ما قاله الكاتب اليهودي ابراهام ليون « لم يشتت اليهود أطلاقا منذ سقوط القدس ، وان الغالبية العظمى من اليهود كانت قد تبعثرت في أنحاء العالم قبل هذا الحدث بعدة قرون »(3) من هنا .. فان فلسطين لم تكن الوطن الذي يتحدث عنـه محفوظ بالمفهـــوم الذي يتصـــوره . ومن هنا فان الاسرائيليين الذين أقاموا فترة في جزء من فلسطين لم يكونوا يملكون ايا من المقومات الاساسية لبناء حضـــارة وتراث ؛ وأن ما يوصف بالتراث اليهودي ، انما هو في الواقع تراث مستعار فالتوراة ، « وكذلك التلمـود البابلي » كتبا في بابل وان أفضل ما في التوراة مستمد من الاداب السومرية والبابلية والاشورية والفرعونية والحيثية والخ .. بل وحتى ان هيكـل سليمان ، وهو البناء الحضاري الوحيد ، ثم بناؤه من قبل عمال استقدموا من صيدا وصور . اما هندسته فهي مزيج من الهندسة المعمارية المصريـة والاشورية والبابلية مع ما اضافه اليها الفينيقيون من لمسات تزينية .

انقول لنجيب محفوظ أن ما يقوله عن « الاسرائيليين الذين أصبحوا فرنسيين وأنجليز والمانا » غير صحيح . وأن معظـــم اليهـود الفرنسيين والانكليز والالمان كانـوا فرنسيين وانكليـز والمان قبـل أن يصبحـوا يهودا . أو أنهم هاجروا من أوربا الشرقية أبان العقدين الاخيرين من القرن الماضي الى فرنسا وانكلترا والمانيا وغيرها من أقطار اوربا ، وأن اليهـــود الالمان الذين هاجروا الى فلسطين في ثلاثينات هذا القرن لم يفعلوا ذلك لان فلسطين كانت وطنا اقاموا فيه من قبل ، وأنما لجأوا اليها هربا مـــن النازية وطبقا لاتفاقيات سرية عقدت بين الوكالة اليهودية وزعماء الرايخ الثالث . اما اليهود الاخرون الذين جاءوا فلسطين ، فقـــد جاؤها غزاة مستوطنين ومعظمهم من بولونيا وليتوانيا واوكرانيا وغيرهم من اليهـود الاشكنازي الذين ينتمون الى العنصر الاري . وجاءها ايضا يهود مـــن السود والصفر ، وهؤلاء كما هو واضح ، ليسوا احفادا لليهود القدامـى الذين أنحدروا من قبائل سامية هاجرت من اعماق الجزيرة العربية .

هل نحدث محفوظ عن اليهود الذين هاجروا الى مملتكات الامبراطورية الرومانية قبل الميلاد وكيف شرعوا بالتبشير في أوساط الرومانيين وغيرهم من شعوب الامبراطورية مما اضطر الامبراطور دوميتيان الى طردهم مـــن روما نظرا لتزايد عدد الذين تحولوا الى اليهوديـــة مما أدى الى تناقص موارد الهياكل الرومانية .. أنحدثه عن مملكة الخزر وسكانها الذيـــن تحولوا سوية مع ملكهم الى اليهودية في القرن التاسع الميلادي . أنقـول لمحفوظ أن اليهود في أوربا البورجوازية الذين ينحدرون من أصول سلافية وجرمانية تعرضوا لحركـة أندماج وذوبان سريعـة متسعة النطاق بعد أن حطمت البورجوازية المسيحية بعد توطدها ، جدران الغيتو ومنحت اليهود حقوق المواطنة الكاملة حتى اخذت الهوية اليهودية في القرن التاسع عشر تمر في طور التلاشي ، أنقول لمحفوظ أن الغالبية الساحقة من اليهود فـي اوربا واميريكا وغيرهما كانت ضد الحركة الصهيونية ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأذن .. الا يبدو من هذا الذي قلناه أنه لا توجد هناك اية رابطة اثنية ، تراثية ، تاريخية او عاطفية بين الصهاينة المعاصرين وبين اليهود القدامى ؟ وأن الوعد التوراتي « بالعودة » ، حتى لو اعتبرناه افتراضا صحيحا ، متجاوزين في ذلك منبعه الغيبي وطبيعته الاسطورية ، لا ينطبق على غير يهود بابل ، كما يذكر الكاتب الامريكي الان تيلر في كتابه (Prelude TO I srael) ، نقلا عن احد الباحثين « وكما اشار أحد الباحثين ، فان اليهود الحديثين على أية حال ، لا تربطهم أستمرارية قومية او ميثاقية(4) مع يهود أسرائيل [في زمن] التوراة ، وحتى اذا كان الامر كذلك فان من المشكوك فيه جدا أن الكتاب [التوراة] يتحدث عن أية « عودة » تتجاوز العودة من بابل »(5) ومرة اخرى .. لو افترضنا صحة رؤى العودة التوراتية وأنها تنحصر بيهود بابل بحكم الضرورة التاريخية والنصوص الدينية من حيث أن ميثاق الرب لا يشمل غير نسل أبراهيم ، كما يقال ، ـ والصهاينة الشقر والسود والصفر ليسوا من نسل ابراهيم ـ فانها قد تحققت فعلا وانتهى أمرها تاريخيا ، منذ سقوط الامبراطورية البابلية وصعود الامبراطورية الفارسية ، ومنذ ان سمح الملك كورش لليهود بالعودة الى فلسطين . لقد رفضت الغالبية العظمى من اليهود الذين تغلغلوا في نسيج الحياة الاقتصادية في بابل واحتلوا مكانة هامة في عالم التجارة والمال وحققوا تطورا روحيا وثقافيا الى مدى أصبحت معه بابل مركزا للدراسات اليهودية وكذلك للكتابات اليهودية كالتوراة والتلمود البابلي ـ رفضت العودة الى فلسطين . ولم يعد منهم الا حفنة من الكهنة الطفيليين وأحفاد الطبقة الارستقراطية ورجال الدين من سلالة ليفي الذين فقدوا في بابل كل وسيلة من وسائل أستغلال الجماهير اليهودية التي لم تعد تتصل بالهها « عن طريق كاهن سمين عاطل طفيلي ، كان قبل كل شيء ، رجل الساعة الذي يرمز الى المساومة والحرفية »(6) هؤلاء هم الذين عادوا . هؤلاء هم الذين كانوا يبكون على ضفاف انهار بابل ويحلمون بالعودة الى فلسطين ليعيدوا أمجادهم القديمة في ظل الحماية الفارسية ؛ فحققوا بذلك رؤيا العودة .

لنعد الى نجيب محفوظ ومنطقه الغريب . أنطلاقا من تصوراته السابقة عن علاقة اليهود الصهاينة بفلسطين ، يظن محفوظ ـ ولا ادري ان كان جادا في هذا أم أنه يطلق مزحة « قومية » ـ أن أهداف اسرائيل هي ان تقيم لها وطنا ، وان تأخذ الارض ونعترف بها ، ونبعد عنها ، وأن تعيش مع الدول العربية وكأنها جزء من المنطقة . ليس هذا كل الكفر الذي نطق به محفوظ بعد أن سكت دهرا عن القضية الفلسطينية . فهناك ما هو أدهى واعظم . فاسرائيل ليس لها أغراض توسعية . وهو لا يملك دليلا على أن لها أغراضا توسعية !!!

يبدو ان من غير المجدي الدخول في مناقشة نظرية وتقديم ارقام واحصاءات عن التغييرات الجغرافية والديمغرافية التي حققتها اسرائيل منذ 1948 على حساب العرب ، مع رجل عجز عن ادراك وفهم الواقع المادي الحسي الذي يخيم على المنطقة منذ قيام اسرائيل ، بكل ثقله وكثافته وبكل ماجاء به من احتلال ارض وتشريد شعب وحروب . ومحفوظ لايعجز عن فهم الواقع الذي نعيش ، وانما يسمح لنفسه ان يقدم مشروعا للفلسطينيين . انه يدعو الفلسطينيين الى القبول « باستقلال ذاتي في حدود الدولة الاسرائيلية .. اي دولة لا مستقلة ولا تتبع الاردن .. » وتبريره في ذلك « انهم حين يكونون في نطاق دولة اسرائيل.. فسوف يكونون في فلسطين .. اي في وطنهم الاصلي اما اذا كانوا مستقلين فسيكونون دولة اخرى .. » اما لماذا لاينبغي لها أن تتبع الاردن فان من بين اسباب ذلك « ان الاردن دولة رجعية ولذا فان نمو الدولة الناشئة سيكون محدودا .. اما الاسرائيليين ـ فانك مهما قلت عنهم ـ فانهم متحضرون .. »

ترى .. أهذه مزحة اخرى يقدمها نجيب محفوظ أم أنه جاد حقا ؟! ان رجلا يعتقد ان ارتباط دولة الاستقلال الذاتي الفلسطينية التي يدعو اليها باسرائيل ، يعني ان الفلسطينيين سيكونون في وطنهم الاصلي ، وأنها ستكون دولة اخرى ان كانت مستقلة ـ ان رجلا يتحدث بمثل هذه اللاعقلانية ، لابد ان يكون قد فقد القدرة على اية محاكمة عقلية معقولة . اذ كيف يمكن ان يحدث مثل هذا التحول طالما كانت رقعة الارض التي يقيم فوقها الفلسطينيون دولتهم هي ذاتها ؟ كيف يمكن ان تصبح هذه الرقعة من الارض جزء من فلسطين ويكون الفلسطينيون في وطنهم الاصلي اذا ارتبطت باسرائيل ؛ وتكف عن ان تكون كذلك اذا ارتبطت بالاردن؟! ان الصورة التي يقدمها محفوظ لمشروع دولته الفلسطينية تبدو اشبه بالرسوم الحركية Kinetic Art التي تعتمد في حركتها الظاهرية على الخداع البصري . انه نفس الخداع البصري الذي يبدو معه نمر مفترس في حلبة السيرك حيوانا متحضرا . وبنفس هذا الخداع ممزوجا هذه المرة بخداع ذهني يمكن ان يصبح مشعلو الحرائق في المسجد الاقصى ، وقتلة دير ياسين وبحر البقر وتل الزعتر وقرى لبنان و .. و .. ـ يمكن ان يصبحوا ، مهما قيل فيهم متحضرين وكان الحضارة تعني انتاج عوزي وكفير واقامة مفاعل ذري في ديمونا !

الهوامش

1 ـ هذه بعض مما يرد من مفاهيم في كتاب الصحفي المصري محمد سيد احمد (بعد ان تسكت المدافع) . للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب (في نقد فكر التسوية) للكاتبة ، منشورات دار الطليعة ـ بيروت .

2 - Albright . William Foxwell, The Archaeologoy of Palestine, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1949, P . 119 .

3 ـ ليون . ابراهام ، المفهوم المادي للمسالة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، 1969 ، ص 22 .

4 ـ نسبة الى ميثاق الرب مع ابراهيم . علما ان لا علاقة هناك بين ابراهيم الكلداني والاسباط اليهودية التي تفصلهم عن ابراهيم فترة زمنية تقارب الستة قرون .

5 - Taylor . Alan R . , A Prelude to Israel ..., Philosophical Library , Inc ., New York , 1959 , P . 11 .

6 - Menuhen . Moshe , The Decadence of Judaism In Our Times , The Institute For Palestinian Studies , Beirut , 1969 , PP . 260 - 261 .

ملاحظة : المقتبسات من نجيب محفوظ مستقاة من اجزاء من ندوة المثقفين المصريين ـ حوار الحرب والسلام ، التي نشرت في جريدة السياسة الكويتية ـ وهي الأجزاء المنشورة في 79/3/3 ، 3/12 ، 3/17 ، 1979/3/18 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأعلام والأيديولوجيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقفت مرةعند هذا المثل الفرنسي : «حتى الله .. يحتاج الى اعلام !» وهو بقدر ما فيه من تجاوز على اطار الايمـــان المذهبي الديني ، ينطوي على حقيقة عصرية صارخة تكمـن في ان ملايين اللافتات والملصقات والمواد الاعلامية ومواد الدعاية ، اذا جمعت ، في الحصيلة المالية لتشكل ميزانية كفيلة ببناء مئات المستشفيات ، او توفير الخبز لعشرات الاف الجياع ، او لطبـــع مئات الكتب !

هل يعني ذلك ان العالم تستهويه « لعبة » الاعلام ؟!..

هل « الاعلام » ضروري للمواطن ، كما هو ضروري للانظمة والحكومات ؟

هل يمكن فصل « الاعلام » عن الايديولوجيا وبالتالي فصلهما عن الادب ؟ ..

نعرف .. وتعرفون ان الرسل والمبشريـن كانوا دعاة رسالـــة ، ومحرضين بالاساس .. وبمعنى ادق ، كان « الاعلام » ولما يزل وجهـــا معبرا عن « الفكر » و « المصالح » ومبشرا بهما .. واصبحت مسالـــة الربط بين « الاعـــلام » و « الايديولوجية » من البداهة اذ لا يوجد«راي عام » ولا يتشكل ، الا عبر قنوات ايديولوجية ، ضمن واجهات ومواد وانشـــطة اعلاميـــة ،.. وبالتبعية فان الادب ــ وكل الفنون الابداعية ــ يتاثر سلبا او ايجابـا بالاعـــلام وبالايديولوجية المعينة ، في الزمان والمكان ، والظروف ، والبيئة ، والنظام .

ولا يمكن اعتبـــار « الادب » فوق الميـــول والاتجاهات فالفهم القاصر الذي يدين بموجبه بعض النقاد هذا الكتاب او ذاك لانه مشـــحون بالايديولوجية ، هو بذاتـــه ينطلـــق من موقف « ايديولوجي » مضاد او يخدم «موقفا او اتجاها» ايديولوجيا ، اذا لم يخدم نفعية سياسية حين يحارب باتجاهها ، تماما كما يفعل الذين يعتبرون « الدين » بعيدا عن « السياســـة » ، في ظرف معين ، لكنهم يستثمرون « الديـــن » استثمارا سياسيا ضد اعدائهم الطبقيين او خصومهـــم السياسيين .

ومعروف ان « الفكـــر » و « العقائـــد » و « الاديان » لعبت دورها (السلبي او الايجابي) وعلى مدى قرون عـــدة ، ولا يخفى عليكم دور الكنيســـة في القرون الوسطى .. الذي تسلطت فيه حتى على الحكم المدني .

ومن تحصيل الحاصل ، الان ، حتى في عصـــر التكنولوجية المتقدســـة ، والكومبوتـــر والترانزستور و « الكاسيت » و « الفيديوتيب » و « الاقمار الصناعية » ، القول بأن البشريـــة ، استثمرت كل المعارف في تداخلات متشعبة من اجل تطمين مصالحها طبقيا او قوميا او دوليا ..

« والاعلام » و « الايديولوجية » اذن ، عاشا منذ المفاهيم البدائيـــة لهما ، زوجا كاثوليكيا ، ولم ينفصلا ، في الفعل المستثمر جماهيريا ، او سلطويا .. والادب عمومـــا ، والادب العربـــي خاصة ، والادب العربي التقدمي ــ باتجاهاتـــه الايديولوجية المختلفـــة ــ كان ولما يـــزل معمـــدا بالايديولوجية وهو يشـــف عن موقف اعلامـــي لصالح هذا التيار الفكري او ذاك .. اذن ، فهو بالتبعية ادب منحاز .

ولكن : منحاز لمن ؟

ذلك يتبدى في الاطار الايديولوجي والهدف الاعلامي الذي يشع به . فالعلاقة ، اذن ، متآصرة لا انفصام بين وحداتها : «الفكرة» و «الموضوع» و « الغرض » .. وبمعنى اخر : مصدر التوجه ، ومصدر التوجيه (المبدع والملتقى ومن وراءهما .) واذا كانت « الفكرة » لا تبدع بوسائل بسيطـــة مباشرة عن عكس نوعية الموضوع بكلمات فانهـــا والمحتوى ونوعية موضوع معين ، تبعث جميعـــا

وتأثيرهما في الأدب ❖

محمد الجزائري

❖ البحث الذي شارك فيه الكاتب في ندوة « الادب والوحدة العربية » التي نظمتها الامانة العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب بالتنسيق مع اتحادات الادباء والكتاب في العراق وسورية وفلسطين .. وقد عقدت الحلقة الاولى في دمشق من 11 الى 12 نيسان 1979 حيث بدات بهذا البحث .

الى الحياة ، بعلاقتها بموضوع آخر .. ابدا لا يوجد ادب ولاتوجد فكرة معلقةفي فضاء . انها لابد ان تنتمي الى منبع ، موجهة من جهة بقصدية واضحة ، الى جهة اخرى .. والا ما مدى تاثيرها وفاعليتها ان هي انطوت على ذاتها دون ان تعلن عن نفسها في الزمان والمكان والبشر !

ان الادب ، بالتبعية ليس مطلقا ــ طوباويا (انه نوازع تبحث في منابعالسلوك عمق الشخصية الانسانية ، وهو والاديب من قبل) « يدرس » القوانين « الداخلية » للحياة البشرية او يعبر عنها ضمن سياق ظرفي تحكمه قوانين موضوعية وذاتية مشيرة وواضحة !.. وتتحكم الافكار والعقائد والمعتقدات ، والموروث .. الخ ، في طبيعة العمل الابداعي.. الذي يحتوى دفعا اعلاميا ــ مباشرا ــ او بالتاثير ، ولم نسمع باديب قد من خارج المجتمع ، او نزل من كون غريب !

ولم نسمع عن اديب يكتب خارج مؤثرات البيئة والمجتمع والانظمة او خارج سياقات الحياة واللسان واللغة .

دوما يكون الاديب ، وبالتالي يكون نتاجه ، حاصل وسط زمكاني ــ حياتي ــ اجتماعي .. وهو بالتالي ــ ناتج وضع التحامي . « فعل تضامن وتزامن تاريخي » يجمع في ثناياه المهمة الاعلامية (مع او ضد) نظام او ظاهرة او حالة .. الخ .

في الغرب ، او في الشرق لم يعد « موقف الانعزال » او الوقوف « بعيدا عن معركة » مقبولا لدى الانسان المعاصر والعصري .. بل ان رفض هذا الموقف يصبح اليوم المعيار السلوكي المقبول، لذا راينا « الادب الواقعي النقدي » ــ كمثال ــ في الغرب ــ يعكس بهذه الدرجة او تلك ، هذا الموقف الذهني الجديد ..

لذا فان التيارات النقدية ، والموجات الجديدة التي غزت عالم الادب والسينما والفنون الاخرى ، في اوربا ــ مثلا ــ لتعبر عن « موقف ايديولوجي » يشف عن « اعلام » ما .. حتى لو كانت ملامحه غير متبلورة بعد ــ كمذهب ــ كما في التيار الهيبي الرافض . ففي الروايةلايمكن للفنان الذي « يسعى الى تصوير الواقع في تطوره الثوري ، الا ان يكون مهتما بالنمو الايديولوجي للشخصيات مما سيؤدي ، بشكل حتمي ، الى البحث عن وسائل جديدة لتصوير الجماهير ، وكلما درس الروائي ــ الفنان ــ ابطاله عن كثب ، اتضحت له على نحو افضل ، سماتهم المنفردة » وبالتالي اهدافهم ورؤيتهم .

يقول هيغل : « حينما يكون لدى الافراد اهدافهم الذاتية الخاصة ، وحبهم وشرفهم وتقواهم ، او تكون لديهم مثلهم العليا لاصلاح العالم فانهم يقفون ضد النظام القائم ، وضد الواقع الذي يضع العراقيل في طريقهم مع كل خطوة يخطونها ، وفي النهاية يقضي الفرد على ما في نفسه ، وتقع كفاحاته وآراؤه في احبولة العلاقة القائمة ، وفي منطق « هذا العالم ، وفي نظام الاشياء .. ويجد مكانه الصغير ، هو فيه .» « واذا كان الفن يبدع كائنات جديدة ، فانها تعيش على حيوات الكائنات الانسانية تأخذ منها، ويضيف خيال المبدع عليها ، فهي كائنات مادية لاتختلف عن « شكل » الناس الذين سبقوها ، انها نتاج المادي مضافا اليه الخيال ، ولكنها في كل الاحوال تنطوي على موقف ، حتى في « لامبالي » موورافيا نتلمس موقفا آيديولوجيا رافضا في الكامن ، ضد الاشياء . واذا كنا كما تقول الروائية ناتالي ساروت ــ قد « دخلنا عصر الشك » فلم يعد من الممكن قبول نزعة تاريخية ساذجة ، كما لم يعد من الممكن ان نستسلم الى « طموح شعورنا الذي يريد انيجعل نفسه اصلا للمعنى » فاننا نواجه « الامل » و « حوار الحضارات » .

كما يبشر غارودي ــ بشيء من التعويض

من الاحباطات التي فقدها العديد من المنتمين الى خيال «المجتمعات» التي قدمتها آيديولوجيات، وبشر بها اعلام ، حركات سياسية ، لم تحقق ـ في التطبيق ـ صورة الطموح لأولئك المنتمين فخسروا رضاهم وتمزقت قناعاتهم السابقة حين واجهوا متغيرات العصر والحياة السريعة ، والمتقلبة ، واخفاقات التجارب ، وانغلاقات الفكر والايديولوجيات ، لم يمتلكوا قناعة راسخة ازاء « المجتمع المنشود » الذي صرفوا سنوات من عمرهم يناضلون من اجله ، ولم يتحقق !

واذا كانت فترات التدهور الحضاري ، وعهود العسف والظلم والظلام ، قد جمدت « الابحاث » والرؤى المتنوعة ، والاجتهادات ، وبالاساس جمدت « الفكر » في هذا البلد او ذاك ، وتحت طائلة هذا النظام او ذاك ، فلم يعد بامكان حتى رجل الاعلام (داخل نظام الاشياء التي تحيط به وتطوقه) ان يجتهد في التحليل وتقييم الظاهرات ، وفرز الانباء والتقارير ، فان الجديد الذي اعطته متغيرات الحياة والواقع والعصر ، والقوى المتصارعة دوليا ، جعل الاسئلة تتدفق في الذهن وتنمو وتتوالد ـ على مستوى الايديولوجية ، وعلى مستوى الاعلام حقا .

لقد تساءل احد الزملاء : اين نقف ، ومع من ؟ حيث استثارته حرب الصين ـ الفيتنام ، لانه ازاء طرد الحكومة الفيتنامية المواطنين الفيتناميين من ذوي الاصول الصينية ، لم يستطع ان يقول : ان ذلك عمل غير صحيح وقد يؤدي الى نتائج وخيمة .

وحين حلل الاعلام الغربي « حرب الاشتراكيين » او « حرب الرفاق » ، كما اطلق عليها ـ تساءل البعض « هل تعني الحرب بين الصين والفيتنام تكذيبا لتنبؤات الايديولوجيين الاشتراكيين الذين اعتبروا الحرب اعلى مراحل الصراع الطبقي ؟ »

ام ان مفهوم « السيادة القومية » اصبح هو « العامل الحاسم » الجديد في الحرب ؟! حتى بين « الانظمة الشيوعية » ذاتها ؟ ..

وحين اعلن احد رسامي الكاريكتير العرب من صرخة احتجاج اليمة ضد الحرب قدم رسما لكارل ماركس وهو راكع على الارض ، رافعا يديه الى العالم قائلا : «يا عمال العالم .. سامحوني !»

وحين اخرج غارودي من حظيرة الحزب الشيوعي الفرنسي ، وبعد سنوات اصبحت « الاورشيوعية » تيارا قويا في اعتى الاحزاب الشيوعية الاوربية الثلاثة : الفرنسي ، الايطالي ، الاسباني تساءل البعض هل اصبحت « المسالة القومية » والخصوصية و « الاستقلالية » البديل عن قانون « الصراع الطبقي » ثم جاء التنظير المكثف ، والتفسيرات المتنوعة عن احداث ايران بتساؤل مهم : هل يشكل التيار الديني بديلا عن التيار القومي في الثورات ؟ وهل تشكل « ثورة الكاسيت » ـكما يسميها احمد بهاء الدين ـ اهمية اقوى واعتى من « اجهزة الاعلام » المدججة بالسلاح .. بعد ان تغلبت على « سافاك الشاه » وقواعده التجسسية وحرابه و « كلابه » اذ ظهر ان الخميني « والعهدة على مجلة تايم » يسجل كلامه على (كاسيت) والكاسيت يوزع ـ عن طريق التلفون ـ على مدن ايران ، ويسجل من الشريط مئات ومن المئات الاف وطوال اربعة عشر شهرا ، وصوت الخميني يصل الى كل انحاء ايران بهذه الطريقة .. انقلاب كاكتشاف الورق منذ الفي سنة ! وكاكتشاف المطبعة منذ خمسمائة سنة فماذا سيحدث في عصر الكاسيت ؟.

وفي عصر الاقمار الصناعية ، يقول رئيس تحرير « باري ماتش » الفرنسية اكبر المجلات المصورة الباقية في العالم : انهم كانوا يرسلون طائرة خاصة كل يوم لتغطية الالعاب الاولمبية ، ولكن بعد ان صار الناس يرونها حية على الهواء وبالالوان على شاشة التلفزيون ، ما قيمة«صورة» او « لقطة » من مباراة ! مهما كانت رائعة !!

اعلام من هذا النمط .. يؤثر على الادب سلبا وايجابا .. ففي حين كان الكتاب « خير جليس في الزمان » اصبحت وسائل الاعلام والتلفزيون بشكل خاص يقدم قراءات متنوعة على كل الامزجة والرغبات .. صحيح ان « متعة القراءة » باتت تزاحمها متعة مشاهدة التلفاز ، ولكن من جانب اخر فان البرامج الانتاجية التي تعتمد على الاعمال الابداعية تبقى تستلف بشكل دائم من الادباء والكتاب ، لتسد الحيز المخصص للاعمال الدرامية والثقافية الاخرى ، وهذا المجال وفر لبعض الكتاب فرصة جديدة في التعامل مع الجمهور ، وظهرت الى جانب الكتابات الابداعية (القصص والروايات والمسرحيات) بمواصفاتها القرائية وخصائصها المعروفة ، كتابات من نمط اخر : السيناريوهات ، والمشاهد التي تعتمد على خبرة خاصة في تطويع العمل الدرامي الى صور واطارات ، وانماط خاصة من الحوار ، وتعاملا جديدا مع النص .

ثم ان الكتاب الذي كانت سوقه تعاني من مشكلة التوزيع ولما تزل اصبح اليوم محاصرا اكثر ، في المنافسة الشديدة التي تقدمها وسائل الاعلام السمعية والبصرية والسينما ، من استلاف او شراء للاعمال الادبية ، والمسلسلات العربية والعالمية التي تقلص سعة قارىء النتاج المطبوع..

وعلى مستوى اخر ، فان العمل التلفزيوني او السينمائي الذي لا يتحقق بجهد فردي ويحتاج الى جهة تمويلية بحدود لا يتوفر عليها الاديب ، يستطيع عبر « جهة الانتاج » ان يضغط على هذا الاديب او ذاك باتجاه تحوير عمله لخدمة « ايديولوجية واعلام » الجهة الانتاجية .. او تقديم الاغراءات المالية له ليوظف عمله بالاتجاه والمواصفات التي تطلبها جهة الانتاج ..

جعلت المردود النفسي والمالي الاكثر هيمنة بيدهم ، وحرمت المبدع الحقيقي من حقه الكامل في نتاجه (او استثمار نتاجه ـ سينميا او تلفزيونيا) ، ولم تترك له سوى الحسرة والانكسار النفسي والخسارة المادية ، ولا يخفى ، ان نمطا من الارتزاق سببته مثل هذه الاجهزة الاعلامية ، وخلقته ، وصنعت ابطاله على حساب النتاج الادبي الابداعي المكتوب للقراءة . والمبدع .. او بسبب غياب قوانين حماية التاليف ، والقوانين الرادعة ضد السرقة التي اخذت اشكالا عديدة منها « الاعداد » .

صحيح ان نمطا من الاعمال الادبية او الادباء استثمرتهم الجهات الانتاجية ، وحققوا ربحا ماديا متطورا ، ولكن هذا « النمط » ظل محدودا وقليلا جدا .

اما الصحافة ـ وهي قناة مهمة في الاعلام والايديولوجيات ، وذات تأثير كبير على الكتاب ، فهي « تمر بمشكلة » في العالم كله ـ كما يقول احمد بهاء الدين ـ ففي البلاد الشيوعية ـ يقول ـ هناك صحافة الراي الواحد النازلة من السلطة الى الناس .. وفي البلاد الراسمالية الصحف مملوكة لملوك المال والصناعة ، وقد بدات الصحف الكبرى تفلس بعد ان ذبحها التلفزيون ، ثم اضرابات العمال ، وباتت الصحف تباع وتشترى بمطابعها ومحرريها وكتابها ، من مالك الى مالك ، فجريدة مثل « النيوز كرونيكل » في انكلترا بيعت بمشتركيها المليون ـ غير المشترين ـ الى جريدة « الديلي ميل » نقيضتها في الراي تماما .

و « الفيجارو » كبرى الصحف الفرنسية اصبحت بعد موت مؤسسها ورئيس تحريرها «بيير بريسون » هي مع محرريها ملكا لاصحاب مصانع الاقمشة !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعالم الثالث حر .. ولكن لا نريد صحفا « حرة » حرية افراد ذوي مصالح ولا عربدة اخرين ذوي شهوات ..

اذن .. كيف يمكن كفالة تعدد الراي دون احتكار ودون فوضى ؟ وكيف كان صاحب القضية ومن خمسين سنة ، يصدر جريدة بمائة جنيه ولكن الان صار اصدار الجريدة معناه ملايين الجنيهات .. واين لاهل الراي بالملايين ؟ « ونعلم ان صحافة الدولة خاضعة لاعلام موجه ، ففي البلدان العربية ذات الانظمة التقدمية تكاد كل الصحف والمجلات والمنابر الاعلامية تكون تابعة بالتمويل والارتباط الى الدولة ، وفي هذا الاطار ليس ثمة الا الاعلام الموحد والموجه والمتطابق مع ايديولوجية واحدة .. عدا صحف الاحزاب السياسية الداخلة في الجبهة (كما في نموذج العراق) ، والتي تستثمر منبرها الاعلامي ذاك في التبشير بايديولوجيتها الخاصة ، في السباق الذي لا يتقاطع جذريا مع الخط التقدمي العام والذي لا يناهض الاهداف الاساسية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، او الاهداف المتفق عليها في التحالفات السياسية .وبالتبعية يخضع الاديب كتاباته او يكيفها لتتساوق مع الاتجاه العام السائد .. لتجد طريقها الى النشر عبر وسائل الاعلام تلك .

واذا علمنا ان ما تم استهلاكه (في عام 1974 حسب احصائيات اليونسكو) من ورق الصحف في العالم هو 23/2 مليون طن متري ، وان الدول النامية لم تستهلك من هذه الكمية سوى 2/8 مليون طن متري اي بمعدل كيلو غرام واحد لكل فرد من السكان في مقابل 18 كغم لكل فرد في الدول المتقدمة صناعيا .. ندرك مدى حجم المردود الاقتصادي والنفسي والتاثيري المحدود على الاديب العامل في الصحافة بوساطة نتاجه .

اذن هل يستطيع اديبنا ـ عمليا ان يعيش بمعزل عن اجهزة الاعلام وتاثير الايديولوجية السائدة ؟.

وكيف يستطيع التوفر على انتشار مطبوعه (ان طبع) بلا معونة الدولة او الجهات الثقافية المرتبطة بها ، اقتصاديا ، وفكريا ، واعلاميا ؟

من هنا نجد ان اغلب الادباء العرب يمتهنون العمل الاعلامي او يشغلون وظيفة في هذا القطاع او سواه ، تساعدهم على تصريف امور عيشهم وعوائلهم وتضمن لهم دخلا شهريا ثابتا ومع ذلك .. فان كشفا اوليا للمجلات والصحف التي تصدر في الخليج وبيروت وبعض العواصم الاوربية سيعرفنا على اسماء ادبية « لامعة » تبيع نتاجها بالعملة الصعبة ـ بالمواصفات التي تريدها جهة التمويل ، ومع ذلك (ايضا) نرى بعضها او اكثرها يحاكم (او يدين) الاقلام الشريفة لو كتبت عمودا صغيرا لصالح اجراء ايجابي او ظاهرة ايجابية في بلدانهم ، لكن اولئك الذين « يدينون » الاخرين يصنفون انفسهم في خانة « اليسار العربي » المضطهد !.. ولا يتورعون من بيع نتاجهم الى اكثر المجلات والصحف يمينية وارتباطا بالشركات الاحتكارية النفطية والفكر الرجعي !

انها محنة .. اليست كذلك ؟

وامامكم امثلة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ورهط من « الكتاب » والادباء الذين رافقوا السادات في رحلة العار ، او « مجدوا » ونظروا ودافعوا عن اتفاقيات الذل وبرروا « الصلح » مع « العدو الصهيوني » بشتى التبريرات .

اشار السيد « امادو مبو » احمد مختار مبو مدير عام اليونسكو ، في كلمة القاها بمناسبة اليوم العالمي التاسع لمحو الامية في العالم ، اشار الى ازدياد عدد الاميين في العالم بشكل مضطرد ، وذكر العديد من الارقام منها ، ان عدد الاميين بلغ (800) مليون نسمة ، وحوالي ثلث سكان العالم (من الراشدين) هم اميون . وتبلغ نسبة النساء الاميات من بين الثمانمائة مليون 60٪ ، وقد ازداد عدد النساء ما بين الاعوام (60 ـ 70) بمعدل 40٪ نسمة مقابل 8 ملايين بين صفوف الرجال .

وفات السيد « مبو » ان يضيف الى هذه النسبة عدد (الادباء) الشباب الاميين في البلاد النامية! الذين تبتلعهم اجهزةالاعلاومنذ بواكيرهم الاولى فيتحولون الى عناصر مجتهدة في « جمع المال » نتيجة انغمار كامل في كتابات لاهثة في اكثر من قناة اعلامية . في الوقت الذي لم ينجزوا فيه تعليمهم الثانوي او الجامعي .. حتى ان بعضهم يحصل من موارده الكتابية ما يقابل او يزيد على راتب وزير !

وهذه الظاهرة غير الصحية ، نجدها تنتشر وتستشرى في اجهزة ومنابر اعلام الدول العربية الغنية ، مما يؤثر ، في الناتج على مستوى الابداع الادبي ، وبالتالي فهي تؤثر على المستوى الثقافي العام في هذا القطر او ذاك .. لان اغراءات اجهزة الاعلام المبكرة لهؤلاء ستقتل فيهم القاعدة الابداعية التي تدفع بالاحتياطي الابداعي ليحتل موقعه في نوع النتاج الادبي مستقبلا ، بعد المكابدة والجهد والغنى التجريبي .

واذا علمنا ان اجمالي المثقفين في فرنسا ـ كمثال ـ هو لغاية 1962 : 1/430،060 مليون نسمة ، منهم 1/063/015 اجيرا .. حيث بلغت نسبة البطالة بين المثقفين من ذوي الاختصاص العلمي والتقني ، في اواخر الستينات ، واحدا الى سبعة من الحجم الاجمالي للبطالة .. فكيف نفسر ظاهرة « التخمة » المبكرة في بعض بلدان وطننا العربي ، لانصاف متعلمين ..؟

علما بأن المثقفين حسب تعريف سيمون مارتان ليبست : « هم الذين يبتدعون الثقافة ويوزعونها ويطبقونها » او كما جاء تعريف المثقف في « معجم المجتمع الفرنسي » :

المثقف هو الشخص الذي يغلب ان يقوم عمله على استخدام الذكاء والعقل ونقيضه من يقوم بالاعمال التي يستخدم فيها القوة البدنية .

اما « لاروس » فيعرف « المثقف » في دائرة المعارف بانه « الانسان الذي يخصص وقته لشؤون الفكر ، اما وفقا لمقتضيات عمله واما استجابة لمحض رغبته وميله » فاذا علمنا ان اغلب الادباء والشباب العاملين في الصحافة لا يتوفر لديهم الوقت لقراءة عمل ادبي واحد لمدة اسبوع ـ فاي مستوى سيصله هؤلاء بعد مشوار الركض وراء الشهرة السريعة والمردود المالي السريع ؟

ان خطورة امتصاص الطاقات الادبية وتوظيف اصحابها في الجهد الاعلامي بصورة مبكرة سيكون على حساب غنى التجربة الحياتية والابداعية لهؤلاء وبالتالي ، على حساب الغنى الثقافي والابداعي للبلد .

لذا ليس غريبا ان نلاحظ ظاهرة انخفاض المستوى الابداعي ، وتدهور المستوى الفني ، وفقر الحصيلة المعرفية واللغوية ، وجدب الخيال والابتكار ، لدى اغلب الشباب العامل في الحقول الاعلامية مما جعل العديد ممن كانوا يحملون الوعد يصمتون مبكرا او تستلبهم انهماكات العمل الوظيفي والتكسبي .. خلال السنوات العشر الاخيرة ، مما جعل النتاج الادبي الاصيل الذي لا يتشكل ضمن كورال اغلب الانظمة العربية من الندرة بمكان .. قياسا الى حجم ونوع وكم النتاج الابداعي (قياسا لظرفه وزمنه) في الخمسينات وبداية الستينات ..

مع ان مصادر الاغتناء الثقافي ويسرها متوفر على مستوى الكتب والبحوث والسفر والاطلاع على التيارات والاتجاهات التي كانت انظمة الحكم في الخمسينات تحجبها عن الاديب بسبب تركيبتها وبنيتها الاستعمارية او الديكتاتورية او الرجعية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.. ومع فارق العيش كان اديب الخمسينات يقتات من لحمه وعصبه ليتوفر على كتاب وليتوفر على كتابه .. في حين نرى اي (متعلم وسط) يغترف الاف الدنانير سنويا من ليبيا او بعض دول الخليج مقابل جهد عادي غير مؤثر وزائل ..

ومع ان « الاعلام » السائد في اغلب الاقطار العربية ، لا يسعى الى امتلاك قدرة الايصال والتواصل مع الجماهير العربية ، ولا يمتلك توجها انسانيا وحضاريا خلاقا .. ولا يتوسم « رفع المستوى التذوقي الجمالي الذي يستعمل في الادب عبر مستويات التعبير اللغوي ، ولا يحقق المستوى العلمي النظري الذي يغني التوجه العلمي ، ولا يعمق المستوى الاجتماعي الوظيفي . »

في حين ان مهمة الاعلام الموجه ، في ظرفنا العربي الراهن يجب ان يتوسل بلغة الحضارة من اجل توثيق الوجدان الانساني واظهاره ليس فقط في مجال قومي عربي محدد بلغة فصحى مشتركة، حسب ، بل ويعين على التمكين لهذا الوجدان وتدعيمه ايضا . وهو الاعلام الذي يجب ان يتوفر على استيعاب قدرات الاديب ويوظفها في تقديم المادة الاعلامية ذات الوهج الاقتحامي (الكفاحي) ، وبسياق بناء وجميل ، دون ضجيج او مدائح او مواعظ كاذبة ..

الاعلام المطلوب ، ظرفيا ، في الحاضر وفي المستقبل ، هو الذي يفيد من العلاقات الانسانية والاجتماعية ، ويطورها في خدمة بناء الانسان الجديد ، بلا استنزاف للطاقات الادبية الابداعية ، وبلا رعوية خانقة او جمود عقائدي .. او قيود تحد من حرية الابداع والابتكار والتصور .

فالاعلام التقدمي بوسائله المختلفة يساعد على انتشار الادب وافنائه اذا توفر على فهم دور الاديب في التنمية البشرية والتطور الاجتماعي .

والاعلام العربي الموجه يمكن ان يلعب دوره الايجابي بتفجير طاقات اللسان والابداع ، في كتابة حرة ، بمعنى كتابة تعي الحرية ـ كوعي للضرورة ـ وتمثلها ..

ففي المجتمع الاشتراكي السليم تؤدي وسائل الاعلام الجماهيرية دورا كبيرا ، اذ تنصب اهداف هذا الاعلام في خلق « التنمية الاقتصادية والثقافية للبلد ، ودعم صلات الصداقة بين الشعوب ، وازدهار اسمى الصفات الخلقية لدى الانسان .. »

وهذه الخصائص تؤثر ايجابيا على الاديب الذي يمارس الكتابة من خلال اجهزة الاعلام والمؤسسات الثقافية ، او من خلال نتاجه الذي تدعمه الدولة وترعاه ..

فاذا امتلكت اجهزتنا الاعلامية جهازا ذا قدرة اجتماعية وثقافية وسيكولوجية متطورة ، فان ذلك سينعكس ـ دون شك ـ ايجابيا على الاديب ونتاجه ، وغناه الايديولوجي ، في التاليف والتعريف والانتشار .

واذا كفل مجتمعنا حق كل فرد في الاسهام بأنشطة وسائل الاعلام وذلك بالتعبير عن ارائه وخلق المناخ السليم لتطوير مواهبه وقابلياته الادبية في اول سلم التجربة ، ومنحها فرص

الاتصال بالقاعدة الجماهيرية ، وخوض التجارب الحياتية في حقول العمل والبناء ، فستكون الحصيلة خلاقة وثرية ، وعالية الوتائر ، في النتاج العام لادباء الحاضر والمستقبل في الحياة وفي النتاج وفي انماط التعبير .

واذا توفرت الوسائل السمعية والبصرية على تقديم الفرص الحقيقية لنقل المعلومات والبرامج الثقافية ، والتعليمية للمواطنين جميعا فهي ستخدم وستستخدم الطاقات الابداعية للادباء في المجالات الانتاجية كافة ليس على مستوى قطري او قومي ، حسب بل وعلى المستوى العالمي ايضا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صحيح ان الكثير من المشكلات لاتزال بدون حل رغم وجود الاذاعات المنقولة ـ بالاقمار الصناعية ـ على مستوى دولي .. ومن بينها صعوبة التوفيق بين مبدأين اساسيين من مبادىء الاتصال بين الشعوب ، وهما حرية تدفق المعلومات ، وحقوق السيادة للدول بشأن المعلومات التي تتدفق عبر حدودها ، فان الاعلام الثقافي الدولي ـ كمثال ـ لازال يعاني من مشكلات عديدة على مستوى النظام الدولي خاصة وان التفاوت الرهيب بين « الاغنياء » «والفقراء» في مجال الاعلام وقنواته وادواته لازال قائما .

ولكن المسعى الحثيث لاعلام الدول العربية في حالة خروجه من حالة (الاحتراب) ، الصراع ضد بعض « الى حالة » وحدة التوجه ، سيغني توجهات الاديب العربي ، ولنا في وحدة القطرين الشقيقين العراق وسورية ، على هدى ميثاق العمل القومي المشترك ،ووحدة التوجه الاعلامي، والثقافي مؤسسات ومنظمات وجهود ابداعية ، ما يجعلنا نتفاءل بالمستقبل .

وبعد ..

هل تمثل الايديولوجيات الوعي الذاتي للثقافة ، وبالتالي الوعي الذاتي للمثقف والاديب ؟

الايديولوجيا تمثل ـ على الدوام ـ الوعي الذاتي للثقافة اذ انها توجز تجربتها وتعمل على توحيد ميادينها وتدفعها الى مسار هادف ، فالايديولوجيا تمد الثقافة بالحيوية والتوجه السياسي والفلسفي والاخلاقي .

واذا لم ناخذ بالحسبان الوظيفة التاثيرية والتركيبية للايديولوجيا يستحيل ادراك معنى عمليات التطور الفني المعاصر باسرها ..

من هنا فان النهوض بالمهمة التاريخية للمثقفين تتحقق فقط عندما يحققون بالمستوى نفسه ، التلاحم بين العمل والمعرفة ، ويحققون الوحدة بين النضال الفكري والسياسي مكتسبين المقومات اللازمة لتجاوز الذاتوية الطبقية كاسرين العفوية والبورجوازية الصغيرة .. فالثقافة تحتوي الايديولوجي والموضوعي ، وكلما اقترب اولهما من الثاني اتسمت حصيلة هذا التقارب (او اللقاء) بالثورية والانسانية وبمقدار ما خضع الثاني للاول مسخت المعرفة وتحولت الموضوعية الى ذاتوية ، وادت الثقافة ، آنذاك ، دورها كسلاح بيد الطبقة السائدة المستغلة . وبمقدار مايبتعد احدهما عن الثاني تظهر ازدواجية بين هذين العنصرين في شخصية المثقف ، والتناقض في بنية تلك الثقافة .

ولما كانت مرحلة ما بعد نكسة حزيران 1967 ، قد وضعت « الايديولوجيات » موضع التساؤل ، ولما كانت متغيرات العصر والحياة ، قد وضعت الاديب والمثقف امام التساؤلات فقد احتشدت الاسئلة .. وبالمقابل ازدادت اهمية النقد ، نقد الظاهرات والانظمة والمؤسسات والقيم والظواهر العلمية والفلسفية .

وعلى مستوى الادب « لم يعد النقد » ذا وجه واحد ، بل تاثر بالتيارات الاوربية الاكثر حداثة كالتحليل النفسي والظاهراتية والوجودية والبنيوية .. مع ان التاثر بالجانب الماركسي ظل قويا ..

هل ذلك يعني ان الادباء العرب دخلوا « عصر الشك » ؟

في مدى سنوات ما بعد حزيران كان الشك، و « الهدم » و « اليأس » اقانيم سادت الكتابات الادبية ، وقد ساعد ضعف اليقين الايديولوجي لدى البعض على الوصول الى حالة الرفض الكامل لكل الفكر المطروح في الساحة العربية ،

بجميع تياراته .. واستهان الادباء بالكلمة ، واعتبروا « السلاح هو اللسان الفاعل » كذلك استهانوا بالاعلام واعتبروه مضللا خذلهم طوال حقب طويلة ..

ولان الانظمة العربية ، آنذاك لم تستطع ان تحقق وعودها ، والذين نادوا « بالاشتراكية الرشيدة » خدعوا الجماهير ايضا ، ولانالاسواق الادبية غزتها كتب الصرعات : من العبثية ، اللا انتماء حتى الوجودية والماركوزية ، وانتهاء بكتب العنف ، « وجيفارا » و « القوة السوداء » فقد عمت موجة رفض مشحونة باليأس جعلت معظم الادباء ــ وخاصة الشباب ــ يتوجهون بحمى خاصة الى البحث عن البديل ، وتميزت كتاباتهم بالحس الرافض ، حد الهدم ..

ومع ان الادب ، والنقد الادبي بالذات ، يتخذ احيانا نموذجا له مثل الايديولوجيين واتباع الفلسفة العلمية ، اي : « عبادة الوقائع وتطبيق منهج مقارن مفاده اننا لا نستطيع اكتسابمعرفة موضوع معين الا بالملاحظة والمقارنة » ، كما يقول بلانشو ، فان كل كاتب « لاتقوده واقعة الكتابة نفسها الى التفكير » ، لايكتب في الحقيقة(1) هل تكون كتابته مزيفة ، اذن ؟

والذي يكتب بصدق في « موضوع معين » مستعينا بالملاحظة » و « المقارنة » ونهجه الايديولوجي ، الا يصطدم بسلسلة من السلطات، ابتداء من سلطة (الرقيب) الى سلطة « الخبير » والجهة الانتاجية ؟

نعم ..

فالمحنة لم تكن « محنة » ايديولوجيا تتمثل الواقع وتجيب على اسئلته .. بل المحنة كانت تكمن في مقدار مفهوم الديمقراطية والحرية وحجمهما ، من زاوية الرقباء وطريق التعامل مع المبدعين ، الذين لم يستطيعوا بدورهم التكيف للوضع الشاذ ، فرفضوه بوسائل مختلفة .. حد الانتماء الانتحاري من قبل فصائل من الشباب الى صفوف المقاومة الفلسطينية التي وجدوا فيها البديل والتعويض ، ولكنهم حين وجدوا فيها « الانفلاقات » و « الاصطراعات الايديولوجية » ذاتها التي سادت الوطن العربي آنذاك ، عاد بعضهم الى نفسه ، متأملا فكان التأمل المبدع يمت الى العالم الروحي او الى « البنيان الملحق » فان الفعل عندئذ ، الذي هو « البنيان الاساسي » او « الزمني » يمثل مراحل في طريق التاريخ الانساني اللانهائي « كما يقول

ب ــ غوريللي ــ (2) ان على الكاتب ان يسهم فيه ، وان يصل الى ذلك التركيب بين التأمل والعمل بين ما هو واقع راهن وما هو خالد » ولم يحسم الاديب هذه المعادلة دون مساعدة الايديولوجيا .. وقد استعاد الادباء العرب ثقتهم بانفسهم وامتهم ، ابان حرب تشرين ، وصعدوا من تفاؤلهم متأثرين بالحدث اكثر من تأثرهم بتنظير الحدث ..

وكان حرب تشرين خلقت التوازن النفسي والفكري لدى العديد من الادباء ، في مواجهة تأثير الايديولوجيات ، وفي مواجهة تحدي العسف والقهر والاحتلال وحجب الحرية ..

ولكن حرب لبنان ، وواقع التجزئة في الوطن العربي ، وحالة التداعي التي وصلت مرحلة خطيرة قبل قمة بغداد وميثاق العمل القومي بين العراق وسورية ، خلقت نوعا من اللامبالاة الجديدة ، ليس ازاء الايديولوجيا ، حسب ، بل وازاء العالم كله .. باستثناء الكتاب والادباء الملتزمين والمنتمين الى احزاب وطنية وقومية ذات الضوابط العالية والفني في الفكر والتجربة .. ، فهم ، ووفق المناخ الايديولوجي السائد في بلدانهم (وخاصة العراق) استجابوا لايديولوجية احزابهم ، وحاولوا بالقدر الذي تؤهلهم فيه قدراتهم الذاتية ، ان يمزجوا النظرية بالتطبيق او يتمثلوا التاريخ النضالي ويستجيبوا للمنجزات فتنعكس آثارها في نتاجهم الابداعي اليومي ، ذي النفس الظرفي ، خاصة على صعيد النتاج الشعري ، والكتابات اليومية ، والرواية الى حد .

وازاء الضرورات التي تتحكم وعي الكاتب التقدمي ، فان العديد من الكتاب طلقوا « الاوهام والمعتقدات والكائنات الخيالية » ونسجوا نتاجهم على منوال الواقع في محاولة لتغييره اجتماعيا وسياسيا ..

فالانطلاق من الانسان ، لاكمفرد حياة ، بل كمجموع ، ضمن وضع بشري عام وفي اطار فاعلية واقعية ، يسهم في اغناء الجهد الفكري والايديولوجي في اطار مؤثرات العملية الثورية ، التي كلما حاول الاديب الملتزم الدنو منحيثياتها او الانغمار بها ، كلما تعمق يقينه الايديولوجي ، وبالتالي ايمانه بالمستقبل والاسهام في وضع التصور الخاص لهذا المستقبل ، وليس الثورة على « تقاليد » الحاضر دون صياغة البديل ..

وفعل الايديولوجية اثر ابداعيا في محصلة

العديد من النماذج القصصية والروائية العربية، فاذا كانت القصة القصيرة ــ مثلا ــ تمتص ما في الزمن وتضيفه الى التاريخ ، تكون اكتسابا لفرادة في البحث والتجريب ، او نكهة من طعم الواقعية المرة ..

تلك هي قصص اغلب معاصرينا ــ كما اشرت مرة ــ (3) .

« لان القصة القصيرة العربية هي ــ في جوهرها ــ ماض ، ولكنه ليس سعيدا ، وهي اتكاء على حكاية (او استعارتها) فهي شكل مشتق من « الرواية » و « التاريخ » وهي ــ على العموم ــ لحظةاصطفاء تاريخية او التعبير عنها» .

ففي اطار الوضع العربي ، بل في اطار العصر ، تكون الكتابة القصصية ــ كمثال ــ اصطفاء لحدث وتأريخ ، هذا الاصطفاء يخلق « رابطة » بين الكتابة كلسان ، كحالة ، وبين الشريحة الاجتماعية المتحدث عنها كوضع او كدلالة .. حيث يصطرع البشر ويصنعون مصائرهم ، او يتلقون مصائرهم في المكان ، الزمان ، ومجموعة الاشياء المحيطة بهم ، انها تماثل الوحدات التي تمتص عصيرها من ارض محتدمة .

فاذا كان مجمل القصص العربي ، والروايات ، يشكل الفعل الماضي فيها اشتقاقا لا بالحدود اللغوية للفعل بل بالشمولية كجوهر ، كحدث اوكبنيان ، فلانه جزء من وجود يمتلك شعائره ، جزء من « فن » ليست غايته التعبير عن زمن ، حسب بل وتفجير الواقع معا ..

وفي نماذج عدد واحد من الاداب (المجلة) تسع قصص ــ كمثال ــ ربط ثمة خيط كل الوحدات وعلى اختلاف اساليبها ، وهوية كتابها واجيالهم ، وهذا الخيط هو في المعنى الفني : الربط بين السبب والغاية ، بين فواصل الزمن وجروح جسد الارض ، .. انه انشاء ، تاسيس ، مملكة من الاحباطات ، هي في الثنائية التي تشتبك بها ، مقابل موضوعي لشخص لحدث ، ثم (في الجوهر) تعرية له ، للنهوض بديمومة وعي الرفض فيه ، والخروج الى صحو البديل المفترض : ازالة السبب الذي ادى الى الاحباط ، وبمعنى تفسيري : تغيير الواقع .

« وراء الماضي البسيط ــ يقول رولان بارت ــ يختبيء دائما صانع ، اله او قاص ، وليس العالم المسرود خلوا من شرح ، فاحداثه الطارئة ، طرفية ، ولكن الماضي البسيط هو ــ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالضبط ـ هذه « العلامة الاجرائية » يستخدمها السارد ليعيد تفجير الواقع الى فعل خالص شفاف ، دونما كثافة ، دونما حجم ، دونما انتشار ، فغايته ، ان يربط على اسرع شكل ممكن ـ السبب بالغاية .. »

ولأن القص دائما ماض .. فان الماضي القصصي هو « جزء من نظام أمن » ، هو « أمن الادب » وما دام يعكس « نظاما ما » فهو « يؤلف واحدا من عقود شكلية عديدة قائمة بين الكاتب والمجتمع يبرر الاول ويطمئن الثاني».

وكان الماضي الذي صورته تلك القصص ـ مثلا ـ لم يحقق الفرح ، ولم يعكس حالته ، لان الفرح ـ بالاساس ـ اصبح ذكرى . .وحتى في جزئيات يوميات ما ، قريبة ، في الزمن الحاضر، فانه يتحول الى « ذكرى الحاضر » .

وهنا يكمن وجه آخر من وجوه الاحباط ـ كذلك الايديولوجيا : كاحباط المسافر السائح في قصة عبد الرحمن مجيد الربيعي « من يعرف الفريق » ، واحباط الراعي الحالم في قصة مهدي عيسى الصقر « الهدير » ، وضياع حمو الاقرع في قصة مبارك ربيع «قضية حمو الاقرع»، واحباط وداد حين لم تستلم الساعة بعد الايصال الورقي في قصة « ساعة للصباح والمساء »لليانة بدر ، ومجموعة احباطات شخوص « النورس » لنيروز مالك ، ومقتل هلال في « هوامش على حياة هلال ابراهيم الحيمو » لابراهيم الجرادي. . واحباط الملكة التي فقدت عرشها وخاتمها في قصة « حين جاءت الملكة » مع ان قصة كمال الدين محمد هذه هي الوحيدة التي انتهت بالميلاد بالرغم من ان جوها العام كان محبطا تماما ،وحيث تقوم قصة « السقوط » لربيع ديب ـ على السقوط ذاته (وهو احباط مكثف) يشع ـعبرـ ربيع بشارة مشاركة في حدث لكنه بدلا من ان يزج « ابراهيم عبدالخالق » في التظاهرة ، تراه يشقها ويسير ضد تيارها ! (وهنا يكثف لنا معنى السقوط حد النخاع) هذا الاحباط الجماعي ليس ترفا فنيا في القصص التسع المشار اليها ، لكنه انعكاس صارخ لوضع متورم بالخيبات والنكسات والتداعي .. انه صورة الوضع العربي الراهن ، والذي كان .. ولان القاص يمتلك مجسات حساسة ، فهو ـ ان كان صادقا ،

لا « يجرد » الأشياء ، ولا يصطفيها من خيال معلق في فضاء ، بل يقتد مادته من حجر الحزن العربي ، ومن ارض الواقع .

هنا تكشف القصص تلك ، وعي القاص العربي للضرورة ، وعيه للحرية ، والخلاص ، كبديل عن هذا الانهيار المرعب في خصوصيات الواقع العربي .. فالقاص لم يزوق الازمنة المعاشة ولم يجملها .. ، لقد منحها ـ حتى ولو عبر قصة وصفية واقعية سردية (كالهدير) ـ بساطة وخشونة الاحلام المجهضة ، وان الذي (ياتي ولاياتي) هو في الانتظار القاتل ، امل بعيد ..

ان تلك القصص التي اتينا على ذكرها ـ كنماذج ـ جمعها وعي محموم بقهر الساحة العربية وكانها اختيرت ـ كمجموعة ـ بوعي لتمثيل هذه الاوجه المخيفة لأحداث تكون حصيلتها ـ في الجمع والترتيب ـ ظاهرة ـ تتبدى عن وضوح كامل في ربط جزئياتها ربطا منطقيا ، بحيث اعطت صورة عن حركة الواقع..

ولا يمكن ان تتكون « صورة حركة الواقع » دون ان يكون وراء صانعها فعل ايديولوجي ، وعي بالفعل .

وفي تقديري ان كل « وعي » بالفعل الزمكاني ، وبحركة الواقع ينطوي على بعد ايديولوجي وبعد اعلامي ، معا ..

وهنا لابد ان نقف امام معنى الاعلام في النتاج الابداعي ذي النبرة الايديولوجية .. فهو في اعتقادي ، البديل الافضل ، من اي نوع ادبي يطرح الشعار كما هو دون تمثل او اغناء..

وبمعنى اخر : ان مملكة الواقع غنية بتلك الانتباهات الشرسة احيانا ، المرهفة والشاعرية احيانا اخرى ، وكل اثر ابداعي يقدم « صورة عن حركة العالم » و « يكثف » الواقع في « نقطة واحدة » مهما كانت صغيرة ـ ويعمق « الازمنة المعاشة » و « الدلالات » ويعطي الشواهد الفنية ، والاشتقاقات ، لهو اثر ابداعي يمتلك جسارته وفطنته وهو بالتالي ، الاثر الذي يعيش اكثر من اي نتاج اخر .. مسطح او مباشر الدلالة السياسية او الاعلامية ، او الايديولوجية ..

لقد كتبنا مرة عن « الفن » كاعلام معاصر(4) :

« الفن اعلام معاصر ، اذن وبهذا المعنى يمكن تعميق الدلالات والوسائل ففي زمن التحولات ، في زمن الثورة ، لابد ان يكون كل فعل ابداعي اعلاما .. ان معرضا ناجحا لا يقل اهمية عن شخصية ناجحة في مضمار علمي عالمي ،.. كذلك الامر بالنسبة لرقصة او زي او اغنية او كتاب او ملصق او مجلة ..

كل ذلك يمنح فاعليته كاعلام فني معاصر انه يعادل كتيبة من المقالات المباشرة او المناشير .. ولان معركتنا متعددة الجبهات ومتنوعة القنوات ، فهي معركة حضارية ، معركة تعميق الهوية القومية وبناء الانسان الجديد ..

وكي نمحو من الذهن الخارجي (الراي العام) اية شائبة علقت به اثر دعايات العدو الصهيوني الامبريالي ـ الرجعي ـ لابد ان نبدأ بما يعزز حضارية تراثنا ويؤكد معاصرتنا ، ويعمق انسانية امتنا ، وعدالة قضيتنا ، وذلك لا يتم الا برفد الساحة العالمية بكل نتاج يحمل معه يقينه الفكري (الايديولوجي المنتمي للثورة) وصياغته الاسلوبية المتقدمة . في الاثر الابداعي ، الاعلام ـ جوهريا ـ يعني اخلاقية الشكل وانتقاء المجال الاجتماعي الذي يقرر فيه المبدع موقع طبيعة لسانه ، اداته التعبيرية ، او وسيلته للاقناع .. او المجابهة .

واللوحة ـ او الكتاب ـ كمثال ـ ، بقدر ما يمتلكان من فن ولغة ، يمتلكان قدرة التخاطب والافصاح عن جوهرهما جوهر الفنان ، جوهر واقعه الاجتماعي الحضاري ، المورروث،المعارف المكتسبة .

وبالتالي : الافصاح عن هدف اللوحة (او الكتاب) ، اعلاميتهما ، كفعل معاصر .

في زمن التحولات (الثورية ـ على وجه الدقة) لا تسترخي اللوحة التشكيلية لرفاهها ، (ولا الكتاب او القصة القصيرة) ، بل تنهض بكل ما في تكونها من قيم لتعلن عن موقف متحيز .

ربما تصطفي ادق الخلجات الانسانية حساسية ونعومة .. وربما تعبر عن اكثر الحالات عنفا وتوترا .. ولكنها في كلا الحالين تقول ، تتكلم تنطق .. بمعنى انها تمتلك لغة التحولات من زاوية معينة ، وبنسبة زاوية التناول تلك .

اللوحة (او الكتاب ، القصة ، القصيدة ..) هنا تنتمي الى التحولات اي تمتلك جذرها التغييري ، الثوري ، فهي لا تبتعد بالضرورة ، عن ارضها ، ولا تحلق تحت سماوات خيالية ، بل تنظر بعين المستقبل الى الحاضر ، وابدع ما في الماضي انها ترى ..

وكي تكون منظورة لابد ان تجيد لغة قوية الافصاح وباصطلاح ادق ، لابد ان تمتلك قدرة التواصل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويمكن التعميم على كل اثر ابداعي فني يمتلك خصائصه الوطنية وسماته القومية ويستطيع ان يكون رسولا ناطقا باسم .. وامينا في الاقناع .. داعية او محركا ثوريا .

ازاء هذه الامتلاكات وبالذات (ازاء لغة الاثر الابداعي الوطني الخصائص القومي الاشتراكي السمات) يكون الفن اعلاما معاصرا .. انه يعلن عن هدفيته ، قصديته ، ويمد جسرا بينه وبين المتلقي ، وبالتالي تحقق الاثار الابداعية ذات القدرة الفنية على التعبير نجاحها في كسب المتلقي الى صف موضوعها اولا ، ثم الى صف جنسيتها وقوميتها ، ثانيا ..

زهرة او جسدا ، شناشيل او بيوت صفيح ، عباءة او خيمة ، حبيبة او شهيدا .. اسماء ..

لكنها تنطوي على حقائق مرحلية وعصرية معا ، ان استطاع الاديب الفنان توظيفها في صلب عمله بابتكار وصدق .. فالزهرة قيمة جمالية وحضارية ، لكنها ليست اية زهرة مبهمة ، ليست « محض زهرة » فالفنان العربي الذي يضعها في فوهة بندقية فدائي فلسطيني ، او بيد طفلة مشردة من جنوب لبنان ، يكسبها معنى متحيزا ، نضاليا ووطنيا ، ومرحليا .. كذلك السلاح او الدفتر ، او المنظر ، او الوجه او العلامة .

هنا تكون المادة ، دلالة ، اعلاما .. ووجها من وجوه ايديولوجية صانعها ..

فالزهرة لا تمتلك اعلاميتها عن قضية لو لم يضعها الفنان في صلب هدف منظور ، انها تزدهي بفعلها ضمن فعل « اللوحة » .. فان افتقدت هويتها ، افتقدت دلالتها واعلاميتها بالتبعية ..

وهكذا يتبدى لنا فهم الاعلام والايديولوجيا في الاثر الابداعي .. واذا اردنا تعميق انتمائنا الى حركة الثورة العربية وضد الاستسلام والتبعية، وضد الخوف من مواجهة العدو الصهيوني .. فان الانتماء الثوري لابد ان يقترن بافعال (منجزات وقرائن ابداعية) ولابد ان يكون احد وجوه الافعال الثورية ، الكتاب الذي تقدم في الشكل وفي المضمون .. كذلك الكلمة التي تكتب دراسة او تعليقا ، او خاطرة صغيرة ..

لذا فان تجاوز « رضا النفس » والقناعات المحدودة « باطار الفعل الابداعي الذي كان ابتكارا يوما ما وثم اصبح تكرارا ، عادة وتقليدا ، ثم سجنا يصطف مع الاسباب والمؤثرات الاخرى التي تقيد حركة الابداع ولا تطلق طاقة الاديب الى مدياتها .. ، متاثرا بحدود سور « الاعلام » وجدران الايديولوجية ، على نمط الجمود العقائدي او ضيق الافق ..

من هنا فان اديبنا العربي المعاصر مطالب بان يكون اقتحاميا ، يتجاوز حدود النمطيات المقننة ، رسميا ، وشكليا ، وتقاليدا .. كيما يبرهن ان الاعلام والايديولوجيا يمكن لهما ان يثريا تجربته ، ويعمقا مساره ويوضحا هدفه ، ويقربا بالمسافة بينه وبين الهدف والانسان والعصر . وبذلك تكتسب معادلة التآصر بين وحدات : الاعلام الايديولوجية ، الادب .. معناها في المعاصرة وتؤكد حضورها في التراث ، في فهم الجوهر النقي للتراث ودلالتها في المجابهة ، وسياقها مع معطيات العصر ، ومقتضيات المرحلة قوميا ، وانسانيا ودوليا .. وبذلك فقط ، تتحقق صبواتها ، وفناها ونفعها العربي ، وانتماليتها .. والا ، فان خطر الاعلام ، وخطر الايديولوجية ومن زاوية سوء استثمارهما ، سيكون محدقا بالاديب ، يسحقه ، ويشوه وجهته الابداعية ، ويحوله الى نمطي يفقد نبرة صوته الخاصة ، بل ويجعله يصرخ بنبرة متشكية هي في الاساس من توجهه ، وضميره ، وحياته ..

« الى متى هذا الاغتيال الفكري » ؟ ..

هذا عنوان مقالة كتبها « علي بن عاشور » في مجلة المستقبل ، مؤخرا(5) :

يبدأ مقالته بهذا الاستهلال « ظاهرة غريبة تجتاح العالم العربي لم ير لها مثيلا حتى في عصر الانحطاط وليل الاستعمار العثماني الكئيب ، انها ظاهرة القمع الفكري والارهاب الثقافي التي وان كانت قديمة فهي اليوم تزداد استفحالا ، فالنظام العربي القائم يريد اغتيال العقل واعتماد النقل .. انه يعادي في الدم كل ملكة تفكير مستقل ويقتل في المهد كل بادرة ابداع حر .. لكن يبدو انه اطمأن باجراءاته الاحتياطية والاحترازية للحاضر، فبعد ان فرغ من الاحياء عاد الى الاموات : راح ينبش قبور الماضي عله واجد ضحية ، ما يشبع به غريزته السادية ، وها هو مجلس « الشعب » المصري يعثر مؤخرا على ضالته بعد قرون : انه المنكود الحظ محي الدين بن عربي ، فيمنع اثره «الفتوحات المكية» دون مبرر معقول يذكر . اللهم الا اذا وجد في هذا الكتاب ما يحرض الشعب المصري على « كامب ديفيد » او ما يجعله يحتج على الزيارات الودية التي يقوم بها الجيش الصهيوني فوق الارض العربية منذ عام 1967 مثلا !

انه شيء يدعو للسخرية حقا .. خاصة ان مجلس « الشعب » المصري لم يتفرد بهذه الظاهرة فكما منعت احدى دولنا قبل 6 اعوام همنغواي لانه اميركي وتولستوي لانه روسي التزاما بسياسة « عدم الانحياز » (وربما من يدري !) ..

يستطرد علي بن عاشور ليقول : منعت احدى دولنا الاخرى المنكود الحظ الاخر « بندلي جوزي » صاحب « في الحركات الفكرية في الاسلام » و « دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عن العرب » لا بل طالت كافة مؤلفات المسكين اميل زولا ، روائي القرن التاسع عشر الفرنسي ، كتبت مجلة « اصوات » التي يصدرها مجموعة من الشباب العرب في المهجر الفرنسي في عددها الرابع : « على عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، اجتمع مسؤولو الرقابة على المطبوعات لاقرار كتاب « الكيمياء » المدرسي ، وبعد فترة من التداول منعت اللجنة كتاب الكيمياء المذكور ، لانها اكتشفت بانه يحتوي على شيفرة سرية هي الرمز الكيميائي للماء (H2O) ، وعندما تفتقت عبقرية اللجنة عن حل لهذه الشفرة ، نجد ان منع هذا الكتاب لا يتعارض مع المنطق .

اما الحل فقد شرحته اللجنة بالشكل ادناه :

H ــ يعني حميد

2 ــ يعني الثاني

O ــ يعني الصفر

والنتيجة تصبح ان :حميد الثاني يعنى صفرا !..

اي لا شيء وهذا يعني شتيمة السلطان وهو ما لا يتماشى مع الاخلاق والدين والقانون » .

لعبد الوهاب البياتي تشخيص جيد لوضعنا الثقافي والفكري يلخصه بهذا الموجز :

« قبل عشرين سنة كنت تجد في القاهرة بعد كل 10 امتار تقريبا مكتبة ، اما اليوم فقد تبخرت المكتبات وحلت محلها محلات بيع الاحذية ! »

طيب .. هل تعني مثل هذه الاصوات الاحتجاجية ان مسالة « السلطة » و « الاديب » عبر الاعلام والايديولوجيا ، لم تركن الى انسجام، وان الطلاق الازلي بين طرفي العلاقة لما يزل قائما ؟

هنا لابد من وقفة ازاء ظاهرة « الثقافة السائدة » او « ايديولوجية السلطة » ومقابلها الموضوعي : الشعب ! وممثله : الاديب ! مقابل « ادلجة الفكر الثقافي او الاقتصادي واخضاعه للوطاة السياسية وحدها » ! وهل الايديولوجية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقيض للتعاليم و « البدعة » (بمعنى تعاليم مغلقة على نفسها وجامدة) ؟

متى تكون « الايديولوجية » ـ تعليمات الزامية ؟ ومتى تكون « نظرية مرشدة » للمجتمع؟

في الصراع الازلي بين السلطات الحاكمة والشعوب التي لا تنسجم معها ، لانها لا تتوفر على عدالة .. بالمقياس المثالي ، منذ القديم ـ كانت «تعاليم» سلطة الكنيسة ، تشكل رادعا ، ومعوقا ، حين تستشعر بالاتجاه المعارض لرغبات وطموحات السواد الاعظم من الناس .. وكل « رافض » لسلطة الكهنوت ، اتهم بالهرطقة وادين او اعدم ، او « لعن » !

وفي حالة نموذج مجلس « الشعب » المصري .. معروف لكم ان : « سلطة » الاستسلام تحاول ان تنشر « فكرا » استسلاميا ، تنظر له تحت واجهة « السلام » و « المصلحة القومية » ، ولم تمر تلك التبريرات دون مقاومة .. ذلك معروف ايضا فحكام مصر الان ليسوا على نمط عبدالناصر وفكره القومي ،.. ولا على نمط اية حركة قومية معادية للاستعمار والصهيونية ..، لذا فان كل التيارات الفكرية التي تلتقي عند حدود الكرامة القومية ، ومثل الاستقلال والحرية ، عارضت « فكر » اليمين المصري الاستسلامي الحاكم ومؤسساته وتنظيراته .. على صعيد العديد من الانظمة العربية ، وهي متفاوتة في الطبيعة والتوجه والتفكير ، هل تقوم علاقة من الود بين الحكام وبين الادباء والمثقفين ، اذا تجاوزت السلطة مسالة التنظير والاعلام الى ممارسة العسف ضد المعارضة .. ذلك مستحيل ! بمعنى ان الواقع العربي ـ على مستوى مؤسسات الدول ـ يرفض التعددية في الفكر ، وهذه الظاهرة ليست عربية فقط ، بل عالمية :

فالدول الاشتراكية (وبمعنى ادق : الدول ذات الايمان الشيوعي) ترفض ـ داخل جبهاتها الوطنيةوخارجها ـ اي فكر معارض للماركسية ـ اللينينية .. ولا حاجة بنا هنا الى العودة للمرحلة الستالينية وسواها .. فلا راى ولا ايديولوجية يمكن ان « تتعايش » تحت سقف واحد في ظل النظام الشيوعي ـ مع الفكر الماركسي اللينيني . التعايش مسموح به على صعيد الدول و «العلاقات الدولية » اما في الايديولوجية ، فلا يمكن لايديولوجية اشتراكية ان تتقاسم العشاء مع ايديولوجية راسمالية ، في صحن واحد ! مع الاخذ بنظر الاعتبار ان في الدول الاشتراكية لا وجود لطبقات وصراع طبقي ، وبالتالي فان الايديولوجية السائدة هي ايديولوجية الطبقة الواحدة .

ومع ان الوضوح الايديولوجي لم تتوفر عليه اغلب مؤسسات حكوماتنا العربية ومع ذلك فان اية حكومة (ابتداء من السعودية وانتهاء بليبيا) ترفض ان يكون هناك تقاطع مسموح به في الايديولوجية ، وفي السلوك اليومي ايضا ، بين مؤسسات النظام وبين اية جهة اخرى ، خارجها سلطة او مؤسسة حزب ام سلطة (او مؤسسة) افراد ذات كيان ايديولوجي معارض لذلك لم تتعايش النظريات في الوطن العربي الحديث مطلقا ، ما دامت للسلطة في هذا البلد او ذاك « ايديولوجية » او منظورا فكريا .. حتى لبنان « الليبرالية ، كما هو في الظاهر » لم تستطع ان تستوعب وضعها « الحر الليبرالي » فتفجرت بالحرب ، التي تنطوي على صراع ديني ـ طائفي ـ ايديولوجي ـ ذي جذر اقتصادي ـ سياسي ـ معقد . في العراق ـ مثلا ـ قال السيد صدام حسين : لا يمكن ان نجتهد بالاشتراكية او الوحدة ، او الحرية بمعنى ان العراق الذي يقود السلطة فيه حزب البعث العربي الاشتراكي لا يسمح باي اجتهاد ضد الوحدة ، باسم الايديولوجية ، نعم للوحدة ، ولكن باية صيغة ، ذلك ما يسمح بالنقاش فيه ، اما في الهدف المركزي .. فالاجتهاد مرفوض .. كذلك في الاشتراكية نعم للاشتراكية .. ولكن باية اداة ووسيلة ، ذلك ما يمكن السماح به في النقاش داخل الجبهة الوطنية والقومية التقدمية اما الذي يقف ضد الوحدة ، او ضد الاشتراكية .. فلا يمكن ان « تتآلف » معه الثورة لا عبر مؤسساتها الدستورية ولا عبر مؤسساتها الثقافية وبالتالي ينسحب الامر على المؤسسات السياسية : الجبهة والاحزاب والافراد ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اذن فالفكر السائد ، على مستوى الدولة ، هو الفكر المسموح به .. ان كان وراء هذه الدولة حزب ثوري .. او اي شكل من اشكال التنظير الفكري ، والمنهجية الخاصة .. ان « المغرب » ونظامها ملكي ـ لم تتساهل مع « المعارضة » خاصة حين تراها قد وصلت حجما من السعة والقوة بحيث تشكل خطورة على مصالحها ومن ثم وجودها .. وان وجدت ان المعارضة لا تشكل خطورة ، وتكتفي بالاحتراب الكلامي ، فهي تمنحها حقائب وزارية ، دون خوف .. وتحارب عناصرها « المتطرفة » بين قوسين باقسى العقوبات : وعبداللطيف اللعبي الشاعر ، خير مثال !

فهل هو عجب جديد .. ان يمنع مجلس « الشعب » المصري : محي الدين بن عربي !؟.. وفي سجون السادات ، او خارج حدود مصر ، آلاف المفكرين والشرفاء ..؟!

كل نظام يسعى لحماية موقعه : اشتراكيا كان ام ليبراليا ، ام ملكيا ..

متى تكون الايديولوجية « تعاليم الزامية » قسرية ، ومتى تكون نظرية مرشدة للمجتمع ؟ حين تكون الايديولوجية نابعة من حاجة اجتماعية، وتتبنى ـ في المعطى والتوجهات طموحات وامال واماني الجماهير ، وتستهدف سعادتها فالاشتراكية ، هدف قاتل من اجله ابناء شعبنا .. ان في العراق او في سورية ، او في ارجاء واسعة من وطننا العربي ، وحين تتبدى الاشتراكية في سياق ايديولوجية حزب ثوري يقود السلطة وحركة المجتمع ، ويوفر الديمقراطية التي لا تتقاطع مع النهج البنائي الهادف ، والتي تعزز مسيرة البناء والتنمية ، وصولا الى المجتمع الاشتراكي بصيغة الطموح ، تكون الايديولوجية في التطبيق نظرية مرشدة للجميع .. ولا تسمح بمن يتجاوزها او يقف ضدها ، باية ممارسات .. لا في الكتابة ولا في الفعل .

اما اذا كانت « ايديولوجية » النظام الحاكم من نمط ملكي ، فهي ايضا ، تعارض ولا تسمح باية « ايديولوجية » اخرى ان تسود !.. اذ ذاك يحصل الاصطدام الحتمي بين مصلحة السلطة ذات الايديولوجية المناهضة لمصلحة الجماهير .. والجدل ظاهرة صحية ، ليس دائما ، (دوغما بل هو مرشد للعمل) حتى داخل المجتمع الاشتراكي، كما يقول بجمولف(6) : « ان للعقل قدرة خاصة على الابداع والخلق » حتى داخل النظام الواحد « انه ليس سلبيا بل ايجابيا انه يضيف الى ما هو معطى « فالفكر ـ يقول روزنتال ـ « مؤلف مبادىء المنطق الجدلي » ـ في حركته يصدر عن العيني في الادراك الى المجرد ، ومن المجرد الى العيني .. والادراك الحسي هو اول خطوة للمعرفة ، وازاء ظاهرة ايديولوجية السلطة السائدة .. نتساءل مع حوار المثقفين في البلدان النامية (7) هل المثقف هو من « يمتلك قدر اكبر معرفة حسب أم هو الذي يمتلك القابلية والارادة على التفكير ويعرف النتائج المترتبة على مثل هذه المهمة » ؟

وهل تحتاج بلداننا النامية «العربية بالذات» نمط المثقفين المفكرين وحدهم ، ام النمط المتمثل للفكر والايديولوجيا ، والممتلك اسلوبا تحليليا يثابر في اغناء معطيات النظرية في التطبيق العملي ؟ في التنظير : هل نقدم نظرية جديدة ، ايديولوجيا؟

في التحليل : هل تتحمل الساحة العربية نمطا جديدا من التنظيرات ؟

في التطبيق : ما الذي يوحد فكر العرب كافة ؟

وهل يمكن تكوين المثقفين (والادباء) في فراغ ؟

معلوم ان مسار التطور هو الذي يخلق الارضية الجيدة للاديب والمثقف ، في الابداع والخلق .. كلما كانت ايديولوجية السلطة الحاكمة متجانسة مع طموحات الشعب .. فالتعليم الالزامي ـ مثلا ـ ومحو الامية ، وهما هدفان عجزت اغلب البلدان النامية عن تحقيقهما ، ويسعى العراق عبر حملة وطنية كبرى لاعلان نظافته من الامية ، في زمن قياسي .

هل نتصور اي بعد ثوري يتحقق بعد اعلان نظافة هذا البلد العربي او ذاك ، كليا من الامية الابجدية ـ مبدئيا ـ والحضارية من ثم ..؟

في ظل الهيمنة الاستعمارية والبيروقراطية او الديكتاتورية لم ينتعش الوضع الثقافي في اي قطر عربي .. بل يتحدد نشاط الاديب والمثقف تماما .. فالتعليم ـ مثلا يبقى معزولا عن التقاليد الوطنية وبذلك يؤثر سلبا على اجيال عدة .

اذن فتوظيف الاعلام والايديولوجيا ، في ظل نظام تقدمي سيترك اثره الخلاق على النتاج الابداعي ، ويؤثر ايجابيا على وضع الاديب والعكس صحيح تماما .. فما لم يكن الاعلام ينطوي على اهتمامات ثقافية ترسي التقاليد الوطنية والقومية التقدمية وتسهم في ايقاظ الجماهير ، لا يمكن ان تتوفر حالة « الرضا عن النفس » لدى الادباء في مثل هذا الجور الاجتماعي العام الذي يسود مناطق عديدة من عالمنا المعاصر .

فاستنزاف العقول وهجرة المثقفين ، والصمت والقمع والاحتواء ، وشراء الذمم .. تؤدي كلها الى تحولات سلبية تؤثر لا على الاديب ككائن اجتماعي واع حسب ، بل وعلى مجمل حركة الابداع ..

نعم .. يمكن استخدام « الاعلام » الايديولوجيا سلاحا ضد الادب ، اذا كانت ايديولوجية الدول تمارس حصارها ضد الايديولوجيات الاخرى .. المتصارعة .. والتي تقف على الضد ..

وليس سرا ان يكون هذا النظام او ذاك تقدميا في سياسته الخارجية ، ولكن لا يمكن ان يقال الشيء نفسه عن السياسة الداخلية .

هل تجاوز الاديب العربي ـ المثقف ـ مرحلة البحث عن حلول نظرية وعملية للقضايا الاجتماعية الساخنة ؟

اذن ففي التباسات الحياة ، تكمن التباسات الأدب والتباسات الايديولوجيا ايضا وكلما ازدادت الاسئلة ازدادت المخاوف ..

فما دامت العديد من البلدان النامية ـ واغلب البلاد العربية منها ـ لا تمتلك حدا ادنى من التصور الثقافي والايديولوجي المتكامل لفعاليتها كدولة ، لانها بالاساس تفتقد الهيكل الاساس والمعمار العصري للدولة ، كتنظيم وسلسلة علائق وافعال ، فان ادارات هذه الدول و « قياداتها » الثقافية تفتقد الى التصور البنياني الشامل لمهمات التنمية والتخطيط والتقدم ، وبضمنها كضرورة ، مسائل الادب والثقافة والانسان .

وهي بالتالي تستعين بعديد من الخبرات الاجنبية لتسيير امورها ! وفي مثل هذه الحالة هل يمكن تصور عمق الهوة التي تفصل الايديولوجية والادب ؟

وان وجدت ملامح ايديولوجية في بعض بلداننا العربية ، فهل يوجد « ادب » بالمعنى المتقدم ؟

يقول ديفيد كريج :

« يبدو من المعقول ان نفترض ان الوسائل التي نجمعها تحت وصف «ادب» تتغير مع السنين تبعا لقوانين ـ ان هنالك تعاقبات وانواعا متميزة من الوثبات الكيفية في العمليات التي نجمعها تحت اسم « تراث » !

ان اكثرنا لا يستطيع ان يتجنب اللجوء بين حين واخر الى بعض الافكار التي تكون غالبا متشابكة ومصوغة صياغة اولية حول كيفية نمو الادب ، افكار تنسب الادب عادة الى خطوط نمو اخرى ولا سيما تاريخ الافكار والتاريخ الاجتماعي .

ومهما يكن فانني لأشك فيما اذا كنا نستطيع ان ندرك الادب بوضوح كاف كما هو ـ ودعك من تفسيره ـ ان لم نصبح اكثر وعيا واكثر دقة في نظريتنا ، والتفسير هو فيما يبدو لي العمل الرئيس الذي ينبغي الان للنقد ان يعمله(8) » .

اذن اي ادب نريد .. وتحت تاثير اية ايديولوجيا واي اعلام ؟ في سياق التضارب والتعقيد بين المفاهيم ، وفي غياب وحدة الثقافة العربية التقدمية « وغياب » الاعلام العربي الاقتحامي الموحد »(9) ؟

ان الجواب على هذا السؤال يعود بنا الى ما قبل البدء !.. وتلك مأساتنا !

اشارات

1 ـ موريس بلانشو في كتابه « الفضاء الادبي » (1965) راجع اتجاهات النقد الادبي الفرنسي المعاصر تاليف نهاد التكرلي سلسلة الموسوعة الصغيرة ـ العدد 36 ـ وزارة الثقافة والفنون بغداد ص 5 ـ 7 .

2 ـ ب . فوريبللي : علم الادب السوفيتي ، ترجمة جلال فاروق الشريف منشورات دار الصحافة ـ دمشق ـ ص 144 .

3 ـ محمد الجزائري : مجلة الاداب (نقد القصص) العدد الثاني شباط 1978 السنة السادسة والعشرون ـ ص 68 .

4 ـ محمد الجزائري : مجلة (الرواق) العدد 2 مايس ـ حزيران 1978 ص 1 بغداد ـ وزارة الثقافة والفنون اللجنة الدائمة للاعلام الفني .

5 ـ علي بن عاشور : الى متى هذا الافتعال الفكري ؟ ـ مجلة المستقبل السبت 31 مارس 1979 العدد 110 السنة 3 ص 53 .

6 ـ بجمولف (استاذ فلسفة ـ جامعة موسكو) انظر مجلة الفكر المغربية العدد 1979/4 موضوع المادية الجدلية ام جدل الانسان (الحبيب الفخ) من محاورات فلسفية في موسكو للدكتور مراد وهبة صدر عن دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة 1974 .

7 .. سيد حسين اتاس : المثقفون في البلدان النامية ـ لندن فرانك كاس 1977 .

8 ـ ديفيد كريج : نحو قوانين للتطور الادبي ـ ترجمة د . محمد عدنان حسين ، مجلة الاداب الاجنبية ـ دمشق العدد الثالث السنة الخامسة شباط 1979 ص 5 .

9 ـ السيطرة الاعلامية التي تنحصر في اربع وكالات كبيرة هي « الاسوشيتدبرس » و « اليوبي اي » و « رويتر » و « وكالة الانباء الفرنسية » التي تبث لوحدها 33 مليون كلمة وتعتبر اهم مصدر معلومات بالنسبة لدول كثيرة خاصة بين البلدان النامية .

ان الدول المتطورة تصدر 93٪ من النصوص المطبوعة في العالم و 91٪ من المطبوعات التي تتداول عبر الحدود !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السيطرة البريطانية على أوضاع العراق بعد فشل حركة مايس

بعد مرور ما يقارب الشهر (مايس 1941) من القتال بين قوات من الجيش العراقي والقوات البريطانية التي ارسلت من الهند وفلسطين ، ظهر واضحا ان النتائج قد انتهت لصالح القوات الغازية . فقد تقدمت هذه القوات من جهات عدة على العاصمة بغداد امام انهيار مقاومة قوات الجيش العراقي(1) .

وكانت الاخبار المتضاربة ، والتي كان مصدر معظمها من السفارة البريطانية وعملائها ، قد عملت على كهربة اجواء العاصمة ونجحت في بث روح اليأس والقلق والفشل فيها ، مما عجل في هرب اعضاء حكومة رشيد عالي وقيادة الجيش (المربع الذهبي ، العقـداء صلاح الدين الصباغ ، محمود سلمان ، كامل شبيب وفهمي سعيد) الى ايران قبل دخول القوات البريطانية بغداد .

وقد وصف السفير البريطاني في بغـداد ، كينهان كورنواليس احداث الايام الاخيرة لانهيار حكومة رشيد عالي وذلك في تقرير بعثـه الى وزارة الخارجية في لندن يقول فيه :

« في يوم 29 مايس هرب رشـيد عالي واعضاء حكومته والمربع الذهبي وعدد من مؤيديهم المعروفين من بغداد وعبروا الى ايران ، وكان الدبلوماسيون الالمان والايطاليون قد هربوا قبلهم الى الموصل وعند تحققهم من فشل الحركة توجهوا الى سوريا .

وبقي يونس السبعاوي في بغداد كحاكم عسكري عام لتنظيم آخر مراحل المقاومة ، ولكنه بعد بقائه في الحكم بضع ساعات ، وجد انه من الحكمة ان يتبع الآخرين بالهروب الى ايران .

وفي الثلاثين من مايس شـكلت لجنـة الامن الداخلي المؤقتة وتقدمت بطلب ايقاف القتال . وقد توقف القتال فعلا يوم 31 منه »(2) .

في الاول من حزيران ، عاد الوصي مع بقية الساسـة (نوري السعيد ، جميل المدفعي ، علي جودت الايوبي) الى بغداد قادما من الاردن ، حيث قضى معظم شهر مايس هناك بعد هربه من القصـر متخفيا بزي امرأة(لابسا العباية) الى دارة السفارة الامريكية ونقل الى الحبانية يوم 2-4-1941 ومنها بطائرة الى البصرة حيث لم ينجح في تشكيل حكومة هناك مما اضطره للانتقال الى الاردن والانتظار هنـاك الى ان يقرر الانكليز مصيره(3) .

رجع الوصي للعراق وهو في وضع يختلف تماما عما تركه حيث قد انهارت المعارضة القوية في الجيش والحكومة ، بالاضافة الى وجود القوات البريطانية التي تساند حكمه وتسيطر على الاوضاع سيطرة تامة . ويعود اليها الفضل في ارجاعه الى عرش العراق ، والى الحكومة البريطانية وبالاخص السفير البريطاني كورنواليس في تكتيكه واصراره على ضرورة الاطاحة بحكم رشيد عالي بانزال قوات عسكرية واحتلال العراق لتحقيق اهداف بريطانيا خلال سنين وارجاع الوصي وطغمتـه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1941

■ مظفر عبد الله امين

فهمي سعيد

صلاح الدين الصباغ

محمود سلمان

يونس السبعاوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للحكم . ولهذا رجع الوصي والساسة المؤيدون لبريطانيا وهم مندفعون ـ ردا للجميل ، وان لم يكونوا مجبرين في نفس الوقت ـ للتعاون مع السلطات البريطانية الى ابعد الحدود وتنفيذ تعليمات وتوصيات السفارة البريطانية في السياسة الداخلية والخارجية لدعم المجهود الحربي البريطاني للحلفاء في حربهم مع دول المحور .

ويحدد السفير البريطاني في تقرير كتبه الى حكومته الاهداف التي كانت بريطانيا تبتغي ان تحققها بعد سقوط حكومة رشيد عالي واحتلالها للعراق والتي تتضمن ثلاث نقاط اساسية وهي :

« آ ـ لضمان تهيئة كافة المعدات والتجهيزات والتسهيلات لمتطلباتنا الحربية وضمان وجود كافة الاحتياجات لاغراض التدريب والاستحكامات الدفاعية لقواتنا البحرية والبرية والجوية الملكية .

ب ـ لاستئصال العناصر المؤيدة للنازية واحداث التغيير في الشعور العراقي العام ، لغايتين : اولا لتحقيق هدف (آ) وثانيا لحساب المستقبل وذلك بتعزيز موقعنا المستقبلي في العراق بجعل الشعب (العراقي) يتحسس المنافع الناجمة عن التحالف معنا .

جـ ـ بصورة غير رسمية ، وطمعا في خلق استقرار اكبر وذلك بالتأثير على الحكومة باقوى صورة ممكنة ـ ولكن بالتوقف الى حد عدم خلق ازمة حادة ربما تسبب في المخاطرة ب (آ) و (ب) .

وان معرفتي الشخصية بتركيب الحكومة (العراقية) وصداقتي القديمة مع وزراء وشيوخ وآخرين تضعني في موقع مفضل للعمل على تحقيق هذه الاهداف »(4) .

ان البريطانيين ، على اقل تقدير ، قد تعلموا درسا واحدا من حركة مايس 1941 وهو ان الجيش والشعب في العراق لا يكن لهم اي محبة بل على العكس ، ظهر واضحا كره الشعب العراقي لسياستهم الاستعمارية التي مارسوها ضد الشعب العربي وبالاخص موقفهم المعادي لطموح الامة العربية في تحررها ووحدتها ومساندتهم للحركة الصهيونية في تثبيت اقدامها في فلسطين العربية .

وقد كتب الوزير المفوض الامريكي تقريرا لحكومته يؤيد ما ذهبنا اليه :

« من خلال تطور الاحداث في حركة رشيدعالي في مايس 1941 ، ظهر جليا انه ليس الجيش العراقي وحده ضد البريطانيين وانما غالبية الشعب في العراق يكنون الكره للبريطانيين . وقد احدث هذا الشعور صدمة عنيفة للبريطانيين في العراق ودفع الحكومة البريطانية الى تجديد وتطوير اجهزة السيطرة التابعة لها في هذه المنطقة »(5) .

وبناء على هذا وحال استتباب امور الامن الداخلي بدات السفارة البريطانية من ناحية بتحرك واسع لاستعادة نفوذها وتركيز سيطرتها

(والذي سياتي مناقشته في مقال قادم) ومن ناحية اخرى ، اخذت توجه الوصي والساسة العراقيين الموالين بارشادات وتوجيهات السفير البريطاني لتحقيق الاهداف البريطانية على احسن وجه ، فكانت الخطوة الاولى هي اختيار رئيس وزراء جديد يوافق على تحقيق المصالح البريطانية وبنفس الوقت يكون مقبولا لدى عامة ابناء الشعب ، وقد استبعد نوري السعيد من تشكيل الوزارة باشارة من الحكومة البريطانية (وزارة الخارجية) والتي اوصت باختيار شخصية « محايدة » لا تخلق حساسية سلبية لدى ابناء الشعب العراقي(6).

وبعد عدة اتصالات ، حصلت القناعة وتمت الموافقة على اختيار جميل المدفعي لتشكيل الوزارة(7) .

وقد كان المدفعي على اتم الاستعداد لتحقيق اغراض بريطانيا وتقديم كافة التسهيلات لخدمة المجهود الحربي للحلفاء ، كما انه كان على قناعة ثابتة بان بقاءه في الوزارة مقترن بارضاء السفارة البريطانية وتسييره لامور الحكومة حسب رغباتها وتعليماتها . وفي بداية حكم المدفعي ـ كتب السفير البريطاني تقريرا الى حكومته يقيم فيه اعمال الوزارة ويقول :

« لقد انسجمت الحكومة الجديدة بكل سهولة مع طموح ورغبات حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) ، فقد وافقت على مرابطة القوات البريطانية في اي جزء من اجزاء العراق ولطوال فترة الحرب . كما وافقت على فرض الرقابة (على المنشورات والصحف) وعلى مشاركة بريطانيا العسكرية في ادارة البصرة وكذلك على طرد المفوضية الايطالية »(8) .

وهكذا ساعد المدفعي وحكومته ، بريطانيا في تحقيق هدف (؟) وسار بسياسته هذه بخط تبعته فيه باقي الحكومات العراقية في جعل العراق قاعدة عسكرية بريطانية وخط تموين وخطا دفاعيا لجبهة الحلفاء في حربهم مع قوات المحور ، هذه الحقيقة يؤكدها احد الكتاب الانكليز الذين عملوا في العراق لفترة طويلة ، خلال مرحلة الحرب ، فيقول :

« الى حين نهاية الحرب ، وفي خلال فترة حكم حكومة جميل المدفعي (1941) ونوري السعيد (1941–1944) والوطني المخضرم حمدي الباجه جي (1944–1946) ، تضامن العراق بصورة كاملة مع حليفته بريطانيا . فلقد اصبح (العراق) قاعدة (للجيوش البريطانية والحلفاء) في الليفانت (سوريا ولبنان وفلسطين) وايران . وكان خط تموين الى روسيا والى حين انكسار تقدم جيوش المحور، بالاضافة الى كون العراق خطا دفاعيا امام احتمال هجوم المحور من الصحراء الغربية او القوقاس »(9).

ورغم ان جميل المدفعي ، وحكومته لم يأل جهدا في تقديم الخدمات والتسهيلات لغرض خدمة المجهود الحربي البريطاني خاصة والحلفاء بصورة عامة ، فان المدفعي ، في نظر الانكليز ، لم يحقق كل رغبات بريطانيا ، وانه كان مقصرا في واجبه خاصة في المجال الداخلي في العراق ، حيث اظهر ضعفا وتماهلا في القضاء على اتباع ومؤيدي حركة رشيد عالي وتردد كثيرا في استعمال اساليب الشدة (والتي دعا لاستعمالها السفير البريطاني مرارا) ، فقد تماطل المدفعي في محاكمة وسجن وفصل العناصر المناوئة لبريطانيا ولجبهة الحلفاء والتي كانت تعمل داخل الجيش واجهزة الحكومة وبين اوساط الشعب ، مما اقلق بال الانكليز ودفع بهم للضغط على الوصي وعلى اعوانهم في الوزارة للتاثير على المدفعي للتحرك الفعلي في هذا المجال ولكن المدفعي ـ المعروف لدى الانكليز بعناده ـ لم يتجاوب كثيرا . وفي تقرير ، قبيل استقالة المدفعي ، كتبه السفير البريطاني ، يصف فيه عدم استجابة المدفعي لتعليماته وعدم تحسسه بحراجة الاوضاع الداخلية في العراق ويظهر فيه السفير انه قد نفد صبره في العمل مع المدفعي ويهيء اذهان وزارة خارجيته الى قرب نهاية جميل المدفعي وبقدوم شخصية متعاطفة ومتحسسة بخطورة الاوضاع الداخلية والمرحلة الحرجة التي يمر بها العراق ، يقول التقرير :

« لقد تصرفت حكومة المدفعي وكان احداث مايس تشبه اي انقلاب حكومي آخر ، حيث تتغير حكومة وتاتي اخرى .. والذي اصبح امرا معتادا منذ وفاة الملك فيصل الاول .. ويعامل المدفعي (احداث مايس) وكانها فصل آخر من فصول مسرحية مؤسفة فيدعو الى غلق الستارة عنها بدافع من الكرم والشهامة (روح الاحسان) !! فالموظفون الحكوميون تقاعسوا (في متابعتهم) عندما راوا الوزراء انفسهم يتدخلون للتوسط لصالح اسوء المخالفين (المعادين لبريطانيا) ، ونتيجة لذلك فقد تشجعت دعاية قوية ضد البريطانيين ونمت بقوة وحجم ..

ان (استرخاء) جميل المدفعي هذا قد ادى الى اعادة حجم (دعاية ومكائد النازية) خلال الصيف (وخاصة في المدن)(10) ، بالاضافة الى هذا التقاعس والاسترخاء في ملاحقة اعداء بريطانيا (الحليفة) ، فانه حد من تدخل السفارة البريطانية العلني في امور العراق الداخلية واستمر بعدم الاستجابة الكاملة لتعليمات وتوصيات السفارة البريطانية في ضرورة تشديد القبضة على جميع العناصر المناوئة لبريطانيا ، وبتطهير الجيش والحكومة منهم واعتقال العناصر النشيطة والتي كانت تقلق بال السفارة ، خاصة ان الالمان كانوا يحرزون انتصارات في جبهات القتال في شمال افريقيا وجنوب اوربا ، وقد دفع اعضاء السفارة البريطانية للعمل على اسقاط وزارة المدفعي ، اول الامر ، من الداخل وذلك باحداث خلاف بين اعضاء الوزارة واثارة المشاكل مما يضعف الوزارة ويجبرها على الاستقالة ، فدفع المستر هولمان (احد اركان السفارة البريطانية) وزير المالية ابراهيم كمال ـ وهو معروف بولائه للانكليز وعدائه لنوري السعيد بنفس الوقت ـ الى الاحتجاج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ جميل المدفعي
■ نوري السعيد

والاعتراض على سياسة المدفعي وتقديم الاستقالة « احتجاجا على فشل الحكومة في قمع العناصر الهدامة داخل البلاد » ملوحا لابراهيم كمال باحتمال تاليفه الوزارة المقبلة »(11) .

لقد شعر المدفعي برغبة الانكليز في اقالته وتحسس ضغوط الوصي والسفارة البريطانية ، وكان نفسه زاهدا في البقاء في الحكم لقاء الانصياع الكامل لرغبات بريطانيا بخلق جو متوتر واعتقالات واسعة فقدم استقالته في 21 ايلول 1941(12) .

وفعلا فقد كلف الوصي ابراهيم كمال بتشكيل الوزارة ـ كما وعده (هولمان) ـ ولكن جهوده لم تثمر حيث وقف نوري السعيد ـ وكالعادة ـ حجر عثرة امام محاولة تاليف الوزارة . ومن الجدير بالذكر ان ابراهيم كمال لم ينجح طيلة حياته في تشكيل وزارة واحدة رغم دعم السفارة البريطانية المتواصل ومحاولتها مرارا اصعاده الى خشبة المسرح السياسي العراقي .

وفي هذه الاثناء جرت اتصالات بين السفير البريطاني ونوري السعيد والذي كان خلال فترة حكم المدفعي (شبه مبعد) في القاهرة، كوزير العراق المفوض هناك ، وقد نتج عن هذه الاتصالات ان وافق نوري السعيد على المطاليب التي تقدم بها السفير البريطاني كاملة وبهذا ضمن نوري السعيد رئاسته للحكومة الجديدة .

وقد ابلغ السفير البريطاني الحكومة البريطانية ـ وزارة الخارجية بهذا الاتفاق ، فكتب يقول :

« لقد استدعي نوري السعيد من القاهرة لتشكيل وزارته يوم 9 تشرين اول . وكان رئيس الوزراء قد وعدني ـ قبل تكليفه رسميا ـ بالتعاون التام واعلن تصميمه على نهج سياسة نشيطة »(13) .

في الواقع ، ان نوري السعيد ، قد قدم هذه الوعود الى السفير برسالة خطية تتضمن 8 نقاط اساسية تشكل محور سياسة حكومته والتي وعد بنهجها في سبيل خدمة المصالح البريطانية ، هذه الرسالة التي تضمنت الوعود والتي ضمنت لنوري السعيد رئاسة الحكومة يكشف سرها الوزير المفوض الامريكي ـ نابنشو ـ في تقرير بعثه الى وزير خارجيته . ينص التقرير على ما يلي :

« في الليلة الماضية ، سمح لي السفير البريطاني بقراءة رسالة نوري السعيد التي تتضمن سياسته التي يعد بها السفير والتي هي اجابة على اسئلة مباشرة طرحها عليه السفير نفسه :

اولا : نوري يعد بتنفيذ المعاهدة الانكليزية ـ العراقية بصورة كاملة، وخاصة بالنسبة لتحضيرات بريطانيا الدفاعية والمواصلات .

ثانيا : سيطهر (نوري) الجيش العراقي من العناصر المؤيدة للمحور وسيعمل على تقوية الجيش لفرض الامن (الاستقرار) الداخلي بعدد لا يزيد على (25٫000) ولا يقل عن (15٫000) عسكريا ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اغلبهم عن طريق التطوع وباقل عدد ممكن عن طريق التجنيد الاجباري والعمل على عدم تجنيد ابنـاء العشائر والقبائل (بهذه الطريقة سيخلق استحسانا كبيرا وشعبية (له) لدى العشائر) .

ثالثا : سوف يقوم باجراءات قضائية (قانونية) شديدة ضد رشيد عالي الكيلاني وجماعتـه (من الذين يتحملون المسؤولية الكبيرة في الاحداث الاخيرة) (الشيء الذي ادى الى سقوط حكومة المدفعي بسبب فشلها في اتخاذ مثل هذه الاجراءات) .

رابعا : سوف يفصل كـل مؤيدي المحور من موظفي الحكومة وسوف يعتقل (يسجن) كل العناصر الخطرة في معسكرات للتجميـع (الاعتقـال) (Concentration Camps)

خامسا : سوف يحقق اصلاحات في وزارة المعارف ، حيث سيفصل كل المعلمين الذين يؤيدون المحور وسوف يغير المناهج والكتب المدرسية التي تبعث على روح الاثارة (حيث ان الدعاية ضد البريطانيين والتي يعتنقها الطلاب ، كان لها اعظم النتـائج والهدم) .

سادسا : سوف يحقق اصلاحات تنظيمية وادارية في الوزارات الاخرى ، وخاصـة وزارة الداخلية ، تحت وصاية وارشاد المستشار البريطاني لتلك الوزارة .

سابعا : سوف يتخذ خطوات لغلق مفوضية حكومة فيشي الفرنسية ومفوضية اليابان . لقد اخبرني نوري بانه ينوي تهيئة الراي العام لهـذه الخطوات وذلك بالقاء خطاب يشكر فيه الاقطار التي وقفت بجانب الوصي والحكومة العراقية الشرعية ، مثل بريطانيا وامريكا وتركيا ومصر .. الخ . ويدين تلـك البلدان التي تؤيد دول المحور مثل فرنسا واليابان.

ثامنا : يعد نوري بعدم اثارة قضية فلسطين والقضايا العربية خلال فترة الحرب . هذه النقطة مهمة جدا لان الاثارة والهياج (بسبب موقف بريطانيا من فلسطين) السبب وراء تطور الشعور ضـد البريطانيين وهيا احسن عتاد للدعاية الالمانية والتي توجت بمعارك مايس) .

ان لدى نوري فرصـة نادرة ، بوجود القوات البريطانية في العراق، لتحقيق هذه الاصلاحات الضرورية دون الخوف من وقوع انقلاب ضده . ومع هذا فانه توجد نقاط في برنامجه والتي قـد تؤدي بسهولة الى حصول خلاف داخل وزارته وقـد تدفع الى حصول محاولات لاغتياله ويبدو انه على علم بهذه الاحتمالات»(14).

هذا التقرير يوضح خصائص نوري السعيد وبقية الساسـة العراقيين الذين اعتلوا خشبة المسرح السياسي في تلك الفترة وسقطوا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد ثورة 14 تموز 1958 المباركة هـذه الحفنة من السياسيين التي كانت تأتمر بأمر الدول الاستعمارية المستغلة وتندفع في خدمة دولة اجنبية وضمان مصالحها قبل ان تفكر بخدمة الوطن واسعاد ابناء الشعب وتفضيل مصلحة بريطانيا الاستعمارية التي كان لها اليد الطولى في تفتيت وحدة الامة العربية وتقسيمها الى دويلات واستغلال جميع مواردها الطبيعية واعطاء جزء عزيز من اجزائها هبة للمصابـة الصهيونية العالمية لتمشية المصالح والمطامح الاستعمارية في الشرق العربي ، ومع هذ نجد الساسة يتسابقون على تقديم الخدمات والوعود والعمل الدائب على تحقيقها . والنقطة الثامنة في رسالة نوري السعيد للسفير البريطاني وعده بعدم اثارة قضية فلسطين والقضايا التي تهم الامة العربية لكي لا ينعكس رد فعل الجماهير على بريطانيا « الحليفة» ولكي يتناسى الشعب العربي قضية شعبه المجروح في فلسطين ـ مع هذا كان نوري السعيد ولحين نهايته عقب ثورة 14 تموز ـ يتبجح بانه يعمل لتحرير فلسطين ويسعى لتحقيق وحدة العرب !(15) .

لقد قام نوري السعيد بتاليف وزارته بنشاط ملحوظ لتنفيـذ الوعود التي قطعها على نفسه امام السفير البريطاني ولم يخف جهدا في القيام باي عمل يخدم به مصالح الحليفة الكبرى ويحقـق طموحات السفير البريطاني حتى لو كان هذا العمل ضد مصلحة العراق وشعبه وحتى لو كان على حساب اهمال امور البلد وبؤس ابنائه .

وقد نال نوري السعيد اعجاب السفير البريطاني مما جعله يكتب في تقريره السنوي لعام (1941) :

« في تطبيـق التحالف الانكليزي ـ العراقي ، يجب ان اسجل ان الحكومة الحاضرة تعتبر مثلا يحتذى به »(16) .

اما في مجال السياسة الداخلية ، حيث تقلد صالح جبر مسؤولية وزارة الداخلية ، وكانت السفارة البريطانية ترعاه وتمهد الطريق لاحلاله محل نوري السعيد(17) ، كعنصر انظف واجد واقل اعداء ، باعتباره « واحدا من احسن السياسيين العـراقيين » الموجودين في الساحة(18) ، هذا الارتياح كان نتيجة لما اظهره صالح جبر من جدارة وهمة في ملاحقة العناصر المعادية لبريطانيا وخدماته التي قدمها لصالح المجهود الحربي البريطاني وولائه الذي لا غبار عليه لبريطانيا العظمى وسفارتها في بغداد ، حيث كانت السفارة تتابع الامور الداخلية بتقارير دقيقة وباستمرار . ففي مضمار القضاء على العناصر المناوئة للسياسة البريطانية يقيم السفير البريطاني جهود وزارة نوري السعيد : ـ

« لقد استمرت حكومة نوري السعيد في قمع جميع النشاطات المعادية للتحالف الانكليزي ـ العراقي وقد كانت نتائج هذه الاجراءات مرضية بصورة عامة ،لقد اعتقل بين 30 الى 40 شخصا جديدا من ارباب المشاكل وارسلوا الى معتقل الفاو حيث يمكث الآن حوالي 170 سجينا »(19) .

وكان السفير البريطاني واعضاء السفارة يتابعون اخبار المعتقلين ويبعثون الى حكومتهم بتطور الاعتقالات وبنـاء المعتقلات الجديدة لاستيعاب الاعداد القادمة ، فبالاضافة الى معتقل الفاو كان هناك معتقل نقرة السلمان كما استحدث « معتقل العمارة »(20) .

ورغم الجهود التي بذلها نوري السعيد وصالح جبر في مطاردة العناصر المناوئة للحكومة البريطانية وما حققاه من سجن واعتقـال وتشريد الاعداد الكبيرة ، فقد بقيت هذه الاجراءات دون طموح السفير البريطاني ـ المتشبع بروح الديمقراطية الغربية السمحة ! ـ حيث كان يطالب بالمزيد من الاجراءات الشديدة بحق هذه العناصر وبالمزيد من الاعتقالات ـ وكان السفير يتهم نوري السعيد وصالح جبر بالوقوع تحت تاثيرات محلية او صداقات قديمة تمنعهم من التحرك للانقضاض على كل من يحمل افكارا مؤيدة للحركة النازية او معارضة للحلفاء ـ

وبالطبع فان السفارة البريطانية تضع جميع العناصر الوطنية والقومية المعادية للاستعمار البريطاني تحت مظلة ـ العناصر المؤيدة لدول المحور والنازية بدون تمييز . كما اخذت بعد سني الحرب تطلق كلمة شيوعي على كل عنصر وطني معادي لنظام الحكم الملكي الجائر .

لهذا وجد السفير البريطانى نفسه في حاجة للضغط على نوري السعيد وصالح جبر لتقوية قبضتهم على الاوضـاع الداخلية فكتب تقريرا يقول فيه :

« لقد قدمت انذارات ملحـة لرئيس الوزراء ووزير الداخلية انبههما فيها بانه لا زال هناك اعداد كبيرة من الاشخاص مطلقي السراح وهم يعملون بشكل خطر لصالح المحور »(21) .

ولم يكتف السفير البريطاني باجراءات اجهزة وزارة الداخلية في مراقبة وتوقيف العناصر المناوئة ، فقد قامت اجهزة الاسـتخبارات البريطانية التابعة للسفارة بتجميع قوائم باسماء وعناوين الاشخاص المشكوك بامرهم وخاصة الذين لم يعتقلوا بعد وقدم السفير هـذه الاسماء الى وزير الداخلية طالبا احتجازهم كما كتب يقول :

« قامت اجهزتنا الامنية باعداد قوائم باسماء العناصر الخطرة والذين لا زالوا يتمتعون بحريتهم ، وفي يوم 22 مايس (1942) قمت بتقديم هـذه القائمة ـ والتي تحتوي على 75 اسما الى وزير الداخلية ، وحثثته على احتجاز هؤلاء الاشخاص ولكنه لم يتحرك فورا ولهذا لا زلت في ضغط مستمر عليه »(22) .

وقد قدم السفير كورنواليس في بداية عام 1945 تقريرا شاملا يقيم فيه المرحلة التي قضاها في العراق كسفير لبلاده منذ عام 1941 ، ويبرز في التقرير نجاح مساعيه في اعادة تثبيت مركز بلاده في العراق وفي تحقيق المصالح البريطانية ويظهر مدى سيطرة السفارة على سياسة الحكومة العراقية ويؤكد على تطور العلاقات البريطانية ـ العراقية تطورا مطردا وحتى على مستوى ابناء الشعب في العراق وعلاقتهم الطيبة وشعورهم الجيد نحو قوات الاحتلال ، ويعطي برهانا على مستوى العلاقات الجيدة ـ وهو طبعا خلاف للواقع ـ فيقول :

« ان الحكومة العراقية قامت مدفوعة بذاتها باعتقال العناصر المخربة وحاكمت واعدمت ثلاثة من اعضاء المربع الذهبي الذين وقعوا بين ايديها (الشهداء) محمود سلمان ، فهمي سعيد وكامل شبيب ، بالاضافة الى اعدام (الشهيد) البطل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يونس السبعاوي ،

كذلك ألقت في السجن كل وزراء رشيد عالي»(23).

في نفس الوقت – ومنذ تسلم نوري السعيد رئاسة الوزراء فقد توجه –كما وعد نوري السفير البريطاني– لاضعاف الجيش العراقي وكسر عزيمته وانجز بعض خططه في تقليص الجيش وتحويله الى قوة امن داخلية تحمي الحكم من ثورة الشعب وتحقق للساسة(العصابة القديمة ، كما تسميهم بعض التقارير البريطانية والامريكية) الامن والهدوء والاستقرار للاثراء على حساب الجماهير الكادحة . فقد احال على التقاعد وفصل من الخدمة وسجن اعدادا كبيرة من الضباط ومن مختلف الرتب(24) ، كما تعمد نوري السعيد اهمال تطبيق التجنيد الاجباري بين ابناء العشائر والارياف ليكسب شعبية بين الشيوخ ورجال الاقطاع .

كتب السفير البريطاني تقريرا في نهاية عام 1941 يذكر نشاط نوري السعيد في اضعاف الجيش يقول فيه :

« في اليوم السادس من كانون اول (1941) اعتقل عشرون ضابطا من ضباط الجيش العراقي ولقد علمت ان رئيس الوزراء قد اعتقل وطرد حوالي 80 ضابطا لحد الآن ، لقد وضع رئيس الوزراء موضع التنفيذ خطة لتقليص كيان الجيش الفعلي وذلك بتحويل الفوج الثالث من كل لواء الى (كادر) اداري كما قد بدا في مناطق معينة بالغاء التجنيد »(25) .

وكما يبدو واضحا وفي عدة تقارير ان نوري السعيد اخذ على عاتقه شخصيا مهمة اضعاف الجيش واعادة بنائه لغرض تحويل قوته العسكرية المقاتلة الى هيكل تنظيمي يشبه قوة درك او جندرمة(26) ، واعاد الى الجيش المستشارين البريطانيين فرجعوا الى اماكنهم الحساسة التي كانوا قد تركوها سابقا(27) .

وقد ظهرت نداءات واقتراحات متفرقة ومن جهات رسمية تدعو الى حل الجيش العراقي لعدم وجود الحاجة اليه ، طالما ان العراق في اياد امينة في حماية القوات البريطانية ولعدم الاطمئنان الى عناصره وخاصة الشابة منها والتي تزخر بالروح الوطنية والقومية الوثابة ، وليس من شك ان السفارة البريطانية كانت من وراء هذه الاقاويل ، حيث كانت طريقتهم المعتادة في تحقيق سياستهم واعتبارها – بوقتها سياسة مكر وخداع ناجحة – وذلك بأن السفارة البريطانية تدفع باحد عملائها من الوزراء او الساسة (خارج الحكم)(28) لتقديم مقترح – كانوا قد املوه عليه – ثم يعملون على تأييده والضغط لتنفيذه ، وهكذا فقد توضحت هذه العملية بتقرير من السفارة البريطانية تذكر به وجود جماعات كثيرة تطالب بحل الجيش(29) فتقول :

« وزير العدلية ، كواحد من هؤلاء لا يزال يعتبر الجيش غير مؤتمن الجانب على الاطلاق ، وقد ذكر بانه قد نصح الوصي بوجوب حل الجيش واحلال قوة محله شبه عسكرية (جندرمة) وتكون تحت سيطرة وزارة الداخلية »(30) .

تلك الاجراءات والمحاولات لابد انها اضعفت قوة الجيش الفعلية كما اضعفت معنوياته القتالية فقد انتقد السفير البريطاني معنويات الجيش وقابليته القتالية عند تصدي الجيش لحركات بارزان عام 1943 ، ولكنه اعترف بأن سبب الضعف يعزى الى « اجراءات نوري السعيد منذ عام 1941 بسبب اعادة تنظيم الجيش والتي الهبت النيران فوق راسه اضافة الى ان الجيش لم يشف بعد من حوادث 1941 المؤسفة»(31) .

وعلى النقيض من ذلك فقد سارت حكومة نوري السعيد والحكومات التي تلتها بتقوية الشرطة وتطوير تنظيمها وزيادة عددها فقد ارتفع عدد الشرطة من 12ر266 في عام 1941 الى 21ر730 في عام 1947(32) وبالاضافة الى تعيين خمسة آلاف شرطي سري(33) .

في آب من عام 1944 وفي عهد حكومة حمدي الباجه‌جي ، كلف الجنرال رنتون والذي اعيد تعيينه مفتشا عاما للجيش العراقي ، بتقديم دراسة عن اصلاح واعادة تنظيم الجيش العراقي وقد قدم دراسته التي تتضمن الغاء فرقتين من الفرق الاربعة التي يتكون منها الجيش العراقي – وجعل فرقة واحدة منها متهيئة للفعاليات العسكرية والفرقة الاخرى لاغراض التدريب(34) وكنتيجة واحدة من نتائج تطبيق هذا المقترح سيجعل 400 ضابط بدون ملاك وبالتالي يجب احالتهم على التقاعد ، وقد عارض تحسين علي – وزير الدفاع آنذاك هذا المقترح (ويجب ان يذكر ان علاقة نوري السعيد بتحسين علي كانت غير جيدة – ويعزو نوري السعيد استقالته الاخيرة في 3 حزيران 1944 واختلافه مع الوصي الى وجود تحسين علي كرئيس ديوان البلاط الملكي وخلقه للمشاكل وتحفيز الوصي ضده) وان تعيينه في حكومة حمدي الباجه‌جي كان حسب رغبة الوصي ومن المحتمل جدا ان السفير البريطاني اوحى للوصي باستيزاره وبذلك يتخلص من تأثيره المباشر على الوصي وبعد فترة من الاستيزار تخلق له المشاكل فيستقيل من الوزارة وينتهي تأثيره وبذا سينهي نفسه بنفسه – هذه اللعب السياسية استعملت مع علي جودة الايوبي في (17 آب 1934) ومع رشيد عالي الكيلاني في (31 آذار 1940) .

ولكن معارضة تحسين علي لم تجد نفعا امام تأييد المقترح من قبل ثلاثة وزراء اقوياء (صالح جبر ، ارشد العمري ، ومصطفى العمري) وبدعم من الوصي(35) ، وهذا مما يدعم أن مشروع اضعاف الجيش كان من نسج السفارة البريطانية في بغداد .

وقد ابد السفير البريطاني – في تقريره السنوي لتقييم احداث عام 1944 – كعادة السفارة في نهاية كل عام – تطرق فيه الى ما اشار اليه تحسين علي بمعارضته لمقترح الجنرال رنتون – فكتب يقول :

« كان توجه اهتمام الوصي بامور الجيش في وقته» فمن خلال مقترح الجنرال رنتون ، المسؤول الجديد للبعثة العسكرية البريطانية والذي يشمل تقليص قوة الجيش من اربع فرق الى فرقتين وثالثة لاغراض التدريب . هذا المقترح (الخطة) لم يكن يتوقع قبولها من الوزراء بسهولة ، خاصة وانها تضمنت احالة عدد كبير من اصدقائهم القدامى والذين هم من بين الرتب العالية – ولكن جميع الوزراء وافقوا على المشروع – ما عدا تحسين علي–

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان الدافع للتبرلهم هو الضعف الذي ظهر واضحا من حركات الجيش في كردستان »(36) .

وهكذا تم نجاح خطة اضعاف الجيش الذي خططت له السفارة البريطانية واعدته البعثة العسكرية ووافق عليه مجلس الوزراء العراقي .

في كانون الاول 1943 ، قررت حكومة نوري السعيد اعلان الحرب على دول المحور وبجانب دول الحلفاء ، الاعلان الذي لم يقابل بضجة كبيرة(37) ، وبعدها بأيام وقعت الحكومة بيان هيئة الامم المتحدة في واشنطن حيث كانت قد فتحت قنصلية عراقية راسها علي جودة الايوبي(38) .

كما احدثت وزارة نوري السعيد تغييرات في وزارة المعارف وجرى نقل وفصل المدرسين ومدراء المعارف العامين ومدراء معارف الالوية و – على حد قول السفير البريطاني – « اجبر نوري السعيد على نقل مديري المعارف العامين سامي شوكة وفاضل الجمالي – وكانا قد ابقاهما نوري السعيد في هذا الموقع الحساس بسبب علاقته الشخصية (خاصة بسامي شوكة) ورغم اتهامهما بالنازية و « رغم تاريخهما الاسود »(39) .

في تشرين اول 1943 ، انتهت المدة القانونية للبرلمان العراقي وهو اول برلمان يمضي دورته الانتخابية كاملة رغم مرور ادوار سياسية مختلفة (نفس البرلمان الذي صوت على خلع الوصي في 1941) ، وقد قرر نوري السعيد بالاتفاق مع صالح جبر اجراء انتخابات جديدة وتعاونا في تهيئة قوائم باسماء المرشحين الموالين لهما والذين يستحقون المكافآت لقاء خدمات وافضال سابقة ، ويجب ان لا يغيب عن ذهن القارىء ، ان معظم – ان لم يكن جميع الانتخابات التي جرت في العراق منذ تأسيسه – كانت بأشراف وموافقة السفارة البريطانية ويؤخذ على الاغلب باقتراحات مستشار وزارة الداخلية ادموندس وهو صاحب اطلاع كبير باحوال العراق وهو الذي يقر اسماء المرشحين ويوازن القائمة وهي ليست انتخابات وانما عملية هزلية في تجميع مجلس نواب يمثل عادة الحكومة او رئيس الحكومة بالذات) .

ولكن نوري السعيد وصالح جبر فوجئا هذه المرة بالوصي عبدالاله وذلك بتقديمه قائمة كاملة باسماء الاشخاص الذين يرشحهم للنيابة وباصراره على انتخابهم(40) ، وقد عارض نوري السعيد وصالح جبر انجاح جميع مرشحي الوصي – وعدم فسح المجال لبعض من اعوانهما بالفوز بالمقاعد النيابية المرغوبة وقد هددا فعلا بالاستقالة . ومما زاد في اصرار وممانعة صالح جبر ان قائمة الوصي احتوت على ما لا يقل عن خمسة اشخاص ممن يكنون العداء الشخصي له بالاضافة الى عدة اسماء اخرى لا يرتاح لها نوري السعيد شخصيا ، ولكن المشكلة سويت بتنازل كبير من قبل نوري السعيد و « بناء على صبر وولاء نوري السعيد » على حد قول السفير البريطاني(41) حيث وافق نوري السعيد على قبول (99) مرشحا من اصل (105) مرشحين احتوتهم قائمة الوصي – واكمل نوري السعيد بقية القائمة وهكذا بقي في رئاسة الوزراء رغم استقالة ثلاثة من وزرائه – بضمنهم صالح جبر(42) .

تحدد يوم 5 تشرين اول 1943 موعدا لاجراء الانتخابات في جميع انحاء القطر – ويبدو انه في اليوم السابق قد هيئت جميع قوائم المرشحين (وبالاحرى الفائزين) – ما عدا لواء الحلة – مما حدا بالسفير البريطاني بارسال البرقية التالية الى وزير الخارجية في لندن يقول فيها :

« ستبدا الانتخابات في جميع انحاء البلاد يوم 5 تشرين اول – ما عدا لواء الحلة – حيث ان قائمة المرشحين لهذا اللواء لا تزال بانتظار موافقة الوصي »(43) .

وخرجت نتائج الانتخابات بدون مفاجاة لاحد ، وقد عقد المجلسان (النواب والاعيان) اول جلسة لهما لانتخاب الرئيس ، وفي انتخابات مجلس النواب ، وفي محاولة لنوري السعيد لاعادة الثقة لنفسه بعد ان هزها الوصي باصراره ولاثبات وجوده السياسي قام بتزوير انتخابات رئاسة مجلس النواب بشكل مسرحي ساخر انتهى بفوز محمد رضا الشبيبي وفشل حمدي الباجه جي(44) .

كانت اول مهمة قد حددت للبرلمان الجديد هي اقرار تعديل القانون الاساسي(45) والغرض الرئيسي من التعديل هو اعطاء سلطات وصلاحيات للملك في السيطرة على امور الدولة – وخاصة امام مجلس الوزراء والنواب ، افادة من المشاكل التي جابهها الوصي خلال احداث مايس وقبلها ، والتي اظهرت ضعف مركز الوصي في حالة اختلافه مع رئيس الوزراء وعدم امتلاكه الصلاحية القانونية لاقالته .

كانت اهم نصوص قانون تعديل القانون الاساسي هي :

أ – انتقال ولاية العهد لارشد رجل عراقي من اكبر ابناء الملك حسين.

ب – للملك صلاحية اقالة رئيس الوزراء .

ج – زيادة عدد الاعيان من عشرين عضوا الى ما يساوي ربع عدد مجلس النواب (زيادة 8 اعيان) .

د – لا يقل عدد الوزراء عن السبعة (وبضمنهم رئيس الوزراء) ويجوز تعيين نواب رئيس وزراء .

هـ – الفصل الخامس من القانون القديم اعيدت صياغته خاصة بما يخص صلاحيات المحاكم المختلفة .

و – ليس لمجلس الامة ان يشرع قانونا بالعفو عن الاشخاص الذين ارتكبوا جرما من شأنه المساس بتبديل شكل الدولة او الحكومة او ارغام الملك او الحكومة او تهديدهما على اجراء عمل ما »(46) .

يظهر واضحا من التعديل ان القانون قد وسع صلاحيات الملك (الوصي في ذلك الوقت) ووضعه في مركز دستوري فعال في اقالة مجلس الوزراء وحل مجلس النواب واختيار مجلس الاعيان وجعلت الملك في مركز اقوى من مركز السلطتين التنفيذية والتشريعية .

واستنادا الى تقرير – هندرسون – الوزير المفوض الامريكي في بغداد والذي تسلم منصبه بعد وفاة نابنغتون بالسكتة القلبية عام 1941) يتوضح ان الانكليز هم الذين عملوا على تعديل القانون الاساسي لتسهيل سيطرتهم على الحكم عن طريق الوصي – والذي كانوا يعتمدون عليه في تمشية امورهم (حيث كان لهم اليد الطولى في اختياره وصيا على عرش العراق بعد موت الملك غازي ولدى كانت القتال والقوة الجديدة

تؤكد تهيئة الامير عبدالاله للوصاية قبل وفاة غازي بعدة سنوات) .

ورغم ذلك فقد واجه البريطانيون بعض الصعوبات غير المتوقعة في التعامل مع الوصي واستلامه سلطات واسعة ـ وذلك بسبب نفسية الوصي عبدالاله القلقة والتي تتجسد في انقياده لرغباتـــه الشخصية وتغليبها على المصلحة العامة وحتى على توجيهات وتوصيات السفارة البريطانية .

وهذا ما تطرق اليه الوزير المفوض الامريكي حيث قال :

« عندما ساعدت الحكومة البريطانية في بدايـــة عام 1944 (الاصح 43) في اجراء تعديلات معينة على الدستور العراقي (القانون الاساسي) والتي وضعت صلاحيات اوسع في يد الوصي ، كـانت الحكومة البريطانية تحت الاعتقاد ، كما يبـدو واضحا ، ان من خلال الوصي ستهيء لها طريقـا معبدا في تمشية امورها وفرض السيطرة على من يتمرد من اعضاء الحكومة ...

ولكن الوصي ، وبصورة عامة ، برهن على شيء من خيبة الامل في هذا الشان ، حيث انـــه يسمح لرغباته الشخصية بالتحكم حتى في اختيار اعضاء الوزارة ، فيقرب من يحب ويبعـــد من يكره »(47) .

■ الهوامش :

(1) للاطلاع على مزيد من المعلومات عن حركة مايس 1941 يرجى مراجعة:

آ ـ اسماعيل ياغي : حركة رشيد عالي الكيلاني ، رسالة ماجستير منشورة (جامعة القاهرة) ، بيروت ، 1974 .

ب ـ محمود الدرة : الحرب البريطانية ـ العراقية ، بيروت 1969.

جـ ـ صلاح الدين الصباغ : فرسان العروبة في العراق ، دمشق1956.

د ـ عثمان كامل حداد : حركة رشـــيد عالي الكيلاني ، 1941 ، صيدا 1950 .

هـ ـ عبدالرزاق الحسني : الاسرار الخفية في حركة 1941 التحررية، صيدا ، 1964 .

(2) F.O. 371/31371/E 2596 8.3.1942
(1941 Annual Report)

(3) USNA 890 G.00/535 2.4.1941

اكتب هنا نص البرقية التي بعثها الوزير المفوض الامريكي ، نابنشو ، الى وزير الخارجية الامريكية يوصف بها هروب الوصي :

« 2-4-1941

هذا الصباح وفي الساعة 45 : 8 جاءني الوصي متخفيا بزي امراة محلية (عباءة) فوق فستان وقميص نوم ليطلب اللجوء في السفارة ، حيث كان قد انذر بوجود محاولات من قبل قواد الجيش الاربعة بمحاولـــة اجباره بالقوة على اقالة رئيس الوزراء (طه الهاشمي) واعادة تعيين رشيد عالي الكيلاني ، ارادة كانت سيفرض عليه ان يوقعها بالقوة . كنتيجة لاتصالات اجريت في السفارة بين الوصي والسفير البريطاني وانا ، اخذت الوصي ، وزوجتي التي جاءت لغرض التمويه ، الى القاعدة الجوية البريطانية في سيارتي قد استلقى الوصي على ارضية المقعـــد الخلفي وهو مغطى بسجادة . لقد عبرنا وبدون توقف نقاط تفتيش عسكرية على الطريق كانت توقف وتفتش سيارات اخرى .

الحركة بالاساس ضد الوصي لان قادة الجيش يخافونه وعندما يفشلون في العثور عليه فانه من المتوقع انهم سيقومون بحركة انقلابية خـــلال 24 ساعة ويقيمون دكتاتورية عسكرية » نابنشو .

وفي تقرير آخر يذكر نابنشو ان السفير البريطاني قد نصح الوصي (اشار عليه) بتشكيل حكومة دستورية جديدة في البصرة ، ولـكن المحاولات فشلت لعدم وجود اي تأييد شعبي مما اضطر الوصي الى الانتقال الى بارجة انكليزية كانت راسية في شط العرب ومنهـــا نقل الوصي بالطائرة الى فلسطين

USNA 890 G. 00/541 4.4.1941

(4) F. O. 371/45302/E2431 16.4.1945
(Review of events, 1941-45)

(5) USNA 890 G. 00/695 13.3.1944

(6) F.O. 371/27073/E 2663 28.5.1941

(7) لقد اتصل الوصي بجميل المدفعي اول الامر واعتذر ثم اتصل بعلي جودة ومحمود صبحي الدفتري واللذين اكدا على ضرورة تشكيل الوزارة من قبل جميل المدفعي ، واخيرا وافق المدفعي .

عبدالرزاق الحسني ، الوزارات العراقية ، الجـــزء السادس ، دار الكتب ، بيروت ، 1974 ، ص 6

(8) F. O. 371/31371/E 2596 8.3.1942

(9) Longrigg, S.H., and Stoakes, F., IRAQ, Praeger Publishing Co., N.Y. 1958, P. 102.

(10) F.O. 371/31371/E 2596 8.3.1942

(11) الحسني . الوزارات ، الجزء السادس ، ص (46) .

(12) المصدر السابق ، ص (48) .

(13) F. O. 371/31371/E 2596 8.3.1942

(14) USNA 890 G. 00/601 15.10.1941

(15) في تقرير للوزير المفوض الامريكي بعثه لحكومته يشرح فيه سياسة حكومة الباجه جي الجديدة ويقول انه في عام (1944) عمل وزير الخارجية ارشد العمري على منع الصحف العراقية من نشر اي مقالة تهـــاجم الحركة الصهيونية النشيطة في امريكا لئلا يؤثر ذلك على سمعة حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، وقد اظهر الوزير المفوض الامريكي عجبــه من هذا التصرف عندما اخبره به فاضل الجمالي (مدير عام وزارة الخارجية) .

USNA 890 G. 918/9-2944 29.9.1944

(16) F.O.371/31371/E 2596 8.3.1942

(17) Fo. 371/52402/E 9582 19.9.1946

(18) Fo 371/35010/E 3313 7.6.1943
Minutes by Rendel 9.6.43

(19) Fo 371/31371/E258 14.12.1941

(20) Fo 371/31371/E 2896 8.3.42

للاطلاع على قوائم المعتقلين ، راجع ، الحسني ، الوزارات ، الجزء السادس ص‌ص60ـ65 .

(21) F.O. 371/31371/E4722 2.8.1942

(22) F. O. 371/35010/E4667 21.2.1943

(23) F. O. 371/45302/E2431 30.3.1945
(Review of events 1941-1945)

مما هو جدير بالذكر ان شخصية الشهيد يونس السبعاوي وافكاره الوطنية والقومية تظهر شخصية قيادية بصورة واضحة ـ حتى في تقارير السفارة البريطانية . وكان له من التاثير والشعبية مما دفع كرههم له وحقدهم عليه الى اعدامه وهو المدني الوحيد الذي اعدم مع الشهداء العقداء لاربعة .

(24) استنادا الى محمود الدرة ـ في كتابه الحرب العراقية البريطانية ـ ص (420) فقد احيل (879ر2) ضابطا على التقاعد بين عامي 1941ـ1947 . كذلك الحسني ، الوزارات ، الجزءالسادس ص‌ص196ـ199 (رسالة من الدرة الى الحسني) .

(25) F.O. 371/31371/E258 14.12.1941

(26) F.O. 371/31371/E 2596 8.3.1942

(27) الدرة ، المصدر السابق ، ص 421ـ420 .

(28) احد تقارير مركز الاستخبارات البريطانية ـ يذكر ان ثلاثة من وزراء حكومة نوري السعيد ـ لهم اتصال مباشر بهذا المركز . وقد وجد كاتب المقال ان فترة التقرير تقع ضمن الوزارة السعيدية السابعة والتي‌كانت تتالف من صالح جبر ـ وزير المالية ، تحسين العسكري ـ وزير الداخلية ، عبدالاله حافظ ـ وزير الخارجية ، عبد المهدي ـ وزير المواصلات والاشغال ، تحسين علي ـ وزير المعارف ، داود الحيدري ـ وزير العدلية ، عبدالمحسن شلاش ـ وزير الاقتصاد ، احمد مختار بابان ـ وزير الشؤون الاجتماعية ، نوري السعيد ـ رئيس الوزراء ووكيل وزير الدفاع .

USNA 890 G. 00/653 14.1.1943

(29) مقابلة مع نور الدين محمود ـ نقلا عن جعفر عباس حميدي ـ التطورات السياسية في العراق من سنة 41ـ53 ـ النجف الاشرف ، 1974 .

(30) F.O. 371/35010/E 1667 21.2.1943

(31) F. O. 371/40041/E1143 8.2.1944

(32) رسالة من محمود الدرة الى عبدالرزاق الحسني ـ الوزارات ، الجزء السادس ص 198 .

(33) حميدي ـ المصدر السابق ص 109 .

(34) المصدر السابق ص 141 .

(35) رسالة من تحسين علي الى عبدالرزاق الحسني ـ منشورة في‌الوزارات ، الجزء السادس ، ص‌ص224ـ227 .

(36) F.O. 371/45302/E608 9.1.1945

(37) F.O. 371/35010/E946 22.1.1943

(38) حميدي ، المصدر السابق ص 105 .

(39) F.O. 371/35010/E1667 21.2.1943

(40) F.O. 371/35012/E5768 27.9.1943

(41) F.O. 371/35012/E 5985 6.10.1943

(42) F.O. 371/40041/E 1143 8.2.1944

من خلال الوثائق البريطانية لفترة الثلاثينات والاربعينات يظهر واضحا ان نوري السعيد لا يكن المحبة الحقيقية لصالح جبر وكان الانكليز ، دائما ، يفرضون صالح جبر عليه لاستيزاره ويفضلونه على نوري السعيد لاسباب عديدة ظاهرها انه انزه واكثر تقدمية واصغر عمرا واكثر قبولا لدى الشعب العراقي وباطنها هو شق الشعب العراقي الى شقين متناحرين على اساس الطائفية ، وكما سنبين في مقال قادم ففي نهاية 1943 و 1944 ضاق الانكليز في بغداد ولندن ذرعا باسلوب‌نوري السعيد الكلاسيكي وطرقه الاوتوقراطية في الحكم واهماله لشعورجماهير الشعب وحالتهم الاقتصادية الصعبة‌ـخلال سنوات الحرب ـ ممادفعبهم الى محاولة لايجاد عناصر جديدة لامتصاص نقمة الشعب ودفعوا بالوصي الى السياسة الداخلية وتمشية امور الدولة والحد من سيطرة نوري السعيد .

(43) F.O. 371/35012/E5934 4.10.1943

(44) USNA 890 G. 00/687 8.1.1944

(45) F.O. 371/35012/E 6513 25.10.1943

للاطلاع على خلفيات تعديل القانون الاساس راجع :

Khadduri, M, Independent Iraq pp. 206-222

(46) F.O. 371/35010/E2199 6.4.1943

للاطلاع على كامل فقرات التعديل راجع : الحسني ، الوزارات ، الجزء السادس ص‌ص (147ـ158).

(47) USNA 890 G. 00/11-344 3.11.1944

F.O. = Foreign Office/British Public Office
USNA = United States National Archive
(State's Department)

وثائق وزارة الخارجية الامريكية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عيد ضمد الركابي ـ البصرة

الأصول التاريخية للموقف العربي في النظريات العرقية والطبقية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

افرزت حركة تطور المجتمع عبر مسيرتها التاريخية الطويلة عددا من المعضلات الاجتماعية الخطيرة التي استمرت تثقل كاهل الانسانية باعبائها وتلحق الضرر الكبير بحياة العنصر البشري وتعرض نتائج كفاحه المتواصل الى الضياع ، وتؤدي بحصيلة الخبرة والمعرفة الانسانية المتراكمة الى الهدر من خلال اضعاف عملية صراع الانسان مع الطبيعة من اجل السيطرة على قواها وتسخيرها لصالحه ، بتحويل دفة الصراع الرئيسي بين الانسان واخيه الانسان . ونتوخى في هذه الدراسة معضلتين او ظاهرتين رئيسيتين وثالثة تقترن بهما في بعض الاحيان اشعلتا تاريخ البشرية بنيران صراعهما وملأتا صفحاته بمآسي وآلام انسانه ، هاتان الظاهرتان هما الطبقية Stratification والعنصرية Racism وما يقترن بهما من التعصب المذهبي احيانا . ولاستكمال مستلزمات الدراسة اصبح من الضروري اتساع مقدمتها الى عدد من الفقرات التي تسهم في ايضاح بعض المفاهيم الهامة التي يتكرر ذكرها . فالحديث عن التمايز الطبقي والتفرقة العنصرية والمذهبية ومنشا الحضارة العربية ، ومتانة الخلق العربي عمل يتطلب ايضاح عباراته وتحديد معاني مصطلحاته ومسببات ظواهره العرقية : Stratification

عبرت المدرسة الاثنلوجية عن مفهومها في النظريات العرقية Race Theories باعتقاداتها عن اساس الحياة الاجتماعية . فهي ترى ان وحدة الجنس هي الاساس في الحياة الاجتماعية (1) وبالتالي فان كل جنس في اعتقادها يتميز بخصائص جسدية وذهنية موروثة ويختلف في مواهبه وقدراته عن الجنس الاخر وهو ما يسميه علماء الاجتماع بـ « المميزات الشعوبية » (2) . فالمجتمع الانساني على هذا الراي خليط من عدد من الاجناس التي تتفاوت في خصائصها وفضائلها ، ففيها الجنس الراقي الموهوب حامل بذور التقدم والحضارة وفيها الجنس الخسيس الذي تنعدم فيه كل

المؤهلات . ومن هنا جاء تقسيمهم للاجناس معتمدا على عدد من المعايير التي تتخذ من الفروق الفيزيقية « الصفات الجسدية » اساسا لتقييمها سالكة طريق تفرقة متعصبة بين الاجناس Racial .

وترجع الجذور التاريخية لهذه النظريات الى عصور الحضارات القديمة كما سيرد تفصيل ذلك . وقد كان الاعتقاد بهذه النظرية سابقا من اجل تبرير النظام الاجتماعي المتناقض في الامبراطوريات القديمة . وكما نعتقد ان المفهوم الحديث للتفرقة العنصرية « الصهيونية/الامبريالية » والتي تقوم على اساس تبرير حكم الطبقة باسباب عرقية ، ومن ثم افتعال انتاج مفاهيم متناقضة كالدمج المصطنع بين العرق والدين ، وبين القومية والطبقة ، وبين القومية والاممية (3) . هذه النظرية تعود اصولها الى حضارات العبودية والاقطاع حيث تستند الى فكرة الدمج بين العرق والطبقة من خلال اقامة علاقة جدلية بينهما ، فتكون هناك قبائل من عرق معين محتكرة للسلطة تميز نفسها بعرق سامي تعتبره ارقى من بقية الاجناس وتكون سلالة هذا العرق طبقة وراثية للامتيازات . فعلى سبيل المثال يؤكد ارسطو على تميز الشعب اليوناني دون غيره من الشعوب بقوة العقل والجسد . ويذهب الرومانيون الى مثل هذا الاعتقاد فيوسعون امبراطوريتهم ويحاولون ان يحكموا العالم باسره (4) . واذا العلم الحديث قد رفض نظرية التفوق العنصري والتوصل الى عكس نتائجها فانه اثبت ان الجنس الخالص النقاء وان لم يكن كاملا فانه كشف ان المجتمع الذي تجنب الاختلاط والتمازج تعرض الى التاخر والركود الفكري والمادي ولم يسعفه اصله او عرقه الذي ادخله اصحاب نظرية الجنس بصف الاجناس الراقية امثال نيتشه وشبنجلر وغيرهم .

الطبقية : Raciam

ينسب علماء الاجتماع والاقتصاد الاشتراكي ظهور الطبقة ومن ثم النظام الطبقي الى ظهور الملكية الفردية لاول مرة في التاريخ بعد انحلال المشاعية البدائية وحيث اصبح بين الجماعة فئة مالكة لوسائل الانتاج واخرى مجبرة على العمل الاجير تحت ادارتها وسيطرتها وجاء في التفسير المادي للتاريخ ان هناك طبقتين في اي مجتمع ومرحلة تاريخية يحددهما موقع كل منهما من الانتاج (5) . ومما تقدم يظهر ان اصل الطبقة ومن ثم النظام الطبقي يرجع الى الاسباب الاقتصادية القائمة في المجتمع (6) وان موقع الطبقة من الانتاج هو الذي يحدد صفتها الطبقية كونها اجيرة تؤدي العمل الاجتماعي او مالكة لوسائل الانتاج ، ومن ثم يترتب على مركزها الاقتصادي او المهني وضعها الاجتماعي كونها مجموعة تعيش في ظل ظروف مادية وثقافية متشابهة تملي عليها واقعا نفسيا وفكريا متقاربا يقترن بوجود قيم اجتماعية ومعايير خاصة تميزها عن غيرها من الجماعات الاخرى مما يجعلها بشكل طبيعي منغلقة على نفسها Closed Class System الا في مجال القوانين العامة .

وينتج عن اوضاعها المتشابهة بروز تنظيم اجتماعي "Social Orgainzation" يعبر عن تضامنهم ووحدة مصالحهم ويرفع من درجات الوعي الطبقي Class Consciousness بين صفوفهم مما يزيد درجة تضامن الجماعة وانسجامها فكريا عبر ايديولوجية سياسية تجسد مصالحها المادية وتحدد مواقفها من الجماعات الاخرى او الطبقة الحاكمة . ومع التسليم بوجود مستويات متعددة ضمن حدود الطبقة ومن ثم وجود اختلافات ثانوية فانها تندرج تحت السمات العامة للطبقة . وعلى ضوء هذه الاسس العامة للطبقات تظهر المصالح الطبقية يقينا متعارضة في الانظمة الاجتماعية مما يولد صراعات داخلية في المجتمع وتمارس الطبقة المستغلة كفاحا طبقيا Class Struggle ضد الطبقة الحاكمة كما تدخل الطبقة الحاكمة بدورها بالاضافة الى صراعاتها الداخلية في مجتمعها ساحبة المجتمع باكمله الى صراعات تناحرية مع المجتمعات الاخرى كما يقتضيه استمرار مصالحها سواء في الحضارات القديمة لامداد اقتصادياتها بالعبيد (من الاسرى) واتساع رقعة استثماراتها او ما شهده العصر الحديث من اشكال الاستعمار القديم والحديث بالاستيلاء على ثروات الشعوب . وفي كل الحالات يتعرض العنصر البشري الى الخسائر المادية والمعنوية سواء داخل المجتمع الطبقي نفسه او خارجه ، وسواء تمثل ضرره في درجة الاستغلال والاضطهاد القومي او في تبديد الثروات القومية للشعوب وحرف مسار التطور الحضاري وتضييع الجهود الحضارية .

نظرة الى منشا الحضارة

لا شك ان للبيئة الطبيعية تاثيرا كبيرا على سير عملية التطور (7) ، وان في هذا المجال عددا مهما من الاراء المتعددة ، لكننا آثرنا هنا الاشارة الى آراء متقدمة ورائدة سبقت الجميع للعلامة العربي ابن خلدون (8) واخرى معاصرة للمؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي "Toynbee" بصدد نشوء الحضارة الانسانية وتطورها (9) .

كتب العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عن اثر البيئة الطبيعية على نشوء وتطور الحضارة ، وحدد المنطقة العربية الحالية مع امتدادها حتى بلاد الصين ـ مركزا على شمال الجزيرة العربية بما فيها العراق والشام ـ والتي اطلق عليها (بالمنطقة المعتدلة) باعتبارها مهد الحضارات الانسانية العظمى ومهبط الرسالات السماوية ذلك عبر تحليل عميق يعتمد على قوة العامل الايكولوجي في النمو الحضاري (10) .

فيرى ابن خلدون انه قد يضطر كل شعب التماسا للمحافظة على بقائه ورخائه الى استثمار كل ما تمدهم به ارضهم وزمانهم من خيرات (11) وقد صاغ المؤرخ توينبي فكرته في نشوء الحضارة وتطورها تحت عبارة التحدي والرد على التحدي . فالبيئة الطبيعية والاجتماعية تتحدى الانسان والانسان لكي يستمر في البقاء ولكي يتطور لا بد من ان يرد على التحدي ردا يناسب امكانياته . وعلى هذا الرد يعقد توينبي اهمية كبيرة « ان نمو الحضارات وتفككها يرتكزان على احوال واتساع الردود ـ نجاحها واخفاقها ـ والى التحديات الموجهة من البيئة الطبيعية او الاجتماعية » (12) .

ويتجاوز ابن خلدون آثار البيئة الطبيعية على الجانب التقني في تطور الحضارة الى قدرات الانسان الذهنية ، فيذكر ان البيئة الطبيعية الخصبة الدائمية الزرع والتي لا تحفز الانسان على المثابرة والكفاح الدؤوب والتفكير المبدع واصفا سكانها بالبلادة « فانا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف اهلها غالبا بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم » (13).

ووفق هذا الراي تمارس البيئة الطبيعية والاجتماعية باستمرار

تحديات للانسان تتفاوت في حدتها ، فالصحراء المجدبة والبحار العظمى والانهار الجامحة تقف حائلا امام سعي الانسان في الحصول على خيراتها ، ولكي ينتزع من بين احضانها ثرواتها المنيعة لا بد من الكفاح والصمود امام هجماتها باتخاذ الاجراءات الاصلاحية والوقائية للتقليل من شدة غلوائها ، ثم لا بد بعد ذلك من زيادة الامن وتحقيق التقدم ، اي الارتفاع الى مستوى الرد الملائم ثم الرد المبدع بعد توفير مستلزمات الصراع المتكافئة لكبح جماحها وترويضها من اجل تيسير استغلال مواردها .

فالمنطقة التي حددها ابن خلدون ــ الارض العربية ــ (14) لا توفر للانسان عيشا من دون استخدام كافة قدراته الجسدية والذهنية بل تمهد لانسحابه اذا ما تهاون في اتخاذ الردود المناسبة ، ومن هنا تنبثق ضرورات تطوير تقنياته من اجل تحصين مواقعه والانتقال الى مواقع اعلى في اطار صراعه .

شيء هام نؤكده هنا هو العامل الذاتي في نشوء الحضارة وتطورها والذي يتمثل بالانسان . فالعوامل الطبيعية في البيئة العربية من لقاء الصحارى مع البحار ومع الانهار والبحار فيما بينها ومنعة الموارد والاعتدال في المناخ ــ الذي يشير اليه ابن خلدون ــ هذه الميزات جميعها توجد مثيلاتها في مناطق اخرى من انحاء العالم لكن ليس كل صحراء مهبطا لرسالات السماء وليس كل نهر صانعا لحضارة كبرى كالحضارتين المصرية والعراقية القديمتين . الخ (15). وقد يقول قائل ان البيئة في هذه المنطقة قد اعدت الانسان جسديا وعقليا لممارسة العمل الحضاري ، ومهما كان الجواب واختلف التحليل فاننا نؤكد على توافق قدرات الانسان العقلية مع الظروف الطبيعية والاجتماعية مما يوفر فرصة امامه لاستخدام افكاره وتطوير خبراته ولعل هذا الجواب يصلح للرد على المتحاملين الغربيين الذين اتهموا العقل العربي بالبساطة والسطحية وهو منتج اعظم حضارة انسانية (16) .

فليس هناك رد مبدع بدون قدرة ذهنية كبيرة لدى الفرد او الجماعة ، سواء كان الرد على تحديات الطبيعة ام المجتمع . وما كان الانبياء الذين احدثوا في عصورهم تلك التحولات العميقة في الفكر والمجتمع الا عباقرة ومثلهم عظماء التاريخ . وقد جسدت عبقرية النبي محمد في عصر التاريخ طاقات كل العرب ، فكانت ابدع رد على تحديات المجتمعات الجائرة التي ساد ظلمها امم العالم فترات طويلة ، فانتج للعالم حضارة انسانية (الاسلام) لا عهد للبشرية بها .

عوامل انسانية الحضارة العربية

لم يقتصر اثر العوامل الطبيعية الماثلة في البيئة العربية على الجانب التقني في الحضارة العربية ، انما تمتد آثاره باستمرار الى الناحية الخلقية في الانسان . فاشكال نظم العمل في البيئة العربية الصحراوية الاولى ، كانت مقترنة بقيم اجتماعية وانماط في العيش وعلاقات اجتماعية اساسها التعاون والعمل الجماعي وما توجده هذه الصيغ من تنظيم اداري ديمقراطي يمتد افقيا وليس هرميا في تسلسله الوظيفي ، فورث العنصر العربي التقاليد الاولى التي تفتح عليها في خضم العمل الاجتماعي الذي واجه من خلاله تحديات البيئة ، وكانت آثارها ايجابية في الجانب الوراثي . فطبعت السجايا الخلقية العربية بالقيم البشرية الخالصة وظلت تتراكم عبر العوامل الوراثية مستقرة لفترات طويلة في البيئة العربية ، حتى اصبح عاملا رسوخ الخلق العربي وعناصره الايجابية من اهم العوامل التي منحت الحضارة العربية قدرة على الصهر والتفوق الحضاري (17) . فالاستعداد الكبير لدى الروح العربية على الامتزاج والتفاعل السريع مع العناصر الاخرى منذ النشاة الاولى جعلها تتخطى الحواجز المادية والنفسية القائمة بين القبائل داخل البيئة العربية وهذا العامل الاخير كانت له آثاره العميقة على تغيير (وحدات الوراثة لدى الانسان) فانعدام الحواجز المادية والنفسية ــ بين عناصره التي تصطنع العديد من القيود بين امتزاج طبقات المجتمع ــ تسهل من عملية الاختلاط بين قبائل المجتمع العربي ومختلف شرائحه الاجتماعية وتدفع بعملية تطوير الصفات الوراثية الى الامام بما يخدم مسيرة التطور (18) .

وقد حافظت الظروف الطبيعية وانماط الحياة الاجتماعية المتلائمة معها او التي نشات في ظلها على استمرارية هذه المزايا وظلت ينقلها العرب اينما حلوا . يقول الاستاذ لوبون « بيد انه توجد صفات نفسية ، وان شئت سجايا خلقية ، ثابتة ثبات الصفات التشريحية وانه سياتي يوم تكون فيه هذه الصفات النفسية التي اغفلها علم اوصاف الانسان الحديث، اساسا لتقسيم العروق »(19).

ولراي لوبون في تاثير البيئة الطبيعية العربية على انسانها اهمية كبيرة كونه ناتجا من دراسة معمقة للبيئة العربية ومدعومة بدراسات اخرى تستند الى تجارب واقعية وبحوث ميدانية ، فيقول في هذا الصدد (ان العالم لم يعرف قطرا طبع بجوه وارضه طابعه على شعبه كما طبعت جزيرة العرب بجوها وارضها طابعها على من يسكنها من الاهلين) (20) . وظلت الجزيرة العربية قبل وبعد التحول الاجتماعي والفكري الكبير (الاسلام) منبعا للتقاليد الانسانية تمد الاقاليم التي سكنها العرب واصبحت مناطق اختلاط بالقيم المذكورة من خلال الصلات والاواصر التي استمرت عبر مؤسسة الخلافة والمركز الديني والحياة الاجتماعية والتي ظلت ــ اي الجزيرة العربية ــ بعيدة عن اية تقاليد غازية في كل العصور (21) .

جوهر النظام الاجتماعي للحضارات القديمة

نشات في الفترة التي سبقت التاريخ الهجري واعقبته بقليل عدد من الامبراطوريات الكبرى عاصرت حضارات العرب القديمة في الجزيرة العربية حتى الربع الاخير من القرن الهجري الاول (708 ميلادية) ، كالامبراطوريات الفارسية والاغريقية والرومانية والبيزنطية .

كانت نظمها الاجتماعية ــ بالرغم من التقارب في المستوى التقني ــ تتباين تماما مع جوهر النظام الاجتماعي لحضارات جنوب الجزيرة العربية ووسطها ، اذ كان جوهر النظام الاجتماعي للاولى يقوم على اساس نظريات العرق (Race Theories) والفوارق الطبقية (Class Differentiotion) والتي تعتمد الاساس البيولوجي في تحديد الطبقات الاجتماعية ، اي الربط بين العوامل البيولوجية (كالجنس والصفات الذهنية والجسدية) وبين التمييز الطبقي وما ينتج عن الفهم من الربط بين الجنس والطبقة او بين العوامل الوراثية والطبقية (22) . ويكون هدف مجمل النظام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الامبراطوري والذي يمر عبر الصراعات التناحرية هو تامين مصالح الطبقات الحاكمة واستمرارها .

حضارات فارس :

الطبقية والعرقية والتعصب الوثني كانت الملامح الرئيسية للحضارات الفارسية التي سبقت الاسلام كالامبراطورية الاخمينية 558 ق.م والفرثيون 247 ق.م والساسانية 224 م (23) . وصف المسعودي في « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الاسس الاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها الامبراطوريات التي قامت في ارض فارس كاعتماد معيار العرق في توزيع الوظائف الامبراطورية والادارية واتباع التقسيم الرسمي للمجتمع طبقيا ودعم هذه الاتجاهات ببناء قومي سميك من القيم التمايزية والعادات والتقاليد الاستعلائية كاحتقار المهن واضطهاد الطبقات الاخرى واحتقار ذوي اليسار والسلطة «ابناء الحرفيين حتى لو كانوا من العباقرة» (24) ، (25) كما تفرض العبادات الوثنية على الشعوب التي تقع تحت سيطرتهم ، وتمارس الطبقات العليا استرقاق سكانها جماعيا واستخدامهم في الاعمال الجسدية ضمن شروط الاكراه المادي او القهر (Coercion) كما يساقون الى الحروب مكرهين « فكانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة اسيادهم الاقوياء » (26) . وفي عصر الاقطاع كان حكام الاقاليم والامراء هم الاقطاعيين « ومن الممكن افتراض ان كبار الامراء كانوا حكاما على الاقاليم التي بها اقطاعياتهم الاساسية » (27) . ويشير « كريستنسن » الى التشابه الكبير في التركيب الاجتماعي للنظام الاقطاعي في الدولة البرثية الفارسية والنظام الاقطاعي الاوربي .

اليونانيون :

وفي قلب المجتمع الافريقي تنتصب القيم الطبقية والعنصرية وتاخذ مكانها في اوجه نشاطهم المختلفة حتى لتغدو اهم المقومات الرئيسية في حضارتهم تقرها شرائعهم ويؤكدها فلاسفتهم (28) . ومن خلال نظرة تحليلية لطبيعة العلاقات الانتاجية ومن ثم الاجتماعية السائدة في المجتمع الافريقي الاثيني او الاسبرطي تظهر العلاقة الجدلية بين الطبقة والعرق في تقسيم المجتمع ، ذلك ان التقسيم الطبقي للمجتمع يستند الى نظرية العرق فتكون هناك بعض القبائل من عرق معين محتكرة لعدد من الوظائف والامتيازات وراثيا وتقف في قمة الهرم تليها قبائل من عرق آخر ياتي تقييمها بالدرجة الثانية وهكذا حتى يقف العبيد وهم من الناحية الجنسية ينتمون الى اقوام اخرى تم استرقاقهم الا ان تناسلهم من جيل الى جيل ظل يحمل لعنة التفرقة الاصلية . وهذا التقسيم قد عمق الفوارق بين فصائل المجتمع اليوناني واوجد نظاما للطبقات شديد التمايز فدولة اسبرطة مثلا يتجزء شعبها الى ثلاثة اجزاء يقف الاسبرطيون في الجزء الاعلى من الهرم Upperclass وتنحصر فيهم القاب الشرف والمناصب الكبيرة ويعتقدون بانتمائهم الى ارقى الاجناس (29) . يليهم بمسافات بعيدة (البيركي) Middle Class وهم سكان الضواحي عملهم الرئيسي الحرب ، فهم الجند . اما الطبقة الثالثة فتدعى (الهيلوتس) Lowerclass وهم العبيد من اهل البلاد الاصليين الذين كانوا تحت سيطرة اليونانيين قبل التوسع الاسبرطي (30) ويعملون في زراعة الارض والاعمال الشاقة الاخرى ويتميزون بالنقمة الشديدة والميل للثورة .

ولم يكن نتاج حضارتهم الفكري يختلف عن واقع الحياة او ينحو الى مثل اعلى في العلاقات الانسانية ، فآراء فلاسفتهم بمثابة تدعيم لمجتمعهم . فيرى ارسطو ان العبد خلق للخضوع والطاعة وعلى الاحرار ان يكثروا من اعدادهم (31) . ويدعو الفيلسوف افلاطون الى ان يكون الرق من غير اليونانيين وحتى (المدنية الفاضلة) ثمرة الفكر اليوناني المثالي هي مدينة تضم فقط الاحرار (32) ، وانها على مثاليتها فهي مثقلة بطبيعة الروح اليونانية (33) .

الرومانيون :

اعتقد الرومانيون (753 ق.م) بسمو اعراقهم وبمزايا جنسهم وطبقا لهذا الاعتقاد جاءت تقسيمات مجتمعهم الطبقية متلائمة مع التسلسل العرقي . فتحظى الطبقة (السيناتورية) landlord بامتيازات ومراتب فريدة في مؤسسة الدولة الامبراطورية تؤدي باستمرار الى تعميق الفواصل بين طبقات المجتمع من خلال التركز في الملكية التي يولدها طبيعة النظام الاقتصادي في ضغطه على بقية طبقات المجتمع . كتخلي الاحرار عن ملكياتهم او التوابع (Vassals) بسبب الضرائب والتحول الى عبيد في بيوت النبلاء (34) واعتبار الافراد الذين تحولوا عن طبقتهم الى مستوى العبيد Peasants طبقات وراثية اي يرث ابناؤهم تعاستهم ويتحدد وجودهم بالطبقة الجديدة (35) .

ولم تغير التعاليم الصريحة التي جاء بها الدين المسيحي الذي اعتنقه الرومان على يد الامبراطور قسطنطين في اواخر القرن الثالث الميلادي ، لم تغير من طبيعة النظام الاجتماعي او تقلل من حدة مظاهره الجائرة التي استهدفتها مبادىء الدين المسيحي . بل امتصت قوى المجتمع الروماني عنفوان الثورة المسيحية وافرغت محتواها الاجتماعي (36) وبالتالي تغليب الجوانب الروحية في هذه التعاليم ومن ثم خلق طبقة جديدة في المجتمع الروماني قاسمت الطبقات الممتازة مراكزها وفاقت عليها هي طبقة رجال الدين واصبحت ابتداءا من القرن الخامس الميلادي اكبر اقطاعية .

البيزنطيون :

اقام البيزنطيون في الشرق عام 395 ب.م الامبراطورية المعروفة باسمهم وفق الاسس المادية للحضارات التي سبقتهم ، فمارست بدءا من مطلع القرن الخامس الميلادي اقطاعياتها ، اقسى نظم القنانة الريفية للمواطنين الاصليين البرابرة والسود المجلوبين مما وراء الصحراء الكبرى (37)،(38) . وظل هذا التناقض الحاد ياكل كبد الامبراطورية ويعرضها الى حالات من التدهور والتوقف الحضاري حتى هبت عليها رياح الحضارة العربية الاسلامية واستاصلت جذورها تحت ضربات الجيوش العربية الفاتحة في شمال افريقيا عام (708 ميلادية) (39) وتكون بذلك آخر امبراطورية تحمل جوهر النظام الاجتماعي للحضارات القديمة قد ازيلت من المنطقة العربية لتحل محلها لاول مرة دولة تمتلك صلة رحم واواصر تاريخية مع سكانها الاصليين (40) .

حضارات العرب القديمة :

لا يوجد دليل تاريخي او مادي اكيد البت من خلال عملية تنقيب موضوعي للحقائق "Faot-Finding" يشير الى ان حضارات عرب الجزيرة قبل الاسلام كانت تسودها نظم العبودية او الاقطاع بمرتكزاتهما العرقية ومظاهرهما الطبقية ، كما دللت الوثائق والآثار والتاريخ المدون من وجود مثل هــذه الانظمة في الحضارات القديمة التي جاورت وعاصرت حضارات الجزيرة العربية حتى زوالها بالفتوحات العربية الاسلامية . كما لم تحظ الدراسات التي عممت نتائجها من خلال دراستها لعدد من المجتمعات بنصيب من الصدق لافتقارها الى مثل الدلائل المشار اليها . فالكتاب الذين حللوا اساليب الانتاج للنظم العبودية والاقطاعية في الحضارات القديمة ، اسباب نشؤها ومرتكزاتها الايديولوجية اعتقدوا لاسباب ايديولوجية بسيادة نظمها في كل المجتمعات التي عاصرت المرحلتين المتتاليتين بما فيها مجتمعات جنوب الجزيرة العربية التجارية ، كما يؤكد هذا الراي مجموعة من الكتاب الايديولوجيين المعاصرين من معتنقي هــذا المذهب (41) .

الذي امكن تحقيقه ان العبودية والاقطاع كانت انظمة ضاربة لحضارات ما حول الجزيرة العربية القــديمة استخدمت الرقيق لم القن تحت ظروف الاكراه المادي للعمل الاجتماعي (42) وانه سنحت الفرص اعلاه لتحليل علاقاتها الانتاجية وهدف نظامها . وحول تركز هذه المظاهر في تلك المجتمعات كانت اشكــالها تنتشر في المجتمعات الدولية بدرجات متفاوتة من خلال العلاقات التجارية والسياسية المتعددة ، فبينما تبلغ علاقات العبودية والاقطاعيـة الصيغة السائدة والوحيدة في الحضارات المشار اليها لا تشغل في دول الجزيرة العربية اي حيز ذي اهمية او تمثل موقعا انتاجيا متميزا انما كانت نماذجها الضعيفة تنضوي تحت صيغ العلاقات الانتاجية السائدة التي تتمثل بالعمل الاجتماعي التعاوني والجماعي في اطار القبيلة في الوحـدات الزراعية او المشاركة بالجهد وادوات العمل في حقل العمل التجاري سواء الخارجي الذي يتم بواسطة السفن التجاريـة الشراعية التي يستغلها التاجرنفسه معمشاركة الملاح وعددمن الاقارب وعدد اقلمن الاجراء من بينهم العبيد أو في التجارة الداخلية والبرية (الخارجية) والتي تخضع لنفس شروط الادارة والتنظيم المباشر للمالك ولقبيلته والعدد الاقل من العبيد الذين يعدون جزءا من الاسرة . وبالتالي فان استقبال ظاهرة الرقيق التي افرزتها المرحلة التاريخيـة واستيعابها قد تم ضمن شروط العمل وعلاقات الانتاج السائدة ولم يكن لهـا موقع انتاجي منفصل . ويتبين مما تقدم ان لكل مجتمع موقفا خاصا (Attitud) تجاه شكل علاقات الانتاج التي تطبع المرحلةالتاريخية ينبع هذا الموقف من الظروف الموضوعية والـذاتية لذلك المجتمع . وحسبنا ان الخلق العربي وطبيعة الحياة العربيـة (التي اتصفت بروح المساواة المطلقة) (43) قد انتجت الموقف المذكور .

الرق في اثينا او روما طبقة اجتماعية قائمة بنفسها في مجتمع طبقي يحكم حدوده الطبقية بجدران سميكة (Closed) لا تسمح للتفاعل والتمازج فيما بينها فهل تشكل الاعداد القليلة من العبيد التي وجدت في مجتمعات الجزيرة العربية مثل هذه الطبقة ؟ الجواب كما بينا سيكون كلا . ومنطقيا عندما ينتفي الاعتقاد بنظرية العرق ولا ترقى الفوارق الاجتماعية الى مستوى تكوين طبقــات بسبب اسلوب الانتاج المناسب للبيئة العربية فان درجة الاستجابة لاسلوب وعلاقات الانتاج السائدة لدى حضارات ما حول جزيرة العرب ضعيفة جدا لنفس السبب .

آخر نموذج للمجتمع العربي قبل الاسلام :

في التاريخ المدون معلومات ضخمة عن العصر الجاهلي مما يغني الباحث بمصادر تقصي الحقيقة . وليس في مقدور هذه الدراسة الا ان تشير فقط الى ما يساعد سعيها نحو الهدف .

يمكن اعتبار المجتمع المكي الوريث المتــاخر لتراث حضارات الجزيرة العربية القديمة . ففي القرنين الخامس والسادس الميلاديين تمكن من استقطاب حركة التجارة الدولية والمحلية في الجزيرةالعربية وحقق انتعاشا اقتصاديا ملموسا في التجارة والعمران والثقافــة في اطار الانتاج الاجتماعي للقبيلة . وظل يمارس نشاطــه العام ضمن اشكال وصيغ علاقات الانتاج المشار اليهــا غير قابل لاستيعاب اي مستوى للعلاقات الانتاجية العبودية والاقطاعية التي ما زالتمستمرة في الشرق عبر نمط الانتاج الآسيوي (44) .

ومن حيث شكل البنية الفوقية للمجتمع المكي ، كانت القبيلـة عبارة عن مؤسسة ديمقراطية سجل الانسان العربي عبرها عددا من الفضائل الانسانية . ومن حيث العلاقة كانت تحددها القبيلة داخليا وخارجيا مع القبائل الاخرى وفق تقاليد وبعض الضوابط المدونـة. ففي اطار القبيلة كان لا يوجد تمايز بين الافراد وكــان « بامكان العربي ان يقابل شيخ قبيلته على قدم المساواة والحقوق » (45) .

وفي مجال العلاقة الخارجية يلعب التنسيق بين القبائل دورا هاما في تماسك المجتمع المكي وبناء مقدمات الانتقال نحو دولة موحدة تنطلق من الاسس القومية للمجتمع . وتعتبر المؤسسات التي نمت في ظل البيئة العربية في هذه المرحلــة مغايرة تماما لمثيلاتها التي اوجدتها حضارات ما حول الجزيرة العربية القديمـة المشار اليها ، ذلك ان الاولى (العربية) على ابتدائية طورها في التنظيم لكنها تعـد مؤسسات ديمقراطية ومنظمات عدل وتكافل اجتماعــي هي نقيض مؤسسات العبودية والقهر والاضطهاد الجســدي واساليبها البشعة في استغلال الانسان وتعذيبــه التي انتجتها الحضارات اليونانيـة ومثيلاتها افشتان بين « دار الندوة » وهي مؤسسة انتخابية قيادية ينتخبها رؤســاء القبائل ويراسها شيخ منتخب وتمارس الحكم بالشورى فتقر العدل والسلام وتحرض على التعاون وبين البرلمانات الاثينية او الاسبرطية .. الخ . التي تشرع الحقوق الطبقية وتقر الحرب والمنازعات .. الخ . وقد لا يجد غير المتتبع الدقيق معنـى كبيرا للمنظمات التي افرزتها مرحلة النظــام الجمهوري كما يسمي العــديد من المؤرخين بذلك فترة العصر الجاهلي المتأخر (46) « كحلف الفضول » والرفادة « وهي جزية تفرض على كل فردلتغطية نفقات الحجاج الفقراء » و « راية الغدر » وهي بالفعل راية رفعهـا كل فرد يتعرض لظلم فتستجاب لنصرته لجــان خاصة لهــذا الغرض (47) . الا ان هذه الاشكال ـ مهما كانت درجـة تطورها ـ هي نتاج حضارة ومجتمع وبالتالي فهي نموذج لاتجاه واخلاق وفكر ذلك المجتمع ، وهذه المعطيات اول الغيث .

اما كيف كان يستوعب المجتمع العربي في هذه المرحلة امتدادات ظاهرة الرق او القنانة ، فانه مما لا يصعب تصوره ان الاسرة العربية كأصغر وحدة اجتماعية امتلكت القوابل النفسية العظيمة لتقبل الآخرين فهضمت ظاهرة الرق وذابت بين شرائح المجتمع ولم تخلف وراءها اي آثار مؤلمة تنتقل اعباؤها بالوراثة الى الاجيال اللاحقة . اما القنانة فانها لم تولد اصلا في ارض الجزيرة العربية (48) لانها تقترن بالنظام الاقطاعي الذي يتخذ من الارض الزراعية الواسعة كوسيلة انتاج رئيسية في اسلوب انتاجه ، وهي لم تتوفر في وديان جزيرة العرب التي لا تلائم اصلا ميلاد مثل هذه العلاقة . واذا استثنينا ممارسة اليهود وبعض النخاسيين المحترفين فان الرق لا يلبث ان يصبح جزءا فاعلا في الاسرة العربية التي يؤول مصيره اليها ولا يشكل اي وجود طبقي خارج شرائح المجتمع العربي من شانه ان يخلق قيما اجتماعية معينة وانماطا للسلوك والتفكير متجانسة فيما بينها ومختلفة عن غيرها . بمعنى ادق ان وضع المجتمع العربي بدءا بالاسرة العربية امام ظواهر كالرق والقن سواء من حيث العلاقات الفوقية او اسلوب الانتاج وعلاقاته لا يخلق او يوفر الظروف الموضوعية لتنامي طبقة خارج تشكيلها التقليدي (49) .

ان تطور المجتمع العربي واتساع رقعة الامبراطورية العربية الاسلامية عملية حضارية كبرى لا تقتصر على الجانب الحربي كما يصور ذلك المتحاملون الغربيون ، انما لعب وبشكل رئيس الجانب الاخلاقي والفكري دورا هاما في هذا التطور ، وكانت الروحية العربية التي يمتلكها الانسان العربي قد هيأت العرب كامة للالتقاء بكل الشعوب والقدرة على تمثيل تراثها وتجاربها وتحضيرها وقيادتها نحو عقيدة موحدة .ويحضرني قول للعالم الايطالي دوزي (Dozy) عن مؤهلات العرب الفطرية في الحكم والقيادة : « ان العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط بل بالفطرة والغريزة ، حتى حققوا باديء ذي بدء مبادىء الثورة الفرنسية الشريفة وهي الحرية والمساواة والاخاء .. لقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس اوسع منها على الارض ويقول « لا اعرف مولى غير مولى العالم » .. ان هذه المبادىء عند العرب هي افضل مما عند الاوربيين .. وربما كانت اخلاق العرب اسمى من اخلاقنا ونفوسهم اكبر من نفوسنا وهم اكثر ميلا الى العظمة الانسانية » (50) .

اكتمال مكارم الاخلاق :

قلب الاسلام واقع الحياة العربية وحقق قفزة نوعية كبرى امتدت آثارها الى مجاهل المعمورة ، فغيرت عقائد الشعوب وانماط حياتها خلال فترة لا تزيد على القرن ، مارس العرب عبرها دور القائد الكفؤ ، مما يؤكد ان العرب كانوا مؤهلين حضاريا لاستيعاب مبادىء الاسلام المتقدمة والتفاعل معها وانجاز التحولات العظمى في حياة الشعوب (51) .

كانت مبادىء الاسلام متلائمة تماما مع خصائص الروح العربية المتينة (52) . ولم تكن نظرة العربي الى الاسلام نظرة رومانسية ، بل كانت واقعية عاشها بكل ابعادها ، فكانت آثارها سريعة وحاسمة في سياق تطوره . وبعد ان ملأ الاسلام حياة العرب اصبح قوة تغيير هائلة تحركت في كل الجهات وحررت مئات الملايين من البشر وارست اسس حضارة انسانية مارست الاشعاع طيلة فترة ازدهارها وظلت مبادؤها شامخة عندما افل نجمها السياسي .

كانت النظرة العربية الى العرق والطبقة قبل الاسلام تقاليد واعرافا وسمات خلقية متوارثة ، الى جانب بعض الضوابط الاجتماعية والقانونية التي ظهرت في الفترة الاخيرة ، وجاء الاسلام ليكمل هذه الاخلاق . قال رسول الله محمد (ص) : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » . وبعد التوسع السياسي للدولة العربية الاسلامية والتعرض للامتزاج الكبير مع بقية الامم الاخرى واستيعاب حضارتها ، دعم الاسلام مكارم الاخلاق واظهرها بصيغ كاملة وحولها من مرحلة التقاليد والعادات والسجايا الخلقية الى قوانين شرعية واجبة التنفيذ، وبهذا اصبحت اخلاق العرب الانسانية اخلاقا مثلى للامم الاسلامية بفضل الصياغة المبدعة التي حققها الاسلام للجانب الخلقي في المجتمع العربي .

ومن وقفة قصيرة جدا يسمح بها مجال هذه الدراسة نشير الى البعض من هذه المعاني :

يبين الاسلام لجميع البشر ولاول مرة في التاريخ بشكل مدون بان مسالة الاختلاف في العرق والجنس واللون واللغة مسالة خلقية وطبيعية ولا يقام على اساسها اي اعتبار تمايزي بين الافراد قال تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعاملين » (22 ـ الروم) . وان ثمة معيارا جديدا للمفاضلة بين الافراد لا يستند الى اسس وراثية او بيئية كما كان سائدا وبالاخص في الحضارات القديمة التي اشرنا اليها كقوله تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » . (13 ـ الحجرات) .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ولعل ان تكون هذه الاسس الشاملة منبعا لميلاد قيم بشرية جديدة لا عهد للامم بها ، وتطويرا مبدعا للقيم العربية المتوارثة .

وامام حركة التحولات التي يتعرض لها المجتمع العربي الاسلامي برز بشكل اكثر من السابق عدد من القضايا ، افرزته عمليات الحروب والتوسع الجغرافي والسياسي للدولة العربية كزيادة عدد الرقيق وضم عدد من الاديان الاخرى التي يعترف بها الاسلام وانضواء امم كثيرة تحت راية الاسلام . وهذه القضايا اقتضت حلولا شرعية لتامين وحدة المجتمع الاسلامي واستقراره وتطوره حددها الاسلام سلفا .

فوضح الاسلام موقفه تجاه ظاهرة الرق بقوله تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم) . (60 ـ التوبة) . ويتبين من هذا ان الاسلام اول دين خصص بابا في ميزانية الدولة لمكافحة الرق (53) . وتجاه وجود عدد من الاديان السماوية في الارض العربية الاسلامية اعطى الاسلام الحرية المطلقة لاهل الكتاب في ممارسة عباداتهم قال تعالى : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ، الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » . (46 ـ العنكبوت) . اما الناحية الطبقية التي يتوقع الاسلام بروز اشكالها في المجتمع الاسلامي من

خلال التوسع السياسي او تطور الحياة الاقتصادية فانه قد تصدى لنقطة انطلاقها وهي الثروة فقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لانفسكم فـذوقوا ما كنتم تكنزون » (34ـ35 التوبة) . ويعتبر تشريع نظام الوقف من القرارات الهامة التي قابل بها الاسلام التطورات الجديدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية « لتكون الارض او العقار ملكا للمجموع وتصرف في مصارف الخير والاحسان » (54). وهناك عدد كبير جدا من الآيات والاحـاديث النبوية والممارسات الاسلامية التي تحرم كل المظاهر التي تعبر عن استغلال الانسان لاخيه الانسان او الاعتقاد بالتمايز والتفرقة العنصرية والاحتكار والربا وكل المعضلات الاخرى طبعت الحياة العامة للحضارات القديمة التي سبقت الاسلام او عاصرته .

التطورات اللاحقة في الدولة العربية الاسلامية :

كان القرن الهجري الاول غنيا بعناصر الفورة الحضارية التي اقترنت (بالاسلام) . فالروابط القومية والدولة الفتية ما برحتا تنهلان من احتياطي غزير من الطاقات العربية التي تتجدد تحت حرارة النضال والحمية والتعصب للوطن والعقيدة الدينية السمحاء (55) . وعلى ضوء ذلك فان الاتجاهات التي تظهر خارج نطاق الاتجاه العام لمؤسسة الخلافة والحياة الاجتماعية التـي تقترن بنشاطها لاسباب اجتماعية او سياسية كانت تجد جوها الـملائم في الظروف القاهرة التي تتعرض لهـا مؤسسة الخلافـة فتعبر عن نفسها بالشكل الذي تسمح به ظروفها وبالتالي فهي لا تعبر عن جوهر الحياة العربية بقدر ما تجسد طبيعة المشاكل التي تواجه الدولة والمجتمع . وقد اخذ تاثير هذه الاتجاهات يظهر بالتدرج مع ضعف مؤسسة الخلافة وتزايد العناصر الاجنبية المتسلطة عليها وسواء اكـان ذلك متمثلا بحركات اجتماعية وسياسية ترفع شعارات معينـة وتطمح باقامة دولة او تستهدف الخلافة نفسها او ما كان متمثلا بانتقال علاقات انتاجية استغلالية او نمو العلاقات الانتاجية السائدة في المجتمع نفسه في اتجاه يخرج عن طبيعته السابقة ويتعارض مع المبـاديء الاسلامية العامة . كما تظهر هذه الاتجاهات والتطورات في بعض الحركات السياسية والاجتماعية (56) وفي ظهور بعض الملكيات الكبيرة بعـد استصلاح الاراضي الموات والاقطاعات العسكرية في الفترات الاخيرة.

لكن حتى هذه الحالات عند التـدقيق العميق في مسبباتها نلاحظ ان هناك كفاحا عظيما للفكر العربي الاسلامي ، تجاه مظاهرها وان هناك ممانعة مستمرة لدى المجتمع من قبول نماذجها السلوكية والانتاجية . ويمكن القول ان ما امكن تسربه الى المجتمع العربي من علاقات العبودية او الاقطاعية بشكل اوسع مما اشرنا اليه من القن المنزلي السابق انتقل في ظل ميل الحضارة العربيـة الاسلامية عن قمتها حتى افولها . وكانت قوة الحضارة العربية واصالتها والتي لن تبرح الارض التي شيدت فيها امجادها ـ الارض العربية الحالية، كما برحت الحضارات السابقة مسارحها وانضوائها في بقع معينـة بعد سقوطها ، استمر اشعاعها حتى في لحظـات الضعف وظلت العلاقات الانتاجية التي تحمل صفة الاستغلال قلقة امام طبيعـة المجتمع العربي غير قادرة على السيادة . ولهذا فان هذه النماذج قد تعرضت الى تحور وتكيفت مع طبيعـة المجتمع العربي الاسلامي . فظهور علاقات الانتاج الاقطاعية بعـد السيطرة البويهية على مركـز الخلافة في بغداد عام 334هـ/945م ثم الدولة الفاطمية في مصر ابتداء من عـام 466 هـ وما اعقبها من حكم الايوبيين عام 567 هـ والمماليك عام 646هـ فانها تكيفت وامتصت البيئة العربية جوهرها الاساسي وهو تجريد المنتج من نتائج عمله وحريته ، ذلك ان اشكال الاقطـاع التي انتشرت في بلاد العراق والشام ومصر كـانت اقطاعا عسكريا لا يقوم على اساس ملكية الارض ومن فيها ، وانمـا كان الخليفة او السلطان يمنح الارض الى القواد ورؤساء القبائل العاملين في خدمة الامن القومي لكـي يجنوا عوائدهـا من وارد الضرائب كراتب سنوي (57) . وقد تبين ان الاقطاعات التي استخدم فيها العبيـد المجلوبون كانوا يدربون ويحررون ويعملون في الارض كاحرار ولا تحدهم عن الاندماج في المجتمع اي قيود فدولة المماليك « استندت سلطتها الى رقيق مجلوبين يدربون ويحررون بعدئذ ، ويحتكرون السلطة ، وبذلك كونوا طبقة ارستقراطية اجنبية حاكمة فوق سكان البلاد »(58).

آراء الباحثين الغربيين (وقفة قصيرة) :

يضاف الى ثبت الحقائق في التاريخ والتراث العربي الاسلامي عدد من آراء الباحثين الاجانب ، اذ درس عـدد مـن المستشرقين المنصفين التراث العربي الاسلامي واهتم عدد آخر منهم بالحيـاة العربية فقاموا بدراسات ميدانية ابتـداء من القرن التاسع عشر فبهرهم الخلق العربي كما بهرتهم حضارة العرب وعقلهم السياسي(59).

وقد اشرنا الى عدد من آراء هؤلاء الباحثين وهنا نذكر البعض منهم ممن اهتموا بالدراسات الميدانية . وقد دعم « لوبون » دراسته المعمقة عن الحضارة العربية بآراء ونتائج تجارب عـدد من الباحثين امثال « بلغريف » والباحثة الانكليزية السيدة « بلنت » و «مسيو شارم » و « مسيو دوفوجاني » والكـاتب الانكليزي « ج كوبر » وغيرهم كثيرون .

فميز « لوبون » كيف تختلف ظـاهرة الرق عنـد العرب والمسلمين عن مثيلاتها لدى الامم الاخرى اذ قـال : (فالارقاء في الشرق يؤلفون جزءا من الاسر ، ويستطيعون الزواج ببنات سادتهم احيانا ، كما راينا في ذلك سابقا ، ويقدرون ان يتسنموا اعلى الرتب وفي الشرق لا يرون في الرق عارا ، والرقيق فيه له اكثر من صلـة الاجير في بلانا) (60) . امـا الباحثـة الانكليزيـة السيدة « بلنت » التي دعمت دراستها بزيارات ميدانيـة للمواقع الاثرية والمجتمعات في الجزيرة العربية فتقول في كتاب رحلتهـا الى نجـد « ومن الامور المشهورة ان الارقاء عنـد العرب يكونون من الابناء المدللين اكثر من ان يكونوا من الاجراء » (61) . ويذكر مسيو «آبو» عن الاندماج الكبير للرقيق في الحياة العربية والمكـانة التي بلغها في مؤسسات الدولة « لا يكـاد المسلمون ينظرون الى الرقيق بعين الاحتقار فان امهات سلاطين آل عثمـان وهم من زعماء الاسلام المحترمين من الاماء ولا يرون في ذلك ما يحط من قدرهم » (62) .

الآثار الحضارية في الايديولوجيات الحديثة :

انتجت الحضارات القديمة التي عـاصرت العرب قبل الاسلام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعده ، انتجت المجتمع الغربي وطلائع فكره الامبريالي والصهيوني. وانتجت الحضارة العربية الاسلامية المجتمع العربي المعاصر وطلائع فكره القومي الانساني ، والفيصل الـــــذي ميز بين جوهر النظام الاجتماعي للحضارة العربية عن اليونانية والرومانية هو عينه الـذي يميز الآن الايديولوجية العربيـــة عن الايديولوجيـــة الامبريالية ـ الصهيونية اذ ظل الفكر الغربي بالرغم من التطور التقني الكبير مـن الجوانب المادية ظل اسير عناصر حضارته القديمة . كما بدأ الغرب عصر نهضته بهجمة جديدة على العالم من خلال حركـة الاستكشافات ثم الاستعمار ، فكانت ثمرة التطور الحديثهو الامبريالية والصهيونية والتفرقة العنصرية . وبينما تصل اوربا وامريكا الآن قمـة الحضارة المادية وتمتلك القوة الحربية والاقتصادية فيالعالم تحمل ايديولوجيتها ظلما لشعوبها (63) وشعوب العالم الاخرى وتتصرف بطمع في ثروات الشعوب وموارد العالم الحرة كما تتفاوض بمنطق القوة ومبدأ الغلب مع الآخرين الضعفاء ويحرن العالم امام هـــــذه الميول ويثقل تطور الشعوب باعباء هذه الافكار . وهـــذه الاتجاهات تنطوي على عرقية اصيلة وروح توسعية اعتدائية تعد شكلا جديدا لصور الجور القديم الذي ملأت به حضارتهم القديمة تاريخ البشرية .

وفي الجانب الآخر يقف الشرقيون وفي مقدمتهم العرب يرفعون من واقع التخلف والتجزئة السياسية نداء الانسانية ويطالبون بالعدل والاخاء وتشمخ عناصر الايديولوجية العربية بالرغم من (احتياجاتها الى الصياغة المتكاملة) ، تقف متمسكة باصالتها الانسانية وطبيعتها الرحبة متخطية كل ردود الفعل التي يولدها النظـــام الامبريالي ـ الصهيوني ووسائل وجوده الاخرى . ويستمر الشرق والغرب الآن يتقابلان في الساحة الحضارية يعرضان نتائج بيئاتهم المادية والذهنية مرة بالصراع المادي التناحري واخرى من خــلال الصراع العقائدي ، وانه مما لا يخالف المنطق ان الافكار التي تنمي الحواجـــز بين الامم وتولد الصراع والتوتر بين فئـــــات المجتمع هي افكار يقف التاريخ ضدها . ويظل يحمل المجتمع (اي مجتمع) عـــداءا مبطنا احيانا وظاهرا احيانا اخرى ضدها . وان مصادر الظلم في التاريخ كما دونه التاريخ البشري لن تظل مصادر لظلم طويل ، فطبيعـة التطور تحمل قدرا كبيرا لحرية الانسان وتفتح آفاقا واسعة نحو مصادر الخـــير والاخاء في التاريخ ، وهو المبرر الاكبر لشـــــروق الحضارة العربية احتياطي البشرية الانساني .

الهوامش :

(1) د. مصطفى الخشاب ـ على الاجتماع الحديث ومدارســـــه ، دار الكتاب العربي القاهرة ، سنة 1967 ص 160ـ166 .

(2) د. حسن شحاته سعفان ـ اسس علم الاجتماع . دار النهضـــــة العربية القاهرة ط 7 سنة 1968 ص 212 .

(3) انظر بحثنا المنشور فيمجلة الثقافة العربية الليبية بعنوان «الامبريالية من خلال الرؤية العربية » الاعداد 5ـ9 عام 1977 .

(4) د. عبدالحميد بخيت ـ المجتمع العربي الاسلامي ، دار المعـــــارف بمصر جـ1 طـ1 سنة 1965 ص 108 .

(5) See: Karl Markx, Selected Writings in Sociolgy and Philosophy, Edited By Bottomore and Rubel. London P. 132.

(6) الاستاذ زوبريتسكي : النظام المشاعي البدائي وعرضـــــ اقتصادي تاريخي جـ1 جامعة لومومبا 1960 ص 57ـ64 .

(7) د. يسرى الجوهري ـ الانسان وسلالاته . منشأة المعارف بالاسكندرية ص 32 .

(8) انظر : د. السيد محمد بدوي ـ نظريات ومذاهب اجتماعيـــــة . دار المعارف بمصر سنة 1969 ص 12ـ21 .

(9) د. محمد السيد غلاب ـ البيئة والمجتمع ، مكتبة الانكلو المصريـــة ط 4 سنة 1969 ص 17 .

(10) د. حسن الساعاتي ـ علم الاجتماع الخلدوني وقواعد المنهج . دار النهضة العربية بيروت ط 1 سنة 1972 ص 28 .

(11) البان ويدجيرى : المذاهب الكبرى في التاريخ . ترجمـــــة ذوقان قرقوطة دار القلم . بيروت سنة 1972 ص 96 .

(12) أرنولد توينبي : دراســة التاريخ سنة 1934 مجـ1 ص 95 (لبت ويدجيرى . المذاهب الكبرى) .

(13) مقدمة ابن خلدون . مراجعة لجنة من الجامعيين . مطبعة الكشاف بيروت . جـ1 ص 88 .

(14) مقدمة ابن خلدون ، نفس المصدر ص 82ـ85 .

(15) انظر : د. علاءالدين البياتي ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، دار التربية بغداد طـ1 سنة 1975 ص68 و ص69 يشير الى ان ابن خلدون لم ينته كعلماء الايكولوجيا والمرفولوجيا (الجغرافيـــــة الاجتماعية) الى حتمية صارمة ذلك عندما اكد على قدرات الانسان في احـــداث الاثر على الطبيعة . وبالتالي فليست العوامل البيئية السبب الوحيد في انتاج الصفات الانسانية .

(16) انظر د. جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . بيروت ط 1 سنة 1968 جـ 1 ص 261ـ293 .

(17) بل ان عددا كبيرا من المؤرخين والباحثين يجمعون اســـباب تدهور الدولة العربية في عامل واحد هو (اخلاق الفرد) كما اعتبروا ان العرب اقاموا على الاخلاق حضارة ودولة .
انظر : د. ابراهيم احمد رزقـــــانه : المجتمع العربي . النهضة العربية . القاهرة سنة 1968 ص 258 .

(18) انظر : د. يسرى الجوهري ـ الانسان وسلالاته . منشأة معـــــارف الاسكندرية ص 28 .

(19) غوستاف لوبون : حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . مطبعـــة الحلبي وشركاه سنة 1969 ص 62 .

(20) لوبون نفس المصدر ص 57 .

(21) د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاســــلام . بيروت ط 1 سنة 1968 جـ 1 ص 271 .

(22) احمد النكلاوي : التغيير والبناء الاجتماعي . دار الحمامي .القاهرة سنة 1968 ص 72 .

(23) ارثر كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين . ترجمـــــة يحيى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخشاب . مطبعة لجنة التاليف والترجمة . القاهرة سنة 1957 ص 76 .

(24) انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تنقيح شارل بلا. طبعة بربيه دى مينار وباقيه دين كرتارى . بيروت جـ 1 سنة 1966 ص 286 .

(25) كذلك د. عبدالحميد بخيت : المجتمع العربي والاسلامي ـ دار المعارف بمصر جـ 1 ط 1 سنة 1965 ص 108 ، 109 .

(26) كريستنسن نفس المصدر ص 8 .

(27) نفس المصدر ص 7 .

(28) د. ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت . ط 3 سنة 1975 ص 280 .

(29) د. يونس البطريق : الدعوة القومية في المجتمع العربي . دار النهضة العربية بيروت سنة 1966 ص 45 .

(30) ا. بترى : مدخل الى تاريخ الافريق وادبهم وآثارهم : ترجمة د. نوئيل يوسف عزيز . الموصل . ص 14 .

(31) انظر : فؤاد محمد شبل : الفكر السياسي . الهيئة المصرية العامة للكتاب جـ 1 سنة 1974 الصفحات من 113ـ133 حول ارسطو . ويشير الى نظرته الى الرقيق (ويعتبر ارسطو الرقيق حيازة مفعمة بالحياة وهو لديه اهم انواع الحيازة) ص 127 .

(32) اريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادي : ترجمة د. راشد البراوي . دار الكتاب العربي . القاهرة ، سنة 1968 ص 35 .

(33) د. محمد عبدالمنعم خفاجي : الاسلام ونظريته الاقتصادية . دار الكتاب اللبناني بيروت . ط 1 سنة 1973 ص 31ـ33 .

(34) د. اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية . دار المعارف بمصر سنة 1972 ص 42 .

(35) د. اسحق عبيد نفس المصدر السابق ص 43 .

(36) اريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادي : ترجمة د. راشد البراوي : دار الكتاب العربي سنة 1968 ص 34 .

(37) د. عبدالقادر يوسف : الامبراطورية البيزنطية . المكتبة العصرية . بيروت سنة 1966 ص 23 .

(38) انظر : احمد الشيباني في ترجمته لمؤلف تدهور الحضارة الغربية ص 25 .

(39) حنا خباز : المعارك الفاصلة في التاريخ . دار الكتاب العربي . بيروت ط 2 سنة 1959 ص 41 .

(40) انظر : بلاد العرب من جغرافية سترابون حوالي 66 ق.م-24ب.م ط 1 لجبرا ابراهيم جبرا جـ 1 . مجلة المجمع العلمي العراقي مجـ 5 سنة 1952 مطبعة التفيض ص 248 .

(41) عدد من الاساتذة السوفيت : تشكيلات ما قبل الرأسمالية . اصدار جامعة لومومبا في الاتحاد السوفياتي جـ 1 ص 95 .

(42) د. سعيد عبدالفتاح عاشور : اوربا في العصور الوسطى . مكتبة الانكلو ـ المصرية القاهرة سنة 1966 ص 142 .

(43) د. ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت ط 2 سنة 1975 ص 139 .

(44) انظر : ابراهيم كبه (نظرية ستايرمان حول سقوط النظام العبودي) مجلة الاقتصادي بغداد عدد 3 سنة 1970 ص 179 ـ 184 .

(45) د. احمد العدوي : المجتمع العربي . مطبعة الانكلو ـ المصرية القاهرة سنة 1968 ص 79 .

(46) انور الجندي : الانسان العربي والتاريخ . دار الفكر سنة 1971 ص 55 .

(47) انور الجندي : نفس المصدر السابق ص 56 .

(48) ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية . دار الثقافة بيروت . ط 2 سنة 1975 ص 139 .

(49) د. عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة ط 1 سنة 1969 ص 40 وللتوسع اقرأ الفقرة (2) نفس المصدر ص 35ـ55 .

(50) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جـ 1 ص 146ـ147 ناجي معروف/ اصالة الحضارة ص 275 .

(51) غوستاف لوبون / حضارة العرب مصدر سابق ص 87 .

(52) انظر مورو بيير جر : العالم العربي اليوم . ترجمة محي‌الدين مطبعة سميا . بيروت . ط 1 سنة 1963 ص 49 .

(53) ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت ط 3 سنة 1975 ص 275 .

(54) د. محمد عبدالمنعم خفاجي : الاسلام ونظريته الاقتصادية . دار الكتاب اللبناني بيروت ط 1 سنة 1973 ص 20 .

(55) د. محمد عابد الجابري : العصبية والدولة معالم نظرية ابن خلدون في التاريخ الاسلامي . دار الثقافة ، الدار البيضاء ط 1 سنة1970 ص 271 ـ 327 .

(56) انظر : د. عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة بيروت . ط 1 سنة 1969 ص 73 .

(57) د. عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . مصدر سابق ص 105 ، 106 .

(58) نفس المصدر ص 105 .

(59) اندريه ايمار وزميله : تاريخ الحضارات العام « الشرق واليونان القديمة » . ترجمة فريد م. داغر . منشورات دار عويدات . بيروت سنة 1964 ص 29 ، 30 .

(60) غوستان لوبون ـ حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ـ مطبعة الحلبي سنة 1969 ص 382 .

(61) نفس المصدر ص 378 .

(62) مصدر سابق ص 376 .

د. ابراهيم العدوي : المجتمع العربي . مكتبة الانكلو ـ المصرية . القاهرة سنة 1968 . ص 1ـ11 .

(63) H.V. Savitch Racism and Ineguality : W.H Freenian, Sanerancisco, 1975, Part one.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القائمة الشيوعية الجديدة

[راكاح]

النهج و الممارسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مركز الدراسات

هناك لغط كثير حول قيام ما يسمى « اليسارية » التقدمية داخل الكيان الصهيوني ومساندتها للحركات اليسارية العربية ضد البنية الصهيونية للكيان (الاسرائيلي) . وقد اخذ هذا الاعتقاد يترسخ ويضرب جذوره عميقا بين بعض الاوساط والفئات العربية الفلسطينية .

ان تناقض الشعب العربي مع الصهيونية لا يتمثل في رفض هذا الحزب او ذاك بل يتمثل في رفض الواقع الذي اوجد هذه الاحزاب. وتتصارع في الحلبة السياسية داخل الكيان الصهيوني ثلاثة اتجاهات تعمل في نطاق ما يسمى بالشرعية الصهيونية ، اتجاه صهيوني مغال في التطرف يضم الليكود والاحزاب الدينية ، واتجاه ثان يضم ما يسمى بالاحزاب العمالية الصهيونية (العمل والمابام) وثالث يسمى باليسار الصهيوني ، ويضم راكاح وموكيد . وعلى الرغم من التناقض بينها فانها تبقى موحدة في امر واحد هو كونها ادوات يتم بواسطتها تنفيذ السياسة الصهيونية ومن خلالها يتحقق الاستغلال والاضطهاد ضد الجماهير العربية الفلسطينية . ومن التنظيمات التي تعمل في الساحة السياسية وباسم الشرعية القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح) الذي قيل ويقال الكثير عن تقدميته ومعاداته المزعومة للكيان الصهيوني . ان التعرض الى نشوء هذا الحزب وطبيعته وايديولوجيته واهدافه تثبت حقيقة استفادة الكيان الصهيوني من وجود ونشاط راكاح وهناك حقيقة لا تقبل التاويل وتفرض نفسها في هذا المجال وهي انه من الخطا الفادح التصور بان الحركات والكيانات العنصرية بامكانها ان تفرز تنظيمات تقدمية .

نبذة عن تاريخ نشوء الحزب الشيوعي (الاسرائيلي)

في مؤتمر دانتزنيغ عام 1922 حدث انقسام داخل حزب العمال الصهيوني (المابام) وكان على اتباعه ان يختاروا بين الانضمام الى المؤتمر الصهيوني او الى حزب شيوعي اشتراكي . وظهر تيار يهودي ضم العناصر اليهودية الاكثر ميلا نحو الاشتراكية والتي كانت تؤيد مواقف الاحزاب الشيوعية في العالم – خصوصا الاتحاد السوفييتي – وتصاعد تعاطف العناصر مع الشيوعية حتى اقدمت على تشكيل اول حزب شيوعي على ارض فلسطين (1) .

وفي اوائل الاربعينات اخذت الشيوعية تظهر بين اوساط بعض الشباب العرب المثقفين واتخذ التنظيم الشيوعي العربي الاول في فلسطين شكله تحت اسم (عصبة التحرر الوطني) وتطور هذا

التنظيم حتى اصبح حزبا شيوعيـــا بالمفهوم الاعتيادي في اواخر الاربعينات بزعامة توفيق طوبي واميل حبيبي واميل توما وحنا نقارة وفؤاد نصار (2) . وفي نفس الوقت كان الحزب الشيوعي اليهودي يتبلور شيئا فشيئا بزعامة ميئير فلنر واستير فيلنسكي . وبعد اقامة الكيان الصهيوني عام 1948 ، اتحد الحزبان العربي واليهودي وشكلا « الحزب الشيوعي الاسرائيلي » (3) . وفي هــذه المناسبة تجدر الاشارة الى ان الفئات الفلسطينية التي هاجرت من فلسطين بعد النكبة هي التي انشــأت الحزب الشيوعي الاردني . ولم تكن (للحزب الشيوعي الاسرائيلي) مكانة خاصة او مركز مهم في الحياة السياسية داخل الكيان الصهيوني الا في عام 1954 بعد ان انضمت اليه مجموعة سياسية كبيرة اعطته ثقلا جديدا بين القوى السياسية هناك وهذه المجموعة هي (حزب اليسار الاسرائيلي) بزعامة الدكتور موشيه سنيه والتي انشقت عن حزب (احدوت همعفودا) المنشق اصلا عن « الماباي » (4) . وازدادت اهمية هذا الحزب واخذ يحصل على 4-6 مقاعد في الكنيست الصهيوني . ولعــل من المهم التنويه بان النظرية السياسيـــة للدكتور موشيه سنيه تنطلق من نقطة صهيونية هي شرعية قيام الكيـــان الصهيوني ووجوب استمراره وامكانية التفاهم مع العرب حول هذه الشرعية . كما انه يحمل مع جماعته شــعارا يقول : « اعترفوا بنا نعترف بكم » . وهو نفس شعار جولدمان / و « علينا ان نعترف بالعرب ليسمحوا لنـــا بالبقاء » (5) . ولسنيه فلسفته الخاصة بخصوص ضرورة الانتماء الى الحركة الشيوعية فهو يقول : « من اجل الحفاظ على اسرائيل علينا ان ننضوي تحت لواء الحركـــة الشيوعية الدولية وننتسب اليهـا » (6) .

وسنيه هذا شخصية غريبة حقا ، فقد مر في جميع الحركات العمالية اليهودية من (الماباي) الى (احدوت همعفودا) الى (المابام) والى حزب اليسار الاسرائيلي ، قبل ان يصل الى الشيوعية .

ويروي سنيه الذي كان قائدا كبيرا لعصابة الهاجانا واحـد الذين شاركوا في مذبحـــة دير ياسين ومن المقربين لبن جوريون وجاليلي ، قصة وصوله الى الشيوعية فيقول انه قابل « هوشي منه » في باريس واقتنع منه بان مستقبل العالم هو للشيوعية » (7) .

وقد وقفت جماعة (سنيه ـ ميكونيس) موقفا عدائيا متطرفا من قضية الحركة القومية العربية وكانت تعتبرها حركة شبيهـــة بالحركة النازية لانها تدعو الى تكوين حركة عملية شاملة مشتركة لابادة الاسرائيليين (8) .

وازاء المواقف المعادية للحركة القوميـــة العربية انشقت عـن الحزب الشيوعي (الاسرائيلي) في عام 1959 جماعـة الارض وهو ما سنتطرق اليه فيما بعد . وقد دافع سنيه وحزبـه عن الحقوق القومية لليهود مبشرا بلبرالية اوسع للصهيونية .

وبالنسبة للناحية التنظيمية لبنـــاء الحزب والمساواة بين الاعضاء من العرب واليهود كان لحزب سنيه رايه الذي ينطلق مـن ارضية عنصرية متعصبة والذي يتلخص في « ان الرفـــاق ليسوا متساوين ، وان هنـاك رفاقا ذوي وزن ممتاز وخاص ، وان رفيقا يهوديا يساوي اكثر من رفيق عربي » (9) . وقـــد عارض الجناح العربي داخل الحزب هذه الدكتاتورية الحزبية والنظرة العنصرية في عدم المساواة بين العرب واليهود في عضوية الحز ب. وازدادت شقة الخلاف عندما اخذ الاعضاء اليهود يطـالبون الحزب ـ ويلحون في الطلب ـ بوجوب دفع الدول العربية للاعتراف بدولـة (اسرائيل) اولا ومن ثم يعمد الى حل المشاكل المعلقـــة ، بينما كان الجناح (العربي) يطالب بان يتبنى الحزب موقف مطالبة الكيان الصهيوني بايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية اولا ، ثم حل المشاكل المعلقة . وبسبب هذه الخلافات التي دبت بين الجنــاحين العربي واليهودي حدث انشقاق داخل الحزب عـــام 1965 . وقد احتفظ الجناح اليهودي باسم الحزب وان عرف اكثر تحت اسم (ماكي) وخلا من الاعضاء العرب باستثناء اثنين او ثلاثة وتحولت الزعامة الى ميكونيس والدكتور سنيه واستير فيلنسكي زميلة ميئير فلنر (10) .

وانضم فلنر وجماعته الى الجناح العربي من الحزب الذي صار اسمه القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح) وقد ضم الحزب بالاضافة الى جماعة فلنر جميع الذين كانوا اعضاء في « عصبة التحرر الوطني» وهي النواة العربية الاولى للحزب الشيوعي .

جماعة الارض :

كما سبق وان ذكرنا حدث انشـــقاق داخل الحزب الشيوعي (الاسرائيلي) حيث خرجت في عـــام 1959 العناصر ذات الاتجاه القومي التي كانت تعمل ضمن نطاق الحزب المـــذكور ليس بدافع الايمان به أو بالمباديء التي طرحها ، وانما ليتاح لهــــا العمل من خلاله . وحدث ذلك بسبب موقف الحزب العام من قضايا التحرر العربي حيث وقف الحزب الشيوعي موقفا مؤيدا لعبدالكريم قاسم ورفضه لفكرة الوحدة التي كان يجسدهـــــا في ذلك الوقت التيار القومي العربي .

وقــد شلت هذه الجماعات حركة الارض التي عرفت بخطها القومي الوحدوي وعملت في الفترة الواقعة بين 1959 ـ 1965 من اجل اقامة حركة تضم كل العناصر العربيــــة داخل الوطن المحتل تناضل من اجل اقامة دولــــة فلسطينية وتحقيق الحقوق القومية للعرب الفلسطينيين من خلال الارتبـــاط بالتيارات العربيـــة الوحدوية (11) .

وضمت جماعـــة الارض حوالي اربعين شخصا من الاعضاء العاملين . وتألفت من وسطين رئيسيين ، جماعة البرجوازية الصغيرة من مدن الشمال وجماعة الطلبة والمثقفين الشباب من القرى (12) . وقد شنت هـــذه الجماعة حملة عنيفة ضـــد سلطات الاحتلال الصهيوني . وطالبت بحقها في العمل العلني من اجل الحقوق العربية المهدورة واعتبرت نفسها جزءا من حركة التحرر العربي . وفي سلسلة من المحاكمات رفضت مطاليبهم في القيام باصدار صحيفة دائمة ناطقة بلسانهم . غير ان هذه الحركة استطاعت ان تستغل مـــادة تتعلق بقوانين النشر في القانون العثماني ، فراحت تصدر نشرة كل اسبوع يختلف اسمها في كل مرة عن المرة السابقة ويكون رئيس تحريرهـــا شخص آخر . فاصدرت عدة نشرات تحمل اســماء عديدة مثل « الارض » ، « عبير الارض » و « شذى الارض » ، « ندى الارض» والى غير ذلك . كما توالى على تحريرهـــا اشخاص مختلفون من اشهرهم حبيب قهوجي وصبري جريس وصـــالح برانسي ومنصور كردوش . وقد لاقى نشاط الارض حماسا وتاييدا منقطعي النظير في الشارع العربي نتيجة لما حمله من افكار قومية تؤمن بالوحدة العربية والتحرر ورفض الكيان الصهيوني جملة وتفصيلا . واستطاعت هذه الحركة ان تقود الجماهير الفلسطينية في الشريحة المغتصبة وان تدفع بها الى هبات وانتفاضات ضد سلطات الاحتلال تمثلت في المظاهرات والاضرابات التي اجتاحت مدن وقرى الاجزاء المغتصبة في السنوات 1959 ، 1960 ، 1961 ، 1962 (13) . وقـــد ادى التفاف العرب حولها الى فقدان الحزب الشيوعي لاصوات العرب الناخبين الى حد ان عدد مقاعده في الكنيست هبط من ستة مقاعد الى مقعدين اي انه فقـــد اكثر من (45) الف صوت وهي تشكل 35٪ من مجموع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اصوات الناخبين العرب . وقد امتنع هؤلاء عن التصويت للاحزاب الصهيونية ولراكاح نتيجة لمواقفه التي لا تنسجم وطموحات واماني الامة العربية في التحرير والوحدة . ورفضت الجماهير من خلال هذا الموقف جميع مقولات الحزب الشيوعي التي تتلخص في المطالبة بضمان حقوق اجتماعية للعرب مثل المساواة في الحقوق والغاء الحكم العسكري لكي يصبح العرب مواطنين صالحين في الدولة اليهودية ، وقد ادرك العرب بان مواقف الحزب الشيوعي تجاهلت القضية الاساسية وهي قضية الارض المغتصبة والوجود الصهيوني القائم على الاغتصاب وتشريد الشعب الفلسطيني انطلاقا من موقفه في اعتبار الكيان الصهيوني حقيقة واقعة يجب الاقرار بها والتعايش معها والوفاء بقسم الولاء لسلطات الاغتصاب . ولا تفوتنا الملاحظة هنا في انه لا يسمح لاي حزب او حركة سياسية بالنشاط ما لم تراع « قوانين الدولة » وتعمل في اطار رسمي والا اعتبرت غير شرعية .وانطلاقا من هذه الحقيقة ومن اجل التخفيف من حدة الخناق الذي راحت سلطات العدو تضيقه على هذه الجماعة ، كان ان اتجهت بعض عناصر هذه الحركة الى التعاون مع الحزب الجديد الذي انشق عن (الحزب الشيوعي الاسرائيلي) عام 1965 واعني به راكاح من اجل ايجاد اطار شرعي لنضالها . غير ان ذلك لم يستمر طويلا حيث لم يعجب راكاح النشاط القومي العربي الصميم لهذه الجماعة وما تمثله في نظره من تطرف قومي وفي نفس الوقت لم تجد هذه الجماعة بغيتها في هذا الحزب الجديد الذي لا يخلو من مبادىء صهيونية اتضحت اكثر بعد عدوان 1967 فواصلت نشاطها القومي بمعزل عن التيار الجديد واثار ذلك من جديد نقمة سلطات العدو . وفي عام 1968 ، تصاعدت موجة الاضطهاد والقمع الصهيوني ضد اركان هذه الحركة حيث حكم على صالح برانسي بالسجن عشر سنوات بتهمة انشاء خلية مسلحة تقوم بالعمليات الفدائية ، بينما استطاع كل من حبيب قهوجي وزوجته الذين اتهما بالتجسس ، الهرب الى لبنان ومعهما صبري جريس وانضموا الى مؤسسات منظمة التحرير (14) .

القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح)
ومقولة التقدمية

اسفر الانشقاق الذي حدث داخل صفوف (الحزب الشيوعي الاسرائيلي) في آب 1965 ـ على اثر انسحاب مجموعة (ميكونيس ـ سنيه) عن ظهور حزب جديد على المسرح السياسي يحمل اسم (القائمة الشيوعية الجديدة « راكاح ») الذي يتزعمه ميئير فلنر .

وبالنسبة لحزب (ماكي) بزعامة الدكتور سنيه فقد انتهى دوره كحزب شيوعي واصبح حزبا صهيونيا قلبا وقالبا يتبنى المواقف الداعمة لسلطات الاحتلال ولم يبق له من شيوعيته الا الاسم . اما (راكاح) فيوجد الكثير الذي يقال عنه وسنترك الحقائق تتكلم بنفسها وتصدر الحكم عليه .

قبل التعرض الى المواقف المتحفظة بل والعدائية التي وقفها راكاح ضد التنظيمات الوطنية القومية العربية الموالية للاتجاه التحرري والخط الثوري الوحدوي من الضرورة بمكان التعرض بايجاز الى طبيعة هذا الحزب ومواقفه المعلنة (الرسمية) وغير المعلنة من القضية الفلسطينية والصراع مع الصهيونية . سبق وان اشرنا الى ان راكاح هو الحزب الوحيد الذي يتيح للعرب حرية العمل والتعبير ضمن اطار رسمي وشرعي . تضم زعامة الحزب الى جانب ميئير فلنر (السكرتير العام للحزب) وايرلنج وساشاخين بعض الزعماء الشيوعيين الفلسطينيين القدامى امثال توفيق طوبي ، اميل توما ، اميل حبيبي (15) . ويصدر الحزب صحيفة باللغة العربية باسم (الاتحاد) تصدر مرتين في الاسبوع ورئيس تحريرها هو توفيق طوبي . كما تصدر صحيفة اخرى باللغة العبرية هي « ازوهاد يزيخ » (هذا هو الطريق) (16) .

وقد كان للحزب عام 1969 تسعة وخمسون (59) فرعا وتنتشر هذه الفروع في كافة انحاء البلاد . ويحظى هذا الحزب بتأييد (5ر2) بالمائة من اليهود داخل الكيان الصهيوني .وقد ازدادت العضوية فيه بعد عام 1965 (بعد الانشقاق داخل الحزب الشيوعي الاسرائيلي ونشوء ماكي) بنسبة 5ر15٪ ولكنها هبطت بعد حرب حزيران بنسبة 5ر3٪ ، وبعد عام 1969 سجل ارتفاع جديد في رقم العضوية (17) . وهذا الحزب محسوب على التيار السوفييتي وهو الحزب الوحيد من بين ما يطلق عليه فصائل اليسار ، الذي له اتصالات رسمية مع بعض الاحزاب الشيوعية العربية (الاردني والعراقي) وقد تلقى منهما اثناء انعقاد مؤتمره السابع عشر رسائل تأييد ومناصرة (18) .

موقف الحزب الشيوعي (راكاح) من الوجود الصهيوني والقضية الفلسطينية

لهذا الحزب بعض المواقف التي تدينه كحزب يساري تقدمي ، وتجعله مثل باقي الاحزاب داخل الكيان الصهيوني التي هي اداة ووسيلة لتنفيذ السياسة الصهيونية . وسنشير الى بعض المواقف الثابتة التي اعتمدها في برنامجه السياسي وفي نشراته الحزبية وروج لها في ادبياته ، والتي ستحكم بنفسها على هذا الحزب .

1 ـ هذا الحزب الذي يدعي التقدمية ومعاداة (اسرائيل) يعترف اعترافا عمليا وشرعيا بالكيان الصهيوني في حدود الرابع من حزيران 1967 ، بل ولا يتردد في اضفاء صفة الشرعية على النظام الصهيوني الغاصب حين يقول « اسرائيل هي دولة يهودية لانها تعبر عن تقرير المصير لليهود في البلاد (19) .

2 ـ اعتماد راكاح قرار مجلس الامن رقم 242 كحل للنزاع العربي الصهيوني مع بعض الترتيبات التي يقتضيها « الامن الاسرائيلي » .

3 ـ يدعو راكاح الى تقرير الشعب الفلسطيني لمصيره عن طريق اقامة كيان فلسطيني في الضفة الغربية والقطاع الى جانب (اسرائيل) ، ويعيش في هذا الكيان عرب الاراضي المحتلة بعد عام 1967 فقط . والامر الجدير بالملاحظة هو ان نظرة راكاح الى الدولة الفلسطينية تنطلق من هذا الافتراض : خلق دولة فلسطينية ضعيفة تنضوي تحت لواء الاحتلال وتعترف بدولة العدو فيما يضمن لها الاخير الاعتراف الدولي ، واعتراف بعض الدول العربية على الاقل .

4 ـ يتوخى هذا الحزب ابقاء الغالبية من ابناء الشعب الفلسطيني ـ ونعني بهم عرب الارض المحتلة بعد عام 1948 ، الذين يعتبرهم اقلية قومية داخل الكيان الصهيوني ـ تحت ظل الاحتلال الصهيوني وربطهم به الى الابد وصهرهم في بوتقته او ابقائهم بعيدا عن اراضيهم في الدول العربية وفي المخيمات . وهو بهذا يحاول التجزئة والتمييز بين عرب الارض المحتلة (منذ عام 1948) وعرب الاراضي المحتلة (بعد 1967) (20) .

5 ـ يرفض راكاح مشروع الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية في عموم فلسطين التي يعيش فيها اليهود والعرب ، ويحاول زعماؤه تبرير هذا الرفض بالقول « ان احتمالات وفرص تطبيق مشروع الدولة العلمانية في الظروف الراهنة ، احتمالات ضعيفة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعليه فان من الواجب على منظمـــة التحرير الفلسطينية ان تتبنى اتجاهات اكثر واقعية » (21) .

6 ـ يدعو راكاح الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية غير انه لا يجعل ذلك على طول الخط حيث يقول زعمـاء راكاح « على اسرائيل الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ولو ان هذا الاعتراف لا يعني بالضرورة الاعتراف بمشروعهـا في اقـامة دولة فلسطينية واحدة تنكر حق اسرائيل في البقـاء او الاعتراف بالعمليات المغامرة التي تقوم بها بعض الاوساط الفلسطينية المتطرفة » (22) .

7 ـ دخل راكاح في تحـالف مع بعض القوى السياسيـة الصهيونية وعملاء الصهاينة من العرب مشكلا بذلك « الجبهـة الديمقراطية للمساواة والسلام » التي ينص احد بنودها الستة على « ضرورة الحفاظ على امن اسرائيل والـدفاع عنها في اطار حدود 1967 والسعي لاقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع » (23) .

8 ـ يوضح زعماء راكاح وبشكل لا يقبل التأويل حرصهم على امن وسلامة الكيـان الصهيوني ورفضهم « للتطرف » من جانب القوميين العرب حيث يقولون « ان برنـامجهم لا يسعى الى تحقيق الرغبات القومية للاقلية العربية بشكل منفرد ومستقل على حساب دولة اسرائيل .. وان المطالبة بحقوق قومية تعني النضال ضـد سياسة الاضطهاد والتمييز التي تمارسها الحكومـة تجاه العرب بسبب انتمائهم القومي » (24) .

راكاح والتنظيمات الوطنيـة الفلسـطينية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا يمكن باي حال من الاحوال اغفال الموقف المعادي المنـافي لابسط مبادىء « التقدمية » التي يتحدث عنها زعمـاء راكاح ومن يلتزم جانب الدفاع عنه الذي وقفه هذا الحزب من خلال الحملة الهجومية التي اتسمت بضراوتها والتي شنتها اجهزة الحزب ضـد التيار الوطني الفلسطيني ممثلا بحركة « ابناء البلد » ولجنة الطلبة العرب المعروفتين بخطهما الثوري المعادي للصهيونية ومحاولة وصف هذه الفئات بتهم مثل « فئـات تخريبية » و « شوفينية » او يمين فاشي (او اليسار الطفولي) (25) . وبهذا اخذت الاقنعة التي تسترت راكاح وراءها فترة طويلة بالتمزق الواحد تلو الآخر . وفي الحقيقة يمثل الصدام الذي حصل بين راكاح والفئات الوطنية الفلسطينية التناقض بين النضال العربي الذي تخوضه هذه الفئات و (النضال) المرسوم وفق انماط راكاح الخاصة والبعيدة كل البعد عن تلبيـة الطموحات القومية العربية ، والهادفة الى القـاء الشباب العربي في مهاوي العدمية القومية . وقبل الدخول في تفـاصيل الصراع بين التيار الوطني المتمثل بالجماعتين وراكاح والذي قادت اليه جملـة من المواقف التي وقفها خلال السنوات الثلاث الاخيرة وبالتحديد منذ عام 1976 ، تقتضي الضرورة وقفة قصيرة عند التنظيمات الثورية الفلسطينية من اجل فهم طبيعتها والارضية السياسية التي تنطلق منهـا والتي جرت راكاح الى صب نقمتـه عليها ومحاربتها بكل اسلحتـه .

حركـة (ابناء البلد) :

انعكس الصراع في اعتى صوره بين حركـة ابناء البلد وراكاح بعد ان بدات الحركة المذكورة تستقطب التأييـد الواسع الكبير من قطاعات واسعة من ابناء فلسطين الذين يرزحون تحت وطاة الاحتلال منذ نيف وثلاثين عاما وازدادت ضراوة الهجوم الـذي شنه الحزب الشيوعي راكاح على هذه الحركة بعدما عمـدت الاخيرة الى تكثيف نشاطهـــا القومي النضالي في منـاطق الجليل والمثلث على وجه الخصوص (26) .

ظهرت هذه الحركة في نهاية الستينات ومطلـع السبعينات في قرية ام الفحم كبرى القرى العربية الواقعة شمالي منطقـة المثلث كتنظيم وطني يضم شبابا من المعادين للزعامـة العائلية والولاءات الاقطاعية التي سادت هناك وانصب اهتمام هؤلاء الشباب على العمل من اجل تطوير القرى العربية في كافة المجالات . وقامت هذه الحركة بنشاطات عديدة الجوانب في القرية مثل القاء المحاضرات التي تهدف الى تعميق وتجذير الوعي القومي وعقد الندوات وتوزيع المنشورات التي تدعو الى التصاق الشباب بهويته القومية الفلسطينية والابتعاد عن المزالق والمطبات التي تؤدي الى العدمية القومية واللا انتمـاء وسط جو صهيوني معاد . واتسع نطاق الحركة نتيجة لزيادة اقبال الشباب على الانخراط في صفوفها واستطاعت ايصال احد اعضائها الى المجلس المحلي في ام الفحم عام 1974 (27) . وكان لهذه الحركة دور في النضال ضد عمليات مصادرة الاراضي العربية وهدم البيوت والنضال من اجل تحسين ظروف السجناء السياسيين والفدائيين العرب ومد يد التضامن مع الحركة الطلابية (في جـامعتي القدس وحيفا) عندما تعمد السلطات الصهيونية الى محاولـة ضربها . ولا تزال هذه الحركة في بدايات طريقها وهي تحاول ترسيخ قاعدتها ومن مبادئها هو ان تطوير الفكر السياسي لديها لا يتم الا عن طريق الممارسة النضالية والتصدي لسياسـة الاضطهاد وطمس المعالم القومية للعرب في فلسطين . ويوجد لهذه الحركة الكثير من المؤيدين في الجليل والمثلث ومن الامور التي كانت هدفا للانتقادات هو انـه لا يوجد لهذه الحركة لجنة مركزية تعمل على توحيـد تنظيمات (ابناء البلد) المتواجدة في القرى العربيـة . وشهدت السنتان الاخيرتان محاولات تتم على اساس الحرص على عقـد اجتماعات تنسيقية بين فروع حركة (ابناء البلد) في القرى العربية بين فترة واخرى لا تتجاوز الاسبوعين او الثلاثة . هذا والشيء الواضح مـن خلال مواقف الحركة هو انها تنطلق من خط قومي نضالـي رافض للصهيونية وممارساتها والوجود الصهيوني على ارض فلسطين ككل وان كانت تعتمد الوسائل المرحلية للعمل على انهاء هـذا الوجود وتصفيته بعد توحد الادارة العربية . ويصف ايلي ريكس الباحث في معهد شيلوح حركة (ابناء البلد) بانها حركة قومية متطرفة تتطابق آراؤها السياسية مع جبهة الرفض العربية (28) .

ومما يسترعي الانتباه والاهتمام في نفس الوقت هو ان هنـاك بعض التشابه في المبادىء والتوجه القومي نحو الوحدة والتحرر بين هذه الحركة وحركة الارض سالفة الذكر . غير ان الفرق البارز بين كلتا الحركتين هو ان (الارض) كانت تؤمن بان تصفية الاحتلال والوجود الصهيوني سيتحقق من خلال الكفاح الذي خاضه الرئيس عبدالناصر (29) ، بينما تؤمن حركة ابناء البلد ، بان منهجية الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني في الداخل وتخوضه فصائل المقاومة بدعم واسناد الحركات الثورية العربية والانظمة التقدمية هو السبيل الوحيد نحو التحرير الكامل لجميع التراب الفلسطيني . وهناك حقيقة اخرى تجعل الظروف التي تحيط بهذه الحركة افضل من تلك التي سادت ابان نشاط حركـة الارض وهي ازدياد الوعي القومي لدى الشعب الفلسطيني الرازح تحت وطاة الاحتلال منذ عام 1948 وازدياد عددهم . ففي حين كان عـدد فلسطينيي 1948 في بداية الستينات هو (300) الف نسمة فان عـددهم الآن حوالي نصف مليون نسمة ويجب ان لا نغفل ما لذلك من اثر في ازدياد نسبة المثقفين (30) ممن ينحون منحى قوميـا ولهم نفـس ثوري وطني وما يترتب على ذلك من تضاؤل النفوذ العائلي والولاء للاطر التقليدية

والحسب والنسب . وبالاضافة الى ذلك تتميز هذه الحركة بقدرة كبيرة على المناورة لم تعرفها حركة الارض . وهذه الحركة ترفض اتفاقيات كمب ديفيد ومبادرة السادات لعقد صلح مع العدو كما ترفض قرار مجلس الامن رقم 242 . وتعتبر منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . كما تدعو الى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين (31) . وتتهم راكاح بانه حريص كل الحرص على كل ما يتعلق (باسرائيل) .

لجنة الطلبة العرب

قام الطلبة العرب في الجامعات الصهيونية وبشكل خاص الجامعة العبرية في القدس وجامعة حيفا بتشكيل لجان خاصة بهم مهمتها رعاية شؤون الطلبة وحل مشاكلهم المختلفة ، وفي غياب وجود حزب وطني فلسطيني يقود نضال الجماهير العربية في الارض المحتلة رات هذه اللجان ان مهماتها تتعدى مهام ونشاط الحركة الطلابية العادي كنقابة مهنية وتمتد الى النشاط السياسي القومي وبذلك كانت الحركة الطلابية الوسط الفلسطيني الوحيد المستقل في الداخل. وتعتبر لجنة الطلبة العرب في القدس احدى القوى الفاعلة في تصعيد النضال الجماهيري داخل الوطن المحتل ، وتجذير الوعي الثوري وتعميقه لكشف اساليب العدو والقوى التي تدعي التقدمية والديمقراطية وتعرية مواقفها (32) . وقد تبلور خطهم القومي النضالي من خلال النضال ضد سياسة الاضطهاد ومصادرة الاراضي العربية . وقد شارك الطلبة في انتفاضة يوم الارض واصدروا جريدة بعنوان (الجرمق) مخصصة ليوم الارض . كما بادرت لجنة الطلبة في حينه الى تنظيم مظاهرة تضامنا مع سجناء عسقلان والرملة في القدس في 15-1-1977 شارك فيها الطلاب من جامعتي حيفا وتل ابيب (33) . وقد تصدت لجنة الطلبة العرب في جامعتي القدس وحيفا لكل محاولات راكاح الرامية الى احتواء الحركة الطلابية وكتم انفاسها ودخلت معه في صراع مع بذل كل جهودها لفضح طبيعته التي لا تنسجم والاهداف القومية للشعب الفلسطيني . ومن هنا جاءت دعوة لجنة الطلبة الى مقاطعة انتخابات الكنيست الصهيوني .

وهنا من الضرورة بمكان التطرق الى المباديء العامة التي تشكل الخط القومي والبرنامج السياسي لهذه الحركة والتي يظهر من خلالها الخلاف مع مباديء الحزب الشيوعي (راكاح) والتي تؤدي بالتالي الى تخلف هذا الحزب عن التقدمية والقومية باشواط بعيدة ، ومن هذه المباديء :

1 ـ تعتبر هذه الحركة العرب الذين يعيشون تحت ربقة الاحتلال منذ عام 1948 جزءا لا يتجزء من الشعب العربي الفلسطيني سواءا الموجود منه في الوطن المحتل او خارجه وهو بالتالي لا يمكن ان ينتمي الى ما يسمى (بالشعب الاسرائيلي) او (الدولة الاسرائيلية) (34) .

2 ـ حيث ان فلسطينيي 1948 هم جزء من الشعب العربي الفلسطيني ، فان مصيرهم يجب ان يكون مرتبطا بمصير الشعب الفلسطيني في كل اماكن تواجده وبمصير ومستقبل الشعب العربي. بينما نجد ان راكاح يحاول عزل هذه الجماعة عن باقي الشعب الفلسطيني السائر في الركب القومي ويحاول ترسيخ انتمائها لما يسمى بدولة (اسرائيل) من خلال الدعوة الى انشاء دولة فلسطينية يعيش فيها عرب الاراضي المحتلة بعد عام 1967 فقط وكان هؤلاء لا يمتون اليهم بصلة .

3 ـ ان للشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره فوق تراب وطنه ، كما ان لفلسطينيي 1948 حقا قوميا يتمثل في حقهم في تقرير مصيرهم ، وليس باعتبارهم اقلية قومية داخل الكيان الصهيوني ، كما ينادي بذلك الحزب الشيوعي (راكاح) (35) .

4 ـ تعتبر هذه الحركة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني كاطار وحدوي يضم جميع فصائل المقاومة الفلسطينية بما في ذلك جبهة الرفض الفلسطينية في الوقت الذي شنت فيه اجهزة راكاح هجوما على منظمات الرفض التي وصفتها بانها « جماعات تخريبية تسعى الى ضرب جهود السلام مع العدو » (36) .

5 ـ ان الصهيونية حركة استعمارية عنصرية ترتبط بالامبريالية العالمية وعليه فان المشروع الصهيوني في فلسطين هو تجسيد عملي للاستعمار الاستيطاني ، والاضطهاد القومي . وبناءا على ذلك فان الصهيونية واداتها (اسرائيل) هي عدو للشعب الفلسطيني والامة العربية جمعاء .

6 ـ ترفض هذه الحركة جميع التسويات السياسية (سواء الجزئية او الشاملة) جملة وتفصيلا وبالتالي فانها ترفض قرارات مجلس الامن الدولي وبشكل خاص القرارين 242،338 ويأتي هذا الرفض انطلاقا من ايمان هذه الحركة بعدم امكانية استرجاع حقوق الشعب الفلسطيني القومية عن طريق الجهود والمحاولات الاستسلامية (37) .

7 ـ النضال من اجل العمل على اقامة سلطة وطنية فلسطينية مقاتلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية في اي شبر يتم تحريره بقوة السلاح دون صلح مع العدو او اعتراف به وذلك كخطوة اولى نحو الوصول الى الهدف النهائي في التحرير الشامل للارض العربية.

8 ـ ترى هذه الحركة بان تأييد الاحزاب الموجودة على المسرح السياسي الصهيوني هو بمثابة تخلي عن الهوية العربية الفلسطينية . وقد دار هذا النقاش حول هذه القضية مدة عامين مع الحزب الشيوعي (راكاح) .

وبهذا الصدد تجدر الاشارة الى ان لجنة الطلبة العرب قد وجهت نداءا بهذا الخصوص الى الجماهير الفلسطينية ، وقد جاء في النداء (اذا كان نضالنا موجها ضد الصهيونية فان الاستسلام لها هي الميزة البارزة لجبهة السلام والمساواة بزعامة راكاح . وعليه لا يمكن ان نعطي صوتنا الى الاحزاب الصهيونية التي نناضل ضدها ولا لجبهة الاستسلام والتهادن معها) (38) .

راكاح في مواجهة الحركة الطلابية وابناء البلد

هناك شيء يجدر الالتفات اليه وهو ان الحركة الطلابية (ممثلة بلجنة الطلبة العرب في القدس وحيفا) وكذلك حركة ابناء البلد قد حرصتا على تفادي الدخول في صراع مع راكاح سيما وان مقاومة سلطات الاحتلال تبقى لها الاولوية في نضال اي تيار وطني داخل الارض المحتلة ، غير ان راكاح لم يستطع ان يهضم حقيقة وجود اطر نضالية فلسطينية مستقلة تناضل بمعزل عن اساليب عمله السياسي.

ومن هنا جاءت حملته وهجماته على حركة ابناء البلد بعد تكثيف نشاطها وفوزها في بعض قرى المثلث . كما اوعز هذا الحزب الى صحيفة (الاتحاد) الناطقة بلسانه بالتهجم على الحركة وعلى الحركة الطلابية واطلاق شتى النعوت عليها . ولعل من المفيد ايراد بعض ما جاء في الصحيفة : « على الرغم مما جلبته المزايدات الكلامية والشعارات « الثورية » الفارغة على شعبنا من مصائب ، فلا تزال فئات هنا وهناك تعتبر الثورة كلمة طنانة وشعارا لا رصيد له »(39). والصحيفة تشير في ذلك الى استضافة (ابناء البلد) في بلدة ام الفحم لمعرض الفن التشكيلي الفلسطيني ودعوة رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة لحضور المعرض الذي تحول الى تظاهرة فنية وسياسية . بل ولم تتورع الصحيفة عن توجيه التساؤل التالي في مقالها : «هل يطمح هؤلاء السادة في ان يكونوا حزبا عربيا قوميا ؟»(40) ويبدو ان هذا التساؤل يعكس خوف راكاح من ان يتحول هذا التنظيم الى حزب قوي قومي الاتجاه يقود الجماهير الى اضرام نار الثورة ضد السلطات الصهيونية وادواتها . وهذا ما املى على صحيفة (الاتحاد) الاستمرار في حملتها بشكل متواصل ليس على حركة (ابناء البلد) التي حولت بلدة ام الفحم الى قاعدة جماهيرية داعمة لها فحسب بل على لجان الطلاب العرب في الجامعات والثانويات الذين يلتقون في نضالهم القومي مع الخط القومي الصدامي الذي تطرحه حركة ابناء البلد وتشارك السلطات الصهيونية راكاح قلقه وتعرب هي الاخرى عن تخوفها من نتائج التحولات الجذرية بين صفوف الشارع العربي .. تلك التحولات التي جعلت ـ طبقا للمصادر الصهيونية ـ « حزب راكاح ينكشف ويفرغ من جميع شعاراته ويصبح حزبا معتدلا لا غير » (41) . ومما لا شك فيه ان كل هم الحزب الشيوعي (راكاح) هو ان يزيح من دربه « الفئات المتطرفة » من اجل مواصلة عملية الغاء اي تحرك وطني صحيح في الساحة الفلسطينية وهنا يلتقي هذا الحزب في رغبته هذه مع سلطات الاحتلال .

ومن الواجب توضيح بعض الحقائق المتعلقة ببعض المواقف التي وقفها راكاح والتي قادت الى الصدام بينه وبين التيار الوطني الفلسطيني ممثلا بلجنة الطلبة العرب . وفي الحقيقة لا تحتاج هذه المواقف الى شرح او تفسير لكي تبين حقيقة راكاح ونواياه .

1 ـ موقف راكاح من موضوع الحراسة في مساكن الطلبة .

لقد حاولت سلطات الجامعة بايحاء من سلطات الاحتلال وجهاز المخابرات الصهيوني (الشين بيت) فرض الحراسة على الطلبة العرب اسوة بالطلبة اليهود وذلك في اعقاب العمليات الفدائية مثل عملية الكافتريا في الجامعة العبرية وغيرها (42) . وكان هدف سلطات الاحتلال دفع الطلبة العرب الى القيام بدور عسكري ضد الفدائيين من ابناء شعبهم ومن اجل اظهار حركة المقاومة بمظهر الحركة التخريبية التي يقوم الطلبة العرب بالتصدي لها . وقدخاض الطلبة نضالا صلبا ضد هذه المهمة واصروا على الرفض رغم التهديد بالطرد والفصل الى ان تسنى لهم افشال المؤامرة . وهنا كان دور راكاح المشين حيث طلب من اعضائه من الطلاب السعي لاقناع الطلبة العرب بالقيام بالحراسة وذلك من منطلق المساواة بين الطلبة العرب واليهود .

2 ـ ارادت الحركة الطلابية الفلسطينية ارسال مذكرة احتجاج الى السكرتير العام للامم المتحدة من اجل شرح ابعاد المؤامرة التي يتعرض لها الفلسطينيون في ظل الاحتلال والتي تستهدف تصفيتهم جسديا ومعنويا . وقد اصر الطلبة الاعضاء في راكاح على ضرورة ذكر شرعية الدولة الصهيونية في حدود آمنة ومعترف بها .وبالطبع لم يرض الطلبة العرب التقدميون بهذا الطلب الجائر الذي يسيء اليهم والى حركة النضال الفلسطيني وراوا ان الافضل عدم ارسال المذكرة، وبذلك افشل راكاح عملية ارسال المذكرة (43) .

3 ـ يصر راكاح على تلاوة النشيد الوطني الصهيوني (هتكفا) في اية مناسبة وفي اي محفل او نشاط سياسي . والمعروف ان هذا النشيد يتغنى بعودة اليهود الى ارض الآباء (44) .

4 ـ اصر راكاح على ان يحول « يوم الارض » في عام 1977 الى يوم للذكرى فقط . كما حاول ايقاف النضال الذي خاضه الوطنيون العرب ضد عمليات مصادرة الاراضي في الجليل بحجة التطوير .

وقد ادى هذا الموقف من جانب راكاح الى تأجيج الخلاف بينه وبين لجنة الطلبة العرب . واصر هذا الحزب على ان مصادرة الاراضي العربية لا تزال حبرا على ورق وانه من الممكن ان تسفر المفاوضات الجارية مع سلطات العدو عن ايجاد حل لمشكلة المصادرة ولذا فانه لا داعي لتنظيم التظاهرات وان يوم الارض يجب ان يكون احياء لذكرى شهداء يوم الارض الاول فقط . اما لجنة الطلبة العرب في القدس فقد كان لها راي آخر يتلخص في ان سياسة المصادرة التي تنتهجها سلطات الاحتلال هي سياسة قائمة بالفعل بل ومستمرة ولا تزال المستوطنات الصهيونية تقام على الارض العربية المصادرة في الجليل وفي المناطق المحتلة بعد 1967 ، وعليه فان دعوة لجنة الطلبة العرب في القدس الى اعلان الاضراب العام ياتي ضمن اطار النضال الفلسطيني العام لايقاف عمليات مصادرة الارض العربية وانشاء المزيد من المستوطنات عليها . هذا وقد تعدى راكاح كل الحدود عندما قام بعض اعضائه بضرب الطلبة المتظاهرين في عرابه وتمزيق شعاراتهم (45) .

راكاح وانتخابات المجالس البلدية والمحلية الاخيرة

في ضوء هذه المواقف البعيدة كل البعد عن تجسيد الاماني القومية للشعب العربي في فلسطين التي تبناها زعماء راكاح في العديد من المناسبات وفي ضوء بعض مبادئهم وشعاراتهم المشبعة بروح الصهيونية وقف الشارع العربي موقفا معاديا من هذا الحزب . وبرز هذا الموقف بشكل واضح في انتخابات المجالس البلدية والمحلية الاخيرة التي جاءت نتائجها مخيبة لآمال (راكاح) وضربه لسلطات العدو التي يهمها ان يبقى الشارع العربي ملتفا حول هذا الحزب المعتدل الذي تجد لغة للتفاهم معه ، ليمتص منه نقمته بدلا من التحول نحو التنظيمات والحركات « المتطرفة » التي تشعل فيه جذوة الوطنية والثورة . لقد فازت (الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة) وهي التحالف الذي يشكل راكاح دعامته الرئيسية في الجليل حيث حصلت على الرئاسة في 12 قرية من مجموع القرى الثلاثين في حين فازت حركة (ابناء البلد) في المثلث ، ولم يحصل راكاح هنا الا على مقعد واحد للرئاسة في قرية ام الفحم وفشل في 12 قرية (46) .

وفي قرية ام الفحم (وهي القرية الوحيدة التي سيطرت عليها « الجبهة » في المثلث) خسر راكاح واحدا من ممثليه الاربعة في المجلس نتيجة لفوز « حركة ابناء البلد » . وفي قرية عرعرة فشل (راكاح) في ايصال اي ممثل عنه للمجلس ، كما فشل في كفر قرع في تشكيل قائمة لخوض المعركة الانتخابية . وفقد راكاح في باقة الغربية العضو الوحيد الذي كان له في المجلس المحلي في حين فازت حركة (ابناء البلد) بمقعد واحد . وفي قرية جت لم تجرؤ الجبهة على خوض الانتخابات . وفشل راكاح في كل من الطيرة والطيبة . ويعترف

عطا الله منصور مراسل صحيفة هاآرتس ومن كبار المتعاونين مع سلطات الاحتلال بحقيقة فشل راكاح وصعود نجم (ابناء البلد) حيث يقول :

« على الرغم من ان راكاح يتمتع بحرية العمل السياسي في الوسط العربي فانه يواجه الآن منافسة ايديولوجية شديدة من جماعة (ابناء البلد) التي تتميز بقدرة كبيرة على العمل لم تعرفها جماعة الارض في السابق » (47) . وعلى اية حال ستشهد الايام القادمة معركة حامية الوطيس بين هذا التيار التقدمي وبين راكاح ومحاولاته الرامية الى الاجهاز عليه .

شيء اخير عن راكاح !!

في ضوء كل ما سبق ذكره وباعتماد كل الحقائق والمواقف التي لا تبقي اي مجال للتساؤل او الشك في ممارسات هذا الحزب التي لا تخدم القضية العربية المركزية والتي تتطابق مع مواقف بعض الاحزاب الصهيونية ، نخلص الى نتيجة لا يمكن ان تكون متجنية باي شكل من الاشكال وهي ان راكاح لا يمكن ان يكون حزبا يمثل العرب في الارض المحتلة ويلبي طموحاتهم وتطلعاتهم ، وانه لا يعدو ان يكون تنظيما ــ مثل باقي التنظيمات ــ افرزته الصهيونية .

وبالاضافة الى ما استعرضناه من مواقف وقفها هذا الحزب والتي تشكل ادانة لممارساته وخطه ونهجه هناك امور لا بد من الوقوف عندها :

1 ــ ان كل عضو يهودي داخل (راكاح) هو مستوطن مهاجر او ابن مهاجر استقدمته الحركة الصهيونية للمساهمة في بناء مشروعها الاستيطاني وزرعته في الارض العربية المغتصبة . وهناك مقولة لبن جوريون هي :

(ان كل من يهاجر الى « اسرائيل » هو صهيوني وكل يهودي يبقى في الخارج حتى وان كان رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي ــ جولدمان ــ هو غير صهيوني) .

2 ــ يشارك اعضاء راكاح من اليهود في الاستيطان الصهيوني. حيث توجد لهم مستوطنة هي « يد حنا » ولا حاجة للتذكير بان هذه المستوطنة قد اقيمت على ارض عربية اغتصبت من اهلها .

3 ــ يدلي اعضاء الكنيست من هذا الحزب كغيرهم بقسم الولاء للدولة .

4 ــ يحمل هذا الحزب شعار « الاخوة العربية الاسرائيلية » .

5 ــ يؤيد قضية الانصهار والزواج المشترك .

وعلى اية حال يبقى هذا الحزب في النهاية جزءا لا يتجزء من طبيعة الكيان الصهيوني وهو وان بدا ظاهريا متعارضا مع الخط العام الا ان وجوده يحقق في النهاية فوائد جمة للكيان الصهيوني داخليا وخارجيا ، سياسيا ودعائيا .

الهوامش :

(1) صحيفة دافار 21ـ2ـ1979 .
(2) جريدة المحرر اللبنانية 11ـ1ـ1972 .
(3) جريدة الانوار 19ـ10ـ1969 .
صحيفة كول هعام 22ـ1ـ1973 .
(4) جريدة المحرر 11ـ1ـ1972 .
(5) معاريف 12ـ6ـ1975 .
(6) مجلة آفاق عربية / العدد العاشر / 1976 .
(7) دافار 22ـ7ـ1972 .
مجلة الحوادث اللبنانية 31ـ10ـ1969 .
(8) جريدة اخبار اليوم 8ـ2ـ1969 .
(9) نفس المصدر .
(10) معاريف 13ـ8ـ1973 .
(11) كتاب المعجم العسكري الاسرائيلي ص 41 النسخة العبرية .
(12) نفس المصدر .
(13) دافار 28ـ12ـ1976 .
(14) المعجم العسكري الاسرائيلي النسخة العبرية ص 41 .
(15) جريدة اخبار اليوم 8ـ2ـ1969 .
(16) دافار 22ـ1ـ1975 .
(17) جريدة اخبار اليوم 8ـ2ـ1969 .
(18) الدستور اللبنانية 23ـ11ـ1972 .
(19) جريدة البناء 3ـ6ـ1973 .
(20) فلسطين الثورة 14ـ7ـ1977 .
(21) كتاب الصراع العربي الاسرائيلي .
(22) نفس المصدر .
(23) فلسطين الثورة 14ـ7ـ1977 .
(24) آفاق عربية العدد / 6 شباط / 1969 .
(25) ملحق هاآرتس 15ـ12ـ1978 .
(26) مجلة الدستور 23ـ7ـ1978 .
(27) ملحق هاآرتس 15ـ12ـ1978 .
(28) ملحق هاآرتس 28ـ12ـ1978 .
(29) آفاق عربية العدد 1979/6/ (اضواء على التوجهات القومية لفلسطينيي 1948) .
(30) ملحق هاآرتس 15ـ12ـ1978 .
(31) نفس المصدر .
(32) راجع دراسة (حقائق عن التعليم في المحيط العربي داخل الكيان الصهيوني) آفاق عربية العدد /12 لعام 1977 .
(33) فلسطين الثورة 14ـ7ـ1977 .
(34) هعولام هزيه 28ـ4ـ1976 .
(35) (اضواء على التوجهات القومية لفلسطينيي 1948) آفاق عربية / العدد 6/ 1979 .
(36) هاآرتس 28ـ12ـ1978 .
(37) ملحق هاآرتس 15ـ12ـ1978 .
(38) فلسطين الثورة 14ـ7ـ1977 .
(39) مجلة الدستور 23ـ7ـ1978 .
(40) نفس المصدر .
(41) نفس المصدر .
(42) آفاق عربية العدد 1977/12 (حقائق عن التعليم في المحيط العربي داخل الكيان الصهيوني) .
(43) آفاق عربية (اضواء على التوجهات القومية لفلسطيني 1948) العدد السادس لعام /1979 .
(44) نفس المصدر .
(45) نفس المصدر .
(46) عل هامشمار 1ـ11ـ1978 .
(47) هاآرتس 12ـ11ـ1978 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حي بن يقظان

لابن طفيل الأندلسي والقارئ الأنكليزي في مطلع القرن الثامن عشر

عاش ابن طفيل الاندلسي الفيلسوف والطبيب العربي المنشأ خلال القرن الثاني عشر الميلادي وقد خلده التاريخ في رواية كتبها جوابا الى سائل يسأل عن اسرار الحكمة المشرقية فاودعها نظرياته الفلسفية والتربوية والعلمية والطبية كافة في قالب قصصي مشوق . ثم شاءت الاقدار ان يكون لتلك الرواية شأن في انكلترا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد ترجمتها الى الانكليزية ، حيث اعتبرت من اهم الروايات الشرقية ذات الطابع الفلسفي وكتب على نمطها العديد من الكتاب الانكليز ، وما الصفحات التالية الا مثال بسيط على الدور الذي لعبه التراث العربي في الحضارة الغربية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انكلترا والرواية الشرقية عامة :

بقي تأثر انكلترا بالمشرق غير مباشر حتى أواخر القرن الثامن عشر ، فقد اعتمدت هي وبقية دول اوربا الشمالية على اسبانيا وايطاليا وفرنسا في نقل التراث الشرقي ، والذي انتقل الى تلك البلدان عن طريق موجات تأثرية عديدة .

يزعم الراي الذي ساد لفترة طويلة ان عظمى تلك الموجات قد حدثت عن طريق الحروب الصليبية خلال القرون الوسطى ، لكن دراسات تأريخية حديثة بدأت تشكك في ذلك الراي ، اذ ان الطبيعة الحربية لتلك الصلة بين المشرق والمغرب لا بد ان تكون بالضرورة قد حدّت من ذلك التأثر (1) . لذا يذهب بعض المؤرخين الى ان الفضل في انتقال الفكر العربي وعلوم العرب الى الغرب يعود الى الوجود العربي في اسبانيا وصقلية حيث تمكن العرب من ان يشيدوا حضارة مزدهرة زاخرة دامت اكثر من سبعة قرون (2) . على ان بُعد انكلترا عن تلك التيارات لم يمنع البعض من ان يشدّوا رحالهم الى مراكز المعرفة في اسبانيا وصقلية وينهلوا من منابع العلم في الجامعات العربية هناك (3) .

ومن عصر الملكة اليزابيث في القرن السادس عشر قويت أواصر الصلة بين المشرق والمغرب نظرا لتطور العلاقات التجارية ، على ان الاهتمام الفعلي باللغة العربية وآدابها لم يبدأ بالتبلور حتى القرن السابع عشر . في ذلك القرن ظهر الاهتمام بها واضحا جليا لدى الكثير من الدارسين . « وليام بيدويل » (1562 – 1632) مثلا ، الذي كان يدعى بـ « ابي الدراسات العربية » ، اكد على الاهتمام باللغة العربية ووصفها بأنها « لغة الدين الوحيدة ولغة الدبلوماسية والتجارة الرئيسة » (4) . يضاف الى ذلك ان اللغة العربية بدأت تدرس في جامعات اوكسفورد وكمبردج واصبح المستعرب المعروف « ادورد بوكوك » (1604 – 1691) اول من يشغل كرسي اللغة العربية في اوكسفورد (5) .

اما مستشرقو القرن الثامن عشر فقد واصلوا ما بدأ به أسلافهم خلال القرن السابق ونخص بالذكر منهم « سايمون أوكلي » (1678 – 1720) تلميذ « ادورد بوكوك » ، والذي اسهم في ايصال منجزات المستشرقين الى جمهور القراء . فقد كان « اوكلي » متحمسا لتطوير تدريس اللغة العربية مؤكدا على اهميتها البالغة لقراءة وفهم القرآن ، ذلك الكتاب « الذي اخضع جزءا كبيرا من الكرة الارضية » حسب وصف اوكلي (6) . فالقرآن الكريم وقتذاك كان ما يزال غير مفهوم حق الفهم من قبل الكثيرين من الغربيين الذين نظروا الى الدين الاسلامي على انه « دين زائف » وعلى انه دين « العنف والسيف » و « الانغماس في الشهوات واللذات » (7) . ولكن كيف كان يتسنى للقارئ الانكليزي ان يتفهم القرآن والترجمة الوحيدة لذلك الكتاب الكريم المتوفرة حينذاك هي ترجمة « اليكساندر روس » المعنونة : « قرآن محمد ، ترجم حديثا الى الانكليزية لارضاء كل من يرغب في الاطلاع على تفاهات الاتراك » (1649) والتي اعتمد فيها على ترجمة « اندري دي دايرز » الفرنسية لجهله اللغة العربية ! (8) .

لذا حاول « اوكلي » والحال كذلك ان يقدم في كتابه « تاريخ المسلمين » تقريرا وافيا عن منجزات الحضارة العربية وللمرة الاولى بصورة مبسطة ومفهومة (9) . ويبدو ان رغبته الملحة في تعريف القارئ بالانجازات العربية المشرفة دفعته الى ترجمة « حي بن يقظان » لابن طفيل الى الانكليزية .

ولكن على الصعيد الاكثر شعبية اكتفى الكتّاب الانكليز بالتعرف على المشرق من مصادر ثانوية وذلك بقراءة روايات الرحالة والترجمات الانكليزية عن الترجمات الفرنسية للروايات الشرقية . ولم تخفق تلك الروايات في ان تترك اثرا عميقا في نفوس الكتّاب والشعراء الانكليز الذين شرعوا بدورهم يكتبون روايات على نمطها ، لذا كانت تلك الحقبة من الزمن تعجّ بالروايات الشرقية المترجمة والزائفة على حد سواء ‹10› .

وفي الغالب ان سبب شغف القراء بتلك الروايات يعود ، كما يقول « جب » ، الى ان الادب الكلاسيكي لم يكن شائعا تماما ، كما أراد له البعض ان يكون، لانه كان على الدوام « يفرض عليهم من أعلى » ، بينما كان الادب الشرقي أقرب بروحه الى الادب الشعبي الانكليزي وبالتالي الى قلوب القراء الذين كانوا في ازدياد مطرد والذين بداوا يطالبون بانماط ادبية اكثر شعبية ‹11› .

وعلى كثرتها يمكن ان تصنف تلك الروايات الشرقية الى اربع مجموعات كما فعلت « مارثا كونانت » في كتابها « الرواية الشرقية في انكلترا في القرن الثامن عشر » ، وهي الروايات الخيالية والروايات الاخلاقية التهذيبية والروايات الهجائية والروايات الفلسفية ‹12› .

كانت « الف ليلة وليلة » من اشهر القصص الخيالية التي ترجمت في العقد الاول من القرن الثامن عشر عن ترجمة « انطوان گالاند » الفرنسية ولاقت اقبالا منقطع النظير . على ان الروايات الخيالية باستثناء « الف ليلة وليلة » بدأت بالتدريج تفقد مكانتها البارزة لتفسح المجال للاصناف الاخرى . فمن الجدير بالذكر ان القرن الثامن عشر ، بصورة عامة ، كان عصر هجاء يحث على محاسن الاخلاق ويشجع الميول العقلية والعلمية والفلسفية . فمن الروايات الهجائية نذكر الرواية الشرقية الزائفة Citizen of The World لـ « گولد سمث » ، والترجمة الانكليزية « لترجمة » مارانا الفرنسية لرسائل « الجاسوس التركي » المزعوم وهي سلسلة من الرسائل يفترض انها كتبت بقلم جاسوس تركي متخف في اوربا . في تلك الرسائل يدّون ذلك الجاسوس ملاحظاته وانتقاداته للمجتمع الاوروبي وسياسته ، ولا يخفى على القاريء ان تلك الوسيلة تعتبر من اسلم الطرق التي يستخدمها الكاتب لانتقاد مجتمعه دون ان يخشى اي اذى قد يصيبه ‹13› .

وكان على الرواية الشرقية ايضا ان تحتوي على « موعظة » او مغزى أخلاقي والا كان مصيرها الاهمال. ومن هذه الروايات التهذيبية القصص القصيرة التي كانت تنشر في دوريات « ستيل » و «اديسون» Tatler و Spectator . على ان الروايات الفلسفية كانت هي المهيمنة في ذلك العصر على الرغم من قلتها ، واستطاعت ان تمتاز على الروايات الاخلاقية في قيمتها الادبية . فالافكار الفلسفية المطروحة على الاغلب افكار عامة وشاملة صيغت في اطار فلسفي تأملي يغاير الاسلوب التعليمي المباشر الذي تتصف به الروايات الاخلاقية ‹14› . ونخص بالذكر قصة « حي بن يقظان » الفلسفية الفريدة من نوعها حينذاك لكونها الترجمة الاصيلة المباشرة والوحيدة تقريبا لاثر عربي وسط خضم من الروايات الشرقية الفلسفية الزائفة مثل « رؤيا مرزا» لاديسون و«راسيلاس» «لساموبل جونسون»، فقد اصبح بمقدور القراء الانكليز ولاول مرة ان يتذوقوا نكهة الشرق من منابعها الاصلية.

ترجمات « حي بن يقظان » الى الانكليزية :

يعود اهتمام القاريء الاوروبي بكتاب ابن طفيل في الحقيقة الى القرن الرابع عشر الميلادي حين ترجم الكتاب الى العبرية وزوّد بشروحات كتبها موسى النربوني عام 1349 ‹15› . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ترجم الكتاب من العبرية الى اللاتينية بناءا على طلب « پيكوديلا ميراندولا » (1463 – 1494) ليطلع عليه شخصيا ‹16› .

وفي سنة 1671 ظهرت النسخة العربية المحققة للقصة والترجمة اللاتينية لها في انكلترا ، والفضل في ذلك يعود الى مستعرب القرن السابع عشر « ادورد پوكوك » والذي مكث في حلب خمس سنوات واستطاع ان يقتني مجموعة جيدة من المخطوطات العربية ومن ضمنها مخطوط « حي بن يقظان » ‹17› . وقد قام بترجمة القصة الى اللاتينية « ادورد پوكوك » الابن (1648 – 1727) وقدم لها پوكوك الاب ، وظهرت تحت عنوان « الفيلسوف المعلم نفسه » ‹18› .

وحققت الترجمة نجاحا كبيرا ‹19› على الرغم من انها ، على حد قول « آنطونيو پاستور » ، كانت في بعض اجزائها مربكة ومبهمة وتفتقر الى الاناقة والسلاسة في الاسلوب ، ولكنها على اية حال تعتبر انجازا كبيرا للصعوبات الكثيرة التي واجهها المترجم الشاب ‹20› . واعجب بالكتاب جماعة ممن كانوا يدعون انفسهم بـ « ابناء النور » Children of Light في بداية تكتلهم ثم عرفوا فيما بعد بـ « جمعية الاصدقاء » او « الكويكرز » ‹21› ، لذا عمد الكويكري « جورج كيث » (1638 – 1716) الى ترجمة الترجمة اللاتينية الى الانكليزية مدفوعا برغبته في أن يقدم الى القاريء الانكليزي كتابا يماثل ويدعم الآراء الكويكرية فيما يخص « النور الداخلي » والتجربة الروحية الذاتية ، وظهرت الترجمة عام 1674 حاملة العنوان التالي:

وصف للفلسفة المشرقية ، وحكمة بعض مشاهير الرجال في الشرق ، ونخص بالذكر معرفة حي بن يقظان العميقة والواسعة في الامور الطبيعية والدينية والتي استطاع ان يتوصل اليها بدون ان يتحدث الى غيره من البشر (وذلك عندما كان يعيش في جزيرة منعزلا وبعيدا كل البعد عن الناس منذ طفولته الى ان وصل الى تلك الدرجة من الكمال) . كتبها ابو جعفر ابن طفيل ومن العربية ترجمها الى اللاتينية طالب في اوكسفورد يدعى ادورد پوكوك والآن ترجمت بامانة من اللاتينية الى الانكليزية ، للخدمة العامة ‹22› .

وقد افصح كيث في مقدمته عن سبب ترجمته للقصة وهو انه وجد في الكتاب عدة اشياء مفيدة ولا تتنافى والمباديء المسيحية ، ولانه وجد الكاتب المسلم « يوضح ببراعة كيف ان معرفة الانسان الذي تفتحت عيناه روحيا تختلف عن المعرفة المستقاة بواسطة السمع والقراءة فحسب » . وحتى لا يسيء القاريء فهم مقصده يحذر كيث القاريء من ان ياخذ بكل ما جاء في الكتاب ماخذ الجد ، بل ياخذ بما يجده نافعا وصحيحا ومعقولا ويترك ما هو غير ذلك . ثم يشرع كيث في تزكية الكتاب وكاتبه المسلم الى قرائه المسيحيين فيقول :

اذا اتضح لك ان المؤلف او الشخص الذي يكتب عنه قصته انسان اطيب وافضل بكثير من الذين يسمون انفسهم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسيحيين ، والذين سنحت لهم كل الفرص الظاهرية كي يتعلموا ليصبحوا احسن منه ، كالرجوع الى الكتب الدينية المقدسة وعوامل مساعدة اخرى ، فلا يأخذك العجب (23) ..

وقد استفاد من ترجمة كيث احد مناصري الحركة الكويكرية وهو « روبرت باركلي » حيث زودته ببرهان قاطع على وجود « النور الداخلي » . ففي كتابه الشهير « دفاع عن اللاهوت المسيحي » ، اعلن قائلا :

يوجد كتاب ترجم من العربية يسرد قصة امرء يدعى حي بن يقظان والذي توصل ، بدون ان يتحدث مع غيره من الناس وذلك بالعيش في جزيرة لوحده ، الى معرفة الله معرفة عميقة كان يتحدث معه مباشرة ، والى ان يؤكد ان افضل معرفة بالله واكثرها ثباتا ليست تلك المعرفة التي تستخلص عن طريق فرضيات تفترض او استنتاجات تستخرج بل تلك التي تتحقق عن طريق اقتران العقل الانساني بالفكر الاعظم بعد ان يتطهر العقل البشري من فساده وبعد ان ينفصل عن مظاهر الجسد كافة ، والتي لا يمكن ان تتنامى الا في سكون عميق (24) .

وقد جذب كتاب ابن طفيل هذا شخصا جريئا آخر هو « جورج آشويل » قس بانبري (1612 – 1695) الانجلو – كاثوليكي فقد وجد في الكتاب سندا قويا للفرضية القائلة بان الطبيعة قادرة على ان تقود الانسان الى معرفة الله . لذا ترجم آشويل الكتاب معتمدا ترجمة بوكوك اللاتينية ونشره عام 1686 تحت هذا العنوان :

تاريخ حياة حي بن يقظان ، الامير الهندي ، او الفيلسوف المعلم نفسه ، كتبه باللسان العربي ابو جعفر ابن طفيل ، وهو مسلم يمتهن الفلسفة . في هذا الكتاب اشار الى الخطوات والدرجات التي يستطيع بواسطتها العقل ، بعد ان يتحسن بالملاحظة والتجريب المتقنين ، ان يصل الى معرفة الامور الطبيعية ومن ثم الى اكتشاف الامور الميتافيزيقية المتعلقة بالعالم الآخر .

وكما فعل كيث من قبل ، يوضح آشويل في مقدمته للقاريء الدافع الرئيس الذي دفعه الى ترجمة الكتاب . ان آشويل يبغي توجيه جيل متحلل الخلق سواء في مبادئه او في ممارساته ، ويؤكد ان « الفيلسوف المعلم نفسه » قادر على اعطاء ذلك الجيل درسا في مبادىء الدين والاخلاق ، تلك المبادىء التي تكشفت لفيلسوفنا عن طريق نور الطبيعة فقط (25) . ويصرّح آشويل ايضا بانه تصرّف ببعض الشيء في ترجمته مع الحفاظ على المعنى الذي حاول ان يجعله واضحا جليا قدر الامكان ليمتع القاريء ويفيده . ولكي يحقق ذلك حذف آشويل مقدمة ابن طفيل التي يبين فيها دوافعه لتاليف الكتاب ، كما يتحدث فيها عن فلاسفة عصره ، ورواية تولّد حي الذاتي (بدون أم وأب) ، ثم تلك الاجزاء التي تناقش اعتدال مناخ المناطق التي تقع عند خط الاستواء ، لانها ، حسب اعتقاده ، ليست وثيقة الصلة بالخطة الرئيسة للقصة (26) .

وفي سنة 1696 ظهرت ترجمة انكليزية مختصرة لكتاب ابن طفيل لا تتعدى الاثنتي عشرة صفحة مجلدة مع كتاب « روبرت گرين » « دوراستس و فاونيا » ، وممنون ، هذه المرة ، ب « تاريخ حياة جوزيفيس ، الامير الهندي » ، لمترجم مجهول الهوية . في تلك الترجمة اختصرت ، وفي بعض الاحيان حذفت ، اكثر المسائل الفلسفية وقدّم الكتاب للقاريء الانكليزي كقصة قصيرة مسلية سلسة الاسلوب .

اما في العقد الاول من القرن الثامن عشر فقد ظهرت ترجمة اخرى قام بها المستعرب الانكليزي « سايمون اوكلي » مع علمه المسبق ان الكتاب قد ترجم مرتين الى الانكليزية . ولكن اوكلي في مقدمته للترجمة يخبر قراءه بانه « خاطر بترجمة الكتاب مرة اخرى » لكونه متاكدا من ان كيث وآشويل لم يفهما مقصد المؤلف حق الفهم لانهما لم يعتمدا على الاصل العربي مباشرة بل اعتمدا على الترجمة اللاتينية. اما الدافع الثاني لترجمة الكتاب فهو رغبته في ان يقدم خدمة الى اصدقائه الذين لم تسنح لهم الفرصة لقراءته ، آملا ان يجعلهم « يميلون الى رأي اكثر ايجابية فيما يخص المعرفة العربية » (27) . لذا شرع اوكلي بترجمة الكتاب ولاول مرة عن العربية الى الانكليزية مباشرة وصدرت الترجمة كاملة عام 1708 بعنوان :

تحسين العقل البشري ، كما هو مستعرض في حياة حي بن يقظان : كتبها باللغة العربية ابو جعفر ابن طفيل قبل خمسمائة سنة ، في هذا الكتاب يبين كيف ان المرء يستطيع الوصول ، بواسطة نور الطبيعة وحده ، الى معرفة الامور الطبيعية والميتافيزيقية وبالاخص معرفة الله وشؤون العالم الآخر ... وهذه الترجمة مزوّدة بملحق يُراجع احتمال وصول الانسان الى معرفة الله الحقة وامور اخرى ضرورية للخلاص بدون ارشاد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم اضيفت مقدمة اخرى الى تلك الترجمة بقلم الناشر « ادورد باول » يشرح فيها الاسباب التي دعته الى نشر الكتاب الا وهي رغبته في ان يقدم للقاريء شيئا « من فطنة وعبقرية الفلاسفة العرب » ، وأن يعرّف قراءه « بحالة المعرفة عند العرب قبل خمسمائة عام » ، ويضيف بانه متاكد من ان « اي اوروبي سيقارن بين المعرفة التي يحويها هذا الكتاب واي كتاب آخر كتب من قبل ابناء جلدته وقتذاك وسيجد نفسه مجبرا على ان يخصّ مؤلفنا بالنصيب الاكبر » . الى هذا الحد والناشر يبدو وكأنه كله اعجاب بالكتاب ولكنه يضيف ، بعد قليل ، ان الكتاب لا يخلو من بعض « الافكار المغالية » كان يتكلم المؤلف عن « الاتحاد بالله » . ولكن هذه الافكار المتطرفة ، يَعِدنا الناشر بانها ، ستراجع وتفنّد بملحق كتبه المترجم نفسه (28) .

في الملحق يتضح ان اوكلي يصم ابن طفيل بتهمة كان توّاقا الى ان يبرأه منها في مقدمته الا وهي تعضيد تلك « الافكار المغالية » . ففي تلك المقدمة عبر المترجم اوكلي عن اعتقاده المسلم به وهو ان المترجمين الذين سبقوه الى ترجمة الكتاب لا بد وانهم « اخطأوا فهم مقصد المؤلف » ، وانهم « تخيلوا ان الكتاب شيئا يؤيد افكارهم المغالية » . بالاضافة الى ذلك كان ابن طفيل ، في مقدمة اوكلي ، رجلا « ذا مقدرة وعلم غزيرين » وان هدفه كان ان يبيّن :

كيف ان المقدرة البشرية وبدون اي مساعدة خارجية تستطيع ، اذا استخدمت استخداما صحيحا ، ان تتوصل الى معرفة الامور الطبيعية وهكذا بالتدريج الى ان تكتشف اعتمادها على كائن اعلى ، وتكتشف سرمدية الروح وكل الامور الضرورية للخلاص (29) .

اما في الملحق فيستهل اوكلي هجومه باخبار القارىء بوجود « الكثير من الاخطاء في فلسفة [ابن طفيل] وآرائه الدينية ، وقد كان من المحال ان يكون غير ذلك لكونه ارسطوطاليسي المذهب ومحمدي الدين » (30) . ثم يكمل قائلا :

كما ان التقوى الحقة هي عينها في كل العصور والاقاليم والادراك الجيد الحكيم ايضا ، كذلك الحال مع المغالاة . وفي بعض الاحيان اندهش حين اقرا عن شطحات وغرور غلاة العرب لذلك التوافق بينهم وبين غلاتنا في الوقت الحاضر . ان هذا التوافق التام في أفكارهم المتطرفة ، تلك الافكار التي عبّر عنها في لغة واحدة ، من السهل ان تقنع كائنا من كان بأن آلات الجماعتين قد ضبطت وعزفت بنفس اليد (31) .
كما يلاحظ القارىء هناك تناقضا واضحا بين مقدمة اوكلي وملحقه ولكن ليس من العسير تبريره اذا أخذت الامور التالية بنظر الاعتبار :

لقد سبقت الاشارة الى ان المغالاة والغلاة كان ينظر اليهما بعين الريبة والشك في القرن الثامن عشر ، وبما أن الناشر كان يرغب في ان يروّج كتابه فمن الطبيعي ان ابعد شيء يرغب في أن يتهم فيه هو ترويج الافكار المغالية . اما اوكلي فانه كان ككيث وآشويل قد انجذب الى آراء ابن طفيل وبشكل خاص تلك التي تتعلق بنور الطبيعة كما هو واضح في مقدمته ، كما ان رغبته في ان يقرأ الكتاب اصدقاؤه جميعا تدل على اعجابه به . على ان اوكلي لم يكن من الشجاعة بحيث يتبنى تلك الآراء الجريئة . فكما يستنتج « آدبري » ان الدخل الصغير والعائلة الكبيرة لا يشجعان رب الاسرة على الجهر بالافكار المناوئة لمبادىء الكنيسة التقليدية . يضاف الى ذلك ان اوكلي يطمح الى ان يصبح استاذا جامعيا ، والجامعات حينذاك كانت لا تبيح لاساتذتها تشجيع الافكار الجديدة (32) .

وهكذا كان باستطاعة القارىء الانكليزي في مطلع القرن الثامن عشر ان يقرأ كتاب ابن طفيل بترجماته الاربع . في الاولى هدف مترجمها كيث الى استخدام الكتاب كسند لبعض الافكار الكويكرية كفكرة « النورالداخلي » ، وقدم ترجمة امينة عن ترجمة پوكوك اللاتينية . اما آشويل فقد تصرّف في ترجمته واستخدم لغة اكثر تبسيطا لان هدفه الرئيس كان متعة القراء . في حين قدم المترجم المجهول الهوية الكتاب كقصة قصيرة مشوقة ، اما في الرابعة فقد توخى اوكلي تقديم ترجمة مرتبة انيقة ومضبوطة قدر الامكان عن الاصل العربي لتكون خير شاهد على معرفة العرب وقدراتهم .

وقد استطاع كل من المترجمين الآنفي الذكر تحقيق مقاصده الى حد بعيد ولناخذ على سبيل المثال الفقرة التي تصف اكتشاف حي النار وفن الطبخ ، مع ترجماتها الاربع المختلفة باختلاف القصد من مترجم لآخر :

وكان من جملة ما القى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات ـ كان قد القاه البحر الى ساحله ـ فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه ، فاكل منها شيئا فاستطابه ، فاعتاد بذلك اكل اللحم ... (33)

ترجمها كيث كالآتي :

Among Other Things Which he did Cast into it, For The Trying of its Strength, There Were Some of These Animals Which live The Sea, Which The Sea Had Cast Upon The Shore, Which Being Rosted With The Fire, and The Smell of Them Vising up, his Appetite Was Stirred up, So That he Tasted Some What of Them; Which When it Was Acceptable to him, he Accustomed Himself to the Eating of Flesh . (34)

ان هذه الفقرة ، كما نلاحظ ، قد تحولت في ترجمة كيث الى سلسلة غير متقنة من الجمل الموصولة لان همّ مترجمها لم يكن القصة لذاتها ، بل ما تحويه من افكار لاقت في نفسه صدى . اما آشويل فقد حاول ان يجعلها مشوقة اكثر :

And Among Other Experiments Wherewith he Made Trial and its Strength, he put Thereinto Certain Fishes Which The Sea had Cast upon The Shore; Which Being Fried, And The Steam Thereof Coming to his Nose, his Appetite Was Stirr'd up and Became Quickend Thereby, insomuch That he Ventured to Taste Some Part Thereof; Which When He Found Acceptable to his Palate And Agreeadle to His Stomach, From Thence Forward he Accustomed Himself to eat Flesh (35).

وفي ترجمة اوكلي تحولت الفقرة الى ما يلي :

Among Other Things Which he Put in to Try its Strength, he Once Flung in Some Fish Which Had Been Thrown Ashore By The Water, and as Soon as he Smelt The Steam, it Rais'd his Appetite, So That he had a Mind to Taste of Them; Which he did, and Found 'em Very Agreeable, and From That Time he Began to use Himself to The Eating of Flesh (36) .

انها فقرة سلسة ، موجزة ، مرتبة وانيقة الاسلوب لان هدف مترجمها كما ذكرنا كان تقديم الحضارة العربية الى قرائه الانكليز على احسن صورة . اما في الترجمة الرابعة المختصرة فان المترجم المجهول الهوية يتوخى الاختصار والسهولة فيقول :

And Among Many Other Experiments, he Try,d it With Fish Cast up By The Sea, Which Being Broiled or Fryed, Smelt so Well, That he Ventured

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

to eat of it, Which Finding to Be Good and Agreeable Victuals, From Thence Forwards Continued to eat Flesh Meat (37) .

الاشارات الصريحة الى كتاب ابن طفيل في ادب ذلك العصر :

بعد ترجمة بوكوك اللاتينية وترجمتي كيث وآشويل استطاع الكتاب ان يجذب اليه جمهرة من القراء وقد ورد ذكر كتاب ابن‌طفيل اول ما ورد في عام 1681 . في ذلك العام صدرت ترجمة انكليزية لكتاب « بالثازاد گراسيان » « الناقد » (El Criticon)، وهي قصة اسبانية رمزية كتبت بثلاثة اجزاء وصدرت في الاعوام 1650–1653 : « ربيع الطفولة » ، « خريف الرجولة » ، و « شتاء الشيخوخة » . وقصة الكاتب الاسباني تتلخص كالآتي :

يولد اندرينيو ابن الطبيعة في كهف مظلم حيث يأخذ وحش هناك على عاتقه ارضاعه والعناية به الى ان يكبر وفجاة يفتح الكهف على اثر اعصار ويخرج اندرينيو الى العالم الخارجي لاول مرة ويحاول ان يعبر عن انطباعاته لدى رؤيته البحر والارض وما عليها والسماء وما فيها . وبعد برهة يصل كريتيلو الى الجزيرة ويصبح المرشد والمعلم لاندرينيو . ثم يغادر التلميذ والمعلم الجزيرة ويرحلا عبر عالم رمزي وخلال رحلتهما يقابلان انواعا عديدة من الاشخاص الرمزيين الى ان يصلا الى اسبانيا .

في مقدمة الترجمة الانكليزية لذلك الكتاب يقول مترجمها « پول رايكوت » بانه يعتقد ان گراسيان :

ربما يكون بالاصل قد استوحى قصته الخيالية من تاريخ حياة حي بن يقظان التي كتبها بالعربية ابن طفيل وترجمها الى اللاتينية الدكتور پوكوك . وعلى الرغم من وجود فرق شاسع بين طريقة سرد الواحد والآخر ، يبقى غرض الاثنين واحدا تقريبا وهو اظهار الى اي مدى تستطيع روح الانسان اللامادية والسرمدية في امكانياتها الطبيعية وبواسطة افعالها الانعكاسية ان تتفكر في وجودها الحق وفي وجود شيء يعلوها، وشيئا فشيئا وبتدرج المظاهر الخارجية تستطيع ان تتوصل الى قواعد للحفاظ على صالحها وعلى صالح الآخرين (38) .

ان احتمال تاثر گراسيان بكتاب ابن طفيل ما يزال حتى اليوم بين مؤيد ومعارض (39) . فاحدى حجج الفريق المعارض هي عدم استطاعة گراسيان قراءة كتاب ابن طفيل لكونه الف الكتاب قبل نشر الاصل العربي المحقق والترجمة اللاتينية لاول مرة في اوروبا عام 1671 من قبل پوكوك . والفريق المؤيد منهم يضعف حججه الافتقار الى دليل يثبت انه كان قد اطلع على الكتاب ، على ان الوثيقة التالية تدلل على ان گراسيان ربما قراه بترجمته الاسبانية التي قام بها « دي جيفارا » ، والتي ترجمها بدوره عن الترجمة العبرية على الاغلب . ففي عام 1701 تنشر « حوار بين محمود واندروگيو بن يقظان » في كتاب يدوّن كل ما هو عجيب وغريب (40) . يبدا الكاتب حواره الذي « دبّره في حلم » فيقول انه راى الجاسوس التركي محمود – والذي سبق وان اشرنا اليه في بداية المقال – وسط حشد من 'الملا « يتحدث عن قرب الى شخص غريب لا يشبه غيره ، لا بلد له ولا يعرف له والدان ، ويعتقد انه وُلد من الارض مباشرة ولهذا دُعي بـ Androgeus (انسان الارض ؟) ، وانه وجد في الجزيرة العربية ومن ثم تنقل الى اسبانيا حيث جُعل رفيق الناقد الاسباني كما هو الآن رفيق التركي المتخفي ... » .

بعد ذلك يهبّ اندروگيو مدافعا عن حرية الفكر فيقول متفاخرا بانه وُلد حرا وانه على ما يبدو الانسان الوحيد الذي لا اسياد له في تلك المدينة . فيسخر محمود منه قائلا : « اذاً ما اظنك تكون الا الانكليزي الاصيل المولد او الانكليزي الحر المولد » الذي يحتقر سواه من الشعوب . والاشارة هنا الى القصيدة الهجائية للكاتب الانكليزي « دانيال دوفو » The True Born Englishman (1701) والتي كانت ذائعة الصيت وقتذاك . يجيب اندروگيو قائلا :

كلا ، في الواقع انا الآن الاسباني الاصيل المولد وهكذا يجب ان تعرفني منذ الآن ، فمنذ ان ترجمت الى الاسبانية من قبل دي جيفارا وانا اعتبر نفسي اسبانياً وكاني اضرب بعرض الحائط عشرة اجيال ، ونسيت تقريبا اصلي في الجزيرة العربية ، شيء غريب حقا ، وكذلك صلتي بابن يقظان والذي كان له الفضل في اكتشافي وتقديمي للعالم (41) .

بعد ترجمة اوكلي اجتذب « حي بن يقظان » المزيد من القراء، فاصبح اثراً مالوفاً جداً للكتّاب والقرّاء في القرن الثامن عشر . لهذا اشار « الكسندر پوپ » ، الشاعر الانكليزي المعروف والذي عثر في مكتبته على نسخة من هذه الترجمة (42) ، الى شخصية «حي» في شعره ونثره ورسائله . ففي مقالة لپوپ صدرت عام 1713 يَعيب فيها على ابناء جلدته قسوتهم على الحيوان ويحثهم على الرفق به يذكر « حياً » كمثل يحتذى به فيقول :

الكل يعلم كيف ان الاتراك يتميزون عن غيرهم بانسانيتهم في ذلك الصدد : اذكر مؤلفا عربيا كتب رسالة يبين فيها الى اي مدى يستطيع شخص ما زُعم انه عاش وحيدا في جزيرة نائية مهجورة وبدون اي ارشاد او حتى مجرد مشاهدة انسان آخر وبواسطة نور الطبيعة وحده ان يصل الى المعرفة الفلسفية والى الفضيلة . من اوائل الاشياء التي حرص مؤلفنا العربي ان يلاحظها شخصه هي ان النزعة الكونية لفعل الخير في الطبيعة تكمن في حماية وحفظ مخلوقاتها . ومحاكاةً لتلك النزعة كان العمل الفاضل الاول الذي يعتقد ان « فيلسوفه المعلم نفسه » لا بد وان يقوم به هو نجدة ومساعدة كل الحيوانات المحيطة به في احتياجاتها وآلامها (43).

وفي رسالة كتبها في الثالث عشر من كانون الاول 1719 ، لم يجد پوپ افضل من « حي » مثالا يضرب على الانسان الطبيعي المعزول . يخاطب پوپ اللورد « باثرست » فيقول :

اعتقد انك الآن غارق في غابتك الواسعة ، والمرء قد يخاطبك كما يخاطب شخصا شارد الذهن كالكساندر سلكرك او « الفيلسوف المعلم نفسه » ... اذكر ان الاخير من اللذين ذكرتهما قد كرس حياته للقيام بتمارين في الورع وهي ان يدوّخ راسه بحركات دائرية متنوعة مقلدا حركات الاجرام

السماوية (44) .

ومع ان «حيا» كان قد حاز على اعجاب بوب بكرم اخلاقه وافعاله الفاضلة الا انـــه لم يسلم من لسانه السليط . ففي قصيدتـــه Essay on Man ينتقد « حيا » قائلا :

اذهب ، حلق مع افلاطون الى السماء العليـــا ، الى الخير الاول ، الكامل الاول ، العادل الاول ، او تتبع الــدائرة المحيرة التي وطاها اتباعه ، وتركهم العقـل يدعونه محاكاة الله ، كالقسس الشرقيين الذين في حلقات يحومون ويديرون بروؤسهم للشمس مقلدين (45) .

ردود فعل قراء العصر :

لقد تباينت ردود الفعل لدى قراء « حي بن يقظــان » بتباين مستوياتهم الفكرية وآرائهم التي يدينون بها ، فقـــد كان الكتاب في بعض اجزائه جريئا بافكاره وفي اجزائه الاخرى مغايرا لما هو مألوف ولهذا اضطر المترجمون الانكليز الى مهاجمة بعض الاجزاء او حذفها وتطمين القاريء الى ان المؤلف المسلم عالم فاضل . فعلى سبيل المثال كـــان ابن طفيل يدرك خطورة فكرة الاستغناء عن الرسل بالنسبة للقاريء الاعتيادي في مجتمعه لذا احتاط للامر واكد في نهاية كتابه على ان الوحي المنزل ضروري لعامة الناس . ولكــن بالنسبة لكيث الكويكري كانت تجربة «حي» الصوفية بالذات هي التي دفعته الى ترجمة الكتاب لانها تشكل برهانا على وجود « النور الداخلي » ، كما تقبلها آشويل ايضا كمثال حي على قدرة الطبيعة على قيادة الانسان الى خالقه . ولكن اوكلي الحريص على اعطاء معاصريه مثالا على براعة العرب ، والطامح في اعتلاء كرسي اللغــة العربية في الوقت نفسه ، اضطر الى ان يهاجم ذلك الجزء من الكتـــاب لارضاء الراي العام وليتجنب اي انتقاد قد يوجه اليه .

وكان على المترجمين ان يفندوا جزءا آخر من الكتـــاب قبل ان يقدموه الى قرائهم لمخالفته لما جاء في الكتب السماوية الا وهو رواية تولد حي الذاتي بدون ام واب . لقد سفه كيث تلك الروايـة قائلا «ان هذا مخالف للحقيقة لان البشرية جمعاء تنحدر من آدم» (46). اما آشويل فقد حـــذف ذلك الجزء متعللا بان تلك الرواية لا تمت بصلة للقصة ككل ، وترجمها اوكلي وقدمها لقرائه لكن الناشر لم ينس ان يطمئنهم بان ابن طفيل لا يؤمن بهذه الرواية وانما كان هدفه عزل « فيلسوفه المعلم نفسه » بعيدا عن اية مؤثرات خارجية (47) .

ان كون الكاتب عربيا مسلما على اية حال لم يقف حجر عثرة في سبيل ذيوع صيت القصة في مجتمع مسيحي متعصب لـــديانته . والسبب يكمن في ان « حي بن يقظان » يتميز بخلوه من افكار معادية لاية ملة كانت ، ولولا استشهاد الكاتب ببعض الآيات القرآنية الكريمة ومعرفة القاريء السابقة بالديانة التي يدين بها ما كان من الســهل على القاريء التعرف على ماهية العقيدة التي يؤمن بها .

يضاف الى ذلك ان الكتاب يتميز عن غيره من الروايات الشرقية ببنائه المحكم واسلوبه الذي يميل الى البساطة ، وخلوه من الاسهاب والمبالغة وهما صفتان كانتا غير محبذتين لدى القـــاريء الاوروبي بصورة عامة . وقد سبق وان ذكرنا ان الافكار الفلسفية المستساغة حينذاك كانت تلك الافكار المطلقة الشاملة التي لا تقتصر على ملة او قومية معينة ، وتجربة حي على الجزيرة قد توافرت لها هذه الشروط جميعا فهي تجربة انسانية بكل معنى الكلمة .

يجب ان لاننسى ايضا ان المناخ الفكري في نهاية القرن السابع عشر كان مهيأ لتقبل الكتاب وذلك للصلة الوثيقة بين المشاكل التي يعالجها ابن طفيل وبين معضلات ذلك العصر ، لهذا نجح الكتـــاب في ان يتبوأ مركزا مرموقا في انكلترا . فقد كان القرن السابع عشر بداية للنهضة العلمية في انكلترا حيث ازدهرت الطريقة العلميـــة الباكونية المعتمدة على الملاحظة الدقيقة والتجربة والاختبار المستمرين، وكتاب ابن طفيل تطبيق للنظرية الباكونية قبل ظهور تلـــك الطريقة بخمسة قرون (48) . ونتيجة لتلك النزعة العلمية ظهرت الدعوة الى الدين الطبيعي (Deism) وبالتالي النزاع بين منـــاصري تلك البدعة ومناصري الدين المنزّل . وبمـــا ان الامثال الحسية المادية المستقاة من التجريب والاختبار كانت تفضل على التجريد البحت فان كتاب « حي بن يقظان » كان يتميز عن غيره من الكتب والمقالات التي كتبت في هـــذا المجال بانه استطاع ان يتصدى لموضوع شائك كهذا ويعالجه باقتدار يثير الاعجاب ، وضمن اطار قصصي ممتع ورصين . وهذا ما اشار اليه آشويل في مقدمته حين ذكر ان بعض رجال العلم البارعين حاولوا ان يوضحوا الحقـــائق الرئيسة التي يمكن الوصول اليها عن طريق هدي العقل والطبيعة ، على ان ابن طفيل يتميز عـــن غيره بانه يواصل تجاربه « بخطوات متئدة ، وبطريقة سهلة ومألوفة في الجدل الفلسفي ، وجلية لادراك كل امريء ، بحيث انه يقود قارءه على غفلة منه الى الامام دون ان يتجشم اية مشقة ، ودون ان يربك عقله بحثا عن الحقيقة حتى يوصله ، قبل ان يعي ذلك الـــى نهايـة رحلته » (49) . ولهذا اعتبر حي احد « الرجـــال الطبيعيين » او ما يدعون بـ "Noble Savages" الذين استخدموا لـــلدفاع عن فكرة الدين الطبيعي .

على ان ما جذب القراء على المستويات كافـــة الى الكتاب هو القالب الذي صب فيه ابن طفيل آراءه وعقائده ، وليست تلك الآراء والعقائد وحدها فالكتاب يخاطب عقل القاريء لكنه في نفس الوقت يجعله يحلق في عالم الخيال ايضا ، فهو يحكي قصة الانسان المعزول الذي تحتم عليه الظروف ان يحافظ على نفســـه وان يهيء عيشة مريحة بالامكانات المحدودة المتوفرة لديه في الجزيرة . ولقد كانت هذه الحكايات من الموضوعات المفضلة والشائعة في تلك الحقبة من الزمن نظرا لتوسع الاستكشافات البحرية وازدياد حوادث تحطم السفن .

بقي ان نشير الى محاولة العـديد من الكتاب الانكليز خلال القرن الثامن عشر الكتـــابة على نمط « حي بن يقظان » مع اجراء التغييرات اللازمة لارضاء قراء عصرهم وميولهم ، كما كانت القصـة نفسها عرضة للسرقات الادبية . على ان المجال هنا لا يتسع لمناقشة تلك المسالة واعطائها ما تستحق من البحث والتحليل لـــذا سنكتفي بذكر بعض الامثلة .

في سنة 1719 صدرت روايـــة « روبنسون كروسو » لدانيال دوفو وحققت شهرة واسعة . وهذه الرواية خير مثال على التـأثر الخلاق المبدع بكتاب ابن طفيل . ويبدو ان نجاح دوفو هذا قد شجع العديد من الطامحين الى النجاح والشهرة السريعـة على اقتباس او

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سرقة رواية « حي بن يقظان » ونشرها بعد اجراء بعض التعديلات (أو بالاحرى بعض التشويهات) عليها للتمويه ، ففي عام 1722 ظهر الاعلان التالي في Flying Post (28 تموز) مبشرا بصدور الكتاب التالي :

> قصة حياة دون جوليانا دي تريز المدهشة ، الذي قامت بتربيته غزالة ، وعاش خمسا واربعين سنة في جزيرة مالبا وهي جزيرة مهجورة في جزر الهند الشرقية . ترجمت من البرتغالية .

وقد اعيد طبع هذا الكتاب خلال عامي 1761 و 1766 مع تغيير اسم البطل فقط حيث دُعي هذه المرة « دون آنطونيو دي تريزانو » (50) . يدّعي هذا الكتاب ان القصة مترجمة عن اللغة البرتغالية ، ولكنك حين تقراه يتضح لك ان شخصا ما قد انتحل صفة المترجم وقدم للقارىء ترجمة اوكلي لكتاب ابن طفيل بعد اجراء بعض التغييرات الطفيفة عليها .

وظهر عام 1736 اقتباس تحت العوان التالي :

> تاريخ حياة اوتونوس . يقص حكاية شاب من النبلاء كان قد ترك بطريق الصدفة منذ طفولته ولوحده على جزيرة مهجورة حيث عاش تسع عشرة سنة معزولا عن المجتمع البشري ، الى ان عثر عليه والده ، مع وصف لحياته وافكاره وتطور معرفته طوال استمراره على تلك الحالة المنعزلة .

وفي عام 1745 اقتبس « جون كيربي » استاذ « گيبون » الاقتباس المذكور اعلاه في كتاب تحت هذا العنوان :

> مدى قدرة واستيعاب الفهم البشري ممثلة في حادثة اوتومالس الشاب النبيل العجيبة ، والذي ترك بطريق الصدفة في طفولته على جزيرة منعزلة واستمر لمدة تسعة عشر عاما على تلك الحالة المنعزلة بعيدا عن المجتمع الانساني.

بدون شك ان كل هؤلاء المقلدين والمقتبسين والسارقين وغيرهم كثير كانوا يدركون ما لكتاب ابن طفيل من حظوة لدى القراء الانكليز وكانوا بدورهم يأملون ان يحالفهم الحظ ويصيبهم الربح الوفيروالشهرة السريعة كما حالف من سبقوهم ولكن شتان ما بين الاصل والتقليد .

الهوامش :

1 – Bernard Lewis, British Contribution to Arabic Studies (London : Longmans, Green and Co. , 1941) , P.9.

انظر كذلك Ernest Barker, "The Crusades" PP. 40-77, in The Legacy of Islam, ed. Thomas Arnold and Alfred Guillaume (London : Oxford Vniversity Press, 1931) .

2 – انظر مثلا Montgomery Watt, The Influence of Islam on Medieval Europe, Islamic Survey, no. 9 (Edinburgh : Edinburgh Vniversity Press, 1972), PP. 3-4.

3 – Lewis, British Contribution , P.9.

4 – Quoted By A.J. Arberry, Oriental Essays: Portraits of Seven Scholars (London: George Allen and Vnwin, 1960), P.12.

5 – Lewis, British Contribution , P.13.

6 – Quoted in Arberry Oriental Essays, P.14.

7 – Watt, Influence if Islam, PP. 72-77.

8 – Arberry, Oriental Essays, P.14.

9 – Lewis, British Contribution, P.17.

10 – يقصد بالقصص الزائفة تلك القصص التي كتبها كتاب انكليز على غرار القصص الشرقية الاصيلة المترجمة ، ويعتمد فيها الكاتب عادة شخصيات وخلفيات شرقية مستوحاة من تلك القصص المترجمة .

11 – H.A. Gibb, "Literature" in Legacy of Islam, P.182.

12 – Martha Conant, The Oriental Tale in England in The Eighteenth Century (New York: Columbia University Press, 1908; Reprint ed., New York: Octagon Books, 1966).

13 – Ibid, P.158.

14 – Ibid, P. 118.

15 – Encyclopaedia of Islam, 1927 ed., S.V. "Ibn Tufail" , dy Carra de Vaux.

16 – Cassell's Encyclopaedia of Literature, 1953 ed. S.V. "Pico della Mirandola" dy P. Treves.

17 – Lewis, British Contribution, P.13.

18 – Cited dy Antonio Pastor, The Idea of Robinson Crusoe (Watford, 1930), P.186.

19 – انظر مثلا Arberry, Oriental Essays, P.21.

20 – Pastor, The Idea of Robinson Crusoe, P.177.

21 – اسس جورج فوكس (1624 – 1690) « جمعية الاصدقاء » عام 1647 . وهذه الجمعية تجسيد لحركة دينية تدخل ضمن نطاق البروتستانية وتؤكد على الاكتفاء بالنور الداخلي . (Inner Light) ، ذلك الله الذي يقطن في قلوب الناس . وكان « النور الداخلي » يعتبر المرجع الديني الاول ثم يجيء بعده الكتاب المقدس . ومن اعضاء تلك الجمعية المشهورين وليام بين (1644 – 1718) وروبرت باركلي (1648 – 1690) عالم اللاهوت .

انظر The New Encyclopaedia Britannica, 1974. ed., S.V. " Friends, Society of ", By Richard T. Vann; B. H. Siddiqi, "From Hayy Bin Yaqzan

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

to 'The Children of Light' " , Pakistan Philosophical Journal , (1963) : 57-70.

22- صفحـــة العنوان لترجمـــة كيث التي زودنا بها باستور في كتـــابه The Idea of Robinson Crusoe ، وذلك في ملحق اضافه الى الكتاب.

23- Cited By Madani Salih, "Ibn Tufail : His Place in Islamic and Western Thought" (Phd. Dissertation, University of Cambridge, 1964), PP. 312-4.

24- Robert Barclay, Apology for The True Christian Divinity (London : Benjamin Clark, 1679), Chap. 27, P. 134.

25- Ashwell, "EPistle Dedicatory" , Pages Not Numbered.

26- Ibid.

27- Ockley, Preface, Pages Not Numbered.

28- " The Bookseller to The Reader", Pages Not Numbered.

فيما يخص « الافكار المغاليـــة » (Enthusiastic Notions) كتب « جيمس سذرلاند » قائلا : « لقد اثبت القرن السابع عشر في انكلترا انـــه كان ارضا خصبة لنمو الاحزاب الدينية والتي ظهر معظمها لان امرءا ما قـــد شاهد « النور الداخلي » . اما الذين يدعون بتوافد الوحي عليهم فكانوا يدعون بـ « الغلاة » (Enthusiasts) تحقيرا لهم . وقـــد درج القرن الثامن عشر ، بعد ان عانى الكثير من اولئك المتطرفين ، على الشك في ذلـــك « الوحي » المزعوم وان يحتقر « الغلاة » . وقد عرف ساموئيل جونسون كلمـــة « المغالاة » (Enthusiasm) في قاموسه على انها « ثقة فارغة في حظوة الهية او اتصال الهي » .

انظـــر James Sutherland, A Preface to Eighteenth, Century Poetury (England: Oxford University Press, Oxford Paperbacks, 1963). PP. 11-12.

29- Oekley's Preface, Pages Not Numbered

30- Ockley's Appendix, P. 168.

31- Ibid, PP. 192-3.

32- Arberry, Oriental Essays, P. 22.

33- جميل صليبا وكامل عياد ، « قصة حي بن يقظـــــان لابن طفيل الاندلسي » مكتبة النشر العربي (دمشق : مطبعة ابن زيدون ، 1935) ، ص 49 .

34- انظر ملحق باستور ، ص 317 .

35- ترجمة آشويل ، ص 29 – 30 .

36- ترجمة اوكلي ، ص 53 .

37- The History of Josephus : The Indian Prince, P. 69.

38- Paul Rycaut, The Spanish Critick, " Translator to The Reader " , Pages Not Numbered.

39- بامكان القارىء الراغب في الاطلاع على وجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع الرجوع الى اطروحة مدني صالح . انظر هامش 23 .

40- " A Dialogue between Mahmut And Androgio Ben Jockdon " Memoirs for The Curious, Vol. 1, no. (1701), P. 47.

41- Ibid, PP. 48-9.

42- Alexander Pope, Correspondence,5 Vols., ed George Sherburn (England: Clarendon Press, 1956), Vol. 2, P. 13, N. 3.

43- Pope, The Guardian, no. 61 (21 May 1713) .

44- Pope, Corespondence, 2:13.

45- Pope, " An Essay on Man" , in The Poems of Alexander Pope, ed. John Butt (London : Methuen and Co. , University Paperbacks, 1965), Epistle 2, lines 23-8.

46- انظر ملحق باستور ، ص 307 .

47- Ockley's Translation, "The Bookseller to The Reader" , Pages Not Numbered.

48- بامكان القارىء الرجوع الى مقالة مدني صالح « الطريقة العلمية عنـــد ابن طفيل » ، آفاق عربية العدد 7 (ايار 1976) ص 11 – 12 .

49- Ashwell, "Epistle Delicatory" , Pages Not Numbered.

50 - انظر Philip Gove, The Imaginary Voyage in Prose Fiction: A History of its Criticism and a Guide to its Study, Columbia University Studies in English and Comparative Literature no 152 (New York: Columbia University Press, 1944). P. 72.

وكذلك Charlotte Morgan, The Rise of The Novel of Manners: A Study of English Prose Fiction Between 1600 and 1740, Columbia University Studies in English, First Published in 1911; Reprint ed. (New York : Russell and Russell, 1963), P. 218.

انظر كذلك مقالة مدني صالح « دون انطونيو دي تريراينو وحي بن يقظـــان » (الاقلام) العدد 9 (1974) ص 45 – 51 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفرويدية فكر علمي أصيل أم

■ بين العظماء من العلماء ، هناك من يواجه العالم بحقائق مدهشة ، وهناك من يكشف للعالم حقائق جديدة ويدفع الناس الى اعتمادها كطرق جديدة تؤدي بالتالي الى احداث تغيير في اساليب تفكيرهم . والنوع الاخير من هؤلاء العلماء لا يوجـــد منه الا القليل في زماننا هذا . وليس من شك في ان فرويد احدهم .

« هارتمان »

■ ويبدو النظام الفرويدي من اول تعـارف مؤلفا من خليط من احتمالات بعيدة متشابكة صيغت في براعة على نحو يجعلها معقولة . وحان الوقت لان نوضح بان مباديء التحليل النفسي ليست حقائق ، بل هي تخمينات وافتراضات من مخيلة فرويد الخصبة .

« جاسترو »

فرويد

1 ـ اهم الخصائص العلمية للقرن التاسع عشر :

تمتد حياة فرويد بين عامي 1856 و 1934 . وهـذا يعني انه عـاش اكثر من نصف عمره في القرن التاسع عشر . وانطلاقا من الرابطـــة الموضوعية بين الوجود الاجتمـــاعي كمتغير مستقل وبين الوعي الاجتماعي كمتغير تابع ، فان الامر يقتضي تحـديد اهم الخصائص العلمية التي تميز بها القرن التاسع عشر ، حيث شهد فرويد النصف الاخير منه واكتسب اسس تكوينه العلمي والفكري .

يمكن وصف النصف الثاني من القرن التاسع عشر بانه عصر المواجهة المكشوفة ، بين العلم والمفاهيم المثالية والغيبية ، وقد ابتدات هذه المواجهة بعلم الفيزياء الذي تعرض ، قبل اي مجال علمي آخر ، لتناقضات كان لا بد من ان تحسم باتجـاه تخطي النظرة الميكانيكية للعـــالم .

كان اهم اكتشافين في علم الفيزياء ، في ذلك الوقت ، همـا : اكتشـــاف الالكترون واكتشاف ظـاهرة النشاط الاشـعاعي Radio Activity ، حيث دلل الاكتشاف الاول بانه يتمتع بكتلة لا تتحدد مرة واحدة والى الابد ، بل انها تتعلق بسرعته وفق قانون معين . واثبت الاكتشاف الثاني أن الذرات المعقـــدة البنية لبعض العناصر الكيماوية ، كالراديوم واليورانيوم ، تتفكك تلقائيا باصدارها اشعاعات متحولة الى ذرات ابسط منها لعناصر اخرى . وكانت دلالة هذين الاكتشافين أن كل بنيان طبيعة نيوتن قد احتاج الى اعـادة نظر جذرية . ووجه هـذان الاكتشافان ـ والاكتشافات الفيزيائية الاخرى في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ـ ضربة جديدة الى اسس الغيبية والميكانيكية .

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ وبعد ثلاث سنوات من ميلاد فرويد ـ اعظم اكتشـاف في حقل علوم الحياة «البايولوجي». ففي عام 1859 ظهر كتاب دارون « اصل الانواع » ، فوضعت هذه النظرية حدا لتلك النظرة التي ترى أن الحيوانات والنباتات هي من خلق قوى غيبية ، واثبتت أن عضويات كثـــيرة ، في عصرنا ، هي حصيلة التطور التاريخي للمادة العضوية ، ابتداءا من عضويات أولية وحيدة الخلية . وأن انواعا حيوانية ونباتية متعددة هي ثمرة عملية تطور طبيعي طويلة .

وقد ظهرت اكتشافات في مجالات علميـــة اخرى . وايجازا في القول ـ ولكي يحسم الامر مع فرويد ، فيما بعد ، لنضعه في التيار العلمي الذي ينتمي اليه ـ فانه يمكن تصنيف اهم التيارات العلميـة التي سادت القرن التاسع عشر الى ما يلي :

1 ـ الماديون الجدليون : وفي مقـدمتهم دارون ، رغم انه لم يكن خالصا تماما من بعض الاخطاء الغيبية ، واخطاء مالتوس بمبالغته في اهمية الازدحام السكاني والصراع الـــداخلي بين افراد النوع في الطبيعـــة .

وتحت هذا الصنف من العلمـــاء الطبيعيين ، ينتمي المـاديون العفويون الذين يمكن تسميتهم بالماديين بالفطرة . وفي مقـدمتهم مندلييف الذي طبق القانون الجدلي « الدياليكتيكي » بصورة عفوية . فوضع التصنيف الدوري وقضى على الفكرة الغيبية التي تنفي وجود رابطة او انتقال من مختلف المجالات الطبيعية . واثبت أن التغيرات الكمية التي تطرأ على العناصر الكيماوية تولد تغيرات نوعية .

2 ـ الماديون الميكانيكيون : وهم الذين يؤمنون بمبدأ الحتمية Determinism الذي يختلف عن مبـــدأ الحتمية الجدلية . فالحتمية عندهم تعزل بشكل تام ومطلـق وميتافيزيقي بين الاسباب ونتائجها ، وتخلط بين الاسباب الجوهرية والطارئة ، وترجع الاسباب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضجة في العلم قامت وأنتهت ؟

2

عرض و مناقشة نظرية فرويد

الكثيرة المتعددة التي تؤثر في هــذه الظــاهرة او تلك الى تأثيرات ميكانيكية . وتنكر التحولات النوعية في الطبيعة والمجتمع والفكر . وتخفق في تفسير طبيعة العمليات البايولوجيــة والنشاط العقلي والحياة الاجتماعية . ومبدأ الحتمية هذا ـ الذي يسمى بالحتميــة الميكانيكية ـ كان قد انتشر في اوربا منذ القرن الثــامن عشر بفعل انتشار الفلسفة المادية (1) .

3 ـ المثاليون والغيبيون بمختلف اتجاهاتهم بضمنهم اللاادريون وفي مقدمتهم دوبوا ريموند وهلموهلتز وگلود برنارد ، الذين زعموا استحالة التعرف على اصل الحياة وطبيعة الاحساسات والادراك ، فمهدوا السبيل لظهور الاتجاهات المثـالية في حقل الفسلجة وعلم الحياة بشكل خاص ، وفي نظرية المعرفة بشكل عام .

2 ـ مناقشة اساسيات نظرية فرويد :

يتركز عرض ومناقشة نظرية فرويد هنا على ثلاثة اساسيات فيها هي :

1 ـ العقل والشخصية .

2 ـ عقدة اوديب .

4 ـ الجنس .

وما تبقى من نظرية فرويد هو اما مشتق من او تابع الى هـذه الاساسيات .

2ـ1 : العقل والشخصية Mind and Personality

افترض فرويد ان العقل ينقسم الى ثلاثة اقسام هي : الشعور « الوعي » Conscious ، ما قبــل الشعور Preconscious واللاشــعور Unconscious

ان اللاشعور هو مخزن او مستودع جميع الـدوافع الاساسية التي يفضل فرويـــد تسميتها بالغرائز وهي : الجوع ، العطش ، والجنس « الطاقة الجنسية او اللبيدو » . وفي التعديل الذي اجراه اخيرا على نظريته ، قسم فرويد الغرائز الى صنفين همـــا ايروس Eros وثاناتوس Thantos . واستخدم حكمــة ايروس « اله الحب عند الاغريق » ليشير بها الى جميع اشكال كفاح الانسان من اجل الحياة . اما ثاناتوس « اله الموت عند الاغريق » فهو يمثل غريزة الموت التي تشمل كل الدوافع العدوانية المدمرة [Sartain، 1973، ص : 33] .

والشعور هو ذلك القسم من العقل الذي ينمو ويتطور ليخدم علاقات الفرد مع الواقع الموضوعي « العالم الخــارجي » . ويمثل ما قبل الشعور تلك « المساحة ، التي تقع بين الشعور واللاشعور » والذي يحتوي على الذكريات التي يمكن استدعاؤها بسهولة ويسر الى الشعور . في حين ان الـــذكريات المستقرة في اللاشعور لا يمكن استدعاؤها الى الشعور الا بصعوبة ان لم يكن ذلك مستحيلا .

اما الشخصية فتتكون من ثلاثة اقسام هي : الهو او الــذات الدنيا id والذات Ego والذات العليا Superego .

افترض فرويد بأن الذات الدنيا « الهو » هو القسم الاقــدم الذي يحتوي على كــل ما هو موروث من ميلاد الفرد حتى لحظة حاضره . وتتسيد الغرائز هــذا الموروث المزيج . « والهو » محور وجود الفرد ، يحكمه مبدأ اللذة الذي يهــدف الى اشباع الغرائز بعمليات عقلية لا تخضع الى القوانين او المنطق ، ولا تكترث بالنتائج او القيم [Freud ، 1940] . وهذا الجزء من الشخصية هو الواقع النفسي الحقيقي فيها والاساس الذي تبنى عليه . وهو مطالب مندفع عاشق للذة ، يحتفظ بطفوليته مدى الحياة ، طفل مدلل في الشخصية، غامض يصعب اكتشافه . انه « مخزن الطاقة النفسية التي تستعمل في اشباع غرائز الموت والحياة الاساسية » [هول، 1967 ، ص:79].

والذات Ego هي ذلك الجانب من الشخصية الــذي تطور خارج قشرة طبقة الذات الــدنيا ، فتكيفت لتسلم واخراج المثيرات [فرويد ، 1940] . وهي ـ الذات ـ تتوسط بشكل تنفيــذي بين العالم الخارجي وبين الذات الدنيا وفق مبدأ واحد هو مبدأ الواقع الذي يعني ما هو موجود بالفعل . وتقوم الذات بمهمة كبت مطــالب الذات الدنيا اذا لم تكن مشروعة . ووظيفة الذات هي « الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة وحل الصــراع بين الكائن الحي والواقع او بين الحاجات المتعارضة للكــائن الحي » [سيد ، 1975 ، ص : 497] . بعبارة اخرى يجب على الذات ان توفق بين رغبات الذات الدنيا والذات العليا والواقع [فرويد ، 1966] .

واما الذات العليا Superego فهي ذلك القسم من الشخصية الذي يمثل الجانب الاخلاقي القضائي للانسان ، وتقوم بمراقبـــة الذات ، تعطيها الاوامر ، تصححها ، وتهددها بالعقاب تماما كما يفعل الآباء [فرويد ، 1940] . وهي تمثل القيم التقليدية والمثل العليا في المجتمع كما تنتقل من الآباء الى الابناء . ويرى فرويد ان الــذات الدنيا والذات العليا يشتركان في شيء واحد بالرغم من الفرق الاساس بينهما . فكلاهما لا يمثل سلطة المــاضي حيث تحتل الذات الدنيا سلطة الوراثة وتمثل الذات العليا السلطة التي خلفها الناس في الفرد. اما الذات فهي «خبرة الفرد الخاصة بالحوادث العرضية والعادية» [فرويد ، 1966 ، ص : 50] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

ويرينا الشكل التالي العلاقة بين اقسام الشخصية واماكنها في اقسام العقل مضافا اليها الرقيب Censor ، الذي استخدمه فرويد ليساعد في توضيح الكبت . فمـــا هو مكبوت في الذات الدنيا في اللاشعور ، يواجه بالذات والذات العليا في شكل الرقيب كلما حاولت الاشياء المكبوتة الوصول الى اللاشعور .

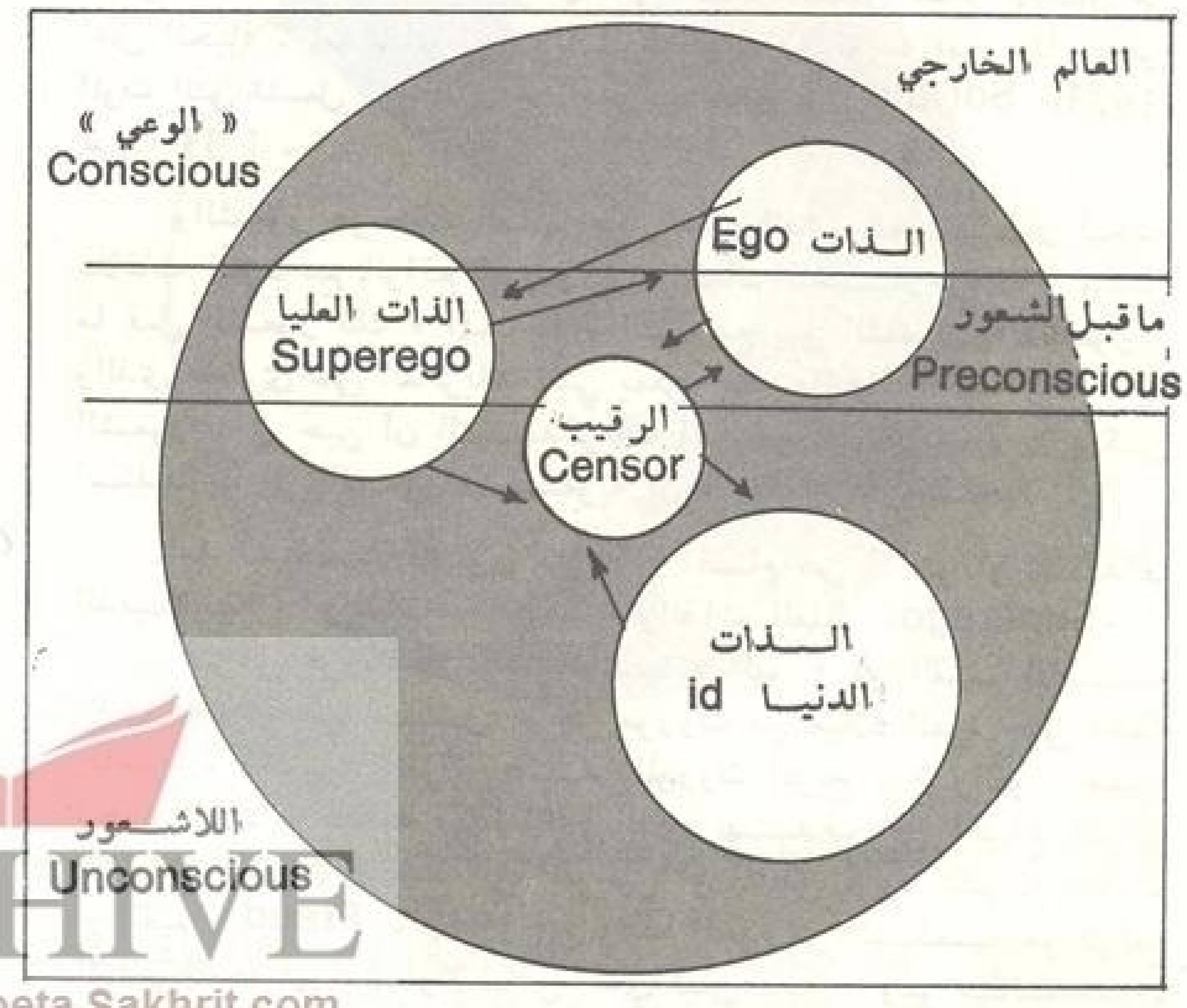

شكل تخطيطي يوضح مفاهيم فرويد للعقل والشخصية
لاحظ مساحات ومواقع كل منها

اهمية النظرية :

ان مفاهيم الذات والذات الدنيا والذات العليـا هي مفاهيم اساسية وحاسمة في نظريـة التحليل النفسي . وهذا التركيب هو اساس واهم نتائج التحليل النفسي ، الذي يعني ان السلوك يملك دافعا لا شعوريا . وهذا التركيب او التقسيم الفرويدي مهم جـدا في العصاب ، حيث يهدف العلاج في التحليل النفسي الى تقوية وتعميق الـذات .

الادلة الموضوعية :

نوعـان من الادلـة الموضوعية يمكن عن طريقهما التحقق من افتراضات فرويـد في العقل والشخصية هما الادلة الفسيولوجية والادلة الوظيفية .

ففيما يتعلق بالافتراضات الفسيولوجية ، فان دراسة مورجان (1961) التي هدفت الى معرفـة تاثير دارون في اعمال بافلوف وجاكسون الى وجود تشابه مماثل في مفـاهيم هؤلاء الباحثين . فالمستويات الثلاثة عند جاكسون تناظر الذات الدنيا والذات والذات العليا عند فرويد ، والمنعكس والمنعكس الشرطي والنظـام الاشاري الثاني عند بافلوف [Kline ، 1972] .

ويستنتج Kline بعد مسح للدراسات ذات العلاقة ، بانه لا يوجد دعم ثابت من الدراسات الفسيولوجية العصبية لوظيفة الدماغ يؤيد التقسيم الثلاثي للعقل الذي جاء به فرويد [Kline ، 1972 ، ص: 130] .

وفيما يخص الادلة او الاقتراحات الوظيفية فان عدة دراسات اجريت في هـذا الميدان اهمها دراسات Cattell (1957) و Pawlik and Cattell (1964) التي خلصت الى عـدم وجود دليل قطعي يثبت نظرية فرويد في التقسيم اعلاه . في حين دعمت هـذه الدراسات نظرية افلاطون في المفهوم الثـلاثي للعقل كما طرحه في جمهوريته !.

موقف الفرويديين :

يتفق الفرويديون مع فرويـد في بعض مفـاهيمه عن العقل والشخصية فادلر يتفق مع فرويد في وجود اللاشعور ، ولكنه يختلف عنه في تقسيم الشخصية ، حيث يعطي ادلر الاهميـة الكبرى الى الـذات Ego . والانسان عند ادلر كائن اجتماعي حيث يرى « أن دراسة الحياة الواقعية للفرد تدفعنا الى تقـدير اهمية العنصـر الاجتماعي فيها ، اذ ان الفرد لا يصير فردا الا في مجتمع » [ادلر ، 1929] . والانسان عند ادلر كائن يبحث عن القوة من اجل ان يكون مسيطرا ، وفق مبدأ اسلوب حياته الذي ينتج من قوتين ، داخلية تنشأ وتنمو مع الفرد ، وخارجية ـ بيئية ـ تؤثر في سلوكه حيث يعتبر ادلر أن « سلوك الشخص بأسره ينبع من اسـلوب حياته » [هول ولندزي ، 1971 ، ص : 168] .

اما يونك الذي كان يفترض ان يكون خليفة فرويد في التحليل النفسي ـ فانه يضع ثلاثة انظمة للعقل هي : الشعور الـذي يهتم بعلاقة الفرد مع العالم المحيط به ، ويمثل الوجـه المرئي للشخصية الذي يمكن تسميته بالقناع Persona. ونوعان من اللاشعور هما اللاشعور الشخصي the Personal unconscious الذي يعني مستودع خبرة الفرد ، اي الخبرة التي يكتسبها الفرد ، ثم اللاشعور الجمعي the Collective unconscious الذي يمثل الجانب العميق من العقل الذي يشمل الاساطير والمعتقدات للعنصر الذي ينتمي اليه ذلك الانسان [Kline ، 1972 ، ص : 323] . وهـذا يعني ان يونك ذهب الى ابعد مما ذهب اليه فرويد حيث اعتبر اللاشعور الجمعـي هو الاساس العنصري او السلالي الموروث للبناء الكلي للشخصية :اي انه يحوي كل الخبرات الانسانية المتراكمة من الماضي السحيق والتي يمكن الرجوع بها الى مرحلة ما قبل الانسان [سيد ، 1975] .

ويتفق الفرويديون الجـدد مع فرويد في وجـود اللاشعور [Sartain ، 1973] . ويطرح فروم انماطا للشخصية قائمـة على المحددات الاجتماعية بنواحيها الايجابية والسلبية وكونهـا منتجة او غير منتجة .

استنتاج وتعليق

1 ـ ان افتراض فرويد بوجود اللاشعور لم يكن جديدا ، فقد كان ذلك معروفا عند شاركو وجانيـه [Whyte ، 1968 ، ص : 126] . والجديد الذي جـاء به فرويد هو التأكيد الـذي اضفـاه على اللاشعور بكونه الجانب الرئيـس في الشخصية ، وافتراضه الامكانية « المحدودة » لاستكشافه عن طريق الاحلام ، في حين كـان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاركو يستقصيه بالتنويم المغناطيسي .

2 ـ ان ما توصلت اليه دراسة مورجـــان (1961) المذكورة آنفا ، التي اشارت الى وجود تشابه بين الشعور وما قبل الشعور واللاشعور عند فرويد ، وبين المنعكس والمنعكس الشرطي والجهاز الاشاري الثاني عند بافلوف ، تبدو محاولــــة توفيقية اكثر منها علمية . فالمنهج الذي اتبعه فرويد يختلف كليا عن المنهج الذي اتبعه بافلوف ، اضافة الى ان الارضية الفكرية لكليهما مختلفة تماما .

3 ـ يستنتج Kline (1972) ـ الـــذي اجرى مسحا للدراسات ذات العلاقة ـ بأن الادلة الموضوعية لتأييد هذه النظريــة هي ادلة ضعيفة . فهنـــاك تقبل ولكن باهتمام قليل فيما يخص الشعور وما قبل الشعور واللاشعور . كما ان المعرفة الفسيولوجية لها مواقف متضاربة فيمـــا يتعلق بالتركيب الفسيولوجي المناظر للعمليات اعلاه في الذات العليا والذات الدنيا (ص : 150) .

2 ـ 2 : عقدة اوديب

ليس جديدا التعريف بعقدة « اوديب » ، فقد عرّف بهــا الكثيرون وعلى مستويات مختلفة ، علمية وصحفية ، وادبية ، وهي في ملخصها محاولة لالقاء الضوء على الموقف الــذي يواجهه كل طفل كنتيجة حاسمة لفترة الطفولة التي يعيش فيها مع والديه حيث يصبح وهو في سن الخامسة او ما يقاربها الى عاشق لامه يستوحيها من ملاحظاته وتخميناته البدائية للحياة الجنسية ، مصحوبا بشعور كراهية لابيــه لكونه منافسا لحبه [فرويد 1940 ، ص 189] ، ويتبع ذلك وقوعه فريسة عقدة ثانية ، هي عقدة الاخصاء التي تعني خوف الطفل من ان يقطع ابوه رمز ذكورته اذا ما تمادى في ميله الجنسي لامه .

ويختلف الموقف من البنــت « اذ يحـــدث العكس حيث تولع بابيها وتغار من امها لانها تشاركها في ابيها ، وتحمّل امهــا في ذات الوقت مغبة انها اورثتها نقصها الفيزيولوجي ، وسميت هذه العقدة بعقدة « الكترا » .

اهمية النظرية :

اعتبر فرويد ان اكتشافه لعقدة اوديب انجـــاز رائع يشبه اختراع الكهرباء والعجلة [Kline ، 1972 ، ص : 383] . وقال في آخر اعماله « اذا قـــدر للتحليل النفسي أن يعتز او يفتخر فقط باكتشافه لعقدة اوديب ، فأن هذا وحده يعطيه الحق بأن يعتبر هذا الاكتشاف من اثمن ما حصل عليه الجنس البشـــري » [فرويد ، 1940] .

ويرى فرويد ان عقدة اوديب تبـــدو في حضارتنا كنهاية حكم عليها ان تكون مرعبة . وقرر أن عقـــدة اوديب هي لب العصاب او جوهره . وحدد من ان الاعتراف بعقدة اوديب هو المبـــدأ الاساس الذي يميز اتباع التحليل النفسي عن خصومه [فرويد ، 1967 ، ص: 278] .

الادلة الموضوعية :

تباينت نتائج الدراسات التي تناولت موضوع التحقق من عقدة اوديب . وبغض النظر عن تفاصيل هـــــذه الدراسات فأن دراسة واحده قد ايدت ذلك هي دراسة Fredman (1952) . وبعض التأييـــــد في كل من دراستي Michal-Smith (1951) و Whiting (1958) . ولم تؤيد كل من دراستي Kuppuswany (1949) و Biddle (1957) .

موقف الفرويديين :

تباين موقف الفرويديين من عقدة اوديب . فقد « رفض ادلر مفهوم عقدة اوديب الذي يعتبر مفهوما مركزيا عنــــــد فرويد » [Lichtheim ، 1972 ، ص : 59] . ولم تنكـــــر هورني مـــن الفرويديين الجدد ـ عقدة اوديب، ولكنها انكرت اساسها البايولوجي واعتبرتها « كنتاج لظروف معينة احدها الاثارة الجنسية من قبل الوالدين ، والاخرى متغيرات عديدة تختلف كليـــا في طبيعتها » [هورني ، 1939 ، ص : 82] . وهذا يعني ان الاختلاف الحقيقي بين هورني وفرويد يكمن في تفسير عقدة اوديب ، الجنس ام البحث عن الامن . وهذا يقود الى خلاف آخر بين هورني وفرويد . فعقدة اوديب هي جوهر الصراع عند فرويد كما اشرنا . اما عند هورني فان مفهوم القلق الاساسي basic anxiety ـ الذي يعني الاحساس الذي ينتاب الطفــل بعزلته وقلة حيلتـــــه في عالم يحفل بامكانات العداوة ـ هو اساس العصاب .

اما فروم فقد قبل هو الآخر عقدة اوديب ولكنــــه نفى ايضا جنسيتها ، وعزى سببها كنتيجة للقوى الاجتماعية ، وخاصة عنــد بعض العوائل الغربية ذات التركيب الخاص [Kline ، 1972 ص : 333] . ويرى فروم بأن الرغبات الاوديبية ليست اساسا رغبـــات جنسية ، ولكنها واحدة من اكثر النزعـات الاساسية في الانسان : الرغبة في البقاء ، والخوف من ان يكون حرا . وتبدو المنافسة ـ من وجهة نظر فروم ـ نتيجـــة لبطريركية وتسلطية المجتمع الغربي في الصراع الناتج بسبب المعاملة الخشنة القائمة بين الآباء والابناء .

ويمكن تلخيص موقف معظم الفرويديين من عقـــــدة اوديب بـــالآتي :

- اتفقوا مع فرويد على وجود عقدة اوديب .
- قللوا من عامل الجنس فيها .
- اختلفوا مع فرويد في تفسير سببها . فهو عند فرويد سبب بايولوجي وعند الفرويديين الجدد سبب اجتماعي .
- انكروا الشمولية والتعميم فيهـــا مفضلين اقتصارها على علاقات الطفل بوالديه في انواع محدودة جـــدا من العوائل كتلك التي تبرز فيها التسلطية « الفكتورية » للوالد .

استنتاج وتعليق :

لا توجد هناك دراسات تكفي للتدليل على وجود عقدة اوديب . واذا قبلنا بالموازنة الكمية ، فأن الدراسات التي لم تؤيد وجود عقدة اوديب هي اكثر من الدراسات التي ايدتهـــا . ويبدو ان معظم السيكولوجيين ـ كمـــا يشير Valentine ـ لم يقبلوا عقـــدة اوديـــب [Kline ، 1972 ، ص : 95] . كمـــا ان الفرويديين الجدد اختلفوا مع فرويد في تفسير عقدة اوديب وغيّروا فيها بشكل لا ينسجم مع منطق فرويد .

لقد وضع فرويد شرطا قاسيا حين قرر بأن عقدة اوديب هـــي الحد الفاصل الذي يفرز اتباع التحليل النفسي من لا اتباعه . واهمية هذا الشرط لا تكمن في عملية الفرز بل في كيان النظرية . فهنــــاك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اسئلة تهز عقدة اوديب بشكل يصعب فيه ان تصمد امامها ، من قبيل :

* اذا كان فرويد قد اضفى صفة الاطلاق الزماني والمكاني على عقدة اوديب ، وهو يرى أن اوديب الملك تشكل سابقة تاريخية ، فهل كانت هناك عقدة اوديب في المجتمع الاموي « الام » ؟. واذا كانت موجودة ـ وهي غير موجودة كما تدلل الدراسات الانثروبولوجية ـ فكيف كان شكلها ؟.

* ماذا يحصل في حالة وجود اطفال ايتام ؟

* وماذا يحصل لو حدث ان الزوجة الام لا تنام مع زوجها بل تنام مع طفلها حتى انتهاء السنة الخامسة من عمر الطفل، اي حتى اجتيازه المرحلة الاوديبية ؟.

* ولو سلمنا بوجود منافسة بين الوالد والابن فهل يعود السبب الى الغيرة الجنسية ام للمعاملة التسلطية ام لعوامل اخرى ؟.

* واذا كان سبب الصراع يعود ـ من وجهة نظر فرويد ـ الى عقدة اوديب فأن الدراسات التي اجريت لم تؤيد ذلك . وحتى الدراسة التي ايدت وجود عقدة اوديب ـ دراسة فريدمان ـ لم تؤيد كون عقدة اوديب هي جوهر الصراع في الحياة العقلية.

يستخلص من ذلك بان عقدة اوديب ـ المبدأ الاساس في نظرية فرويد ـ لم تدعمها الدراسات بالمواصفات التي طرحها فرويد . وانها تعرضت اما لدحضها او لايجاد تفسيرات جديدة لها ، او تأييد طفيف لبعض معطياتها . وهكذا يهتز المبدأ الاساس في نظرية التحليل النفسي . غير انها ـ عقدة اوديب ـ تبقى كمتغير فرضي في هيكل نظرية فرويد .

2ـ3 : الجنس Sex

يرى فرويد في الجنس ما يلي :

1 ـ ان الحياة الجنسية لا تبدأ في سن البلوغ ، بل تبدأ ـ وبمظاهر واضحة ـ بعد الولادة مباشرة [فرويد ، 1940] .

2 ـ تمر الحياة الجنسية بالادوار التالية :

2ـ1 : المرحلة الفمية Oral Phase . تبدأ من الميلاد حتى السنة الاولى من عمر الطفل . ويعتبر الفم اول منطقة شبقية في البدن يحصل فيها الطفل على اللذة . وتصبح الشفتان ـ من الآن فصاعدا ـ مصدرا للحصول على اللذة . وتتميز هذه المرحلة بخمس وظائف : الابتلاع ، الامساك والاصرار ، العض ، البصق واللفظ ، والاطباق والاقفال . وهذه الوظائف هي الانماط الاولية لسمات تتطور بتطور الشخصية . فالابتلاع نمط بدائي لحب التملك . والاصرار نمط بدائي للحب والسيطرة . والبصق نمط بدائي للاحتقار . والعض النمط البدائي للعدوان . فالطفل الذي يعض باسنانه قد يتحول ـ راشدا ـ الى العض بالتهكم اللفظي على الناس ، وبالاحتقار والتشنيع او الاشتغال بالمحاماة والسياسة والصحافة .

2ـ2 : المرحلة الشرجية Anal Phase . تستمر حتى السنة الثالثة من عمر الطفل . وفيها يتركز الانتباه على الافرازات ، ويجد الطفل لذة في اثارة هذه المنطقة او في التخلص من الافرازات او الاحتفاظ بها . وتصبح منطقة الشرج هي المنطقة الشبقية الثانية التي تلي المنطقة الفمية طولا وقوة . « وان العديد من السمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجية » [هول ولندزي، 1971 ، ص : 71] .

2ـ3 : المرحلة القضيبية Phallic Phase . تبدأ بحوالي السنة الرابعة ، او بين الثالثة والخامسة من عمر الطفل. وفيها يتركز اهتمام الطفل على اكتشاف الفروق الجنسية ، وباللذات العضو الذكري . وفي هذه الفترة تكون علاقات الطفل العاطفية والاجتماعية بوالديه «قد اخذت تنمو وتتعقد وتهيء السبيل لظهور عقدة اوديب » [سيد ، 1975 ، ص : 504] .

2ـ4 : المرحلة التناسلية Genital Phase . وتبدأ بعد البلوغ في حوالي الثانية عشرة من عمر الطفل ، حيث تبدأ الغريزة الجنسية باتجاه هدفها البايولوجي . وتحدث هنا امور اساسية منها ، أن النفس تعيد كثيرا من الشحنات النفسية اللبيدية السابقة . وتنظم بعض الشحنات النفسية اللبيدية الاخرى الى الوظيفة الجنسية في صورة اعمال تمهيدية او مساعدة ، وتنشأ عن اشباعها حالة النشوة التي تسبق اللذة . وتطرد بعض النزعات الاخرى من المنظمة النفسية اما بأن تقمع Suppression او تكبت Repression ، واما بأن تستخدمها الذات على نحو ما فتنشأ عن ذلك سمات الفرد الخلقية ، واما بأن يعمل الفرد على اعلائها Sublimation وتبديل اهدافها [فرويد ، 1966] . وهناك فترة كمون بين المرحلة القضيبية والمرحلة التناسلية ، تكون فيها النزعات الجنسية في حالة ضعف وكمون .

3 ـ ان سمات الشخصية تشتق من المراحل الثلاث الاولى اعلاه للنمو الجنسي . وان شخصية الانسان الراشد ترتبط بالنمو الجنسي لديه حين كان في مرحلة الرضاعة . وان اسباب الاضطرابات في الشخصية ترجع الى الفترة الاولى من حياة الفرد [فرويد ، 1966] .

4 ـ تشتمل الحياة الجنسية على الوظيفة الخاصة بالحصول على اللذة من بعض مناطق البدن . وتدخل هذه الوظيفة فيما بعد في خدمة الوظيفة التناسلية . وهذا يعني وجود معنيين للجنس « تناسلي » و « جنسي » حيث يتضمن المعنى الجنسي اعمالا كثيرة ليست لها اية صلة بالاعضاء التناسلية [فرويد، 1966].

5 ـ ان الغريزة الجنسية هي السيد المطاع الذي يسيطر على الافراد والامم . وكثيرا ما يتوقف تاريخ الشعوب والاسر على الاهواء التناسلية لرؤسائها [فرويد ، 1967 ، ص : 298] .

اهمية النظرية :

الجنس نظرية مهمة في التحليل النفسي . فهي تهدف الى معرفة سيكولوجية الشخصية . واقتراحات ضمنية في كيفية الحصول على انماط من السلوك المرغوب . وتطرح امكانية التخفيف من الاضطرابات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الناتجة بسبب التثبيت Fixation الذي يعني التشبث والتعلق بموضوع حب معين ـ وذلك بطريقة العلاج بالتحليل النفسي .

وتؤكد النظرية على أن سنوات الطفولة الخمس الاولى هي المرحلة الحاسمة التي تقرر سلوك الفرد حين يصبح كبيرا . وتشير النظرية الى ان الاختلاف في الشخصيات السوية ، العصاب ، الاختلافات الثقافية ، والشذوذ الجنسي ترجع كلها الى تطور الحياة الجنسية في السنوات الخمس الاولى من طفولة الانسان .

الادلة الموضوعية :

اجريت دراسات كثيرة حول هذا الموضوع ، ندرج خلاصات اهمها بالآتي : هناك دعم قوي للخاصية الشرجية Unal Charachter دللت عليه دراسات : Beloff (1957) و Grygier (1961) ، و Lazare etal (1966) ، و Kline (1964) . ودعمت بشكل غير قوي الخاصية الفمية the oral Charachter كل من دراسة Goldman-Eisler (984، 950، 951) ، و Lazare etal (1966) .

ولا يوجد هناك دعم لباقي الخصائص في دراسات : Barnes (1952) وKrout and Krout (1954) و Grygier (1961) . [Kline ، 1972 ، ص : 30] .

موقف الفرويديين :

الجنس هو العامل الرئيس الذي انفرط بسببه عقد ثلاثي التحليل النفسي المكون من فرويد ويونگ وادلر .

ففي عام 1911 انشق أدلر عن فرويد بسبب تأكيد الاخير واصراره على ان الامراض النفسية تعود الى اساس من التجارب الجنسية الفاشلة والمكبوتة في حياة الطفولة . في حين يرى أدلر أن دافع السلوك هو الرغبة في التخلص من الشعور بالنقص Inferiority Complex .ويرى ادلر بان شخصية الفرد وحدة متكاملة واعتقاده بأهمية العوامل غير الجنسية في احداث الاضطرابات النفسية، وفي اهمية الدور الذي تلعبه الذات Ego والعوامل الثقافية والاجتماعية . ورغم أن ادلر لم ينكر الاستعدادات الغريزية ـ كما هي الحال مع فرويد ـ الا ان ادلر اعطى اهتماما للاطار الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل . فالشخصية المدللة في نظر ادلر هي ضحية المجتمع. والفرق بين الفرد الطبيعي والمريض نفسيا هو فرق في كيفية رسم الاهداف ، حيث يضع الانسان الطبيعي اهدافا واقعية يسعى الى تحقيقها ، بينما يضع الفرد المريض نفسيا اهدافا خيالية يصعب الوصول اليها .

وفي عام 1912 انشق يونگ عن فرويد للسبب ذاته . ويرى يونگ أن الصراع في الشخصية ليس بين الدوافع البدائية «الجنسية» وبين متطلبات المجتمع ، وانما بين نواحي من الشخصية لم تنمُ نموا متساويا .

اما الفرويديون الجدد فان سوليفان اجرى تحويرا على نظرية فرويد ، حيث اكد على التتابع التطوري لنمو الشخصية بدون التوكيد على النواحي الجنسية [Sartain ، 1973] . وعلى حين يركز فرويد على الطاقة الجنسية ، فان سوليفان يؤكد على الذات والوسائل التي يحاول بواسطتها احداث عملية التوافق ، وفق نظام اسماه نظام الذات Self-System . والشخصية عند سوليفان توجد فقط حيث توجد العلاقات المتبادلة بين الافراد [سيد ، 1975] .

وبعكس وجهة نظر فرويد القائلة بان علاقة الفرد بالآخرين هي دائما وسائل لارضاء الدوافع البايولوجية ، فان فروم اعتبر الدوافع التي تحدد الاختلافات بين شخصيات الافراد ، كالحب والكره والجنس والخوف ، هي جميعها « منتجات اجتماعية » [Kline ، 1972 ، ص : 333] .

وتشدد هورني على المحددات الاجتماعية للشخصية ، وترفض نظرية الطاقة الجنسية . ان فرويد ينظر الى المراة على اعتبار انها تحسد الرجل لامتلاكه العضو الذكري ، وتنكر هورني ذلك وترى ان الرغبة في ان تكون المراة رجلا هي « تعبير عن الانماط السائدة كالقوة والشجاعة والرجولة والاستقلال والنجاح والحرية الجنسية والحق في اختيار شريك الحياة » [هورني ، 1934 ، ص : 108] .

استنتاجات وتعليق :

1 ـ ان الانسان من وجهة نظر فرويد هو كائن بايولوجي اكثر منه اجتماعي .

2 ـ وما دامت الدوافع التي تحرك الانسان هي دوافع بايولوجية موروثة وجنسية بالذات لا تتاثر بقوانين التطور الاجتماعي ، فان مسالة التحكم فيها في وضع اجتماعي له قيم وقوانين معينة هي مسالة غير ممكنة . والطريق الوحيد امام الانسان هو عقدة اوديب ، النهاية المرعبة التي لا مفر منها ، على حد قول فرويد .

3 ـ ان الصراع الانساني بنوعيه الذاتي والموضوعي هو صراع ذو سبب جنسي ، وان اي قهر او استغلال يصيب الانسان لا يساوي شيئا امام الحرمان الجنسي . اي يصح ان نقول ـ تاسيسا على وجهة نظر فرويد ـ ان الانسان الذي يعيش كل اصناف الاضطهاد ـ ما عدا الاضطهاد الجنسي ـ هو افضل حالا من انسان آخر غير مشبع لرغباته الجنسية .

4 ـ ان البعد الزمني المهم في الشخصية هو ليس الحاضر او المستقبل، بل الماضي.وكما كان فرويد حادا في طرحه لعقدة اوديب، فقد كان صارما في طرحه لمفهوم الجنس ، الامر الذي ادى الى ان ينشق عليه اقرب زملائه بسبب هذه المغالاة في اهمية الجنس .

ان مسالة كون الانسان كائنا بايولوجيا اكثر منه اجتماعيا ، موقف عارضه الفرويديون وخاصة الجدد منهم ، وان الاتجاه العلمي السائد الآن ـ حتى في الولايات المتحدة الامريكية ـ يؤكد على اهمية العوامل البيئية والتنشئة الاجتماعية في تشكيل شخصية الفرد . ورغم اتفاق الفرويديين في كون فرويد كان قد غالى في اهمية الجنس الا انهم يتباينون في طرح البديل . ففي حين يؤكد فرويد على الاصول الطفلية للشخصية فان يونگ يؤكد على الاصول العنصرية لها ، ويرى ان الانسان يولد مزودا بكثير من الاستعدادات التي يتركها له اسلافه. ويؤكد ادلر على العمل والصلات الاجتماعية ـ اضافة الى العلاقات الجنسية ـ ولكن بمفهوم التنافس القائم بدافع الشعور بالنقص .

اما الفرويديون الجدد فان كارين هورني ترى بان مفتاح نمو الشخصية يكمن في التركيب الاجتماعي للاسرة . وان استثارة القلق الاساسي basic anxiety ومصيره ، ـ وليس الدوافع الجنسية والعدوانية ـ التي قال بها فرويد ـ هي الاساس لفهم شخصية الفرد [هورني ، 1937] .

ويتفق فروم مع هورني ضد فرويد ، ويرى ان الانسان يكون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علاقاته بالعالم باكتساب وتمثل الاشياء وبعلاقته مع الآخرين ومع نفسه [فروم ، 1949] .

وفيما يتعلق بالبعد الزمني المهم في الشخصية ، فأن الفرويديين الجدد لم يتفقوا مع فرويد في كون مرحلة الطفولة هي الاساس في تحديد سلوك الفرد . بل اعتبروها عاملا جوهريا – وليس وحيدا – في تطور الشخصية .

ويرى يونك بأن سلوك الفرد ليس مشروطا فحسب بتاريخه العنصري والفردي بل وكذلك باهدافه وبمختلف ضروب حياته ، « فالانسان تحركه الاهداف بقدر ما تحركه الاسباب» [هول ولندزي، 1971 ، ص : 104] .

وكذا الحال مع ادلر الذي اكد على اهمية المستقبل ، اذ يرى بأن الانسان لديه الفرصة لان يصبح افضل واحسن من خلال توافقه مع الحياة والمجتمع .

ونوجز استنتاجنا بالتالي : ان الدراسات التي ايدت او التي لم تؤيد نظرية فرويد في الجنس عانت من خلل في مناهج بحثها [Kline 1972 ، ص : 28] . وان الفرويديين لم يتفقوا مع فرويد في توكيده لعامل الجنس كمتغير وحيد ، وان اختلفوا في التقدير حيث يحتل الجنس عند الفرويديين المحافظين مركزا حيويا لا يمكن الاستغناء عنه ، بينما يحتل عند الجناح الايمن « يونك » اهتماما متميزا ، ولكن الى جانب عوامل اخرى مهمة ايضا ، في حين ينادي الجناح الايسر « ادلر » بسيادة تنسيق دوافع الحياة .

ويتفق الفرويديون الجدد ومعظم السيكولوجيين الغربيين وجميع السيكولوجيين في الاقطار الاشتراكية على ان الانسان كائن اجتماعي بالدرجة الاساسية ، ويؤكدون على اهمية البيئة والتنشئة الاجتماعية ، مع عدم اغفالهم لاهمية الجنس ، ولكن ليس بالصورة والجذر الذي اعطاه فرويد .

ومع ذلك فهناك من السيكولوجيين من يرى بان موضوع الجنس الذي خاض فيه فرويد « هو الموضوع الذي عمل فيه اروع اكتشافاته وافخر اخطائه » [Stewart ، 1967 ، ص : 41] .

3 – اثر فرويد في المجالات غير النفسية :

ان فرويد هو اكثر علماء النفس – بلا منازع – تأثيرا في المجالات غير النفسية . ويتجلى ذلك في مجالين رئيسين هما : الفن ، والمحاولات التي جرت للتوفيق بين الفرويدية والماركسية .

ففيما يتعلق بالمحاولات التوفيقية بين الفرويدية والماركسية ، فقد قام بها جماعة من المثقفين الاوربيين ادعوا انهم اكتشفوا القدرة الراديكالية لنظرية التحليل النفسي . ووجدوا لدى فرويد « مبادىء فلسفية سياسية وجنسية راديكالية تسعى الى تقويض الثقافة القائمة » [روبنسون ، 1974 ، ص : 18] . ويقف في مقدمة هؤلاء هربرت ماركوز الذي حاول « ان يجمع بين المادية الماركسية والميتافيزيقية الفرويدية » [Lichtheim ، 1972 ، ص : 59] . التي جسدها في كتابه (ايروس والحضارة Eros and Civilisation) عام 1950 ، واتبعه بمؤلفه (الانسان ذو البعد الواحد One-Dimenional Man) عام 1964، ثم محاضراته المطبوعة تحت عنوان (التحليل النفسي والسياسة) عام 1968 ، في محاولات للتوفيق بين المفاهيم الماركسية والمفاهيم الفرويدية .

وحاول فروم ، الذي يرى أن الراسمالية خلقت في تطورها انسانا حكم عليه بان يكون قليل الحيلة،خائفا ، قلقا ، يائسا ،وحيدا، تحول ظروف مجتمع الحضارة الغربية دون ممارسته لحريته الايجابية وتدفع به الى حرية سلبية ، او الى الهرب من الحرية – وهو عنوان كتابه Escap From Freedom – كل ذلك في محاولة اعادة النظر بوجهة نظر فرويد في الانسان في ضوء الكتابات المبكرة لماركس .

ونشر اوسبورن عددا من المؤلفات في هذا الاتجاه اهمها (ماركس وفرويد) و (الماركسية والتحليل النفسي) الذي اشار في مقدمته الى « ان الرسالة الاساسية لهذا الكتاب هي ان النظريات الفرويدية والماركسية تكون محاولات مختلفة للوصول الى معرفة الطبيعة الانسانية ، وهذه المحاولات ليست متناقضة بل متكاملة وتثري كل منهما الاخرى » [اوسبورن ، 1972 ، ص : 11] .

ويرى الماركسيون في الاقطار الاشتراكية بان مفاهيم التحليل النفسي شوهت العلاقات المتداخلة بين الفرد والبيئة الاجتماعية ، وفسرت العمليات التاريخية بلغة العواطف والمغامرات . ويرون ايضا ان الفرويديين الذين حاولوا التوفيق بين ماركس وفرويد بانهم في فقدهم للنظام الراسمالي كونه مجتمعا مريضا يقوم على دوافع لا واعية مكبوتة ، ويفسرون حركة الشباب وبقية الافعال الاجتماعية ، كونها صراعا داخليا يقع في عالم « لا عقلاني » في شكل ثورة جنسية ، فانهم – الفرويديون الجدد – يخفون تناقضات الراسمالية دون ان يعرّوها

وفي مجال الفن فأن فرويد يرى « ان الفن هو الميدان الوحيد في حضارتنا الراهنة الذي لا نزال نحتفظ فيه بالقدرة المطلقة للفكر، ففي الفن وحده يندفع الانسان تحت وطأة رغباته اللاشعورية لينتج ما يشبه اشباع لهذه الرغبات » [فرويد ، 1938 ، ص : 877] . فالفن من وجهة نظر فرويد نقيض للواقع ، وواقع الفن اوهام لكنها اوهام ترضي العقل،الذي يريحه دائما ان يتخيل اشياء او يتخلص منها بطرق مختلفة .

لقد افترض ان فرويد يتحمل المسؤولية الابوية للسريالية وانه « يحتل مكانة عالية عند السرياليين ، شأنه شأن ماركس ورامبو ودي ساد ... وانه اذا كان ماركس قد وضع الاطار العام للثورة ، فان فرويد بالنسبة للسرياليين قد زودهم بالاطار العام لتحرر النفس البشرية » [Ades ، 1972 ، ص : 138].وهذا ما يراه السرياليون ايضا وخاصة بريتون الذي كتب البيان السريالي في عام 1924 ، ووصف فرويد بانه « قاد الحياة الكلية بفهم مشرق للاخلاص المطلق لتحرر الانسان المدرك بشكله الاعظم كرامة » [Ades ، 1972 ، ص : 138] .

ان وصف فرويد للاحلام بانها « مملكة اللامنطق » ، والتحقيق المتنكر لامنية مكبوتة ، والتوفيق بين متطلبات ميل ممنوع والمقاومة التي تثيرها الرقابة التابعة من الانا ، « واكتشاف » اللاشعور بالطريقة التي وصفها فرويد ، كل ذلك خلب لب واستثار اهتمام وولع السرياليين بالغور في هذا « المجهول » من الوجود الانساني الذي اصبح – من وجهة نظرهم – يمثل الحقيقة العارية للانسان ومنبع الطاقة الحقيقي للابداع الفني . وتحت سحر هذا التأثير انطلق السرياليون لاستكشاف اللاشعور بطريقتين هما التلقائية Automatism والحلم . وهما طريقتان مماثلتان للتكنيك الفرويدي في التداعي الحر Free association وتحليل الاحلام Dream Analysis

لقد مارس بريتون طريقة الكتابة التلقائية Automatism Writing ونشر نتائج هذه الطريقة في مؤلف سماه (المجالات المغناطيسية Magnetic Fields) وحدد بان السريالية « هي التلقائية النفسية الخالصة التي تهدف الى التعبير ، شفويا او كتابة او باية طريقة اخرى ، عن الوظيفة الصادقة للفكر » [Ades ، 1972 ، ص : 140] .

لقد اتهم اراغون الرسم السريالي بانه تطبيقات عامة للرموز الجنسية المبنية على الفهم الفرويدي . وهذا وارد حيث ان الفرويدية اعتبرت ان هناك رموزا معينة تظهر في احلام جميع الناس . فالمنزل يرمز غالبا لجسد الانسان ، فاذا كانت الجدران ملساء يكون الامر متعلقا برجل . اما اذا كانت مزودة باسوار فأن الامر يكون متعلقا بأمراة . ويظهر الوالدان في صورة ملك وملكة ، على حين يظهر الاخوة والاخوات في صورة حيوانات صغيرة او ديدان . وترمز المياه في الحلم للميلاد . اما العلاقات بين الام واطفالها فتمثل بواسطة النزول الى الماء او الخروج منه او الانقاذ بواسطة الغير ، ويرمز السفر للموت . وتمثل الاعضاء الجنسية بواسطة اشياء تشبهها من بعض الاوجه . فالعضو الذكري يمثل بشيء له القدرة على النفاذ (سكين ، او خنجر ، او راس من الجزر ، الخ ...) . ويمثل العضو الانثوي بواسطة اشياء مقعرة (بئر ، حفرة ، قدر ، علبة ، فوهة قنينة ، الخ ...) (2) .

4 ـ استنتاجات ختامية :

ان فرز الارضية الفلسفية لاي مفكر يحددبالتبعية نتاج تفكيره.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«حديقة الافراح» لوحة للفنان Bosch تمزج بين الفن السوريالي والتحليل الفرويدي

وطبقا لارنست جونز ـ زميل فرويد المقرب جدا ـ فأن فرويد كان يحضر جلسات المناقشة الفلسفية لبرنتانو خلال الفترة الدراسية التي قضاها كطالب طب في فينا في اواخر سبعينات القرن الماضي . وفي عام 1879 وخلال فترة ادائه الخدمة العسكرية ، حاول فرويد ان يكسب قليلا من المال بترجمته الى الالمانية لبعض مقالات ستيوارت مل ويبدو ان فرويد قد تأثر بذلك [Quinton، 1972 ، ص : 73] . حيث تعتبر « الفلسفة الاجتماعية لفرويد هي فلسفة ستيوارت مل » [Lichtheim ، 1972 ، ص : 57] .

ويبدو واضحا ان هناك تماثلا بين مفاهيم فرويد وبين فلسفة شوبنهور . فمفهوم فرويد للاشعور كمستودع للطاقة البدائية اللامعقولة يوازي نظرية شوبنهور من أن الذات الحقة هي الارادة اللاواعية . وان فكرة الموت كحل وحيد لمشكلة الوجود الانساني من وجهة نظر شوبنهور ، تجد صداها في غريزة الموت عند فرويد التي جسدها بنظرته التشاؤمية للحضارة في كتابه (الحضارة ومنغصاتها Civilisation and its Discontents) وكذلك في مؤلفه (مستقبل وهم The Future Or AN illusion) .

واذا كان هذا يمثل الاطار الفلسفي العام لفكر فرويد ، فهناك فلسفتان كانتا سائدتين في نهاية القرن التاسع عشر ـ فترة تكوين اساسيات فكر فرويد ـ هما الفلسفة الوضعية في فرنسا ومدرسة المنفعة في انكلترا .

لقد ادعت الفلسفة الوضعية انها اتخذت موقفا وسطا بين المادية والمثالية من اجل الوصول الى حياد فكري . فقرر الوضعيون ان وظيفة العلم هي الوصف لا التفسير . وان منهج البحث العلمي معتمد على المعرفة المتأتية من الخبرة Empirical وليس تجريبيا Experimental . وكانت حلقة فينا هي آخر مرحلة المدرسة الوضعية التي تبلورت في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين « فقدمت لنا الوضعية المنطقية في مجال الفلسفة والتحليل النفسي في مجال علم النفس » [ويلز ، 1972 ، ص : 5] .

اما مدرسة المنفعة ـ التي تربطها بالوضعيةاوجه شبه وتقارب ـ فهي التي عبر عنها في انكلترا جيرمي بنتام الذي افترض ان الطبيعة فرضت على البشرية سيدين لهما السطوة والغلبة هما اللذة والالم ، حيث هما وحدهما اللذان يشيران على الانسان بما ينبغي ان يفعله ويحددان له ما سيفعله . ويبدو واضحا ـ من سياق العرض الذي قدمناه ـ اثر هاتين الفلسفتين في فكر فرويد .

ومن الناحية العلمية لمنهج فرويد يرى بعض النقاد وجود نقص خطير في الخطوات التجريبية التي استخدمها فرويد في اثبات صدق فروضه . لانه اجرى ملاحظاته في ظروف تفتقر الى الضبط وانه لم يسجل لفظيا ما يقوله هو والمرضى وما يفعلونه ساعة العلاج ، وانما كان يعمل من مذكرات يسجلها بساعات عديدة .

ويرى نمط آخر من النقد ان فرويد كان يقبل كل ما يقوله مرضاه كما هو دون محاولة التيقن منه عن طريق اي شكلمن اشكال البرهان الخارجي . واعتمادا على هذه البيانات المشكوك بصدقها ، شرع فرويد في استخلاص الاستنتاجات والوصول الى النتائج بطريقة الاستدلال المنطقي التي تفتقر الى السند العلمي . ولهذا يرى كثير من النقاد ان معظم ما نجده في كتابات فرويد هو النتيجة النهائية

لتفكيره .

ويرى ايزنك (1953) « ان التحليل النفسي غير علمي »[Kline 1971 ، ص : 1] . ويتفق معه ماركس (1963) الذي يعتبر ان التحليل النفسي لا تنطبق عليه المعايير العلمية لكون معظم تركيباته ساذجة لا تتمتع بالصدق والثبات . في حين يرى فاريل (951 ، 961، 964) ان نظرية التحليل النفسي لا يمكن ان يقال عنها صحيحة ، ولا يمكن ان يقال عنها اناغير صحيحة [Kline ، 1971].

ويتفق مختلف نقاد التحليل النفسي على ان فرويد اعطى الوراثة والنضج وزنا اكثر مما يجب ، ووزنا اقل مما يجب للسمات الشخصية المكتسبة اجتماعيا . وانه نسب الى الطفل رغبات شهوية وتدميرية . كما انه نسب الى جميع البشر دفعات نحو المحارم ونحو الجنسية المثلية . وفسر سلوك الانسان على اساس من دوافع جنسية [هول ولندزي ، 1971] .

وهذا يعود ـ في رأينا ـ الى ان فرويد اختزل الظاهرة النفسية ففسرها في ضوء قوانين علم اسبق باسلوب الحتمية الميكانيكية . ويعود سبب ذلك الى ولع فرويد بالداروينية بمفهوم الفلاسفة البورجوازيين المعروفين بالداروينيين الاجتماعيين ـ من جهة ، وباسلوب الوضعية المنطقية (3) التي ترى بان المعرفة النظرية قابلة للاختزال الى معلومات الفرد الحسية المباشرة التي تشكل اساس المعرفة العلمية ، وبفلسفة ستيوارت مل التيتعتبر الوجود الاجتماعي تجميعا لافراد مستقلين جاؤا سوية من اجل منافعهم المتبادلة . وهذا هو العيب الاساس في النظرية الفرويدية حيث ركزت على الجانب البايولوجي وفسرت سلوك الانسان في ضوء القوانين البايولوجية ، الامر الذي قاد فرويد الى ان يعتبر الحرب نفسها ـ في خطاب وجهه الى اينشتاين ـ ما هي الا تلهية لغريزة التدمير بتوجيهها نحو العالم الخارجي . وهو تبرير بايولوجي واضح يلغي قوانين الصراع الاجتماعي . الامر الذي يقودنا الى ان نستنتج ـ تأسيسا على ذلك ـ أن الاهمية الاكبر لفرويد لا تكمن في ما توصل اليه من نتائج بل في ما اثار من مشكلات .

ومع هذا فان قسما من علماء النفس يرى ان فرويد من علماء النفس المبرزين ، وان مساهمته في علم النفس كانت عظيمة جدا . « وبالرغم من ان تقديرا مضبوطا لنظرية التحليل النفسي في الشخصية يبدو امرا صعبا » [ماركس ، 1970 ، ص : 511] فان فرويد « جاء باول نظرية ديناميكية شاملة نسبيا في الشخصية » [Klackhohn ، 1964 ، ص : 5] . وتعتبر كتاباته احدى المحاولات الهامة الحقيقية في توكيد اثر خبرات الماضي في تكوين الشخصية . وان نظريته فتحت آفاقا جديدة ووجهت النظر الىالكثير من الحقائق التي تتصل بالنفس البشرية لم تكن معروفة من قبل [هول ولندزي ، 1971 ، ص : 488] .

وتبقى صفة اخيرة في فرويد تثير الاحترام ، هي روح المثابرة العلمية فلقد اصيب بسرطان الفك في عام 1923 ، وخلال الست عشرة سنة الاخيرة من حياته ، اجريت له ثلاثا وثلاثين عملية . ورغم الالم القاسي الذي وصف بانه لا يطاق [Jones، 1977 ، ص : 19] والذي افقده الكثير من وزنه وشوه وجهه وحتى طريقة كلامه ، فانه، في فترة مرضه هذه ، انتج الكثير من المؤلفات .

الهوامش :

(1) : الفلسفة الميكانيكية هي الفلسفة التي تحاول ارجاع الظواهر الى قوانين الميكانيك ، وتعليل الحركة والطاقة بالحركة الميكانيكية لجسيمات هذه المادة . وقد توطدت هذه الفلسفة بنشوء علم الميكانيك ، وبنجاحه في تفسير عدد من ظواهر الطبيعة بفضل اعمال ديكارت ونيوتن في القرن السابع عشر . الا ان حصر ظواهر الطبيعة بالظواهر الميكانيكية وتطبيق طرق الميكانيك بصورة مطلقة لتفسير هذه الظواهر جعل الفلسفة الميكانيكية تعيق التوصل الى التعليل الصحيح للظواهر والتقدم بالعلم الى ميادين اخرى جديدة . وقد ساد مفهوم الفلسفة الميكانيكية حتى شمل الاتجاهات التي ترمي الى تطبيق قوانين علم واحد بحذافيرها على ميادين علوم اخرى .

اما المادية الميكانيكية فهي المذهب الفلسفي الذي يقر بالوجود الموضوعي للمادة مستقلا عن وعي الانسان وسابقا له . غير ان محاولة الماديين الميكانيكيين تطبيق طرق الميكانيك التقليدي فقط لدراسة الاشياء والظواهر كلها جعلتهم غير قادرين على النفاذ الى داخل بنية المادة ، فعجزوا عن التوصل الى رؤية تنوع اشكال المادة وحركتها وفهم علاقاتها المتبادلة .

(2) : سنتناول في بحث مستقل قادم موضوع « الفرويدية والابداع الفني » .

(3) : الوضعية المنطقية : في العشرينات واوائل الثلاثينات من هذا القرن ، وضعت ما يسمى بحلقة فينا واتباعها في بريطانيا والولايات المتحدة وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وبلدان اخرى ، الملامح الاساسية لمفهوم الوضعية المنطقية . وكان ابرز اعضائها : مورتز شليك ، رودلف كارناب ، أ.نوراث ، س . هيمبل ، كارول بوبر ، فيليب فرانك ، وهانز رايخنباخ . ولعبت مؤلفات لودفيغ ديتجنستين وبرتراند رسل دورا كبيرا في ظهور الوضعية المنطقية .

وانصار هذا المذهب لا يقرون بحق الفلسفة في تعميم معطيات العلوم وايجاد الروابط بينها لتكوين نظرة شاملة عن العالم ، وهم ، بالتالي ، يرفضون وجود قضايا كقضية علاقة الواقع بالوعي ، ويدعون أن على العلم ان يقف فوق التيارين الفلسفيين : المثالية والمادية . وانصار هذا المذهب ينتمون بجميع تياراتهم الى المثالية الذاتية ، التي ترى أن معرفتنا عن العالم هي مجرد انعكاس لعمليات ذاتية ، وهي ، بالتالي ، لا تعلمنا عن حقيقة هذا العالم شيئا . وجميع هؤلاء الفلاسفة يتفقون ، بمختلف اتجاهاتهم ، على التشكيك بمعرفتنا عن العالم المادي ، وعلى أنكار وحدته وحتى وجوده . فيحاول بعض الوضعيين حصر مهمة العلم في وصف الاشياء والظواهر لا في تعليلها وتعميمها ، مشككين بمبدأ السببية . كما ينكر بعضهم الآخر حتىالواقع الموضوعي لهذه الاشياء والظواهر ، مرجعا معرفتنا الى امور نفسية . ويحصر فريق آخر من الوضعيين ، والوضعيين الجدد ، مهمة الفلسفة في بحث قضايا لغة العلوم ، ومنطق الرموز ، وتحليل طريق الاستقصاء العلمي ، مرجعا المعرفة العلمية الى معرفة شكلية .

ويصر الوضعيون على فصل ألقضايا العلمية عن « القضايا الزائفة » التي وضعوا ضمنها المسألة الاساسية للفلسفة ، وبشكل عام جميع القضايا التي تؤثر على طبيعة الواقع . ووصفوا الفلسفة بانها شكل من اشكال الوعيالنظري « محايد ايديولوجيا » او « خارج نطاق الايديولوجية » . ووظيفتها في رأيهم، هي تحليل لغة العلم عن طريق المنطق الرياضي .

ويؤمن الوضعيون المنطقيون بمبدأ الاختزالية الذي ينص ، في البدء ، على امكانية ارجاع فروع المعرفة المختلفة الى مبادىء الميكانيك ، وبعد أن تبين ، فيما بعد ، استحالة ارجاع كل شيء الى الميكانيك وحده ، اتخذ مبدأ الاختزالية شكلا آخر ، فأعطيت مبادىء الالكترو ديناميك دلالة شاملة ، ومن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم نسبت هذه الدلالة الى ميكانيك الكم . واخيرا ارجعت الظواهر البيولوجية الى الظواهر الفيزيائية . وتحت هـــذا الشكل الميكانيكي الجديد اصبح مبدأ الاختزالية سلاحا في يد الفلسفة البورجوازية المعاصرة المتعلقة بالعلومالطبيعية بشكل خاص .

وقد مارست الوضعية المنطقية تأثيرا هامـــا على الفكر الـسوسيولوجي البورجوازي . ويرى أ. نوراث (من بريطانيا) أن علم الاجتماع يدرس السلوك الانساني ، وطالما أن السلوك علاقة زمانية ـ مكانية ، فان الظواهر الاجتماعية يمكن دراستها بمناهج العلم الطبيعي . ولغة الفيزياء او لغــة السلوك يمكــن ايضا ان تكون اساسا لعلم الاجتماع العلمي .

اما في ميدان علم النفس فان ابرز ممثلي الوضعية المنطقية هو العـالم الاميركي المعروف (سكينر) ـ استاذ علم النفس في جامعة هارفارد حاليا ـ صاحب نظرية الاشراط الاجرائي ، الــــذي يرى بان الحرية ترف يتجاوز امكاناتنا وانها اصبحت وهما ليس الا ، ذلك انه لم يعــد ممكنا للانسان ان ينجو من القولبة . وطالما ان القولبة ـ من وجهة نظر سكينر ـ امر لا مفــر منه فلنضع قوالب للسلوك تفيد الانسان بدلا من ان تضره ، وهذه القوالب يجب ان تحل محل الحرية في المسلك والثقافة .

مصادر القسم الثاني من البحث

1 ـ اوسبورن ، روبن : الماركسية والتحليل النفسي . ترجمة سعاد الشرقاوي ، مراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1972 .

2 ـ هول ، كالفن : علم النفس عند فرويد . ترجمة احمد عبدالعزيز سلامــة وسيد احمد عثمان . مكتبة الانجلو المصرية 1967 .

3 ـ هول . ك ، لندزي . ج : نظريات الشخصية . ترجمـــة فرج احمد فرج وآخرين ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971 .

4 ـ ويلز ، هاري : بافلوف وفرويد . ترجمة شوقي جلال . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975 .

5 ـ سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية ، محـــــدداتها ، قياسها ، نظرياتها . دار النهضة العربية ، القاهرة 1975 .

6 ـ فرويد ، سيجمند : معالم التحليل النفسي ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة 1966 .

7 ـ الجنس واثره في السلوك الانساني . دراسة وتقـــديم جوزيف جاسترو ، ترجمة فؤاد نصار ، منشورات حمد ـ بيروت 1967 .

8 ـ روبنسون ، بول : اليسار الفرويدي . ترجمة لطفي فطيم وشوقي جلال ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت 1974 .

9. Ades, Dawn : Freud And Surrealist. in Freud The Man, His World, His influence. Edited By Jonathan Miller, Weidenfeld And Nicolson Ltd, 1972, PP. 55-69.

10. Adler,A. : The Science of Living. New York, Chilton, 1929.

11. Freud,S. : An Outlin of Psychoanalysis. Vol. 23, 1940. in Kline, Paul (1972).

12. Freud,S. : Totem And Taboo, (The basic Writing of Sigmund Freud, By A.A. Brill,) New York, The Modern Library, 1938.

13. Fromm,E Man For Himself. London: Routledge And Kegan Pall, 1949.

14. Hartman, Heinz : Essays on Ego Psychology: Selected Problems in Psychoanalytic Theory. New York, International Universities Press, inc. 1964.

15. Horney,K. : The Neurotic Personality Of Out Time. New York, Norton, 1937.

16. Horney,K : New Ways in Psychoanalysis. New York, Norton, 1939.

17. Jones, Ernest : Th Life And Work of Sigmund Freud. Edited And Abridged By Lioel Trilling & Steven Marcus. Penguin Books, 1977.

18. Klackhohn, Clyde : Personality : in Nature, Society, And Culture. New York, Alfred A. Knope, 1964.

19. Kline, Paul : Fact And Fantasy in Freudian Theory. Methuen & Co Ltd, London, 1972.

20. Lichtheim, George : Freud And Marx. in Freud The Man, His World, His Influence Edited By Jonathan Miller, Weidenfeld And Nicolson Ltd, 1972, PP. 55-69.

21. Marx, Melvin.H : Introduction To Psychology. Macmillan Publishing Co. inc, New York, 1970.

22. Sartain, Aaron.Q. Psychology : Understanding Human Behavior, Mccraw Hill, New York,1973.

23. Stewart, Walter A. : Psychoanlysis : The First Ten Years. London, George Allen & Unwint Ltd, 1967.

24. Quinton Anthony : Freud And Philosophy . in Freud The Man, His World, His Influence Edited By Jonathan Miller, Weidenfeld And Nicolson Ltd, 1972. PP. 71-84.

25. Whyte, LL. : The Unconscious Before Freud. London, 1968. in Kline Paul (1972).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البحث عن المستقبل

قصة ارثر ميللر ترجمة ابتسام عبد الله

قرات لفولكنر ، حين كان يتناول الطعام في احد المطاعم ، قبل وفاته قولا له :

« كل الاشياء لها مذاق واحد ، ربما انني موشك على الموت لكنني اشعر انني بخير » .

كنت افكر في لحيتي ، كان ذهني يتجول في الماضي ، عبر المرآة ، عن لحى اخرى لي .. هذه هى اللحية التاسعة في حياتى . كنت في شبابي اميل الى اللحى لانها تجعلني ابدو اكثر نضجا واكثر ثقة بالنفس . لكننى لا احبها الآن بسبب تقدمي في السن . ومع ذلك فانني لا استطيع التخلي عن لحيتى لاننى بدونها لا اتمكن من الانسجام مع ادواري الفلسفية على المسرح .

في تلك الليلة ، نظرت الى ادراج المكياج العائدة لي : الاسفنجة ، المنشفة ، قلم الحواجب ، وانتابني فجاة احساس حاد ، انها الادراج نفسها ، على الدوام ، الاسفنجة نفسها ، ونفس المنشفة التي تحمل بقع كريم الاساس الوردي ، بل انني لم اغير جلستي هـذه امام منضدة « الزينة » منذ 35 عاما . لقد امضيت حياتي كلها امام هذه المرآة لمدة عشرين دقيقة دون ان اتحرك قبل ان ترفع ستارة المسرح .. نعم كل الاشياء لها مذاق واحد . إنني ، عمليا ، اعتبر نفسي من المتفائلين لكنني في تلك الدقيقة الواحدة الطويلة جدا ، احسست بانني لم افعل شيئا قط ، غير تهيئة نفسي لدور لم اتمكن من ادائه ابدا وقد يعود سبب ذلك الاحساس الى تشابه جميع غرف المكياج فيما بينها ، وقد يعود ايضا ، الى سبب آخر وهو انني كنت انتظر نبأ وفاة والدي . لا اعني بذلك ، انني كنت افكر به على الدوام ، لكننى غالبا ما كنت اتذكره حال سماعي رنين الهاتف : لقد حان الوقت انهم سيأتوننى بالخبر .

دخل الغرفة حاجب المسرح ، اعتقدت انه قد قدم ليعلمنى بموعد رفع الستارة بعد عشر دقائق ، لكنه بدلا من ذلك ، قال بأن هناك من يود رؤيتي . انتابتني الدهشة ، لا يزورنا الناس ، عادة ، قبل بدء العرض ، اعتقدت ان الزائر قد يكون واحدا من دار التمريض احسست بالخوف . اردت معرفة الامر ، وطلبت رؤية ذلك الغريب .

انني لم اتزوج قط ، بالرغم من اننى خطبت فتيات عديدات ولكن ايا منهن لم تحز رضى والدتي ، لم ارد ان اجرح مشاعرها . كنت اعرف اننى متعلق بها الى حد كبير ، ولكنني لم اكن متاكدا من ذلك . انني لا احب شيئا قدر حبي للاطفال والحياة العائلية ولكن ! دائما ، وفي الدقيقة الاخيرة ، كانت تأتيني فكرة معينة وترسخ في ذهنى . فكرة عدم حاجتى الماسة الى ذلك الزواج . مرات كثيرة ، تمنيت فيها ، لو انني كنت قد ولدت في اوربا ، في قرية والدي ، حيث تعقد فيها زيجات كثيرة ، دون ان يرى العريس وجه عروسه المغطى بالنقاب ، الا بعد انتهاء الحفل . كنت ساكون زوجا مخلصا ، وابا جيدا ، هذا ما اعتقده . انه احساس غامض يعتريني الآن .. انني افتقد الزوجة والاطفال ، افتقد زوجة واطفالا لم يكونوا في حياتي قط !.

انتابتني الدهشة لرؤيتى صبيا يدخل الغرفة . وهو بالرغم من احتمال كونه في الثانية والعشرين او الثالثة والعشرين من عمره ، فانه كان قصيرا ذا شعر مجعد وبشرة وردية تكسوها لحية بدت وكانه لم يحلقها ابدا . قلت في نفسي ، قد يكون ابن صاحب دار التمريض ! كانت له ملامح حلوة ، وفي عينيه وجدت بريقا لامعا .

قال : « اردت فقط ان اذكرك بمنتصف الليل » .

بمنتصف الليل ؟ ماذا عن منتصف الليل ؟ انني لا اتذكر شيئا عن الامر ! بل انني ، تصورت للوهلة الاولى ، ان والدي قد توفي هناك ، وانني قد نسيت موعدا يتعلق بالدفن او بالمراسيم الدينية الواجب اتباعها .

وتذكرت بعد حين ، انني كنت قد وافقت على الاشتراك في اجتماع يعقد على المسرح تحت شعار « برودواي من اجل السلام » كنت قد وافقت على ذلك بعد ان تحدانى دونالد فروست . لقد كنت متاثرا جدا لاصابة ابن خال احد العاملين في المسرح ، في عينيه في الحرب الفيتنامية . وكان ، لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره بعد .

في الحقيقة ، لا اعرف من هو صاحب الحق في هذه الحرب ، لكنني اعرف اننا لن نجد ، بعد عشرة اعوام ، من يتذكر الاسباب التي قامت من اجلها . تماما ، كما اجلس ، غالبا ، في هذا المكان ، امام منضدة « الزينة » ، حيث اكتب الآن ، واشعر بعدم الرغبة في الوقوف على المسرح . هذا بالرغم من انني قد مثلت في 43 مسرحية .. اي انني قد حضرت 43 حفل افتتاح . ولكن من سيتذكر الادوار ، التفاصيل الدقيقة للمعارك التي خضناها في الانتاج ، ودعونا من الاسماء ! اعلم جيدا ، ان تلك المسرحيات قد ساهمت في ابقائي حيا . ولكنه ، من الصعب علي ان اتذكر ، نوع الممثل الذي كنت اريد ان اكونه انه لم يكن هذا النوع ، هذا كل ما اعرفه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفجاة ، شعرت بالتوتر ازاء ذلك الاجتماع المنتظر . لقد احترمت دائما الفنانين الملتزمين ، اولئك الذين كانوا ، في الايام السالفة ، يساريين وما شابه . لكنني ، لم اشعر في يوم من الايام بضرورة اقحام اسمى في اي عمل سياسي . لم اشعر ابدا ان وضع اسمي او عدم وضعه سيغير من الامر شيئا .

واضافة الى ذلك ، كنت اشعر بالقلق والتوتر ازاء الظهور في الاماكن العامة . لكنني تطلعت الى الصبي وتطلع الي . وتذكرت مرة اخرى ، المواقف التي كان يتخذها الفنانون في السابق ، وان هذا الاجتماع كان اكثر من مجرد اجتماع ، كان محاولة لايقاف العالم من السير نحو الفناء .

لم اكن مقتنعا بالامر ، لكنه بالنسبة اليه ، كان مختلفا .

بالنسبة له استطيع ان اقول انه كان ممثلا ، وكان كل عرض جديد بمثابة نوع من البداية الجديدة . واستطيع ان اقول انه ما يزال يتذكر تفاصيل كل ما حدث له حتى الآن ، وهو في طريق صعوده الى الاعلى والاعلى . في الحقيقة ، كنت خائفا من ذلك الاجتماع ، لكنني لم اجد في نفسي القدرة كي اقول له بان وجودي وعدم وجودي معهم سواء. وهكذا تصافحت ايدينا ، بل انه امسك بيدي وكاننا نعمل معا في منظمة واحدة ، او لكي يعبر عن امتنانه لفكرة وجود رجل كبير في السن معهم . شيء من هذا القبيل .

عندما استدار مغادرا الغرفة ، رايت ان معطفه من الخلف قد تآكل لفرط القدم ـ اذ كان لون تلك البقعة قد اصبح باهتا ـ الممثلون يلاحظون جيدا مثل هذه الامور ـ وهذا يعني ، انه يجلس كثيرا ، مرتديا معطفه ، على المدارج الكونكريتية ، امام مكتبة الشارع الاربعين ،

او حتى على ارائك الحدائق العامة ، او على الكراسي المكسورة الموضوعة خارج مكاتب المنتجين ، وفكرت في تلك اللحظة ، انني لا اتصور وجود شيء ما في العالم ، يدفعني الى الجلوس والانتظار ، وتمنيت لو كان في حياتي شيء من ذلك . واخيرا ، غمرتني السعادة ، لانني ساكون موجودا في ذلك الاجتماع . ولا ادري السبب الحقيقي لذلك .

اعتقد انني مثلت بشكل افضل في تلك الليلة ، لم ينتبه الى ذلك غيري ، لكنني وجدت نفسي اتامل بقية زملائي وكانني لم ارهم من قبل. فجاة ، توضحت امامي ، الفكرة الكاملة للمسرحية ، القدرة على نسيان كل شيء سواها ، كي نغضب بشكل حقيقي على المسرح ، او نضحك بشكل حقيقي ، فان علينا ان نحتسي العصير وكاننا نحتسي عصيرا حقيقيا ـ والذي هو في الواقع لا يعدو ان يكون شايا ـ وان علينا ان نسعل بعد ذلك وكانه كان مرا . في نهاية الفصل الثاني ، نهض شخص من الصف الثالث ثم غادر القاعة ، عادة ، لا اشعر بالقلق عندما يغادر احدهم المكان ، لكنني في هذه الليلة ، احسست ان دوره يتطلب منه مغادرة المكان ، وان المشاهدين جميعا يمثلون ايضا . بالاضافة الى ذلك كله ، ما معنى جلوس هذا العدد من الناس في مكان واحد ، صامتين وهم يتطلعون نحو جهة واحدة ! انه نوع من انواع التمثيل !

عبرت في ذهني تلك الفكرة ـ في اللحظة التي رايت فيها الرجل يغادر القاعة ـ وفكرت ايضا ان الفارق الوحيد الذي يميز بين التمثيلين ، هو ان المرء خارج المسرح لا يتمكن من الوقوف على قدميه بعد انتهاء المشهد الخاص بالموت . حتى الرئيس ، فانه اصبح الآن يخضع لعملية المكياج قبل ظهوره على شاشة التلفزيون ، وفي صباح كل يوم ، يرتدي كل انسان ملابسه التنكرية ليمارس عمله ويستمر فيه . ما عداي . فبدلا من الاستمرار في عملية الزواج ، اتوقف ، في كل مرة ، عن اتمامه في اللحظة الاخيرة .

عندما سمعت نداءات رفع الستارة ، خطر لي ، ان عدم زواجي حتى الآن ، يعود الى انه سيجعل من حياتي امرا حقيقيا وانه سيبعدني عن المسرح بعض الشيء .

في صبيحة اليوم التالي ، ذهبت لزيارة والدي في دار التمريض ، كنت هناك قبل اربعة او خمسة ايام ، لكنني غادرته محاولا قراءة السيناريوهات التي كانت قد ارسلت لي ، واجريت ايضا بعض المحادثات الهاتفية .

كان يوما عاصفا من ايام شهر تشرين الاول ، والسماء زرقاء صافية فوق نيويورك . لقد احب والدي باستمرار الجو البارد والريح القوية . كان سيرفع ياقة معطفه ويقول « آه » وقد كنت اقلد طريقته تلك في صباي . واحس بلذة كبيرة حين كنت اواجه تلك الرياح الباردة . كان ينظر الي ويضحك ، « انه لن يكون يوما حارا ، يا ولد » .

الرجل الكبير في قفص ، والقضبان الحديدية موضوعة بالقرب من وجهه ، وحيث انه لم يعد يراها ، فانه يواصل حركته المحدودة ، خطوة هنا وخطوة هناك . واخيرا يدرك ، وللمرة المائة في كل يوم ، انه لم يعد حرا . . لكنه لا يعرف السبب . انه يحس بان هناك من يعرف ، ومهما كان ذلك الذي يعرف ، فان الامر يسبب له الاذى . شيء ما سيحدث ، بالتاكيد ، عندما تاتي اللحظة المناسبة ، بامكانك ان تقول ، ان هناك من يعمل على ابقائه هنا بصورة مؤقتة . الغرفة مصبوغة بلون منمش ، تكاد تفوح منه ، زرقة خفيفة فوق كتل من الاصباغ بحيث ان سطحه اللامع بدا ثقيلا ، خيط معلق من منتصف السقف ينتهي بمصباح ، يرتطم به راسه ، خلال حركته في الغرفة . وفي ظلمة الليل ، يستلقي على فراشه ، ينام ووهج المصباح الازرق على شبكيتيه ، وبامكانه ، عندما ياتي المساء ، سحب الخيط لاضاءة مصباح السقف ، انه لم يشعر بالارتياح ، ابدا ، تجاه الآلة ، ولهذا ، فهو عندما يسحب الخيط ، يتطلع الى سقف الغرفة ، مندهشا بعض الشيء من انبعاث الضياء . احيانا ، وبعد ان يصطدم راسه بالمصباح ، يتلمس النور وكانه يلاحق ذبابة وقفت على بشرته .

كانت دار التمريض قديما : مبنى للسكن ، الممرات في كل طابق ، ضيقة تكاد لا تتسع لاكثر من شخص واحد . عندما تدخل الدار ، تجد على اليمين مكتبا تجلس عليه امراة بدينة ، تنظر دائما في سجل سميك امامها . على اليسار مصعد بطيء في الطابق الاول ، غرفة والدي . وهناك في الممر نجد دائما فراشا مطروحا فيه . . ان احدهم قد مات او نقل من مكانه . ابواب الغرف مفتوحة على الممر ، معظمها مشغولة من قبل نساء متقدمات في السن . يجلسن بلا حراك في مواجهة اسرتهن ، وبعضهن نائمات في مقاعدهن . لا وجود للصوت في هذا المكان . الكل يتامل بهدوء ، مثل عصافير نحيفة بيضاء الشعر لاتستطيع الانتعاش في الاسر . وعيونهم كلها تبدو زرقاء .

رائحة حديقة الحيوان ، تشمها حال دخولك الدار ، وتشتد اكثر في الطوابق العليا . وهي بالرغم من ذلك ، ليست بالكريهة . انها مثل الارض ، رطبة ، لكنها غير سقيمة . في زيارتي الاولى ، نفرت منها ، كنفوري من رائحة البالوعة ، لكنني ، وبعد فترة قصيرة ،

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ادركت ، بعد ان سمحت نفسي أن استنشق الهواء عميقا ، انهـــا رائحة الارض ، واحترمتها .

غرفة والدي تقبع في نهاية الممر . وفي مواجهة الباب فسحة واسعة تضم مكتبا للممرضات . انهن لا يتطلعن الي عندما افتح الباب. لا يوجد هنا من يحاول السرقة او الايذاء . كلهم متقدمون في السن ، ولا يتطلب الامر فرض حالات اضطرارية .

انه كالعادة نائم في فراشه ، في اي وقت ازوره فيه ، انني الآن اكبر بعشرين سنة مما كان عليه يوم ولادتي . انني الآن اكبر سنا من ذلك الذي كنت اتطلع اليه في خلال نزهاتنا الباردة فشعري اصبح رماديا على الجانبين . والدتي توفيت منذ زمن طويل ، وقد انتقل الى العالم الآخر ، كل اخوته وشقيقاته ، وكذلك كل من كان يعرف اويلعب الورق معه . انني ايضا ، فقدت عددا من الاصدقاء ، واخيرا اكتشف، انه في واقع الامر ، ليس اكبر كثيرا مني في السن ، من الذي انا عليه الآن .

وقفت هناك اتأمله واتذكر اجتماع الليلة الماضية . كان هنـــاك ما يقارب الـ 15 شخصا ، جالسين على صفوف من المقاعد المرصوصة على خشبة المسرح . كان دونالد فروست يترأس الاجتماع . لذلك بدأ بتقديمنا الواحد تلو الآخر . ولسبب ما ، بدا لي ، عندما حان دوري، ان التصفيق كان اشد . ربما لانها كانت المرة الاولى التي احضر فيها اجتماعا كهذا ، وربما لانني كنت اسما بارزا في هـــذا المجال ، خاصة وان وجهي مالوف لدى الجميع ، لكنني ، عندما انتصبت واقفا، والتصفيق ما يزال مستمرا ، اشار لي دونالد بالتقدم نحو الميكروفون سرى الخوف في كياني خشية ان ينقل الصحفيون ما ساقوله . ولم تكن لدي فكرة مسبقة عما ساقول . لكنني سرت نحو الميكروفون .

عم الصمت المكان . كانت قاعة المسرح مملوءة بالناس ، وفي الخارج ، تزاحموا بشدة من اجل الحصول على مقعـــد في الداخل . انحنيت وسمعت صوتي يقول : « احدهم فقـد عينيه ، هــذا ما اعرفه » ، ثم ادركت بانني ، لم اكن اعرف الشاب الذي اصيببالعمى وتوقفت عن الكلام . فكرت ، قد يبدو الامر غير مقنع . ادركت انني كنت خائفا من وجود احد رجال الامن فيالمكان ، سيلومونني من اجل وجودي في الاجتماع . وتابعت حديثي بصوت عال : « ارجو انتنتهي الحرب الفيتنامية انني لا افهم هذه الحرب » . وقفلت عائـــدا الى مكاني .

قوبلت كلمتي القصيرة تلك بتصفيق حاد ، لم افهم ســـبب حماسهم لي . بدا لي ، وكانه حفل افتتاح احدى المسرحيات . وعندما يقول احد الممثلين جملة لم يفكر بها كثيرا فانها تثير ردة فعل عنيفة لدى المشاهدين . كنت سعيدا ، ولم اعرف السبب ، ربما بســبب التصفيق ، الذي لم افهمه ايضا ، لكنني كنت سعيدا . وخطر ببالي في تلك اللحظة ، انني قد ارتكبت غلطة فظيعة وفظيعة جدا لعدم زواجي حتى الآن .

« ابي ! » قلتها بصوت هادىء كي لا افزعه ، فتح عينيه ورفع راسه متطلعا الي .

انه يبتسم عادة في هذه الايام ، حال استيقاظه من النوم ، ويحاول فتح عينيه ، قدر استطاعته ، باتساع ، لست واثقا من امكانية تعرفه على الشخص الذي يقابله ويبتسم معه . وانا ، دائما اعرّفه بنفسي قبل ان ابدأ حديثي معه .

« انني هاري » . اقولها بشكل اعتيادي ، وكانني اردده، فهو ، مثلا ، لا يضع نظاراته على عينيه . واصابعه ترقص بقلق على امتداد شفته السفلى . اعتقد ، انه يتلمس نفسه ، لانه لم يعد واثقا منالتمييز بين الحقيقة والحلم ، عندما يختفي ، كل يوم ، من امام عينيه ، اناس غير واثق من معرفتهم . يغادر السرير في الحال ، انه يرتدي ملابسه كاملة تحت البطانية ، بل وحتى حذاءه أحيانا . لكنه اليوم قد اكتفى بارتداء جواربه ، « اين نعلاي » ؟

احضرتهما له من الدولاب الحديدي وساعدته في انتعالهما، وقف في وسط الغرفة ، قائلا : « آها .. اها .. » وكان هناك حديثا ما يزال مستمرا بيننا .

لا وجود للعواطف الجياشة في هذا المكان، بل تيارات عميقة بلا ضياء . ظهره قد انحنى بعض الشيء ، وتيبست ركبتاه، لكنه يتلمس ثيابة للتاكد من ان كل شيء على ما يرام ، انه مسرور جدا لوجود انسان الى جانبه ، ومع انه يعلم انه لن يحصل على شيء ، اي شيء ، منه ، فانه يحاول ان يطيل في امد الزيارة ، يطيلها باي شكل كان . من يدري، فقد يحدث شيء ما يفك اساره . انه خائف من انتهاء الزيارة فجأة ، ولهذا يحاول ان يكون متسرعا في ما يفعل . يقول «اجلس . اجلس » لا يقولها من اجل راحتك فقط ، بل في محاولة منه للتهرب من النهاية. ثم يجلس على احد المقاعد ، واجلس انا على حافة السرير، في مواجهته.

« سمعت انك قد ذهبت في نزهة مع الممرضة ! »

« آه . الى النهر . لعنة على تلك الايام .. اما هنا فان اليومفيه جميل » .

« نعم ، انه يوم جميل » . واعيد الجملة عليه ، كي اعلمه بانني افهم ما يقول . وبالرغم من عدم اهتمامه بالامر ، فانه يبـــدو احيانا ، وكانه يريد ان يكون واضحا امام الآخرين . فهـــل يدري ، يا ترى ، ان احاديثه لم تعد مفهومة .

يمد ذراعه على المنضدة . « نظاراتي ! » . افتح الدرج واناوله واحدة من اثنتين يحتفظ بهما هناك .

« اهذه التي تريدها ! »

يضع النظارات على عينيه . العدستان تحملان آثار اصابعه ، ويتمتم .. « اي .. » متطلعا فيما حوله ، ثم يقول : « لا » . ويمد يديه في الدرجباحثا ، اناوله الآخرى ، يخلع الاولى ، يفتح الثانية ، ثم يطوي الاولى ويرفع بصره الي .

ومن نظراته ، ادرك دائما ، انه يحس بوجود صداقة فيما بيننا ، وانه مسرور لوجودي معه ، لكنه غير متأكد من شخصيتي .

« انا هاري » اقولها مرة اخرى .

يبتسم . انه ما يزال رجلا ضخما بالرغم من هزاله الآن . راسه كبير ، اسنانه ما تزال في حالة جيدة ، وهناك نوع من القوة ، كامنــة بشكل مبعثر في اعماقه . قوة رجل ، ارغم على الاستقرار في مثل هذه الغرفة ، والعيش وفق هذا النمط من الحياة . رجل له مستقبل . اعتقد انني اواصل زيارته من اجل ذلك فقط .

لم الاحظ حتى اليوم ان اذنيه بارزتان وانهما متوجهتان اماما.اعتقد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انني كنت ، على الدوام ، مشغولا بالتطلع الى عينيه . لذلك لم انتبه لاذنيه . ولانني لم اعد اتوقع منه كلاما جديدا بأن يسمع صار لدي الآن وقت كاف للتطلع الى جسده .

ساقه اليسرى منفرجة ، يداه رقيقتان ، بل انهما تشبهان يدي الفنان . قدماه طويلتان ورفيعتان ، وجنتاه مرتفعتان بشكل غريب ، كوجنتي مواطن سلافي . كان وجهه ممتلئا ، قمة راسه مسطحة وكذلك ظهر عنقه .

لقد مضت اعوام خمسة منذ ان اكتشفت ، للمرة الاولى ، انه قد اصبح عجوزا ، رجلا متقدما في السن . صادفته مرة ، في شارع برودواي ، في احدى الامسيات ، واضطررت للسير ببطء شديد الى جانبه ، هبت نسمة صغيرة على وجهه ، ادمعت عينيه ، لكنني ادركت فيما بعد ، ان الامر لا يؤلم كثيرا ، وانه ، بعد كل شيء ، قد عاش زمنا طويلا .

لكنني وجدت الامر مختلفا اليوم لانه لم يتخل عن مستقبله ، بل انه في الحقيقة ، كان يسعى نحو مستقبله بحيوية اكثر . .وبحماس اشد مما احسه انا تجاه مستقبلي . كان فعلا ، في حاجة الى شيء ما .

« لينين ، لا مار اقوه لك . مهم جدا » .

« هل تريد شيئا » ؟

« لا . . لا . . لا مار اد اقوه » .

انتظر اجابتي ، « انني لا افهم ما تقول . . استمر في الحديث فربما افهم شيئا » .

سار نحو الباب وتأكد من كونه مسدودا ، وفي خلال حديثه كان يواصل التطلع نحو الباب ، وكأن اناسا قد تربصوا هناك لالحاق الاذى به .

ثم حرك راسه بغضب ، « ابدا في حياتي . ابدا » .

« ما الامر ! »

« هو واضعنو في هذ لول »

« الا يسمحون لك بالخروج ؟ »

أومأ براسه ايجابا ، وقال بغضب : « هو واضعنو في هذ لول » .

« لكنك خرجت في نزهة مع الممرضة . . اليس كذلك ؟ »

« لينين . . هيو لينين ! » ، قالها بنفاد صبر .

« نعم ، ابي ، انني مصغ اليك ، هل تريد شيئا ؟ » .

كانت امارات التفكير بادية على وجهه . انه يقرر شيئا ما في اعماقه ، شفتاه ، تتحركان ، بلا صوت ، نحو الداخل والى الخارج ، مثل شفتي الشمبانزي عندما يتدرب على حركة ما . ثم عقد ساقيه الواحدة على الاخرى وانحنى على حافة المقعد ليواجهني .

« ان لها نقودي » .

« نقودك ؟ »

« كلا ، لها . امس قالت بالتأكيد . اليوم . كلا . لها » .

« السيدة في الطابق الاسفل » .

« اي »

« اطلبت منك النقود ؟ »

« آن . لها . نقودي » .

« الا تريد السيدة اعادة نقودك اليك ! »

اشار براسه بالايجاب : « ان لها 50 الف دولار »

« هل طلبت منك 50 الف دولار ؟ »

« لان نقودي لها » .

كان جسده مائلا الي ، وقد عقد ساقيه ، تماما ، كما كنت اراه يفعل مع رجال الاعمال . جلسة انيقة ، مليئة بالرشاقة والرقة ، وهو ، بطبيعة الحال ، لم يكن يمتلك مبلغ الخمسين الف دولار ، انه لم يعد يمتلك شيئا قط . ولكنني في تلك اللحظة ، لم استطع ان ادرك مغزى حديثه ، بالرغم من انه كان يتكلم معي بوضوح .

« حسنا ، الست في حاجة الى المال » .

القى علي نظرة مريبة مع ابتسامة صغيرة تدل على الحكمة . انا ايضا كنت ضده مع الآخرين .

« لينين » .

« انني مصغ اليك » .

« بامكاني الذهاب الى المنزل . » قالها فجاة ، وبشكل واضح . لم يكن يملك منزلا ايضا ، مضت اعوام ثمانية على وفاة زوجته ، بل حتى غرفته في الفندق قد هجرت . واضاف : « انني لن افعل شيئا حتى الكلام » .

« هذا المكان افضل بالنسبة اليك » .

« افضل ! » وتطلع نحوي بعينين واسعتين غاضبتين .

واضفت : « انك في حاجة الى الرعاية » .

استمع الي بدون اهتمام ، تحدثت عن التقدم الذي طرأ عليه هناك ، كانت عيناه تختلسان النظر نحو الباب . قال ، وقد هدأ الغضب في صدره : « بامكاني الحياة » . .

اومات براسي ، نعم .

وكرر جملته ، « بامكاني الحياة » . .

وجاء الصمت والذي هو اسوأ مراحل الزيارة . لم يعد بامكاني العثور على موضوع للحديث ، ولم يعد هو يطمح في الحصول على مساعدتي ، ربما كان يتوقع ان اقوم بجمع حاجياته واخراجه من المكان . كل ما تبقى لدينا في تلك الغرفة ، فرحته المتوقدة ببطء لوجود شخص ما الى جواره ، بالرغم من عدم تأكده من شخصيته . يكفي أن يكون انسانا مألوفا بالنسبة له . اما بالنسبة لي ، فقد كنت مكتفيا بالتعرف على فرحته .

كان يتطلع الي بين الحين والآخر بتعابير مختلفة . مرة بعينين ضيقتين ، واخرى بشيء من التقدير ، وكأنه موشك ان يقول جملة ذات دلالة عميقة . ثم يشيح بوجهه عني ويعض شفتيه . ويعود ، بعد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لحظات ، يتطلع الي من جديد مع وعد بابتسامة واسعة دافئة ، ثم يغرق في تاملاته .

واخيرا ، رفع اصبعه وكانه بذلك يحاول اثارة اهتمامي ، اهتمام انسان غريب عنه ، دافعا براسه الى الوراء وكانه يتذكر شيئا ، وقال:

« هل كنت في سان لويس ؟ » .

« نعم ، لقد عدت توا » .

كنت قد ذهبت الى سان لويس ، ولكن كان ذلك قبل ما يقارب العشرة اعوام حيث مثلت فيها في احدى المسرحيات . كان احد معامله في سان لويس قبل اربعين عاما .

وغرق في ابتسامة سعيدة . لقد احب المدن . استمتع في دخولها والخروج منها ، استمتع بالخدمة الممتازة في الفنادق . لقد احب أن يتذكر بنايات قد اختفت من الوجود ، والمد والجزر في عالم الاسهم المالية . كنت اعرف سبب ابتسامته . جلب لي ، مرة لعبة من سان لويس ، سيارة نقل ، فوقها فرقة كاملة من الموسيقيين يحركون اذرعهم مع حركة السيارة ، وفي داخلها اسطوانة تدور لتعزف اغنية عن النجوم والاشرطة . كان ، قد وصل المنزل في اللحظة التي كنت فيها قد استيقظت من النوم ، كانت يداه مليئتين بعلب الهدايا . سيارة النقل تلك وقفازات طويلة بلون بني فاتح لوالدتي . كان دائما يجلب معه هواء منعشا الى الدار ، مع وجهه الوردي اللون وضحكته القوية.

« حسنا ، يجب ان انصرف الآن » .

« اي .. اي » .

اسرع في الوقوف ، رافعا سرواله الى خصره ، معدلا من وضع بلوزته الصوفية البنية . كانت سعادته تمتد حتى لحظات الوداع ، معتقدا ، دائما ، بوجود اعمال مهمة لي لا يمكن تأجيلها ، مواعيد ، ومهمات لا يحق لاحد التدخل فيها .

تصافحت ايادينا ، فتحت الباب ، والح في توصيلي الى المصعد.

« من هنا .. من هنا .. » قالها بشكل جيد ، وبلهجة من لم يجد مفرا من اداء تلك المهمة. مشى امامي في الممر الضيق، ظهره محني، معتمدا في سيره ، بشدة على ساقه اليسرى ، مشيحا بوجهه عن الغرف المفتوحة الابواب التي مررنا بها، حيث تجلس النسوة العجائز بلا حراك لم يحب قط النساء المتقدمات في السن .

❋ ■ ❋

كانت حركة الريح في الخارج ، اسرع من ذي قبل ، لكن السماء كانت قد اصبحت رمادية . كان لدي بعض الوقت ، لذلك آثرت السير قليلا . فكرت به ، سيعود الى غرفته ، يستلقي على السرير ، قد يكون متعبا ، والمصباح ذو الخيط يشع ضياء متأرجحا فوق راسه . في خلال سيري ، قررت مرة اخرى ، التوقف عن التدخين . كنت امتلك يدين وقدمين واسعتين . لم انشأ على شاكلته قط . سرت بعض الشيء ثم صعدت الى حافلة تقلني الى حي هارلم ، مسقط راسي . لكنني ، عندما غادرت الحافلة ، ادركت انني قد فقدت تلك الاحاسيس التي غمرتني عندما بدأت العملية . وكان من المستحيل علي استعادة المشاعر القديمة التي كانت تتخبط في اعماقي ، في صباي ، قبل اربعين عاما .

لحظه واحدة استطاعت ان توقفني عندها . وجدت نفسي في مواجهة محل لكي وتنظيف الملابس ، كان ذلك المكان ، في يوم من الايام واحدا من افضل مطاعم نيويورك . في ايام الآحاد ، كان والدي يأخذني ووالدتي اليه لتناول العشاء . كانت هناك شرفة ، يقف فيها خباز ذو قبعة بيضاء طويلة . كان يصنع اقراصا من الخبز الحار ، وكلما دخل زبون جديد الى المطعم ، هرع لوضع وجبة جديدة من الخبز ، كدت اشم رائحة الخبز الطازج عبر رائحة البنزين المتسرب من محل التنظيف . كدت ارى المدير ، الذي كان عادة ، يجلس الى مائدتنا ، خلال تناولنا الطعام . كان مصابا بمرض ما ، اعتقد ذلك ، لان الجهة اليمنى من وجهه كانت منتفخة مثل البالونه ، لكنه كان يرتدي دائما ياقة سميكة وربطة عنق بيضاء ، ولا تبدو عليه علامات المرض .

زنجي بشارب كان يتطلع الي عبر نافذة المحل . في لحظة ما ، شعرت برغبة لدخول المكان ، والتحدث معه عن ذكرياتي القديمة ، ان احكي له عن الشارع القديم الذي كان نظيفا من العلب المعدنية الفارغة المرمية في كل زاوية من الرصيف .

لم ادخل محل التنظيف ، ولم اتوجه ايضا نحو منزلنا ، لقد تسللت مني تلك الرغبات . عدت الى مركز المدينة ، وجلست في غرفة الملابس الخاصة بي ، احاول القراءة .

كنت قد فتحت للتو علبة كريم الاساس ، عندما خطر ببالي شيء لم ادركه تماما حتى الآن . ان والدي هو الانسان الوحيد الذي لا يمكننا اعتباره ممثلا . انني ممثل . كذلك الرئيس ، وكذلك دونالد فروست بالرغم من محاولاته المخلصة . في اجتماع يوم امس ، كان فروست جالسا على خشبة المسرح ، يصغي الى الآخرين . كان يفعل ما يفعل لانه قرر مع نفسه ان يفعل ذلك . لكنه لم يصل الى مرحلة اليأس الكامل ، لم يصل المرحلة التي وصل اليها والدي . ان والدي لا يعرف تماما كيف يصغي الى صوت ذاته او سؤالها عما يجب فعله احاديثه تنبع من القلب فقط ، بل انه قد فقد سيطرته على اللغة ، ولم يتبق له غير الصوت .. الصوت فقط .

تذكرت الشاب ذا الخدين الورديين ، وفكرت في عدم اتخاذي قرارا ايجابيا بشأن الزواج . بدا لي ان مشاعر الاسف والقلق وعدم الراحة التي احسها الآن كلها ، تعود الى حرماني من بعض الاشياء الضرورية ، من احتياجات اساسية بالنسبة لي كانسان . يبدو ان لا احد يهتم بضرورة عمل شيء ما ، والذين يقولون ان من واجبهم ان.. الذين يقولون بأن بعض الاشياء تعتبر حاجات ملحة بالنسبة لهم ، قد يكونون من افضل الممثلين ، لان ذلك ما يفعله الممثل الحقيقي ، ينجح في التعبير عن الحاجات الملحة ، بحيث انه يشعر ، فجاة ، بأن لا خيار بتاتا امامه .

عليه ان يصرخ او يموت ، أن يضحك او يموت ، ان يبكي بدموع حقيقية او يموت . ويعرف في الوقت نفسه ، انه غير مشرف على الموت ، وان هذه الفكرة تغمره بالسعادة عندما يمثل الصراخ او البكاء، وقد يكون ذلك الدافع الرئيس للمشاهدين على البكاء وهم سعداء .

كنت اغير ملابسي في غرفة النوم في تلك الليلة ، عندما رن جرس الهاتف . اخافني الرنين ، كما يفعل عادة في مثل هذه الايام . كانت المتكلمة تلك السيدة البدينة في دار التمريض ، لقد هرب العجوز ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انه قد تسلل الى الخارج بعد مغادرتي له بقليل . وها هي الساعة قد قاربت الثانية صباحا ورجال الشرطة يبحثون عنه دون جدوى . واسوأ ما في الامر ، انه قد خرج دون ان يرتدي معطفه الواقي من المطر ، وكانت السماء تمطر بشدة والريح كانت قوية كالجحيم .

لم يعد هناك ما يجب ان افعله ، ما دامت الشرطة تبحث عنه . لكنني لم أعد قادرا على مواصلة النوم . لم استطع ان امنع نفسي ، من التباهي بما فعل ، وايضا ، في الامل بعدم العثور عليه ، يجب ان يختفي هكذا . لقد اعجبت به دائما ، محاولاته الجريئة في تحقيق ما يريد . يعجبني انه لا يمثل في حياته ، واعتقد انه لم يمثل في هذه الليلة ، في تسلله الى الشارع ، الى المطر والريح. لم اقدر على النوم، ولم يكن بامكاني ان افعل شيئا . كانت الساعة تشير الى الثالثة في تلك اللحظة . ارتديت ملابسي وخرجت من المنزل .

لم امش الا قليلا ، عندما احسست ان ثيابي قد تبللت ، وقفت امام احدى الابواب ، محاولا التفكير فيما سأفعل ، من الغريب ان كلانا كان يتجول على غير هدى تحت المطر . ولكن ، عن اي شخص كان هو يبحث ؟ عن اي شيء ؟ في الحقيقة ، كنت اريد العثور عليه ، بنصف قلبي ، كنت ، في بعض اللحظات ، اتخيله عابرا النهر الى الطرف الغربي ، متخلصا من وضعه المتازم ومن العالم اجمع . ولكن ، كيف يمكنه الحديث مع اي شخص آخر ! هل يعرف كيفية الصعود الى الحافلة ؟ هل يمتلك نقودا ؟ وقد اثارت تلك الاسئلة ، بطبيعة الحال ، مخاوفي عليه . بعد لحظات ، رايت سيارة للاجرة ، فصعدت فيها .

انني ، عادة ، امزح مع سواق سيارات الاجرة ، لكنني لا اتحدث اليهم ، وفي هذه المرة ، كان علي ان اشرح للرجل سبب رغبتي في البحث هنا وهناك ، وهكذا اخبرته ، بانني ابحث عن والدي . يبدو ان سائقي سيارات الاجرة لا يصدقون شيئا . لكنه صدقني ، بدا امر البحث عن والدي طبيعيا بالنسبة له . ربما تحدث مثل هذه الامور كثيرا . انني الآن ، لا اتذكر ابدا وجه ذلك الرجل ، هل كان ابيض ام اسود . اتذكر المطر الذي كان ينهمر على الزجاج الامامي وزجاج النوافذ الجانبية لانني كنت اتطلع من خلالها . كانت الساعة قد قاربت الرابعة والنصف عندما قفلت عائدا الى البيت . كان المطر ما يزال يهطل بقوة .

غيرت ملابسي ، أستلقيت على الفراش ، ونظرت تجاه النافذة التي كان المطر يغسلها ، احسست وكأن المدينة باسرها تبكي في تلك اللحظة .

عثروا عليه في صبيحة اليوم التالي ، في حوالي الساعة العاشرة . اتصل بي رجال الشرطة . كانوا قد اعادوه الى دار التمريض ، لذلك هرعت الى هناك . لقد توقف المطر . بدت السماء صافية من جديد . يوم مشمس من ايام تشرين الاول . كان نائما على فراشه ، ملفوفا بالمعطف المنزلي . وقطعة من اللاصق الطبي على انفه ، ولون احدى عينيه قد بدأ يميل نحو السواد . وكان في حاجة ماسة الى الحلاقة .

نزلت الى الطابق الاسفل ، تحدثت مع المراة البدينة في مكتبها كانت قلقة وحذرة لئلا يجرى تحقيق معهم . لكنني استطعت في النهاية سحب الحقيقة منها .

لقد عثر ، رجال الشرطة ، عليه في هارلم ، كان قد دخل احد المطاعم وطلب بعض الطعام . لكن النادل شك في امره ، وطلب منه دفع النقود مقدما . كان والدي يمتلك دولارا واحدا ، ورفض دفع النقود . قرروا استدعاء الشرطي لتولي امره . عندما احس بذلك ، نهض من مكانه ، حاول مغادرة المكان ، لكنه تعثر في سيره وسقط على وجهه على الارض .

صعدت الى غرفته ، وجلست على المقعد ، انتظر استيقاظه ، بعد قليل ، جاءت احدى الممرضات لتقول بانهم قد اعطوه منوما وانه سيبقى تحت تأثيره بضع ساعات . غادرت المكان ، ثم عدت اليه قبل بدء العرض ، كان جالسا على المقعد ، يتناول الطعام ، رفع رأسه نحوي ، ودهشة كبيرة مرتسمة على وجهه ، تحسس شفتيه باصابعه ابتسمت له : « انني هاري » .

نظر الي دون ان يتعرف علي تماما ، مثل الايام الماضية ، مدركا وجود نوع من العلاقة السابقة فيما بيننا . جلست على الفراش ، اراقبه وهو يتناول الطعام . تحدثت بالتفصيل عن اليوم الجميل الذي كنا فيه ، وعن المطر الذي تساقط بشدة في الليلة الفائتة . ظللت اتمنى واتمنى ان يرفع عينيه الي ، ولو للحظة واحدة ، ان ينظر الي مرة ، بصفاء وان يضحك ضحكة واحدة احتفالا بالمناسبة . لكنه جلس هناك ، ياكل ، يتطلع الي احيانا بدفء وبقليل من الشك . واخيرا قلت له ، « سمعت بانك قد خرجت بقصد النزهة ، في الليلة الماضية» .

توقف عن الطعام ، نظر الي في ريبة ، وهز رأسه .

« لا .. لا .. لا ».

« الا تذكر المطر ؟ »

« المطر ! »

« ذهبت الى هارلم . ابي ، هل كنت تريد العودة الى البيت!» لاح في عينيه اهتمام من نوع جديد ، وشعور بالمتعة ، « انني فيا منزل .. » كانت الاصوات تخرج من فمه في نبرات مقنعة . ورفع احد اصابعه .

« ستعود الى البيت ، غدا ! »

« اي .. » ونظر الى الباب الموصد ، وتابع تناول الطعام .

في كل ليلة ، عندما اجلس هنا ، اضع مرة اخرى ، اللحية على وجهي ، انتظر باستمرار ، نداء الهاتف ، او زائرا غريبا ، واحس بالخوف يزحف على كياني كله .

كان يحاول الوصول الى البيت الذي دخله مرات عديدة ، قبل زمن طويل ، حاملا الهدايا ، انه يمتلك مستقبلا ، لن يقدروا ابدا على استخلاصه منه ، وسيغمض عينيه للمرة الاخيرة مفكرا به ، وهو ، ما دام قادرا على السير ، فان العاملين ، في دار التمريض سيعانون منه المشاكل . منعه من الذهاب الى حيث يريد او حيث ينبغي عليه الذهاب .

انني لست واثقا من خطواتي نحو المستقبل ، لكنني امتلك رغبة مخيفة في العيش بشكل آخر . من المحتمل ، ان اكتشف امرا مشرفا يتعلق بمهنتي ، التمثيل ، اسلوبا في اعادة الروح الى جسدي . اعتقد ان والدي يشبه رجلا عاشقا ، او ان دوافعه الداخلية هكذا .

وللحظات ، لحظات فقط ، بدات اشعر كما كنت اشعر عندما بدات التمثيل ، عندما كنت اعتقد بأن قدرة الانسان في ان يكون ممثلا قديرا ، هي كالمقدرة على صنع نوع من الهدايا الثمينة للناس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جزء خاص عن

ترجمة واعداد
ابراهيم منصور

تصوير
وليم اسحق
وداد حامد

كونستانتين كفافيس

حياته وشعره

شاعر الأسكندرية الكبير

من كتاب :
SIX POETS OF MODERN GREECE
تاليف : ادموند كيللى وفيليب شيرار
الناشر : Princeton University

لم يكن غريبا ان يكون الحدث الأدبي الرئيسي في أثينا عام 1968 هو نشر 75 قصيدة جديدة ((للشاعر كونستانتين كفافيس)) . بل ان هذا الحدث كان ، في واقع الامر ، واحدا من اهم الاحداث التي وقعت في الحياة الادبية في اليونان في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية(1) . ذلك انه بعد ان نال((كفافيس)) اعتراف مواطنيه بانه اكثر الشعراء اليونانيين اصالة في هذا القرن ، فان اي اكتشاف يتعلق به يصبح بطبيعة الحال ، من الاخبار الهامة . ولكن الامر الغريب حقيقة هو ذلك الحماس الهائل الذي اثارته تلك الاشعار ((الجديدة)) في اليونان والتي بدات تثيره في الولايات المتحدة حيث كان ((كفافيس)) مجهولا تقريبا قبل ان يقوم ((لورانس داريل)) بوضع شبح الشاعر في دائرة الضوء في ((رباعية الاسكندرية)) في أواخر الخمسينات ، وقبل ان يكشف الشاعر الانجليزي المعروف ((و. هـ. اودين)) بعد ذلك بعدة سنوات، ان ((كفافيس)) ظل ، طيلة ثلاثين عاما، هو مصدر التاثير الوحيد في شعره(2) . ورد الفعل الذي أحدثه نشر هذه الاشعار الجديدة بين النقاد اليونانيين به لمسة من الهيستريا . وقد ظل العديد من الاسئلة معلقا في الهواء : هل كان من المناسب حقيقة نشر هذه الاشعار فوق جثة الشاعر الميت ؟ هل سيؤدي نشر هذه الاشعار الى زيادة شهرة الشاعر او القضاء عليها تماما ؟ هل يمكن أن تجد هذه الاشعار مكانا شرعيا بين أسفار ((كفافيس)) المقدسة ؟ وهل بعض هذه الاشعار جيدا حقا كما تبدو ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد كانت اكثر الاجابات حسما على هذه الاسئلة هي تلك التي اتت من القراء الشبان الذين قراوا شعر «كفافيس» لاول مرة خلال بضع السنوات الاخيرة . فالبروفيسور «جورج سافيدس» (الناشر اليوناني لاشعار «كفافيس») يقول ان طلبته في جامعة «سالونيكا» يفضلون ، بوجه عام، اشعار «كفافيس» الجديدة على اشعاره القديمة ، وذلك لان بعض القصائد تبدو وكانها تتحدث بوضوح وامانة وبروح تقدمية تبدو وكانها اكثر اتفاقا وانسجاما مع وجهة النظر العصرية من القصائد الاكثر نضجا في «اسفار كفافيس المقدسة» وذلك برغم ان هذه القصائد «الجديدة» ، او معظمها على الاقل ، قد كتب في مطلع القرن ، اي في مطلع حياة كفافيس الشعرية .

وقد كان القراء والشعراء الشبان هم المسؤولين ايضا الى حد كبير ، عن النجاح المذهل الذي حققته اشعار «كفافيس» في الولايات المتحدة ، وذلك بدء من القراء من الطلاب الذين تربوا وترعرعوا على رباعية «داريل» الى الجيل الاصفر من الشعراء الامريكيين الذين اكتشفوا جانبا من تفرد صوت «كفافيس» في الترجمات العديدة التي ظهرت لاشعاره في مطلع الستينات ، والذين يعترفون به اليوم بوصفه احد مصادر الالهام الرئيسية والاساسية لاشعارهم . ويقدم الشاعر «مارك ستراند» مثلا على ذلك مختاراته الشعرية التي نشرها عام 1969 تحت عنوان «الشعراء الامريكيون المعاصرون» ، وذلك عندما تحدث عن جيل جديد من الشعراء الامريكيين «تنتمي جذور موهبتهم والهامهم الشعري الى اعمال بابلو نيرودا وكفافيس كما تتغرس في اعمال ايمرسون ووتيمان» . اما الشاعر «ريتشارد هوارد» الذي فاز بجائزة «البولتزر» عام 1970 ، فقد كتب يقول معلقا على الترجمة الانجليزية للاشعار «الجديدة» وعلى تأثير كفافيس المتزايد :

« انه اول شاعر يوناني منذ يوربيدس نقراه بهذا النوع من التعرف الشيطاني على النفس . ولقد اثر على كل شاعر قراه . بل اني لا اكون مغاليا اذا قلت انه يؤثر في كل من يقراه . ذلك ان «كفافيس» هو من القلة ، بل اقل القلة من الكتاب الذين يعيدون

الينا المعنى الحقيقي للتاثير بمغزاه الفلكي التنجيمي ، وبوصفه ضغطا تمارسه الفواجع على حيواتنا .

ان محاولات كفافيس الملحة لمواجهة الحقيقة، مهما كانت مؤلمة ، وللتعبير عنها بشكل مقنع بدلا من الاكتفاء بالهروب السهل منها ، ربما كانت افضل تفسير للشعبية الكبيرة التي يحظى بها بين جيل الشباب الحالي . وواضح انه لم ينجح في محاولاته هذه بشكل يرضى ذاته ، كما هو ظاهر في احد قصائده «الجديدة» بعنوان «اشياء خبيئة» (1908) . فنحن نحس في هذه القصيدة بمعاناة الشاعر الطويلة وجهده المتواصل لكي يحكي عن الاشياء كما هي ، كما اننا نجد فيها ايضا تحول بحثه عن الصدق الى احتماله الاخير وهو انه ينطبق على الشاعر ذاته . وهذا اعتراف امين بان كل الاشياء التي قالها تحقق ، في النهاية ، الصدق الحقيقي ، والذي يمكن ان نعثر عليه فقط في اكثر كتاباته تقنعا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا تدع احدا يحاول اكتشاف من اكون
من كل الاشياء التي فعلتها ، وكل الاشياء
التي قلتها .

كانت هناك عقبة هنا تغير
افعال وطريقة حياتي .
عقبة كانت دائما هناك :
تسكتني عندما ابدأ في الكلام .

فمن اقل افعالي اثارة للانتباه ،
ومن اكثر كتاباتي تقنعا ،
من تلك وحدها ،
يمكن فهمي .
وربما
لم يكن الأمر
جدير بكل هذا الاهتمام ،
وكل هذا الجهد ،
لاكتشاف من اكون حقيقة .

ففيما بعد ،
وفي مجتمع اكثر كمالا ،
سوف يظهر حتما احد ما ،
خلق تماما مثلي ،

وعندئذ ،
سوف يتصرف بحرية .

ولغة هذه القصيدة (في لغتها اليونانية الاصيلة) مباشرة وغير متكلفة ولا متحذلقة مثلها مثل باقي اشعار كفافيس ، بل وربما فاقتها في ذلك . وهي تبدو متسقة ومتوافقة تماما مع كل من رغبة الشاعر في ان يقول الحقيقة الكاملة عن نفسه ومع معرفة هذه النفس الكامنة في اعترافه بفشله في ذلك .

لماذا ، اذن ، لم تدفعه الرغبة في هذا الاتجاه الى نشر هذه القصيدة اثناء حياته مع قصائد اخرى هي اكثر حيوية ووضوحا من اية قصيدة اخرى يمكن ان نجدها في «اسفار كفافيس المقدسة ؟»

ان القصيدة نفسها تقدم اجابة جزئية على هذا السؤال . ذلك ان كفافيس — في اعماله المنشورة — كان يفضل عادة ان يكشف عن رؤيته وبصيرته بالنسبة لنفسه، وبالنسبة للمسالة الانسانية عامة ، لا عن طريق التقرير الشعري الصريح ، كما في القصيدة السابقة ، بل عن طريق الاقنعة والبراقع الشعرية ، اي عن طريق الاشخاص والاحداث الموضوعة في اطار درامي والتي ، غالبا ، ما تكون بعيدة تاريخيا ، ولكنها ، في نفس الوقت ، تمثل وتعالج مشكلة معاصرة . والاجابة الجزئية الاخرى على هذا السؤال هو ان الفرق بين الاعمال المنشورة وغير المنشورة ظل دائما غامضا في حالة «كفافيس» . بل ان الحقيقة ان «كفافيس» لم يقم ابدا بنشر اي من اشعاره بمعنى تقديمها في مجموعة للتوزيع التجاري. وكما يقول «جورج سيفيوس» فان اشعاره كانت تتكون من قصائد مكتوب عليها «جارى العمل فيها» ، وكانت تصل الى العالم الخارجي عن طريق «السلخ» و «البروفات» التي كان يوزعها على اصدقائه واقاربه . ورغم ان كفافيس بدا يكتب الشعر وعمره 19 عاما ، فان اول مجموعة مطبوعة من اشعاره لم يتم نشرها حتى بلغ 41 عاما . وكان مجمل ما طبع من هذه «المجموعة» 100 نسخة تضم 14 قصيدة فقط من اشعاره التي بلغ عدد قصائدها في ذلك الوقت عدة مئات . اي ان هذه المجموعة كانت مجرد «عينة» مجانية لاولئك الذين يرغبون في محاولة قراءة اشعاره . وقد ظل طيلة البقية الباقية من حياته ينشر اشعاره عن طريق توزيع «ملفات» تحتوي على «السلخ» و«البروفات» مشبوكة بدبوس كبير وملحق بها قائمة بالمحتويات يقوم باضافة القصائد

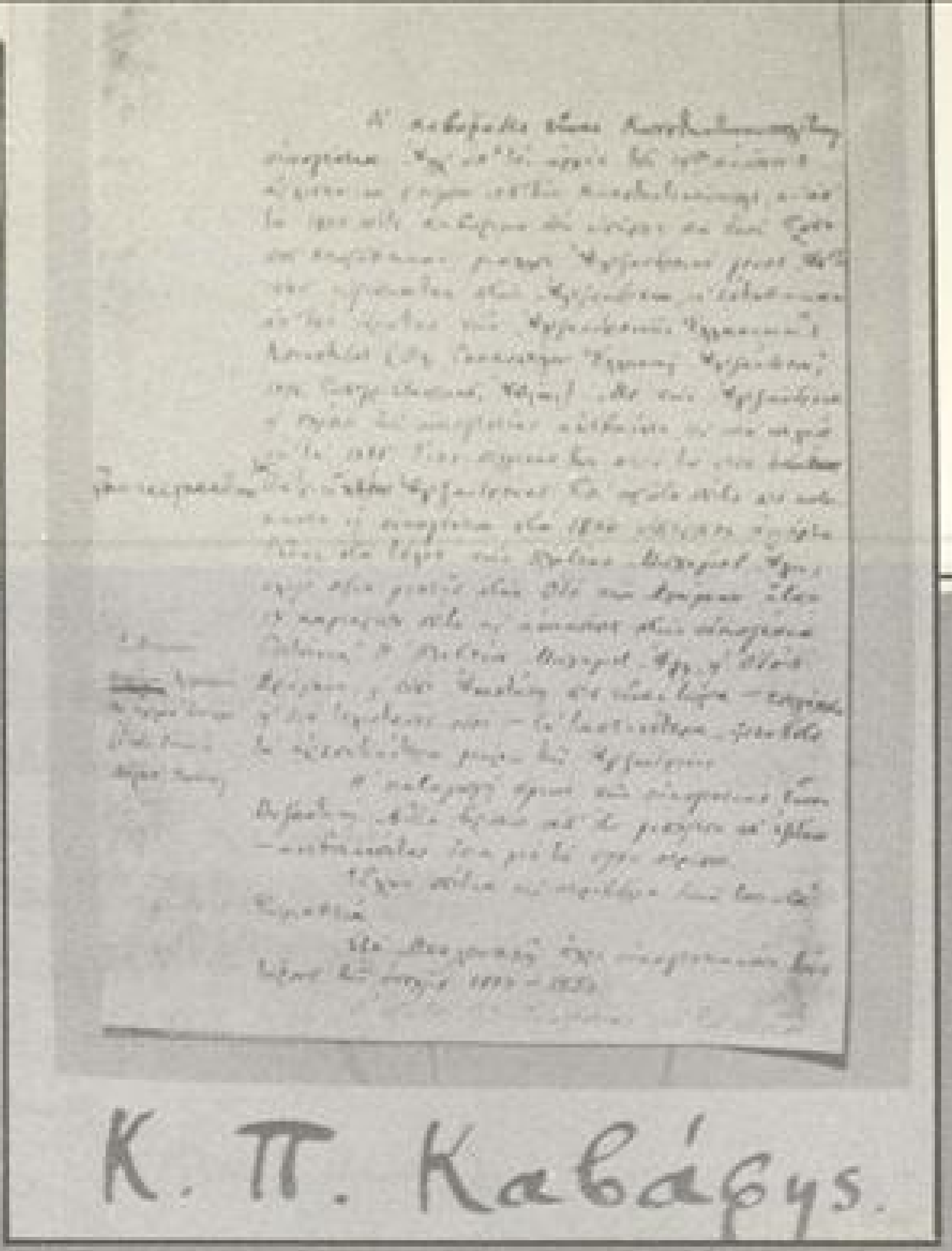

■ مسودة مقال .

■ في هذا المنزل وفي هذا الحي عاش الشاعر ثلاثون عاما اصبحت هذه الشقة الان فندقا متواضعا

■ داخل شقة كفافيس في المنزل رقم 10 شارع لبسيوس –

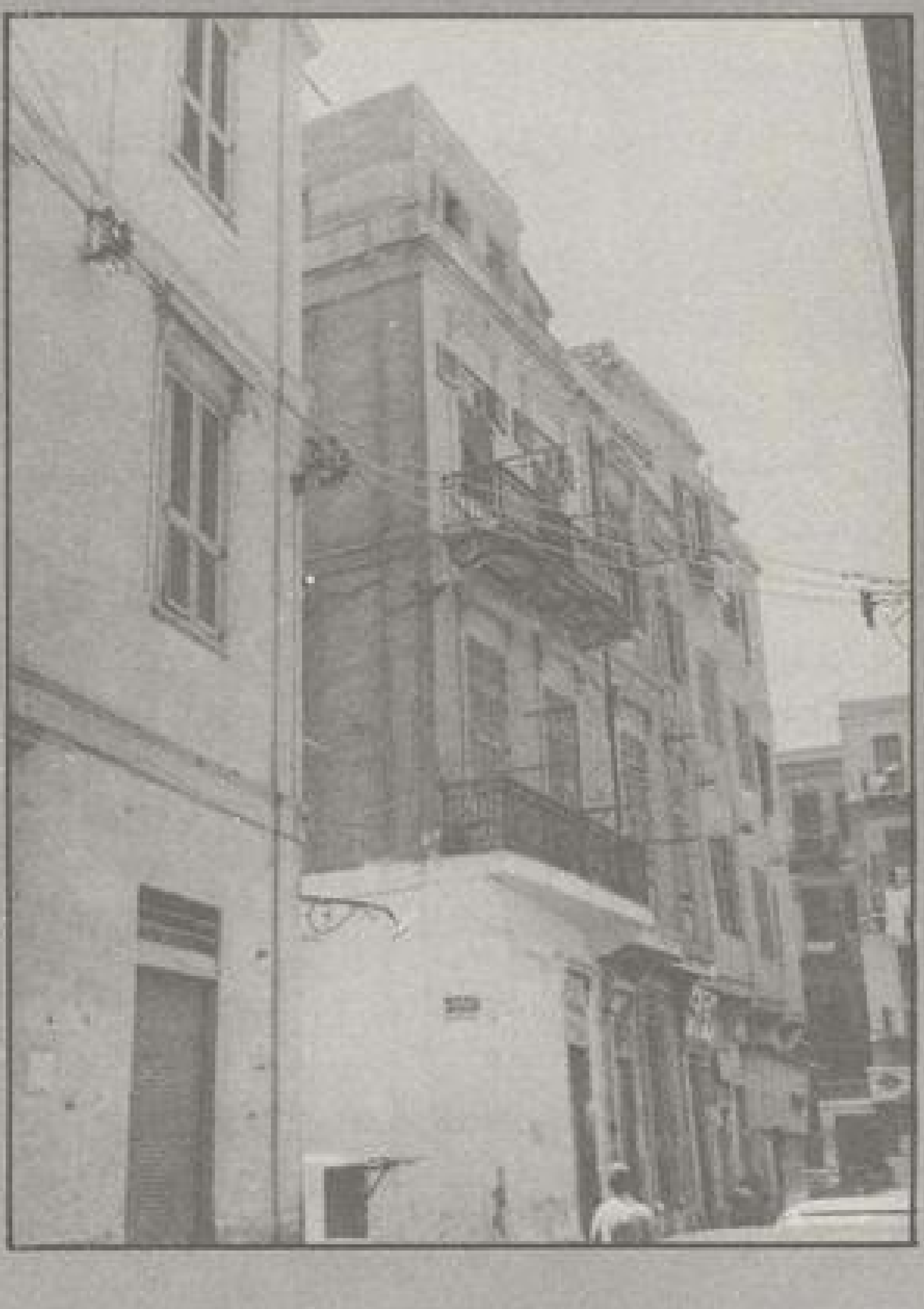

الجديدة اليها بخط يده . وعندما يتضخم حجم الملف ، كان يقوم بسحب بعض «السلخ» و «البروفات» ويحيكها في «كتيب» على نفقته لكي يلحق بالملف المتضخم . وقد تكررت هذه العملية عدة مرات بحيث انه عند وفاة الشاعر في عام 1933 ، كانت اعماله المكتوب عليها «جاري العمل فيها» –والتي كانت لا تزال توزع بشكل خاص– تتكون من كتيبين يحتويان على 68 قصيدة مرتبة حسب الموضوع ، وملف يحتوي على 69 قصيدة اكثر حداثة مرتبة حسب تاريخ الطبع . ولم يحدث طيلة حياته ان قام «كفافيس» باعداد ديوان لاعماله للبيع . ورغم ان موته لم يكن مفاجئا على الاطلاق ، فانه لم يترك اية تعليمات محددة بشان نشر المجموعة الكاملة لاشعاره .

ويوحي تاريخ حياة «كونستانتين كفافيس» انه ظل يمارس زهدا وعفافا فريدا طيلة حياته . وقد ظل ، ايضا ، وحتى نهاية حياته يحتفظ بحس قوي بالتجريبية والتردد فيما يتعلق باعماله . ورغم انه كان يسجل بأمانة تاريخ ميلاد وعنوان كل قصيدة جديدة في سجل خاص ، فانه لم يكن يعتبر ابدا ان اية قصيدة قد كملت حتى يراها مطبوعة . وحتى عند ذاك فان القصيدة تظل ايضا خاضعة للتعديلات المحتملة بل وللشطب ايضا . وفي نفس الوقت ، فان القصيدة التي تبقى في شكل مخطوط بين اوراقه كانت تظل احيانا فترة 15 او 20 عاما خاضعة للتعديل والمراجعة حتى يتم طبعها . ونجد في اوراق «كفافيس» ما يدل على انه كان يعود بانتظام الى اوراقه كي يستخرج منها قصيدة مبكرة او مخطوط غير كامل قد يكون اساسا لعمل جديد صالح للنشر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونستطيع ان نستنتج من ذلك ان غالبية الـ 75 قصيدة «الجديدة» تتكون من هذه القصائد التي كان «كفافيس» يحتفظ بها بغرض تعديلها ونشرها او بغرض استخدامها كمصدر لعمل جديد . ومجرد الابقاء على هذه القصائد يشير الى استمرار اهتمام «كفافيس» بها ، كما يدل على ذلك تعليق «ليس للنشر ولكن يمكن الابقاء عليها» والذي كتبه الشاعر على بعضها . وقد ظلت هذه القصائد مطوية فترة تقرب من 30 عاما بعد وفاة «كفافيس» ، وحتى قرر ورثته «الكسندر سنجوبولس» اخيرا ان سمعة الشاعر قد اصبحت وطيدة الى الحد الذي لا يمكن ان يؤثر عليها نشر هذه القصائد الاقل شأنا من الناحية الفنية .

ولكن لما كان من الواضح ان بعض هذه القصائد «الجديدة» يمكنها –حتى في الحالة التي وجدت عليها– ان تقف جنبا الى جنب مع اكثر اعمال «كفافيس» نضجا ، فان التفسير الوحيد الاقرب للمنطق لعدم نشرها لابد وان يكمن في احساس الشاعر بانها شخصية جدا ، او انها شديدة الصراحة فيما يتعلق بالجنس ، او انها اكثر تقدما من مجموعته الخاصة من القراء ، وبغض النظر عن كونها اكثر قربا من التعبير الصريح عن الصدق من القصائد المماثلة في «اسفاره المقدسة» . وعلى سبيل المثال فان قصيدة «نمو الروح» (1903) تقدم وجهة نظر بلغت من الحداثة والتقدم عن الزمن الذي كتبت فيه ، بحيث يصبح من السهل ان ندرك لماذا خشي «كفافيس» ان يتعرض بسببها لهجوم عنيف اذا نشرها اثناء حياته :

هذا الذي يريد ،
لروحه ان تنمو ،
يجب ان
يحرر نفسه من :
الطاعة
والاحترام .
يجب
ان يتمسك ببعض القوانين ،
ولكنه يجب
ان يخرق
الكثير من القوانين والعادات ،
ويمضي
الى ما وراء
القواعد المألوفة البالية ،
وسوف تعلمه اللذة الجنسية
الكثير .
ولا يجب
ان يخاف
هذا الفعل المدمر :
ان نصف المنزل يجب هدمه
وبهذه الطريقة
سوف
ينمو فاضلا الى الحكمة .

فان يصرح شاعر ان الطريق الى الفضيلة يقع خلف القواعد المألوفة وان يوحى بانه يجب ان يكون هناك مكان للفعل المدمر — كل ذلك يمكن ان يكون موقفا خطيرا في اليونان في يومنا هذا (اي زمن حكم الجنرالات قبل سقوط هذا الحكم عام 1973 — المترجم) ودع عنك اتخاذ مثل هذا الموقف في مدينة الاسكندرية في مطلع هذا القرن (ورغم ان هذا الموقف يمثل جاذبية واضحة بالنسبة للجيل الجديد في كل من اليونان والولايات المتحدة). وفي نفس الوقت فانه يكون من الخطأ النظر الى «كفافيس» بوصفه نبيا لليسار الجديد المتطرف . ذلك انه يقول لنا ان بعض القوانين يجب احترامها ، وان نصف المنزل فقط هو الذي يجب هدمه . ان اصرار الشاعر الواضح على فضيلة اللذة هو الذي يمثل العنصر الطليعي الاساسي في هذه القصيدة .

واشعار «كفافيس» الجنسية فريدة في طليعيتها بالنسبة لاشعار كتبت في مطلع هذا القرن . ففي سعيه كي يقول الصدق عن الحياة كما عاناها فعلا ، اصبح «كفافيس» اول شاعر منذ «والت ويتمان» يجعل من حب الجنسية المثلية موضع استكشافه وبحثه الاساسي . وان معالجته الصريحة لهذا الموضوع — والتي تكون احيانا شخصية جدا بحيث تبدو وكأنها عملية استمناء — تجعل معالجة «ويتمان» الاكثر غموضا تبدو وكأنها نوع من الهروب . وتصبح شهوانية كفافيس في قمة اثارتها عندما يكون محط اهتمامه ليس الوصف الامين لعلاقاته الخاصة وانما الاضفاء الامين للدراما على تلك التوترات المعقدة والهامة والتي تظهر الى حد ما في جميع التجارب الجنسية . وافضل القصائد الجنسية «الجديدة» تركز على ذلك التوتر الذي لامفر منه بين الوهم والحقيقة او بين الخيال والحقيقة في لعبة الحب . فاحيانا ينظر الى الوهم بوصفه دواءا وقتيا مسكنا لالم فقدان الحقيقة والتي كان على وشك الوصول اليها ولكنها بقيت غير متحققة . وفي احيان اخرى ؛ يبدو وكأن حقيقة الحب لا تكمن في الخبرة المحسوسة بل في الصور التي تدفع الرغبة الجنسية العقل الى بنائها .

ففي قصيدة «في المسرح» ، على سبيل المثال ، فان العرض المسرحي الذي يخلب لب المتحدث هو ذلك الذي يقيمه خياله عند «تصوير» الموضوع الذي يستحوذ على اهتمامه وهو «الطريقة التي تحدثا بها (عنه) ذلك المساء» . ومرة اخرى في قصيدة «الصورة» يزيح المتحدث جانبا ذلك الجانب الفظ (والذي ربما كان فعلا جنسيا بين فتى وفتاة) الواقعي في الصورة البذيئة وذلك كي يحتفظ ، لاغراض فنه ، بصورة تشبه الحلم للجسد المصور هناك ، وهو جسد «شكل وقدم هدية للحب الهليني» . كما اننا نجد مثلا آخر متطرفا لذلك في قصيدة «عند السماع عن الحب» ، حيث يقول المتكلم ان الحب الواقعي اقل قيمة من ذلك الذي يخلقه الخيال . ولكن قصيدة «نصف ساعة» (1917) تعتبر واحدة من افضل قصائد «كفافيس» التي تناولت هذا الموضوع :

لم امتلكك ابدا
ولا اظن
انني
سوف امتلكك ابدا .
لا شيء اكثر
من
بضع كلمات ،
او بمحاولة تقرب
كما حدث البارحة في الحانة .
اعترف
انه امر حزين .
ولكننا ،
نحن الذين نخدم الفن ،
نستطيع
احيانا
ان نخلق
بقوة العقل
لذة تكاد ان تكون
حسية .
ولكنها
— بالطبع —
لا تبقى
سوى
وقت قصير .
وهكذا
حظيت
البارحة في الحانة
— بمساعدة الكحول —
بنصف ساعة
من
الجنس الخالص .
واعتقد ،
انك فهمت ذلك ،
وبقيت
اطول قليلا من عمد .
ولقد كان ذلك ضروريا
لانني
بكل هذا الخيال ،
ومع
كل ذلك الكحول السحري ،
كنت
في حاجة لرؤية شفتيك ايضا .
كنت
في حاجة لجسدك بالقرب مني .

تبدأ القصيدة بما يبدو وكأنه تعبير عن اسف خالص تماما من جانب المتحدث لفشله في تحقيق واقع محسوس في الموقف الموصوف . ومع ذلك ، فسرعان ما يتم وضع الشروط لهذا الاسف عن طريق عدد من الاستدلالات الضمنية المعقدة . فأحيانا، وعن طريق حدة العقل ، يستطيع الفنان ان يخلق لذة متخيلة تكاد ان تكون ، رغم قصر عمرها ، لذة جسدية . بل انها ايضا لذة كاملة شاملة . ويعجب المرء اذا كان المتحدث ، بسبب كل هذا الحزن الذي قرره ، يمكنه ان يدعي نفس الادعاء فيما يتعلق بأية تجربة اخرى محققة خاضها . ان ما يريد «كفافيس» ان يوحى به هو ان الفنان ، عن طريق حدة خياله ، يستطيع ان يعرف ذلك الذي قد لا يعرفه العاشق ابدا مهما كانت عواطفه محسوسة ومتحققة. وفي نفس الوقت فانه يشير ايضا الى ان هذا الخيال يجب ان يكون مغروسا في الواقع المجسد .

وتنتهي القصيدة بالايحاء بانه مهما كانت التجربة المتخيلة كاملة وشاملة فانها لا تزال تتطلب الوعي المحسوس بالوجود الجسدي للمعشوق .

وقد حدد «كفافيس» ذات مرة ، في تعليق لم يوقعه على اشعاره ، الصيغ الثلاث الاساسية في شعره بانها : الجنسية والفلسفية والتاريخية . وكثيرا ما تختلط الصيغتان الاوليتان كما حدث في القصيدة السابقة . واحيانا ، ايضا ، يجمع بين الصيغ الثلاث في قصيدة واحدة . ولكن الصيغة التاريخية كانت هي المفضلة عند «كفافيس» ، وهي تسود كلاً من القصائد «الجديدة» والقديمة معا . ويقال ان الشاعر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نفسه قال ، قرب نهاية حياته ، انه شعر انه لن يستطيع ابدا ان يكتب رواية او مسرحية ، ولكنه يسمع داخل نفسه صوتا تقول له انه يستطيع كتابة التاريخ .

وفي الواقع انه لا يمكن وصف ما اختار «كفافيس» كتابته بانه مجموعة من التجسيدات الالهية التاريخية مكتوبة نظما، وبانه اثارة للحظات تضيء فجاة الحقيقة الاساسية التي تتعلق بشخصية تاريخية معروفة أو حادثة تاريخية مشهورة ، أو بانه اثارة لشخصيات متخيلة او احداث متخيلة ، كثيرا ما تكون قد حدثت خارج المجرى الاساسي للتاريخ ، ولكنها تكون ذات دلالة هامة بسبب تعليقها على حادثة مماثلة تحدث في الحاضر . وفي الحالة الاخيرة ،

فان التاريخ يصبح هو مصدر أساطير «كفافس» ، أو – كما يقول ت. س. اليوت في تعليقه المشهور على رواية «أوليس» لجيمس جويس – وسيلته «لاحداث توازٍ مستمر بين المعاصرة والقدم» . ونحن نجد مثالا على الحالة السابقة في القصيدة الجديدة المسماة بـ «نهاية انطونيوس» (1907) والتي تعيد الى الذهن فورا عددا من القصائد التاريخية المتضمنة في «اسفار كفافيس المقدسة» والتي تعالج اوضاع مدينة الاسكندرية اثناء حكم كليوباترا . ولكنه هنا – وعلى عكس القصائد القديمة مثل «ملوك الاسكندرية» أو «الرب يتخلى عن – انطونيوس – » يصور هذا القائد الروماني المهزوم وكانه اغريقي قد حقق نصرا اخلاقيا وعلى اهبة الاستعداد كي يواجه سقوطه من المجد بمعرفة من هو حقيقة وبالفخر الكامل بهذه المعرفة .

ولكنه حين سمع عويل النسوة ،
رثاءا لحالته المؤسفة ،
(السيدة بايماءاتها الشرقية ،
وعبيدها بلغتهم اليونانية البربرية)

ثارت الكبرياء في روحه ،
وامتلأ دمه الايطالي بالتقزز ،
وبدا كل ماعبده عماءا حتى الآن :
(حياته اللاهوتية في الاسكندرية)
بليدا وغريبا .
وقال :

« اوقفن عويلكن من اجلي ،
فان ، مثل ذلك ، خطا كله .
يجب ان تتغنين بمديحي ،

وبانني كنت حاكما عظيما ،
ورجلا يمتلك الثروة والمجد .
واذا كنت قد سقطت الآن ،
فانني لم اسقط ذليلا .
بل كروماني قهره روماني آخر .

ان المرء يحس شيئا من الفة كفافيس للغربة طيلة حياته في هذه القصيدة فهو ، بوصفه يونانياً ولد في الاسكندرية ، وتلقى القسط الاكبر من تعليمه في انجلترا واستنبول ، وقضى افضل شطر في حياته عضوا في الجالية اليونانية في مصر بدلا من ان يقضيها في اليونان ، ظلت تتسلط عليه طيلة حياته فكرة وجوب ان يحدد ماهو يوناني اساسا فيه ، وما هو نتاج انفصاله عن المركز العالم اليوناني ، ويحدثنا «جورج سفيرس» ان «كفافيس» كان يصر على الادعاء بـ : «لست يونانيا . انا هيلليني» . ولكن مسالة ماذا يعني بالضبط ان يكون المرء هيللينيا ظلت من المشاغل الرئيسية في شعره . فمن ناحية نجد قصائد تبدو وكأنها تقدم ما يكاد يكون اقتناعا اسطوريا [illegible] يكون المرء هيللينيا يكاد ان يكون اقرب للاشياء الى الالوهية على هذه الارض [illegible] من هذا الفردوس الارضي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.... كان هذا الشيء المتفوق : هيللينيا .
لم تعرف الانسانية ،
صفة اكثر من ذلك نبلا .
فكل
ما بعد ذلك ،
يخص
الآلهة .
او
ولكن
كيف
سقطوا ،
واصبحوا
ماهم الآن .
يحيون ،
ويتحدثون ،
كالبرابرة .
مقصيون
(يا للكارثة)
عن
طريقة الحياة الهيللينية .

ومن الناحية الاخرى نجد القصيدة «الجديدة» : «العودة من اليونان» (1914) حيث يعترف المتحدث اليوناني المغترب لدى عودته من زيارة للوطن الام بانه يحس بسعادة كبرى عند ابحاره في مياه قبرص وسوريا ومصر ، لانه يستطيع هناك ان يطلق العنان للعواطف والميول الاسيوية المرفوضة من الهيللينية . بل ان الامانة الهيللينية الكاملة تدعوه لان يمجد ويفخر بالدماء المصرية والسورية غير الهيللينية التي تجرى في عروقه .

ان هذا الغموض واللبس اللذين يشوبان ما يعنى ان يكون المرء هيللينيا حقا يخدمان في تلوين واحدة من اجود قصائد كفافيس «الجديدة» ، وهي قصيدة «منفيون»(1914) حيث تتطابق حادثة معاصرة مع الحادثة التاريخية التي يعالجها الشاعر بحيث يبدو، عن غير تعمد ، نبيا . (فقد كتب القصيدة قبل مايقرب من 60 عاما قبل حدوث الانقلاب العسكري في اليونان عام 1967 والذي خلق فيضانا من المنفيين السياسيين اليونانيين في باريس) . فنحن نرى هنا جماعة من اليونانيين طردوا من وطنهم لاسباب سياسية وحكم عليهم ان يحيوا زمنا في مدينة الاسكندرية «الرائعة» حيث يحاولون ان يخلقوا هناك عالما يونانيا مناسبا عن طريق الرحلات وبعض الدراسة وبعض الحديث عن الدين والادب كما كانوا يفعلون في وطنهم . ولكن ما يبقيهم احياء حقا خلال هذه الاقامة «غير التعسة» في الخارج هو املهم في عودتهم الوشيكة الى الوطن الام ، وهو امل يعتمد على قيام اصدقائهم باسقاط الامبراطور «بازيل Basil » 867–886 الذي يقول لنا التاريخ انه نجح في قهر جميع المحاولات التي بذلت لاسقاطه :

لا تزال الاسكندرية كما هي .

سر قليلا على طول طريقها الرئيسي المستقيم،
الذي ينتهي عند ميدان سباق الخيل ،
وسوف ترى ،
قصورا ومعابد
تذهلك .
فهنا كان خراب الحرب الذي عانته ،
ومهما اصبح حجمها صغيرا ،
فانها
لا تزال
مدينة رائعة .

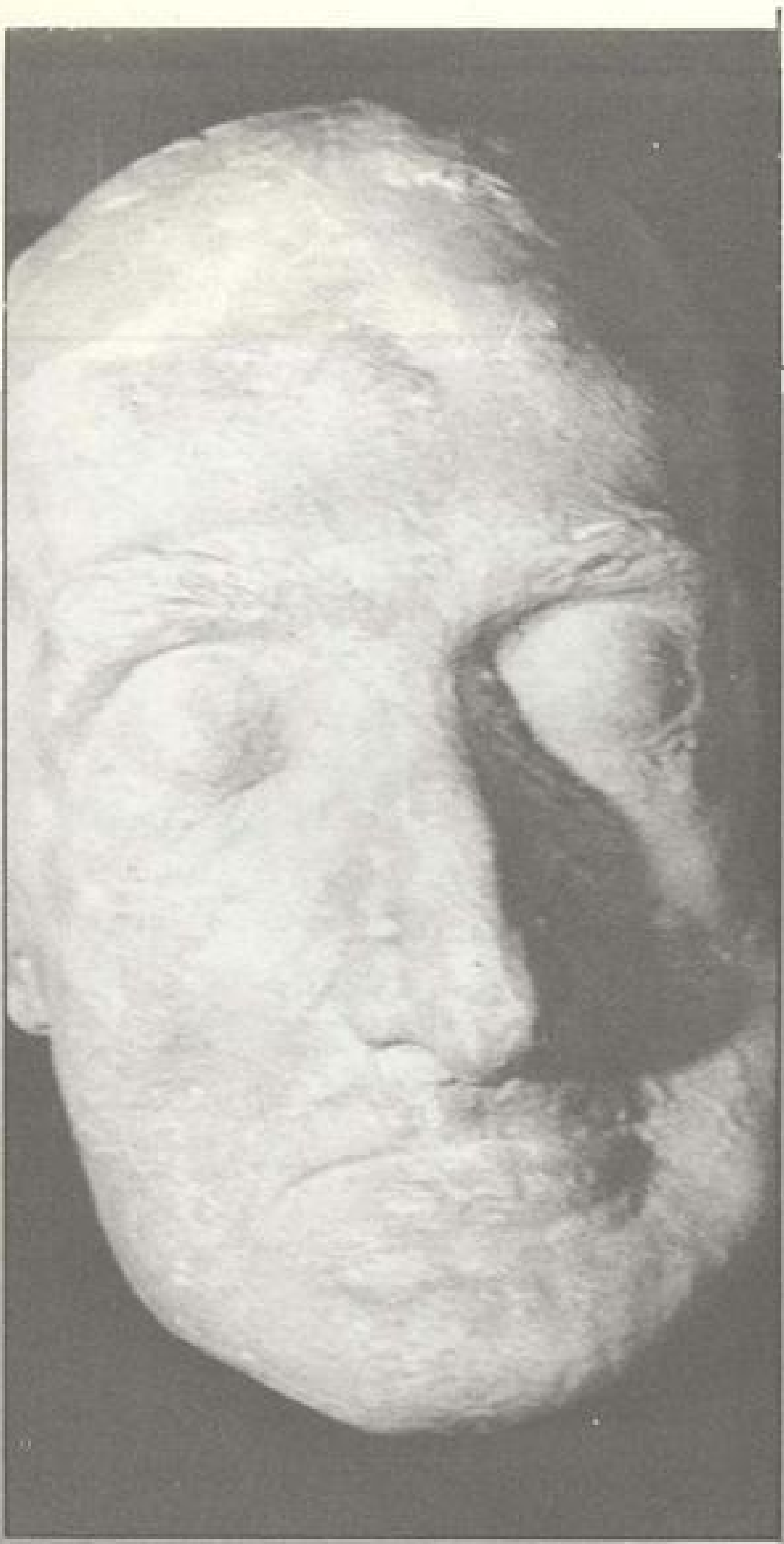

قناع الموت · كفافيس بعد وفاته بلحظات

مقبره كفافيس بمدافن اليونانيين بالشاطبي بالاسكندرية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم
ان هناك ايضا
النزهـات
والكتب
وانواع الدراسة المختلفة
التي تجعل الوقت يمضي ،
وفي الامسيات
نتقابل
عند ساحة البحر
نحن الخمسة ،
(كلنا بالطبع نتخذ اسماءا مستعارة)
وعددا قليلا
مـن
اليونانيين
الذين بقوا في المدينـة .
احيانا
نناقش شؤون الكنيسة
(الناس هنا يميلون نحو روما)
واحيانا
نناقش شؤون الادب .
وفـي
يوم قريب
قرانا
بعض ابيات من قصائد ((نونوس)) :
يا للصـور !
يا للايقاع !
يا للتناسق !
وهكذا تمضي الايام .
اقامتنا
هنا
ليست تعيسة
لانها
طبعـا
لن تستمر الى الابد .
فلدينا اخبار طيبة :
هناك الآن ،
امـور ،
تحدث في ((سمبيرنا))
وسـوف
يتحرك اصدقاؤنـا
في شهر ابريل
مـن
((ابيروس)) .
لقد اتممنا وضع خططنا :
وسوف نسقط ((بازيل)) في سهولة
وعندما تفعل ،
سوف يكون دورنا قد اتى اخيرا .

ان نبرة هذه القصيدة مميزة . فالمتحدث لا يعرف ما يعرفه الشاعر والقارىء . وهو لذلك يصبح معرضا لهذا النوع من السخرية الدرامية . ويظن المرء ان سلوكه المتعجرف قليلا نحو الاسكندرية هو الذي يعرضه لمثل هذه السخرية . فمهما ابتعد المتحدث بنفسه عن مثل هذه المدن الريفية ، ومهما كانت ثقته في عودته الى الوطن الام ، فان الحقيقة هي ان مصيره قد تقرر ، وانه سوف يبقى في هذه المدن الريفية حتى نهاية حياته . والشاعر يعتمد ـ في مكر ـ على معرفتنا هذه كي يضع المتحدث في مكانه الصحيح اثناء قراءتنا للقصيدة . وفي النهاية : فان الاسكندرية هي التي تنتصر ، وكما يحدث دائما في اشعار كفافيس . وسوف تمضي المدينة في حياتها قرونا طويلة وبعد ان يصبح هؤلاء المنفيون المتعجرفون واباطرتهم الغاصبون مجرد اسماء تكتب في هوامش كتب التاريخ .

هذه ، اذن ، هي بعض افضل قصائد «كفافيس» «الجديدة» : مغتربة الى حد ما ، متفائلة وتقدمية بشكل غير عادي ، ساخرة في مكر ، ممتلئة بحكمه خاصة تقترب من انضج القصائد التي اختار ان ينشرها اثناء حياته بل انها احيانا اقل تقنعا واكثر صراحة من اكثر القصائد شخصية في مجموعته الكاملة . وربما تقلب «كفافيس» في قبره اذ علم ان تلك القصائد التي حرمها من نور النشر اثناء حياته ، قد تساعد على توسيع دائرة قرائه والمعجبين به في كافة انحاء العـالـم .

سطور من حياة
كونستانتين ب. كفافيس
راى دالفين

سطور من حياة كونستانتين ب. كفافيس

راي دالفين

عن كتاب :
The Complete Poems of Cavaf
Trans. by: Rae Dalven.
The Hogarth Press L.T.D.
London 1961.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان «كونستانتينوس ب. كفافيس» او (كونستانتين ب. كفافي كما يعرف في العالم غير اليوناني اليوم بوجه عام) ابنا ل «بيتر جون كفافى» و «هاريكيليا فوتيادى» . والاثنان ينحدران من عائلتين ثريتين في اسطنبول . وقد اصبح «بيتر جون» واخوهالاكبر «جورج» ـ عند وفاة والديهما عام 1842 ـ شريكين في شركة العائلة «كفافى واولاده» . وفي عام 1850 ، هاجر بيتر جون ومعه زوجته الشابة ووليدهما الاول الى الاسكندرية كي يقيم فرعا للشركة في هذه المدينة(1) . وقد انجب الزوجان الشابان ثماني اطفال آخرين مات منهم طفل وطفلة في طفولتهما .

اما ابنهما الاصغر كونستانتين فقد ولد في 17 ابريل عام 1863 .

وقد كانت شركة «كفافي واولاده» احدى الشركات الصناعية في اسطنبول . ولكن «بيتر جون» حولها في الاسكندرية الى بيت للتصدير يتعامل في القمح والقطن وجلود الجاموس غير المصبوغة . وفي نفس الوقت، ترك «جورج» اسطنبول واستقر في انجلترا. وهناك ، اقام لشركة «كفافي واولاده» فروعا في «ليفربول» و «مانشستر» و «لندن» كانت تتعامل في المنتجات التي كان «بيتر جون» يصدرها من مصر . وفي عام 1855 ، اقفلت شركة «كفافي واولاده» الصناعية في اسطنبول . ومنذ ذلك الوقت، ركزالاخوان جهودهما في تجارةالقطن المصري. ووفقا لـ «شجرة العائلة» التي وضعها الشاعر عام 1911 (والتي هي مصدر كثير من الحقائق الواردة في هذا المقال) فان شركة «كفافي واولاده» اصبحت بعد حين واحدة من اكبر البيوت التجارية من نوعها في مصر، حيث كان لها اربعةفروع . وقد كانت ،ايضا، واحدة من اولى الشركات التي ادخلت ماكينات حلج القطن في مصر . وفي عام1869، انعم الخديوي اسماعيل باشا بوسام على «بيتر جون» تقديرا لخدماته في تنمية الصناعة في بلده المتبناة

وقد كان «بيتر جون» متبرعا سخيا للاعمال الخيرية التي كانت الطائفة اليونانية في الاسكندرية تقوم بها ، كما كان عضوا بارزا في حياتها التجارية والدينية . ولكنه كان ، ايضا ، اوروبيا في نظرته . ولذا فقد كان اصدقاؤه ومعارفه ــ الذين كثيرا ماكان يدعوهم الى منزله ــ لا يقتصرون علىمواطنيه من اليونانيين فقط ، بل كانوا يشملون ايضا الاثرياء من المهنيين والصناعيين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يكونون ارستقراطية مدينة الاسكندرية(2) .

كان هذا هو العالم الذي عرفه «كونستانتين» في سنواته الاولى في المنزل الواقع في شارع «شريف باشا» الراقي حيث ولد . ثم في عام 1870 ، وحين كان في السابعة من عمره ، توفى والده تاركا «القليل جدا من المال» (وفقا لشجرة العائلة) لانه كان «ينفق عن سعة» كي يحافظ على مركزه الاجتماعي . وبعد عامين من ذلك ، رحلت «هاريكيليا» مع اولادها الى انجلترا ، حيث اقامت العائلة هناك ما يقرب من سبعة اعوام(3) . وفي عام 1877 ، حلت شركة «كفافي واولاده» . وفي عام 1879 عادت «هاريكليا» مع ست من اولادها الى الاسكندرية . اما «جورج» ، اكبر اولادها ، فقد فضل البقاء في لندن(4) .

تولى الاولاد الخمسة الكبار وظائف مختلفة في مدينة الاسكندرية . والحقت «هاريكليا» ابنها الاصغر «الانجلو-يوناني» الذي كان قد بلغ سن السادسة عشر آنذاك، بمدرسة تجارية لادارة الاعمال اسمها «ليسيه هيرمز» وربما كان السبب في ذلك ان ثلاثة من اصدقاء طفولته كانوا يدرسون في نفس المدرسة . ولا يعرف سوى القليل عن

«تعليم» كفافيس حتى هذا الوقت . ولكنه يقول في «شجرة العائلة» التي قام بوضعها انه كان يتلقى دروسا على يد مدرسين خصوصين في منزله في اللغتين الانجليزية والفرنسية . وربما كان يتلقى ايضا دروسا خصوصية في مواد اخرى كذلك .

وفي «ليسيه هيرمز» ، لم تكن المادة التي استهوت لب «كفافيس» ادنى علاقة بالعلوم التجارية . فقد كان «ك. كياتريس» مدير الليسيه من الدارسين المتحمسين للحضارات القديمة . وقد وجد في «كفافيس» تلميذا مستجيبا . وقد الهمه حبا للحضارةاليونانية القديمة بلغ من العمق حد ان كفافي طلب ونال الجنسية اليونانية حالما بلغ السن الذي يسمح له بذلك(5) .

وفي 11 يونيو 1882 ، اندلعت في المدينة نيران فتنة طائفية اتخذتها انجلترا ذريعة كي تقصف المدينة بنيران مدافع اسطولها . واندلعت النيران في المدينة نتيجة لذلك . وفر غالبية اعضاء الجاليات الاجنبية في المدينة الى السفن الحربية الاجنبية التي كانت تربض في الميناء . ورحلت «هاريكليا واولادها» الى اسطنبول حيث اقامت في منزل والدها «جورج فوتيادى» تاجر المجوهرات . وبعد عدة شهور ، وحين كانت الامور قد استقرت ، عاد الاولاد الخمسة الكبار الى الاسكندرية حيث استانفوا اعمالهم هناك . ولكن «هاريكليا» و «كونستانتين» قضيا الاعوام الثلاثة التالية في اسطنبول(6) .

وقد كانت «هاريكليا» ـ على عكس «بيتر جون» ـ تنحدر من سلسلة طويلة من اليونانيين . «الفاناريوتيين»

الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في الدوائر الكنيسية والاجتماعية بفضل الرعاية العثمانية لهم . (واسم «فاناريوتيين» يعود الى «فانار» وهو اسم حي من احياء اسطنبول اصبح الحي اليوناني الرئيسي فيها(7)) .

وفي بيت جده ، الذي اصبح يحبه ويفخر به ، تعرف كفافيس على تاريخ اجداده من ناحية الام والاعمال المجيدة التي ادوها للطائفة اليونانية في المدينة . وكثيرا ما كان يتحدث بفخر عن اجداده من الفاناريوتيين . وقد تعرف ايضا على زعماء الطائفة الفاناريوتيه الذين كانوا من اصدقاء ومعارف جده . وخلال الاعوام الثلاثة التي قضاها في اسطنبول ، انكب «كفافيس» على دراسة التاريخ الهيلليني والبيزنطي والذي اصبح شغل حياته الشاغل . كما واصل ايضا دراسته للغات ، وقرا اعمال «دانتي» باللغة الايطالية لاول مرة في ذلك الوقت . كما كتب هناك ايضا اولى قصائده .

واثناء اقامته في اسطنبول ، بدا اهتمامه ايضا باللغة اليونانية الديموطيقية ، وهي اللغة التي يتحدث بها عامة الشعب في اليونان . وقد قرا قصيدة «اروتوكريتوس Erotokritos وهي قصيدة طويلة كتبها باللغة الديموطيقيه الشاعر فينسترو كورناروس» عام 1650 ، كما تعرف على الاغاني الشعبية اليونانية التي انتقلت من الاجداد عن طريق النقل الشفاهي . كذلك قرا ايضا الشعر اليوناني الحديث المكتوب بكل من اللغتين : الديموطيقيه والكلاسيكية . وقد درس ، بوجه خاص ، شعر «ديونيسيوس سولوموس» ، الشاعر ذي التعليم الايطالي الذي تحول الى الكتابة باللغة الديموطيقية التي تعلمها أثناء حداثته ، والذي أصبح فيما بعد «شاعر اليونان القومي»(8) .

وفي عام 1882 ، وتكريما لجده جورج فوتيادي ، أضاف كفافيس حرفي [illegible] الى وسط اسمه وظل محتفظا بهما الى عام 1896 ، وهو العام الذي توفى جده فيه . وفي الفترة من عام 1896 الى عام 1899 ، لم يكن يستعمل اية حروف وسط اسمه . وبعد ذلك كان يكتب اسمه هكذا : «كونستانينوس ب. كفافيس» . ويشار اليه احيانا في العالم غير اليوناني ب «كفافيس» ، ولكن اصدقاءه من بين غير اليونانيين ، والذين كانوا يكتبون له باللغة الانجليزية كانوا يخاطبون ب «كونستانتين ب. كفافي» ، وهو الاسم الذي يبدو ان الشاعر قد اختاره لنفسه .

عادت «هاريكليا» و «كونستانتين» الى الاسكندرية عام 1885 . وليس من المعروف ان كان «جورج فوتيادى» يساعد ابنته بالمال ، ولكن اخوة «كونستانتين» كانوا قادرين ماليا على مساعدة والدتهم . فمن المعروف ان «بيتر» ، احد اخوة الشاعر ، والذي كان يريده أن يواصل الكتابة ، كان يمده بالمال . وفي فترة السبع سنوات التالية ، كان «كفافيس» يقضي وقته كله في الدراسة والكتابة . فقد قرا بتوسع في التاريخ والادب الهيلليني والبيزنطي . وقاده اهتمامه باللغة اليونانية الديموطيقية الى دراسات «يبانيس بسيهارس» الذي كان يسخر من اللغة اليونانية القديمة ويدعو الى استخدام اليونانية الديموطيقية بوصفها تمثل الامل الوحيد للادب اليوناني وللنمو الثقافي للشعب اليوناني . وفي هذه الفترة قرا ، بتوسع ايضا ، في الآداب الانجليزيةواللاتينية والفرنسية .

كانت مدينة الاسكندرية التي عاد اليها «كفافيس» قد مرت بسلسلة من الانقلابات والتغيرات المكدرة والتي كان القصف البريطاني للمدينة عام 1882 مجرد بداية لها . وكانت حياة الجالية اليونانية قد دمرت تماما. ووجد يونانيو الاسكندرية انه من الصعوبة بمكان ان يقوموا باعادة بناء حياتهم ومؤسساتهم وسط هذا البؤس والتدهور العام . وكما يقال احدث مؤرخي حياة «كفافيس» وهو «ستراتيس تسيركاس» فقد شوهت ملامح مصر الاخلاقية والمادية التي عرفتها عائلة «كفافيس» . ولم يحدث ان اشترك «كفافيس» قط في اية نشاط سياسي . ولكنه كان ليبراليا وانسانيا في تفكيره . وقد ملأته الظروف التي كان يعيش وسطها بالحزن . وتعكس بعض قصائده المبكرة التي كتبت في هذه الفترة ، هذا الحزن .

وفي عام 1891 ، توفى «بيتر» اخوالشاعر . وقرر الشاعر ، عندئذ ، ان يقوم باعالة نفسه . وفي اول مارس عام 1892 ، وهو لم يكد يبلغ بعد التاسعة والعشرين من عمره ، التحق «كفافيس» كاتبا مؤقتا بوزارة الري ولم يكن يتوقع ان يتم تعيينه تعيينا دائما بسبب جنسيته اليونانية وبالرغم من ذلك فقد فضل البقاء في وظيفته المؤقتة هذه . واستمر يعمل كاتبا مؤقتا بوزارة الري مدة 30 عاما . حتى تقاعد في عام 1922 ، ويقول مؤرخا حياته «ستراتيس تسيركاس» و «ميشيل بيريديس» ان والدته ، التي كان يعيش معها ، كانت تضيف هبات مالية شهرية الى راتبه الضئيل . كما انه كان يكسب بعض المال بالعمل كسمسار في بورصة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاسكندرية ونجد من قراءة ملف الشاعر في وزارة الري ، والذي قام «تسيركاس» بنشره ، ان الوزارة كانت تجد «كفافيس» «مفيدا جدا» ، بسبب معرفته الواسعة باللغات . فقد كان يعرف ، بجانب اللغتين اليونانيتين القديمة والحديثة ، اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية واللاتينية والعربية . وربما كان ذلك هو السبب في السماح له بالتغيب بعض الامسيات لمزاولة عمله في البورصة(10) .

وفي حوالي عام 1895 ، التقى كفافيس ب «بركليس انستاسيادس» ، الذي كان يصغره بسبعة اعوام ، والذي اصبح وظل اقرب اصدقائه اليه(11) . وكان «انستاسيادس» ، الذي نشأ وتعلم في انجلترا ، رجلا متحضرا وكان يمتلك موهبة الرسم . وكان الاثنان يشتركان في حب الادب الفرنسي والاعجاب بالحضارة والادب الانجليزي . وكان «انستاسيادس» ايضا من اكثر المتحمسين لاشعار «كفافيس» ، كما كان «كفافيس» يثق به كصديق وكناقد . ولم يمض وقت طويل على بداية صداقاتهما ، حتى بدا «كفافيس» يرسل الى صديقه بنسخ من قصائده وبمذكرات وتعليقات على الادب والكتاب والاحداث الجارية ، وكلها مكتوبة بخط يده على قطع من الورق . وقد احتفظ «انستاسيادس» بهذه القصائد والمذكرات التي تعرف الان باسم «ارشيف انستاسيادس» . ويمثل هذا «الارشيف» اهمية كبيرة لدارسي حياة كفافيس وشعره . ويضم الارشيف ، وبالمناسبة ، حوالي 20 قصيدة ترجمها اخو الشاعر «جون» الى اللغة الانجليزية .

ويرجع الفضل الى «انستاسيادس» ايضا في ذيوع شهرة كفافيس في اليونان . ففي عام 1901 اعطى «انستاسيادس» الشاعر 100 جنيه كي يقوم برحلته الاولى الى اثينا . وهناك ، قابل الشاعر الروائي اليوناني الشهير «جريجوري اكسنوبولس» وعددا من رؤوساء تحرير المجلات واطلعهم على اشعاره . وفي عام 1903 ، عندما عاد الشاعر مرة اخرى الى «اثينا» قام الروائي «اكسنوبولس» باختيار 12 قصيدة من اشعار كفافيس

ونشرها في مجلة «باناثينم» مع مقال عن شعره(12) .

وفي 4 فبراير عام 1899 ، توفيت والدة كفافيس فجاة عقب اصابتها بازمة قلبية . ولم يكن الشاعر قد فارقها ابدا حتى وفاتها ، وكان دائما ابنا بارا بها . وكانت وفاتها بداية لسلسلة من الحوادث المؤسفة تمثلت في وفاة بعض افراد العائلة وانفصال بعضهم عن بعض في غضون بضع سنوات قليلة . ففي شهر اغسطس عام 1900 ، توفي اخو الشاعر «جورج» والذي كان قد عاد من لندن ، بعد اصابته بمرض قاتل . اما اخوه «اريستيدس» ، الذي كان قد انتقل الى القاهرة ، فقد توفى عام 1902 .

وفي عام 1904 ، توفى «الكسندر» ، احب اخوة الشاعر الى قلبه ، في اثينا والتي كان قد رحل اليها بصحبة الشاعر طلبا للعلاج . وفي عام 1906 ، انتقل اخوه «جون» ، الذي كان الشاعر يعيش معه منذ وفاة والدته والذي كان اكثر اخوة الشاعر تقديرا وفهما لشعره ، الى القاهرة ، ولم يعد الى الاسكندرية الا عام 1920 الذي توفي فيه .

وفي الفترة من عام 1906 الى عام 1908 ، كان الشاعر يعيش مع «بول» وهو الوحيد من اخوته الذي بقي في الاسكندرية . ولكن «بول» عام 1908 استاجر «كفافيس» شقته هناك حتى وفاته عام 1922 . عندما رحل «بول» عام 1908 استاجر «كفافيس» شقته في المنزل رقم 10 بشارع «ليبسوس» والتي ظل يعيش وحيدا فيها حتى وفاته .

ويقال ان «كفافيس» كان يكتب حوالي 70 قصيدة كل عام ، ولكنه لم يكن يحتفظ باكثر من4 او 5 قصائد منها ثم يمزق الباقي . وكان يرسل بين الفينه والفينه بقصائده الى الجرائد والمجلات ولكنه كان يفضل طريقة اخرى غير مباشرة لاختبار مدى جودة عمله . فقد كان «كفافيس» ، وفقا لمؤرخه الاسكندري «تيموس مالانوس» ، يعاني من خوف باثولوجي من راي العامة . ولذا فقد كان من عادته أن يرسل بنسخ من قصائده الى اصدقائه ، ولم يكن يقوم بنشرها الا بعد ان يقنعه ثناء اصدقائه باحقيتها في النشر .

وقد نشر ديوانه الاول عام 1904 حين بلغ الـ 41 من عمره . ولم يكن هذا الديوان يضم غير 14 قصيدة فقط من اشعاره . ولم يقم ايضا بارسال نسخ منه الى النقاد . ولكن الديوان ، بالرغم من ذلك ، لم يدفن في الصمت . بل ان النقاد بداوا يكتبون ، بل ويحاضرون ، عن اشعاره .

وفي عام 1907 بدا «كفافيس» يهتم بمجموعة من الادباء الشبان تسمى نفسها «نيازو» (الحياة الجديدة) كانت تركز جهودها على الادب وعلى تقدم اللغة اليونانية الديموطيقية وتنشر مجلة باسم «نيازو» . وكان عمر كفافي لا يسمح له بالانضمام الى هذه الجماعة . ولكنه كان يحضر اجتماعاتها بانتظام ، كما كان من اهم كتاب المجلة التي تصدرها الجمعية . وقد اصبح يتحدث عن نفسه بوصفه من انصار اللغة الديموطيقية . ويقول «بيريدس» ان «كفافيس» كان ذا ضمير لغوي مقاتل ، وانه كثيرا ماكان يتحدث عن ظواهر ومشاكل اللغة الديموطيقية . ولكنه كان يقدر ايضا جمال اللغة الادبية التقليدية . فقد كانت اللغة اليونانية «الادبية» جزءا من تراثه . ولم يتنكر ابدا للغة طبقته وتراثه هذه . وبدلا من ذلك ، فقد كان يستخدم كلا من اللغتين . وان احدى المزايا الرئيسية في اشعاره هي هذا الجمع الحساس اللبق بين اللغتين .

وفي عام 1910 ، نشر «كفافيس» ديوانه الثاني مضيفا اثني عشرة قصيدة الى الـ 14 قصيدة التي تضمنها ديوانه الاول . كما كانت مجلة «نيازو» ، في الفترة من عام 1908 الى 1918 ، تنشر قصائده بانتظام . كذلك فقد نشرت مجلة «تاجراماتا» وهي مجلة ادبية اخرى تأسست في الاسكندرية عام 1911 ــ الكثير من اشعاره . وبمرور السنوات اصبحت اشعاره تنشر بشكل واسع اكثر فاكثر في اليونان . كما بدات اشعاره تترجم الى اللغات الفرنسية والايطالية والالمانية والانجليزية ولكنه لم ينشر دواوين اخرى اثناء حياته . وقد نشر الديوان الشامل لاشعاره ، والذي لم يتضمن اشعاره الاولى ، عام 1935 ، اي بعد عامين من وفاته .

وقد كان لـ «بركليس انستاسيادس» فضل كبير في تعريف العالم غير اليوناني باشعار «كفافيس» . فقد كان «انستاسيادس» هو الذي عرف كفافيس بالروائي الانجليزي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعروف أ. م. فورستر . وقد حدث ذلك اثناء الحــرب العالميــة الاولى حين كان «فورستر» ، الذي كان متطوعا في الصليب الاحمر ، يقيم في الاسكندرية . وقد قــدم «فورستر» ، الذي اصبح احــد اصدقــاء «كفافيس» اللصيقين ، أشعاره الى ت.س. اليــوت و «ارنولــد توينــبي» و «د. هـ. لورانس» وغيرهم . وقد اهدى «فورستر» الطبعــة الثانية من كتابــه : «الاسكندريــة تاريخ ودليل» الى كفافيــس . كما ان كتابه : Pharos and Pharillon يتضمن فصلا طريفــا عن الشــاعر . وفي عام 1949 ، وفي الذكرى الســادسة عشر لوفــاة كفافيس ، كتب «فورستر» الى «انستاسيادس» يقول: «كثيرا ما افكر في حسن حظي ، وفي الفرصة الرائعة التي اتاحتها لي حرب مروعة ، والتي جعلتــني اقابــل واحــدا من اعظم شعراء ازمانــنا» (13) .

وبعد تقاعده من وظيفته في وزارة الــري عام 1922 ، أصبح كفافيس يقضي أيامه بــين كتبه وكتاباته . كان الاصدقاء يأتون لرؤيته، وكثيرا ما كان يقدم اليه زوار من بلاد اجنبية. ويقول لنا «ميشيل بيريديس» الذي كــان يزوره كثيرا في شقته بالمنزل رقم 10 بشارع «ليــبوس» ان شقته هذه كانت تتكون من ردهة طويلة تصطــف الكتب علــى طــول جدرانها ، وحجرة معيشــة تحتل عــرض الشقة بها اريكة كبيرة واثاث آخر شرقــي الطراز ، وحجرة نوم كان يستعملها ايضــا كمكتب . «وكان ضوء الشموع ومصابيــح الغاز الجميلة تضفي على الشقة طابعا خاصا كان يقل ، بطبيعة الحال ، عن الطابع الذي كان يضفيه صاحب الشقة والتي جعلهــا نموذجا فريدا في المدينة باكملها» .

وفي الامسيات ، كان «كفافيس» يذهــب الى المقهى المجاور حيث تنتظره مجموعة من الاصدقاء والمعجبين كي يشربوا القهوة التركية ويستمعوا الى صوته الذي يشبه صــوت الارغن . وكانوا يحتفظون له بمكان وســط الجلسة . واحيانا كان الحديث يدور عــن الادب ، واحيــانا عن التاريخ ، واحيــانا اخرى عن الاحداث الجارية . واحيانا كــان «كفافيس» يتحدث عن اشعاره . وينقــل لنــا «ج. ليشونيش» في مذكراته غــير المنشورة ما قاله «كفافيس» ذات مــرة عن نفسه . اذ قال : «كثيرا من الشعراء مجرد شعراء فقط . اما انا ، فانا شاعر ـ مؤرخ ـ وانا لن استطيع قط ان اكتب روايــة او مسرحية ، ولكنني اشعر في داخلي بـ 125 صوتا تقول لي انني استطيع كتابة التاريخ. ولكن لم يعد هناك وقت لذلك الآن» .

وفي شهر يونيو عام 1932 ، ظهرت عــلى «كفافيس» اعراض مرض سرطان الحنجرة. ولكنه رفض ان يقبل تشخيــص الطبيب . وساءت حالته ، ولكن صديقيــه «ريكا» و «الكسندر سنجوبولس» استطاعا اقناعــه بالذهاب الى اثينا لاستشارة الاطباء هناك. وفي 4 يوليو 1932 ، دخل مستشفى الصليب الاحمر في اثينا حيث اجريت له جراحة في حلقه . ونجحت الجراحة ولكن نتج عنهــا فقدان صوته بشكل كامل . وعاد «كفافيس» الى الاسكندرية في شهر اكتوبر . وفي اوائل عام 1933 ، اصيب بنكسة نقل بعدها الــى المستشفى اليونانــي بالاسكندريــة (والذي يواجه شقته ـ المترجم) حيث قضى الشهور الباقية من حياته . وفي 29 ابريل عام 1933 قضى «كفافيس» نحبه ، ودفن في اليــوم التالي في مقبرة عائلته في مدافن الجاليــة اليونانية بالاسكندرية . (14)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامش :

1 ـ يقــول ادمونــد كيللي في مقدمــة كتــابه : "C.P. Cavafy Selected Poems"
ان «بيتر كفافي رحل الى مدينة الاسكندرية عام 1850 ، ولكنه قبل عــدة اعوام من استقراره هناك ، ساعد في تنظيم الجالية اليونانيــة في الاسكندرية . وبعد ان أقام هناك ، انتخب نائبا لرئيس مجلس الجالية (1853ـ1857 ص 91 .

2 ـ «تخلى (اي والد كفافيس ـ المترجم) عن جنسيته اليونانية اثناء حرب القرم واصبح من الرعايــا البريطانيين ، فاتحا الطريق بذلك امام ما اصبح فيما بعد ارتباطا طويلا وهامــا بين كفافيــس والجلترا» ـ نفس المصدر ص 91 .

3 ـ «في عام 1872 ، اي بعد عامين من وفاة زوجها ، رحلت «هاريكليا» مع اولادها الى ليفربــول . وعندما قام اخو زوجها بتصفية ممتلكات شركة «كفافي واولاده» اثناء الازمة المالية المصرية عــام 1876 ، قررت البقاء في انجلترا ثلاثة اعــوام اخرى حتى تحصل على نصيب زوجها في الشركة. وقبل ان تعود الى الاسكندرية عــام 1879 ، حصلت لنفســها ولثلاث من اولادها ـ منهم كونستانتين ـ على جوازات سفر بريطانية» ـ نفس المصدر 91 .

4 ـ كانت الاعوام السبعة التي قضاها «كفافيس» في انجلترا ـ منذ كان في التاسعة من عمره حتى بلغ سن الســادسة عشر ـ من الاعوام الهامة في تشكيل حسه الشعري . فبجانب قراءاتــه في الادب الانجليزي ، اجاد اللغة الانجليزية اجادة تامة ، وتبنى اساليب السلوك الانجليزية الــى الحد الذي ظل هذا التأثير معه طيلة حياته . بل ويقال انه كان يتحدث اليونانية ـ أيضا ـ بلكنة انجليزية طفيفة . كما انه كتب قصيدته الاولى ـ كذلك ـ باللغة الانجليزية ووقعها باســم : «كونستانتين كفافي» . وتتضــح ايضا من اعماله الشعرية التالية ومقالاته النقديــة القليلة ، معرفته الواسعة بالتراث الشــعري الانجليزي وخاصة اعمال شكسبير وبراونتج واوسكار وايلد» ـ نفس المصدر ص 92 ـ .

5 ـ «وفي اثناء نفس الفترة بدا في كتابة قامــوس تاريخي ، ولكنه توقف عند كلمة «الاسكندر» ـ نفس المصدر ص 92 .

6 ـ «وفي عام 1882 ، وقبل ان تقوم بوارج الاسطول البريطاني بقصف مدينة الاسكندرية ، رحلت هاريكليا مرة اخرى مع اولادها الى اسطنبــول حيث اقامت هناك فترة ثلاثة اعــوام » ـ نفس المصدر ص 92 .

7 ـ «كان والده بيتر ينحدر من خط طويل مــن الاجداد الفاناريوتيين يرجع الى عام 1700 على الاقل . كما كانت امه «هاريكليا» تنحدر ايضا من عائلة عريقة في اسطنبول» ـ نفس المصــدر ص 91 .

8 ـ «كانت هذه الفترة ايضا من الفترات الهامة في تشكيل حــه الشعري . فقد كتب اولى قصائده (باللغات الانجليزية والفرنسية واليونانيــة) اثناءها . كما يبدو انه اقام أول علاقة حب شاذة اثناءها ايضا» ـ نفس المصدر ص 92 .

9 ـ «وهناك ما يدل على انه بدأ يفكر في الاشتغال بالصحافة او بالسياسة . فبعد عودتــه الــى الاسكندرية مباشرة عام 1895 ، حصل عــلى بطاقة صحفيــة بوصفــه مراســلا لجريدة «تلجرافوس» التي كانت تصدر في الاسكندرية . ولكن طموحه في الســنوات التالية في الواقع كان مركزا على كتابة الشعر وعدد قليل من المقالات النثرية ، منها مقالة باللغة الانجليزيــة تحت عنوان :
"Give Back The Elgin Marbles"
(والـ Elgin Marbles مجموعة من التماثيل الرخامية جمعها اللورد «الجين» عام 1811 من «البارثنون» وتوجد الان في المتحف البريطاني في لندن) ـ نفس المصدر ص 92 .

10 ـ «في سن التاسعة والعشرين التحق كفافيــس بوظيفة «كاتب خاص» في مصلحة الري التابعــة لوزارة الاشغال العمومية المصرية . وقد ظــل يشغل هذه الوظيفة مدة 30 عاما ، لتمثــل المصدر الرئيسي لدخله ، بالاضافة الى بعــض المال الذي كان يأتيه نتيجة مضارباته في البورصة التي قبلته سمسارا بها عام 1894 . وقــد كانت جنسيته اليونانية تعوق حصوله علــى

وظيفة دائمة في الحكومة المصرية التي كانت وظائفها الدائمة قاصرة على الرعايا المصريين والبريطانيين . ولكن هذا لم يمنع حصوله على بعض العلاوات . فقد كان راتبه عام 1892 ، 7 جنيهات شهريا وبلغ عام 1919 ، 33 جنيها مصريا شهريا . وقد أحيل الى التقاعد عام 1922 وهو بدرجة مدير مساعد» ـ نفس المصدر ص 93 .

11ـ «هناك الان من الاسباب ما يجعلنا نشك في التصوير التقليدي لكفافيس بوصفه شاعرا منعزلا متوحدا يختفي خلف ضوء الشموع الخافت في غرفته المزدحمة بالكتب . ذلك ان مذكرات «سريانيس» تشير الى أن الشاعر كان كثير الزوار وانه كان معروفا بانه مضيف يتمتع بالكثير من اللباقة واللباقة . وفي نفس الوقت ، فان الحقائق المجردة لتاريخ حياته توحي بأن صداقاته كانت تقتصر على دائرة محدودة جدا من العلاقات الشخصية» ـ نفس المصدر .

12ـ «ومع ذلك ، وبالرغم من الشهرة المحلية التي كان يتمتع بها ، فقد ظل كفافيس غير معروف تقريبا في اليونان حتى السنوات الاخيرة من حياته . والمقالة التي كتبها «جريجوري اكستوبولوس» عن اشعاره تعد استثناء نادرا.. والظاهرة الوحيدة التي تدل على بعض الاعتراف به من جانب الوطن الام هو حصوله عام 1926 على وسام الفوينكس من دكتاتور اليونان بنجالوس ، وتعيينه عام 1930 عضوا في اللجنة الدولية لتمثال روبرت بروك التذكاري الذي اقيم في جزيرة سكيروس . وربما كان ذلك يرجع جزئيا الى التقدير الذي لقيه كفافيس في انجلترا في ذلك الوقت نتيجة قصيدته «ايثاكا» في مختارات ت.س. اليوت الشعرية ، والاهتمام الحماسي الذي كان يلقاه شعره من جانب «ت.ا. لورانس» و «ارنولد توينبى» وآخرين من الذين عرفهم فورستر باشعاره» ـ نفس المصدر ص 95 .

13ـ «احتفظ كفافيس في سنواته الاخيرة بعدة صداقات أدبية هامة منها صداقته التي استمرت 20 عاما مع الروائي الانجليزي أ. م. فورستر . وحين بدأت مساهمته الفريدة في شعر القرن العشرين تلقىبعض التقدير المحلى ، أصبح واحدا من الشخصيات الادبية القليلة التي يحاول الزائرون الاوربيون لمدينة الاسكندرية لقاءها . وقد نجح بعض هؤلاء في لقياه . وقد قالوا ان كفافيس لم يكن فقط مضيفا كريما ، بل كان ايضا محدثا بارعا يمتلك المقدرة على النميمة على الشخصيات التاريخية الموغلة في القدم بحيث يجعلها تبدو وكأنها تشترك في فضيحة تحدث في عالم مدينة الاسكندرية الذي يقع مباشرة تحت شرفة الشاعر في الطابق الثاني» نفس المصدر ص 94 .

14ـ **«... وقد قيل ان آخر ما فعله قبل وفاته هو انه رسم دائرة على قطعة من الورق ثم وضع نقطة تدل على انتهاء الجملة في وسطها» ـ نفس المصدر ص 93** ●

مختارات من أشعار كونستانتين ب . كفافيس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترجمت هذه الاشعار عن الانكليزية من كتابي :

1. The Complete Poems of Cavafy Translated by: Rae Dalven.

وسوف يشار اليه بالرمز □

2. C. P. Cavafy Selected Poems Translated by: Edmond Kelley.

وسوف يشار اليه بالرمز ■

ملوك الاسكندرية ■

تجمع اهل الاسكندرية
كي يروا
أولاد «كليوبترا» :
«قيصرون»
واخوايه الصغيران :
«الاسكندر» و «بطليموس»
يؤخذون الى «الجمنازيوم» لأول مرة

كي يتوجوا هناك ملوكا
أمام صفوف جنود زاهية

**

الاسكندر :
توجوه ملكا على : «أرمينيا» و «ميديا»
و «الباريثيون» .
«بطليموس» :
وفينيقيا .
توجوه ملكا على: «صقلية» و «سوريا»
قيصرون :
كان يقف أمام الآخرين
مرتديا :
حريرا قرمزيا
وعلى صدره :
باقة من الزنابق .
وعلى حزامه :
صف مزدوج من اللازورد والياقوت .
وحذاؤه :
معقود بشريط أبيض .
تزينه :
ماستان في لون الزهور .
توجوه :
ملكا أعظم من اخويه .
توجوه :
ملكا على الملوك .
كان أهالي الاسكندرية يعرفون
— بالطبع —
ان هذا كله :
مجرد لغو واستعراض أجوف .

**

الملك «ديمتريوس» ■

(كممثل ، وليس كملك ، ارتدى ثوبا رماديا بدلا من ثوبه الملكي ، ورحل سرا — بلوتارك — سيرة حياة ديمتريوس) .

عندما تخلى عنه المقدونيون
وأعلنوا انهم يفضلون «فيروس» ،
لم يتصرف الملك «ديمتريوس» النبيل
— هكذا قيل —
اطلاقا كملك .
لقد نزع عنه أرديته الذهبية ،
وخلع حذاءه القرمزي ،
وارتدى مسرعا ،
ملابس بسيطة ،
ثم تسلل خارجا
كأنه ممثل
حين انتهى العرض
غير ثيابه
ورحل .

ايثاكا ■

عندما تنطلق الى «ايثاكا»
أدعو أن يكون طريقك طويلا ،
مليئا بالمغامرة ،
مليئا بالاكتشافات .
لا تخف
من :
الآلهة القاسية
الوحشية
فانك لن تجدها في طريقك
طالما
كانت أفكارك محلقة
طالما
كانت فرحتك الفريدة
تهز روحك وجسدك .
انك لن تقابل الآلهة القاسية الوحشية
مالم تجلبها معك بداخلك
مالم ترفعها روحك أمام ناظريك .

**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أدعو أن يكون طريقك طويلا .
وليتكرر كثيرا ذلك الصباح الصيفي
الذي تدخل فيه موانىء تراها لأول مرة
(مليئا بالعرفان ، مليئا بالفرح) .
ولتتوقف ،
عند مراكز التجارة الفينيقية ،
لتبتـاع الاشياء الرائعـه :
الماسـات ،
والمرجـان ،
والعنـبر ،
والعــاج ،
والعطور الشهوانية من كل الأنواع .
ابتع ما استطعت من العطور الشهوانية .
ولـتزر
مدنا مصرية كثيرة
لتملأ نفسك معرفة من الحكماء .

**

لتكن «ايثاكا» دائما في ذهنك
فانه قدر عليك الوصول الى هناك .
ولـكن ،
لا تسرع ابدا في رحلتك ،
فمن الأفضل ان تستمر أعواما وأعواما
حـتى
تكـون
عجـوزا
حين تصل الى الجزيرة
ثريـا
بكل ما اكتسـبته في الطريق
غـير متوقـع
ان تمنحك «ايثـاكا» الثراء .

**

منحتك «ايثـاكا» رحلة رائعة ،
وبدونها لم تكن لتنطلق
ولـكن
ليس لديها شيء آخر تمنحه

**

اذا وجدتها فقـيرة
فان «ايثاكا» لن تكون قد خدعتك .
سوف تكون حكيما آنذاك ،
ومجـربا ،
وسوف تفهـم آنذاك
ما تعنيـه «ايثاكا» .

النـوافذ □

في هذه الغرف المظلمـة ،
ـ حيث أقضي أياما مقبضة ـ
أسير جيئة وذهابا ،
باحثـا عن النوافذ .
(وعندما تفتح نافذة ، سيكون ذلك عزاء لي)
ولـكن النوافذ لا وجود لها ،
أو
انا لا استطيع ان أجدها .
ربما كان من الافضل انني لا أجدها ،
فربما أصبح الضوء طاغية جديدا .
من يعرف اية أشياء جديدة سيبينها ؟

معشوق «الكسندر فالاس» المفضل ■

لسـت
حزينـا
على الاطـلاق ،
لأن
عجـلة
مركبـتي
قد كسرت .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانـــني
خسرت
هذا السـباق السخيف .
سوف احتسي انبذة عظيمة طيلة الليل
مسـتلقيا
بين الزهـور .
ان «انطاكية» كلهـا ملكي .
فأنـــا :
أشهر شاب في المدينـة ،
ونقطة ضعف «فالاس» .
انه ـ ببساطة ـ يعبدني .

**

سوف ترون :
غـــدا
سوف يعلنـــون
ان
الســباق ،
لـم يكن ،
عـادلا .
(رغم انني
لو كنت مبتذلا بما يكفي ،
وأصررت ،
لأعلـن
المنافقــين :
ان
مركبــتي العرجـاء
قــد
فــازت
بالمركز
الأول) .

تذكـر ايهـا الجسـد ■

أيهـا الجسـد !
لاتتذكـر ،
فقـط ،
كم كنت موضع الحب
لا تتذكـر ،
فقط ،
الأسرة التي استلقيت عليهـا .
تذكـر ،
أيضـا ،
تلك الرغبات التي كانت تشتعل صراحة
في العيون التي نظرت اليـك .

ترتعش لـك
في الأصوات التي تحدثت اليك .

**

والآن ،
وقد أصبح كل شيء ،
ـ أخـيرا ـ
جزءا من الماضي ،
يبـدو ،
وكأنك كدت ان تستسلم أيضـا
لهذه الرغبـات
كم كانت
تشـتعل
ـ تذكـر ـ
في العيون التي نظرت اليك .
تذكـر
ـ أيهـا الجسـد ـ
كيف كانت ترتعش لك
في الأصوات التي تحدثت اليك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شمس بعد الظهيرة ■

أعرف هذه الغرفة جيـدا .
هم الآن يؤجرونهـا
ـ والاخرى التي تجاورها ـ
مكاتب .
لقد أصبح المنزل بأكمله ،
مكاتب للسماسرة والتجار والشركات .

**

هذه الغرفة . كم هي مألوفـة .

**

كانت الأريـكة
هنـا
بالقرب من البـاب ،
وسجادة تركيـة أمامها .
وعلى مقربـة :
الرف والآنيتان الصفراوان .
على اليمين :
(لا . أمامهـا .)
دولاب ذو مرآة .
في الوسـط :

المائـدة ،
الـتي ،
كان يكتب عليهـا ،
والمقاعد القش الثلاثة الكبيرة .
بجانب النافذة :
السرير :
حيث مارس الحب مرات عديدة .

**

لابد انهـا في مكان ما : تلك الأشياء
القديمـة .

**

بجانب النافذة :
السرير :
كانت شمس ما بعد الظهيرة تلمس نصفه.

**

...... في الرابعة ،
بعد الظهـر ،
افترقـنا
لاسبوع فقـط .
...... ثـم :
أصبح الاسبوع دهـرا .

انه يقسم ■

انه يقسم
ـ بين الآن والآخر ـ
ان
يـبـدأ
حياة أفضل .
ولـكن ،
عندما
يحل الليل
بلذاته ،
وما قد ينطوي عليـه ،
عندمـا
يحل الليـل ،
بسـلطانه ،
وبرغبـات الجسد ،
وأشواقـه :
يعـود
ـ ضائعـا ـ
الـى
نفس
اللـذة القاتلـة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رغبـــات ☐

مثـل
الأجسـاد الجميلة
للموتى الذين لم يتقدموا ـ بعد ـ في السن،
والذين يحبسـونهم
ـ بالدمـوع ـ
في أضرحة رائعة ،
(بالازهار عند رؤوسهم ، والياسمين عند
أقدامهـم)
هـكذا ،
تبـدو ،
الرغبات التي مرت دون ان تتحقق ،
دون ان تنعم واحدة منها ،
بليلـة
من البهجـة الحسـية ،
أو
صباح
يغشـوه ضوء القمر •

العجـوز ☐

في الغرفة الداخلية في القهوة الصاخبة ،
يجلس
رجل عجوز محنيـا على مائدة •
جريدة أمامه ،
ولا رفيق بجانبـه •

**

وفي بؤس عجزه التعس
يفـكر
كيف لم يستمتع جيدا بتلك السنوات :
حين كـان
يمتلك القوة ،
وفن الكلمـة ،
ووسامة القسـمات •
وهو يفـكر :
كيف خدعته الحكمـة ،
وكيف وثق فيها دائما
(يا للحمـاقة !)
تلك الكـاذبـة ،
التـي
تقـول :
«غدا • لديك دائما وقت وفير» •

**

انـه يستعيد :
نـزوات
قد كبحهـا ،
وأفراحـا
ضحـى بهـا •
ان كل فرصة ضائعة تسخر الآن من تبصره
الغـبي •

**

...... ولـكن
مع كل ذلك التفكير والتذكر ،
يدور رأس الرجل العجـوز ،
وينعـس ،
محنيـا فوق مائدة المقهى •

الرب يتخلى عن «انطونيوس» ■

في منتصف الليل ،
عندمـا ،
تسـمع فجـأة ،
مرور موكب غير مرئي ،
بأصوات وموسيقى رائعـة :
لا تنـدب
حظك الذي خانك الآن ،
وعملـك
الذي فشـل ،
وخططـك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي ظهر انها خادعـة .
لا تندبهـا دون فائدة .
قل لهـا :
وداعـا
(للاسكندرية الراحلة) .
وكأنك :
قد أعددت نفسك لذلك طويلا .
وكأنك :
ممتلىء شجاعـة .

فوق كل شيء :
لا تخدع نفسك ،
لا تقل لنفسك :
انه كان حلما ،
وان اذنيك قد خدعتاك .

لا تحط نفسك بآمال فارغـة كهذه .

وكأنك
قد اعددت نفسك لذلك طويلا ،
وكأنك
ممتلىء شجاعـة
وكأن ذلك
طبيعة فيك يامن وُهبت هذه المدينـة :

اذهب
بحزم الى النافـذة ،

واستمع
(تهزك العـاطفة ، وليس الاسى ، وليس
انات الجبنـاء)
الى هذه الموسيقى الرائعـة ،

التي تنبعث من هذا الموكب الغريب .

وقل لهـا :
وداعـا .

الى الاسكندرية
التي سوف تفقدهـا .

« قونيـات » □

لا يعـني
أن نكون قد حطمنا تماثيلهـا ،
و
أن نكون قد طردناها من معابدها ،
ـ لا يعني هذا أبـدا ـ
ان الآلهـة قد ماتت .
آه ، يا أرض «قونيـة» ،
انها مازالت تحبك ،
وما زالت أرواحهـا تحتفظ بذكراك .
وعندما يستيقظ
ـ فوقـك ـ
فجر يوم من أيـام اغسطس ،
فان الجـو يكون ممتلئـا بأنفاسها .
وأحيانـا ،
يرفرف بجناحيـه ،
كأن [illegible]
يطير ،
سريعـا ،
فوق تلالـك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المآثر العربية في دراسة المنتجات الطبيعية

د. جابر عزيز الشكري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد خلف لنا القرن التاسع والعاشر أطيب الآثار العلمية والادبية والفلسفية . فقد انتشر الادباء والشعراء في كل صوب من العالم الاسلامي ، ولكن العلم تركز في بغداد والاندلس .

لا أريد ان اخوض في المواضيع التاريخية ، فلهذا البحث تشعبات كثيرة ، وعلي حصر بحثي في الكشف عما قام به العرب وما قدموه للانسانية من خدمات جليلة .

روى الرحالة الاسباني « بنيامين التطيلي » وهو أول سائح أم بغداد في عصر النهضة وذلك سنة 1160م ، وفي زمان الخليفة العباسي المقتفي بالله . فقال : كانت بغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة تضم جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل شيء يساعد على البحث العلمي ، ومن الصعب تقدير عدد الكتب التي كانت في مكتبات بغداد العامة والخاصة ، وذلك لكثرتها وتشعب مواضيعها، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الحكم الثاني في قرطبة 600 الف كتاب ، وفيها اكثر من 40 مجلدا من الفهارس فقط .

لقد جمع المؤرخ « حاجي خليفة » في معجمه « كشف الظنون » خلاصة التراث العربي الاسلامي . فذكر حوالي « 14500 » من الكتب العربية التي الفت في عصر النهضة . ونجد أيضا اسماء المؤلفات القيمة في الفهارس القديمة ، كفهرست « ابن النديم » و « وفيات الأعيان لابن خلكان » ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، وكذلك في « طبقات الاطباء ــ لابن ابي اصيبعة » وغيرها .

واعرض بعجالة النزر اليسير مما قاله العلماء ، غير العرب ، في العصور المتأخرة والعصر الحاضر في مآثر العرب الخالدة :ــ

قال كوستاف لوبون :ــ ان العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية وحتى الفلسفية ... والعرب هم الذين وضعوا لأوروبا بناء حضارتها الحالية ، فعلى العالم ان يعترف بجميل العرب .

وقال سيديو :ــ ان اهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداية روحها العلمية الصحيحة ... فكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤيدا الى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادىء قالها أساتذة من العرب . وكان العرب في القرن التاسع حائزين لهذا المنهاج الجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن للوصول الى اروع الاكتشافات .

وقال مسيوشال :ــ ان كتب ابن الهيثم هي مصدر معرفتنا وتعلمنا لعلم البصريات . وقد لقب الكندي بـ : ارسطو العرب . ولقب الفارابي بـ : المعلم الثاني . وقيل عن البيروني : انه أعظم عقلية عرفها التاريخ . وقيل عن ابن طفيل « ان قصة ابن طفيل ــ حي ابن يقظان في مقدمة الاثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ الفكر الانساني . وقال الأقدمون عن الجاحظ : ان كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والأدب ثانيا .

كان للعلماء الأوروبيين في القرن الماضي اهتمام ملحوظ بالتراث

العربي ، وفي أوائل هذا القرن اتسعت حركة البحث عن التراث القديم ، فظهر كتاب « حضارة العرب » للعالم كوستاف لوبون سنة 1884 ، وهو خير صورة قدمها للعالم ، ونجد في كتاب « تاريخ الحضارات العام » لعدد من اساتذة السوربون (1960) المآثر العربية الاسلامية بشكل بارز في مقدمة الحضارات العالمية . وفي سنة 1927 بدأ العلامة في تاريخ العلم « جورج سارتون » في نشر ابحاثه عن التراث العربي ـ الاسلامي لخصها في كتابه المشهور « مقدمة في تاريخ العلم ». لقد فتح « سارتون » بابا جديدة للحضارة العربية وقد استطاع بأبحاثه القيمة الدقيقة ان يضع العلم العربي في الفهارس العلمية الحديثة ، او بالاحرى ادخاله في المستوى اللائق من تاريخ الحضارات الانسانية .

لقد سبقني الاستاذ الفاضل طه باقر في محاضرة القاها في دار المعلمين العالية سنة 1951 حول مآثر البابليين في علم الرياضيات فردد الآية الكريمة ، وها انا اعيد تلاوتها ، لانها خير ما يقال في مثل هذه المناسبة « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

يُعنى اليوم بدراسة الحضارة الانسانية وتاريخ العلوم عند العرب عناية فائقة . فاصبح هذا الموضوع يُدرّس في اغلب الجامعات والمعاهد في اوربا وامريكا . ونلاحظ حركة ملحوظة في نشر نصوص التراث العربي وتحقيق امهات المؤلفات . ففي روسيا اهتمام كبير في ترجمة المآثر العربية الى اللغة الروسية . وفي المانيا تقوم جامعات توبنكن وفرانكفورت ومونيخ وبون وغيرها بدراسة وترجمة الكتب القيمة . كما يلاحظ حركة تأليف واسعة في موضوع الحضارة العربية تبناها عدد غير قليل من مؤرخي العلوم .

لقد اسس في انكلترا اكثر من معهد لدراسة المآثر العربية ، وفي باريس يوجد مركز البحوث العلمية . وفي جامعة انقرة مركز ايضا . وفي جامعة هارفرد انشيء منذ سنوات قليلة اول كرسي لتاريخ العلوم عند العرب ، هذا اضافة الى الابحاث التي تجري في جامعة براون ، وبنسبرك ، ومعهد « شمسونيان » في واشنطن .

اما في البلاد العربية فهناك مساع واتجاهات قوية جدا نحو احياء التراث العلمي وفي كل قطر من اقطار البلاد العربية .

تسود العالم موجة جديدة في عالم الطب ، الا وهي المداواة بالاعشاب القديمة وقد غمرت الصيدليات بهذه العقاقير ، واصبحت جنبا الى جنب مع المستحضرات الطبية الحديثة ، يصفها حتى الاطباء الذين تساورهم الشكوك في استعمال المطاريات القديمة . واذكر في هذه المناسبة ان اول صيدلية في العالم تأسست في بغداد سنة 621 هـ . وقد خلد هذا الاثر احد الرسامين في العصر البيزنطي في لوحة زيتية محفوظة الان في متحف « المتروبوليتان للفن » في نيويورك تحت رقم 21/51/57 .

وبعد هذا الاستعراض ارجع الى موضوعنا الذي نحن بصدده ، اقدم بعض النماذج من المنتوجات الطبيعية التي بحثها العرب بحثا علميا دقيقا ، ولا تزال مآثرهم في المضمار الكيمياوي ـ الطبي في قمة البحث العلمي والصناعي .

السُمّاق :

جاء في لسان العرب : السُمّاق من شجر القفاف(*) والجبال ، وله ثمر حامض ، عناقيد فيها حب صغار يطبخ ... ينبت في الشام، وهو شديد الحمرة واما الحبة الحامضة التي يقال لها « العبرب » فهي السماق ، والواحدة سماقة(1،2) ، ويقال للسماق التمتم ايضا(3) .

ان السماق المعروف في العراق وفي كل الاقطار الاخرى هو عراقي في كل ما يدور حوله ـ قلبا وقالبا ـ واستعرض لكم ما جاء عن السماق في العصور الآشورية اولا ، ثم نتحدث عما جاء عنه في عصر النهضة ، واخيرا السماق في المفهوم الحديث .

يذكر « تومسن »(4) هناك لوح عثر عليه في Carchamish كركميش »(**) يذكر فيه السماق الذي هو من بين مواد الدباغة الاخرى . واليكم النص : « ان الحاج Alhagi (***) الذي هو مليء بالعصير ؟.... هناك حيث آباؤهم واجدادهم في حضرة سرجون الحاج في وسط اشجارهم البلوطية ، في وسط سماقهم (؟) ... سرجون هو الذي سيجهزهم ... الاسكافي ...» يظهر من النص ان البلوط والسماق هما المصدران الاساسيان لمواد الدباغة .

وجاء نص(5) اخر ، يشار فيه الى استعمال السماق في الصباغة، ومضمون النص :ـ « ومن الفصيلة ذاتها نبتة السماق "Sam LID. GAS" التي اذا ما وضعت مع كبريتات الحديدوز ، صبغت القطن والصوف بلون اسود » .

لقد كان السماق معروفا جدا عند الآشوريين ، ومن بين أسمائه التي وردت في اللغة الاكدية (Sipru ـ سبرو) ، وهذه الكلمة مشابهة لكلمة « صفراء » حيث كان السماق يستعمل لصبغ الايدي وجلود الحيوانات بلون أصفر(6) .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.co

السماق عند العرب :

مما جاء عن السماق في مفردات ابن البيطار : (عن ديسقوريدس). السماق الذي نستعمله في الطعام هو ثمر نبات يقال له « رؤس برسود يسمقوس » اي سماق الدباغين . وانما سمي هكذا لان الدباغين يستعملونه لدبغ الجلود وهو شجر ينبت في الصخور على هيئة المنشار ، وله ثمر يشبه العناقيد ، كثيف في قشر الحب المنفعة ... وعن جالينوس : هذه الشجرة تقبض ، تجفف ، ولذلك يستعملونها ، يجففون ويقبضون بها الجلود التي يدبغونها ، ولذلك صار نوع من السماق يعرف باسم « سماق الدباغين » . وعن الرازي: في كتاب الحاوي : ان شراب السماق قابض ، يقطع الاسهال (ونزيف الدم في الرحم) وكثرة البول(7) . وعن ابن ماسويه : يشهي الطعام بحموضته ، ويشد الطبع ، وينفع الاسهال المزمن . وعن ابن جلجل ـ المعتمد في الادوية المفردة(8) ـ السماق قابض مقو ، يمنع النزف ... يشهي الطعام ، يحتقن به للدوسنطاريا (الدزنتري) وسيلان الرحم والبواسير .

لقد عرف العرب انواع السماق وصنفوه أصنافا ، فمنه نوع سمي « سماق الدباغين » ، لان اوراقه تستعمل في دبغ الجلود ، وفي صبغ الحرير والصوف بلون برتقالي . والبذور هي التي تستعمل في التوابل . ومنه نوع ثان وهو « السماق السام » تستخلص من قشوره مادة حريفة لاذعة تستعمل في الشلل . ومنه نوع اخر يسمى

« السماق العطري » وتصنع منه بعض انواع الادقة « دقة السماق » ولا يزال بعض العطارين في العراق والبلاد العربية الاخرى يحضرون مسحوقا من السماق والكمون يستعمل لوقف القيء والغثيان . كما يصنعون سفوفا مقويا للهضم ، فاتحا للشهية يحضر من طحن السماق مع الكزبرة والملح والكمون(9) .

السماق في المفهوم الحديث :

الاسم العلمي للسماق Rhus Corlaria من الفصيلة البطمية ، من ذوات الفلقتين ، كثيرة التويجات Anacardiaceae ويسمى بالانكليزية Tanner's Sumach Sumac , Sumach وبالافرنسية Sumac ، وبالالمانية Sumach . ويعرف ايضا باسم « سماق صقلية » ، ويلاحظ ان التسمية العربية لم تتغير(10) .

والسماق انواع كثيرة جدا ، اهمها ، هو سماق الدباغين . يستعمل في دباغة الجلود والصبغ ، وحبه في التوابل . وهنا يجب ان نذكر انه لا يجوز الاكثار من تناوله مرة واحدة ، تجنبا من حدوث اضطرابات في المعدة ، وقد يكون من جراء ذلك حالات تسمم خفيفة . وهذا النوع من السماق هو الذي يستعمل في الطب فمن الثمر الجاف تصنع الغرغرة ضد التهابات الاغشية المخاطية ، وكذلك يستعمل ضد الدزنتري . ومن الاوراق تصنع مواد قابضة ولمنع نزيف الدم . اما الاثمار الجافة فهي سامة .

ولقد عرف الهنود الحمر في امريكا السماق ، واستعملوه في الصباغة (لون برتقالي) ، وعملوا منه الأشربة الباردة والساخنة .

السماق في الصناعة :

يستعمل السماق في الصناعة لاستخلاص المادة الدابغة Tannine التي تكمن في اوراق الشجيرة ، او انه يستعمل مباشرة في الدباغة (الدباغة المباشرة بالمواد الطبيعية) تدبغ بالسماق الجلود الرقيقة ، خاصة تلك التي تستعمل في صناعة المحافظ (جوزدان) ، او في تجليد الكتب ، ذلك لان السماق او بالاحرى ، تانين السماق ، يعطي الجلد بريقا جميلا ، وصبغا ثابتا لا يتاثر بالضوء(11) .

كيمياء السماق :

يحتوي السماق على مواد كيمياوية كثيرة اهمها :(12) (13)

1 ـ المواد الدابغة Tannins (التانين) ، وقوانينها العامة :ـ

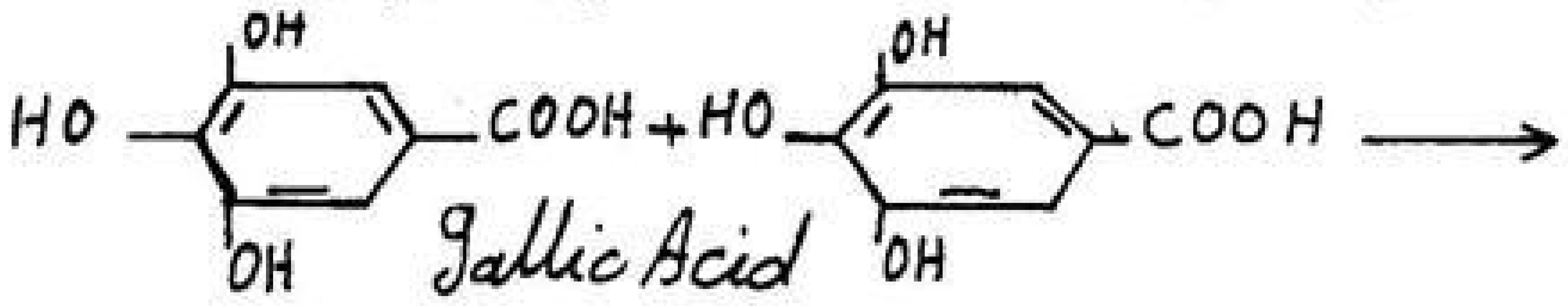

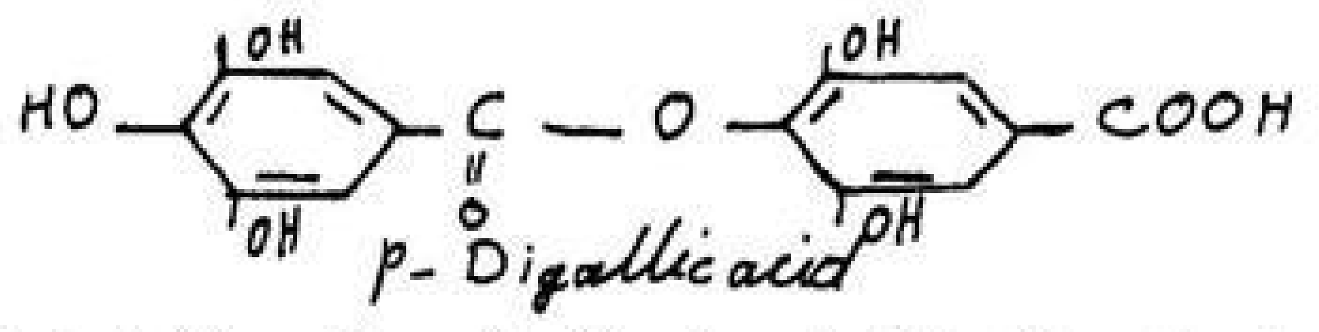

ويمكن ان يكون الارتباط في موقع O ال m— وهذا الحامض يرتبط بالسكر (الكلوكوز) ، على الصورة التالية في ادناه ، فتتكون جزيئة التانين ولما كان احتمال ربط الحامض الاصلي مع بعضه يكون بصور مختلفة لتكوين ـ ثنائي الحامض ـ لذا كان من الممكن الحصول على انوا عءدة من مواد الدباغة ، هذا بالاضافة الى كيفية ربط الحامض بالسكر نفسه . ونلاحظ وجود حوامض ومواد دابغة بكثرة كثيرة ، تتكون في انواع مختلفة من النباتات ولكل منها خواص معينة .

مثال :

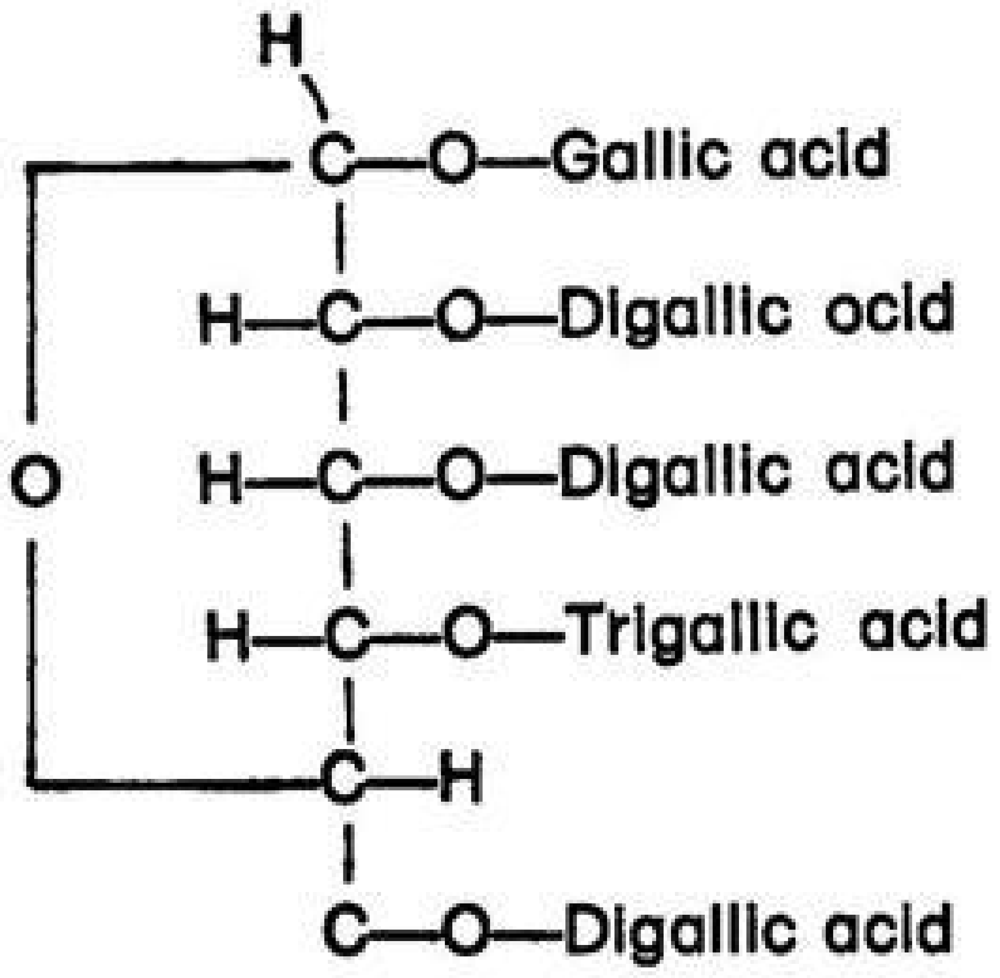

3 ـ اصباغ : واهمها الصبغ المعروف باسم Myricetin . وهذا الصبغ يوجد في نباتات كثيرة اخرى غير السماق . ويكون بصورة

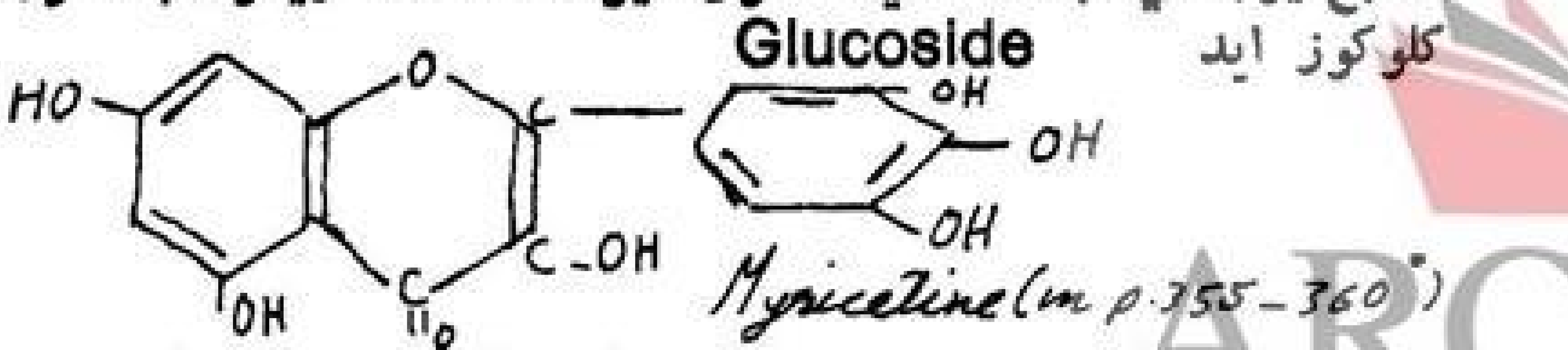

ان هذا الصبغ هو من مجموعة كبيرة من الاصباغ الذاتية وتشتق من المركب الكيمياوي المعروف باسم & - Pyrane

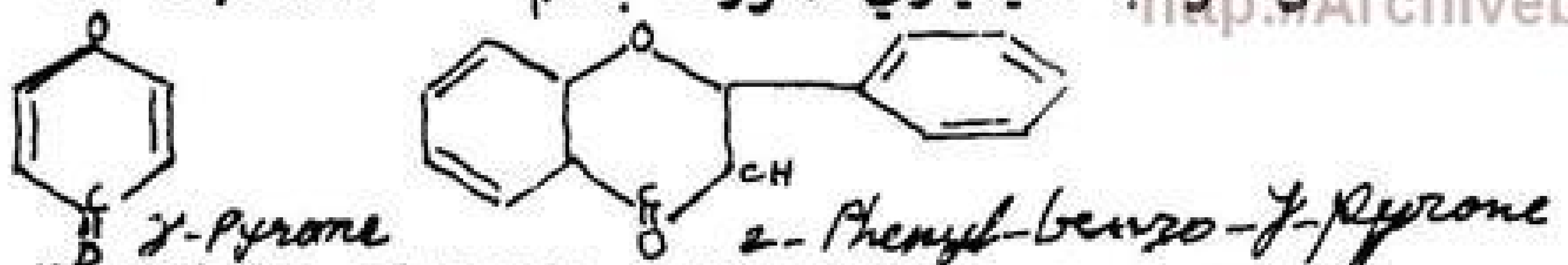

يعود الفضل في معرفة هذه المجموعة المعقدة من المركبات الى الكيمياوي (V. Kostanecki)وقد حضر اول مركب من هذه المركبات سنة 1899 .

الهوامش والمراجع :.

(*) القفاف ـ قفاف الصحان ، وهي بلاد عريضة واسعة فيها رياض وقيعان وسلقان كثيرة ... لسان العرب .

(**) هي جرابلس الحالية ، مدينة في شمال سورية 1450 ـ 1200 ق . م . راجع احمد سوسه ـ العرب واليهود في التاريخ ص 491 .

(***) الحاج رعي الجمال ، وهو العاقول .

1 ـ لسان العرب لابن منظور .

2 ـ معجم اسماء النباتات الواردة في تاج العروس، تحقيق محمود مصطفى الدمياطي، الدار المصرية للتاليف والترجمة 1965 .

3 ـ شرح اسماء العقار / تاليف الشيخ الرئيس ابي عمران موسى بن عبدالله الاسرائيلي القرطبي ـ تحقيق الدكتور ماكس مايرهوف ـ القاهرة 1940 .

4 - Martin Levey: Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, (p.73), Amsterdam 1959.

5 ـ نفس المصدر ص ـ 104 .

6 ـ نفس المصدر ص 112 .

7 ـ الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، المجلد الاول ص 29 . مكتبة المثنى ، بغداد.

8 ـ المعتمد في الادوية المفردة ـ ص238 ، تاليف الملك المظفر يوسف بن عمران

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغساني التركماني ، صاحب اليمن / تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الثانية 1951 مصر .

9ـ احياء التذكرة . في 365 ، الدكتور رمزي مفتاح 1953 مصر . تذكرة ابن ارمانيوس ، ص 79 ، عازر ارمانيوس 1922 القاهرة .

10ـ معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية / الامير مصطفى الشهابي ـ القاهرة 1957 . British Encyclopedia

11- B. Neuman: Lehrbuch der Chemischen Technologie, B.II. s. 993, (Berlin 1939).

12ـ المصدر اعلاه ص 992 .

13- P. Karrer: Organic Chemistry, P.558, fourth English Edition (Amsterdam 1950).

جوز بوا او جوز الطيب :

جوز الطيب(1) ثمار شجر كبير بحجم شجر الرمان ، دائم الخضرة ، المستنبت منه هو الانثى ، والبري هو الذكر . يكثر في جزر الهند وسيلان والملايو واندونيسية ، وحجم الجوز بقدر حجم العفص ، طيب الرائحة في داخله بذور عطرية ، ويحيط بالجوز غلاف خارجي يعرف باسم « بسباسه » . قال ابن سينا(2) :ـ

جوز بوا هو جوز في مقدار العفص ، سهل الكسر ، رقيق القشر ، طيب الرائحة ينقي النمش ويطيب النكهة ، يقوي العين وينفع من السيل ، ويقوي الكبد والطحال والمعدة خصوصا فمها . يدر وينفع من عسر البول . واذا وقع في الادهان نفع من الاوجاع ، ويمنع القيء ، وبدله السنبل . ومما قاله داود الانطاكي في تذكرته(3) :ـ

يقطع البلغم ويحل صلابات الكبد والطحال والاستسقاء واليرقان وعسر البول ، ويذهب البخر من الفم والمعدة ، ووجع المفاصل طلاء ...، واذا غلي في الدهن وقطر فتح الصمم وامرخ به اذهب الصداع والرعشة والكزاز والخدر والاورام . واذا سحق بالعسل والافسنتين نقى النمش والكلف(*) وآثار الضرب .

وجمع عنه شيخ العشابين ـ ابن البيطار في مفرداته(4) :ـ

أ ـ اقوال ابن سينا .
ب ـ الدمشقي .
جـ ـ ابن ماسة .
د ـ اسحق ابن عمران .
هـ ـ الرازي .

ثم قال ... وبالجملة فهو نافع للمرطوبين والمبرودين بتحسين الهضم ...

وقد جاء ذكر جوز بوا في كتب الطب الاخرى مثل كتاب «المعتمد في الادوية المفردة(5) » ، وكتاب « المنهاج » لابن جزلة ، وكتاب الحكيم التفليسي ، كما ذكر جوز بوا (جوز بوى) الطبيب الفارسي محمود مؤمن حسيني(6) طبيب الشاه سليمان الصفوي

كان العشابون العرب منذ القدم يعرفون جوز الطيب ، وكان التجار يستوردونه من الهند والبلدان الشرقية النائية . وكانوا يعدونه من التوابل والافاويه المستحبة اضافة الى معرفتهم التامة بفوائده الطبية ، فاستعملوه ، وصنعوا منه الوصفات كما مر بنا . ومن المهم انهم عرفوا ان المادة الفعالة في جوز الطيب تكمن في موضعين ، الموضع الاول في البذور والموضع الثاني في الغلاف الخارجي للجوز ، وقد اطلق عليه اسم « البسباسة »(7) .

لم استطع ايجاد اي مصدر فيه اشارة الى ان العشاب « ديسقوريدس » او الحكيم « جالينوس » او « بلينيوس » وغيرهم من اليونانيين ، قد ذكروا هذا الجوز مما يؤيد لي قول الكتب الحديثة ان اوروبا عرفت جوز الطيب من العرب في عصر النهضة .

لقد جاء ذكر جوز الطيب في قرطاس « هيرست » الذي عثرت عليه بعثة « هيرست » الطبية في آثار « دير البلاص » في مصر سنة 1901م وقد ذكر ان هذا القرطاس كتب في ايام « امنوفيس الاول » احد ملوك الفراعنة(8) .

والان نتحدث بالمفهوم الحديث عن جوز بوا او جوز الطيب .

ان اسمه العلمي Myristica Aromatica وهو بذور شجر جوز الطيب Myristica Fragrans من الفصيلة الطبية Myristicaceae ، ويسمى بالانكليزية Nutmeg وبالفرنسية Muscadier وبالالمانية Muskat . وتذكر اغلب كتب العقاقير والصيدلة ان العرب هم الذين ادخلوا جوز الطيب الى اوروبا وذلك في القرن الثاني عشر . وبعد مدة من الزمن اخذ التجار الهولنديون حقوق امتياز تجارته واستيراده من الشرق وحتى سنة 1800م . ولقد بلغ الاستيراد الكلي في الولايات المتحدة الامريكية من جوز الطيب سنة 1963 حوالي خمسة ملايين باوند ، اكثرها استورد من اندونيسية(9) . ولقد ادخل جوز الطيب في دستور الادوية الامريكي سنة 1820 الى سنة 1950 ، ثم من 1950 الى 1965 .

استعمالاته :

يستعمل جوز الطيب في تحضير التوابل والبهارات ، وتحضر منه ادوية مضادة للنفخة ، ومخرجة للرياح ، ومعقمات للمعدة والامعاء .

التحليل الكيمياوي :

يحتوي جوز الطيب(10) على :ـ25 ـ 40٪ من وزنه زيت صلب في درجات الحرارة الاعتيادية ، يسمى « زبدة جوز الطيب » Nutmeg Butter 8ـ15٪ زيت طيار Volatile Oil وقد استخلصت من هذا الزيت مواد كيمياوية كثيرة منها : الميريستيسين Myristicine والسافرول Safrole وكذلك بروتينات ومواد نشوية . تستعمل زبدة جوز الطيب في مداواة الروماتيزم المزمن تدليكا ودهانا ، وتدخل في تحضير بعض الغسولات الخاصة بالشعر ، وكذلك في تحضير ادوية جاهزة مثل « مروخ روزن » .

زيت جوز الطيب Myristica - , Nutmeg - Oil وهو زيت طيار يستحضر من البذور الجافة للجوز بطريقة التقطير بالبخار ، وهو سائل طيب الرائحة ، لونه اصفر فاتح ، يستعمل في تطييب طعم الادوية ، ومعقما ضد الطفيليات ، وكذلك في صناعة البهارات والتوابل . وقد ادخل جوز الطيب في دستور الادوية الامريكي سنة 1820 الى 1965 ، ثم من سنة 1965 وحتى الان .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

البسباسة :

وهي الغلاف الخارجي لجوز الطيب واسمها بالانكليزية Mace (**) ، والفرنسية Mace والالمانية Muskat .

وتحضر بنزع القشرة الخارجية للجوز ثم تجفف بحرارة الشمس وتسحن ، فيحصل على مسحوق بني او برتقالي اللون يكون جاهزا للاستعمال . وتحتوي البسباسة على المواد الكيمياوية الواردة في الجوز نفسه ، اضافة الى ذلك « بلسم عطري » بنسبة 24٪ من وزنها . ونسبة الزيوت الطيارة فيها تكون عادة اكثر بمقدار 4–7٪ عما هي في الزيت ، وكذلك نسبة التربينات .

تستعمل البسباسة لنفس الاغراض التي يستعمل فيها الجوز والزيت . وقد ادخلت في دستور الادوية الامريكي سنة 1851 حتى 1905 ، ثم من سنة 1916 حتى 1926 .

التركيب الكيمياوي(11) :

يحتوي زيت جوز الطيب على مواد كثيرة منها :

1 ــ سافرول	Safrol
2 ــ ميريستيسين	Myristicine
3 ــ آيزو اويجينول	Iso - Eugenol
4 ــ بور نيول (يمين)	D - Borneol
5 ــ كامفين (يمين)	d - Camphene
6 ــ بينين ــ الفا ــ	d - Pinene
7 ــ جرانيول	Geraneol
8 ــ تربينيول (يسار)	1 - Terpineol

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والمراجع :

(*) الكلف : تغيرات البشرة بلون كدر .

(**) Mace عند الاطباء هي عبارة عن قشور (جوز بوا) فارسيتها (بزباز) وبالهندية (جاوترى) ــ معجم اسماء النباتات الواردة في (تاج العروس) .

1 ــ جوز ، فارسي معرب / لسان العرب
جوز ، فارسي معرب ــ كوز / معجم اسماء النباتات الواردة في تاج العروس .
جوزبوا ، بوا وتكتب بوى ــ فارسية ، معناها الطيب ، معجم الالفاظ الزراعية ــ تحت كلمة Muscadier / الامير مصطفى الشهابي ــ القاهرة 1957 .

2 ــ القانون في الطب ، ج1 ، ص281 ، من طبعة بولاق ، مكتبة المثنى ــ بغداد .

3 ــ تذكرة اولي الالباب والعجب العجاب ، ص101 ، الطبعة العثمانية المصرية 1937 .

4 ــ الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، المجلد الاول ص ــ 175 ، مكتبة المثنى ــ بغداد .

5 ــ المعتمد في الادوية المفردة ، ص76 ، تاليف الملك المظفر يوسف بن عمران الغساني التركماني صاحب اليمن ــ تحقيق مصطفى السقا ــ الطبعة الثانية 1951 مصر.

6 ــ تحفة حكيم مؤمن حسيني ــ طبيب شاه سليمان صفوى ــ ص76/ تحقيق الدكتور محمود نجم آبادي ــ ايران .

7 ــ احياء التذكرة ــ ص147 ، الدكتور رمزي مفتاح 1953 القاهرة .

8 ــ المصدر اعلاه ، ص228 .

9,10 V. Tyler & E.Claus : Pharmacognosy, P. 223 (Philad . 1968) .

11 P. Karrer . Organlo Chomistry (Amsterdam 1950)

الأثمد

الأثمد في اللغة(1) حجر يتخذ منه الكحل ، وقيل ضرب من الكحل ، وقيل هو نفس الكحل ... ويقال للرجل يسهر ليله ساريا ، او عاملا فلان يجعل الليل اثمدا اي يسهر ، فجعل سواد الليل لعينيه كالأثمد . وقال الشاعر :

كميش الأزار يجعل الليل اثمدا
ويغدو علينا مشرقا غير واجم

والكحل ما يكتحل به ، قال ابن سيده : الكحل ما وضع في العين يشتفى به ، ويقال كحل وكحل العين . وانشد الشاعر « ثعلب »

فمالك بالسلطان ان تحمل القذى
جفون عيون بالقذى لم تكحل

بحث ابن البيطار(2) الاثمد بحثا دقيقا ومفصلا ، فلخص ما جاء به « ارسطو » حيث قال : هو حجر يخالطه الرصاص في جسمه... واذا جعل مع الفضة كسرها ــ (تتكون سبيكة رخوة) ــ وله معادن باكناف المشرق ، وانه نافع للعيون ونافع في كثير من الاكحال ، ويقوي اعصاب العيون ، وينفع العجائز والمشايخ والذين ضعفت ابصارهم من الكبر اذا جعل فيه شيء من المسك .

وذكر عن ديسقوريدس : اجود ما يكون منه هو الذي يكون لفتاته بريق ولمع ، ولم يكن فيه شيء من الاوساخ .

وعن جالينوس : للأثمد قوة مغرية قابضة مبرّدة ، وتذهب باللحم الزائد في القروح العارضة في العين ، وتقطع الرعاف العارض من الحجب التي فوق الدماغ . وله قوة تجفف الاوساخ ، ولذا صار يخلط مع الادوية الاخرى التي تنفع العين . وعن الرازي : يقوي العين ويحفظ صحتها ، ويقطع السيلان .

وعن ابن سينا : الأثمد يقبض ويجفف بلا لذع ، ويقطع النزوف وينفع القروح ... ويمنع الرعاف الدماغي الذي يكون من حجب الدماغ ، ويحفظ صحة العين ويذهب وسخ قروحها(3) .

ان عادة التكحل قديمة جدا ــ ولا تزال ــ فقد وردت نصوص بابلية وآشورية وفرعونية كثيرة حول الكحل . ويظهر سواد الكحل بصورة بارزة في عيون النساء ــ والرجال ايضا ــ في الرسوم الاثرية المنتشرة في المتاحف العالمية .

لقد كان الكحل من اهم المستحضرات التي اهتم بها العطارون . فقد تفننوا في صناعته وطرق استعماله وصنعت المكاحل لحفظه باشكال جميلة ومن مواد ومعادن مختلفة . فمنها ما كان يصنع من العاج الثمين . ومنها من الذهب او الفضة . وكانت ترصع بالاحجار الكريمة ذات الالوان الخلابة . وقد اصبحت عادة التكحل من العادات المستحبة عند الرجال ايضا ومظهرا من مظاهر النظافة والاناقة .

ولقد استعمل الكحل بكثرة كثيرة في الجاهلية ويروى لنا المسعودي(4) في سياق كلامه عن قصة زرقاء اليمامة المشهورة واستعمالها للأثمد ، حيث يقول :

ولما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة ، وكانت

امراة زرقاء ، فامر فنزعت عيناها ، فاذا في داخلها عـروق سـود ، فسالها عن ذلك فقالت : حجر اسود يقال له الاثمد ، كنت اكتحـل به ، فنشب الى بصري ، وكانت هي اول من اكتحل به ، فاتخذوه بعد ذلك كحـلا ...

ومما يذكره الدكتور احمد سوسه(5) عن حضارة الهكسوس(*) وثقافتهم « وقد ورد في الكتابة الهيروغليفية التصويرية التي يحملها احد الموظفين المصريين بيده ما يشير الى ان هذه الجماعة من « سكان الرمال » وقد جاءت الى مصر وهي مؤلفة من ٣٦ شخصا من نسـاء واطفال ورجال يراسها الشخص المسمى « ابيشاي » وقـد جـاءوا بهدايا معهم الى الحاكم منها كمية من مادة « الكحل » التي تصبغ بها اهداب العين الى زوجته . وقد سمي « الكحل ، ستيبيم » .

من المعروف ان رواية الهكسوس تقع بعد رواية زرقاء اليمامة ببضعة قرون ، مما يستدل على ان الهكسوس نقلوا الاثمد معهم من الجزيرة العربية . وهنا يرد السؤال ، هل ان الاثمد كان يستخرج من مكان ما من الجزيرة العربية ، ام يؤتي به من مكان اخر ؟

توجد في احد المتاحف آنية اكدية (حوالي 4000 ق.م) مصنوعة من معدن « الانتيمون »(6) وهذه اشارة الى احتمال وجود هذا المعـدن في مناطق ليست بعيدة عن مواطن الاكديين «اور» وكذلك الى احتمال تعدين الاثمد (وهو كبريتيد الانتيمون) .

الكحل هو كبريتيد الانتيمون الطبيعي ، والمشهور منه الكحـل الاصبهاني ، الاصفهاني ، او الكحل الاسـود . وتوجـد خامـات الانتيمون Antimon في الطبيعة باشكال مختلفة ، واقدمهـا واهمها هوالخام المعروف باسم Spiessglanz او Grauspiessglanz وهو الذي اطلق عليه اسم « الاثمد » . ومن الناحية الكيمياوية هو ثالث كبريتيد الانتيمون Sb 2 S 3 ومن المعروف ان القدماء كانـوا يطلقون اسم « المعدن » على « الخام » لان اغلب المعادن التي كـانت معروفة ليست بصورتها النقية (طبعا عدا الذهب ، والفضـة احيانا) .

يرمز لعنصـر الانتيمـون Sb ماخـوذ من اسـمه اللاتينـي Stibium ــ ستيبيم ــ وكان هذا الاسم يطلق على الخام نفسه. وهنا يرد التعليق على هذه الكلمة . فقد ورد كما مر بنا ان الهكسوس اطلقوا اسم « ستيبيم » على الاثمد ، وهو اسـم مصدره الجزيـرة العربية ومعنى ذلك ان الاسم Stibium ليس لاتينيا بل ادخل الى اللاتينية ، وهناك كلمات كثيرة ترد فيالكيمياء تعتبر كلمات لاتينيـة بحتة ، ولكن لو تعمقنا بتدقيقها لوجدناها غير ذلك .

لقد نقل العرب علوم اليونان الى اللغة العربية ، وقالوا هـذا الموضوع نقل عن ارسطو او افلاطون مثلا . وقالوا هذه كلمة يونانيـة عربناها ، واذا لم يجدوا الكلمة المناسبة في العربية ، كتبوا الكلمـة اليونانية بحروف عربية وقالوا عربناها بهذه الصورة . وعندما نقلـت العلوم من العربية الى اللغة اللاتينية شوهت الحقائق وطمست معالم وآثار علمية كثيرة قام بها العرب ولا نريد ان ندخل في هذا الباب الان، والشواهد كثيرة جدا . ان كشف المزيد من معالم الحضارة العربيـة ومآثر العلماء العرب والمسلمين منوط بمساعي وجهود هذا الجيـل الصاعد من ابناء هذه الامة العريقة ، وهم علمـاء المستقبل ومعلمـو الاجيـال .

اما كلمة « انتيمون Antimon » فيقال ان واضعها شخص اسمه « قسطنطين الافريقاني Constaninus Africanus » وهناك تكهنات كثيرة حول الاسم . ولكن الكيمياوي الالماني الشـهير H. Remy ريمي » يذكر ان التسمية « أنتيمون » جاءت متاخرة ، ويعتقد انها عربية الاصل(٧) . كما ان المؤرخ الدكتور فيليب حتي ايد ذلـك(٨) .

في سنة 1600م نشر كتاب لراهب عاش في القـرن الخامس عشر اسمه Basilius Valentinus ، وكان قد اعلن عن اكتشاف معدن الانتيمون الخالص . وقـد سـمى الكتـاب مركبات الانتيمون الظافـرة

Currus Triumphalis Antimonii (Triumph Wagen Antimonii)

وقد نوهنا سابقا عن وجود الآنية الاكدية 4000 ق.م. المصنوعة من الانتيمون الخالص . وكذلك يذكر ان اليونانيين القدماء قد استطاعوا تعدين الاثمـد .

وبهذه المناسبة لا بد ان نشير الى ان صياغة « المينة » علـى ايـدي صابئة العراق قديمة جدا ، وهي كما يعرف الكيميـاوي اغلبها مـن الانتيمـون .

لا يزال الاثمد « الكحل » وبخاصة في الجزيرة العربيـة وبلدان الخليج العربي يستعمل بكثرة عند العامة من الناس ، ويطلـق عليـه هنـاك وفي العراق ايضا ــ اسم « كحل مكة » ومـن الناحيـة الطبيـة يفضل عدم استعماله ، حتـى لو كـان محضرا بالمعامل الكيمياوية . وقد استعيض عنه بمواد التجميل الحديثة . فالكحل الطبي الذي يصنع في مصانع مواد التجميل هو غير الاثمد القديـم .

ولما كان موضوعنا عن الاثمد ، لذا نكتفي بهذا القدر من الحديث، ولا نتطرق الى عنصر الانتيمون نفسه ، الذي يعتبر من العناصر المهمة في عالم الصناعة وفي تحضير مركبات طبية كثيرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والمراجع :

(*) الهكسوس اي ملوك الرعاة (الاسم يوناني) وهم الذين يسمونهم العمالقة او العرب البائدة (سابيون) ويقال انهم ادخلوا الى مصر ايضا النحاس ، وبعض المعادن الاخرى (حكموا مصر بين 1785 ــ 1580 ق . م) .

1 ــ لسـان العرب
2 ــ مفردات الطب لابن البيطار
3 ــ القانون في الطب
4 ــ المسعودي ــ مروج الذهب ، ج2 ، ص141 . تحقيق محي الدين عبدالحميد/ دار الفكر ، بيروت 1973 .
ــ المسعودي ــ اخبار الزمان ص 124 ، الطبعة الثانية دار الاندلس بيروت 1966 .
5 ــ الدكتور احمد سوسه ــ العرب واليهود في التاريخ ــ ص73ــ78 . دار الحرية للطباعة 1972 بغـــداد .
6 - British Encyclopedia
7 - H. Remy : Lehrbuch der Anorganischen Chemne, B . I , S . 581, 3. Auflage, Leibzg 1940 .
8 ــ الدكتور فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ج2 . ص688 ــ الطبعة الرابعة دار الكشاف بيروت 1965 .

مذهب الشك بين الغزالي وديكارت وطه حسين

ديكارت

طه حسين

استدرجني الاستاذ انور الجندي الى تسجيل هذه الاكتوبة وذلك بقوله : « اني اشفق على الدكتور طه من بداوات عبقريته ، فهي تصور الاشياء كما تريدها هي لا كما يجب ان تكون ، فيتورط ، فيحتال ، فتكون حيلته كالكذبة البلقاء لا تجد من يسترها »(1). وقبل هذا القول بنصف قرن كتب الاستاذ عبدالقادر المازني : « ولكن الدكتور يعمد الى صورة حية فيحاول بمنطقه ان يقضي عليها ويفجعنا فيها ويسلبنا اياها »(2). ولكن ما هي الكذبة البلقاء وكيف فجعنا الدكتور طه حسين بالصورة الحية فقضى عليها وسلبنا اياها ؟ نجد الجواب الاوطر على هذا التساؤل في قول الاستاذ محمود محمد شاكر : « ومعلوم ان الدكتور طه حسين القى محاضراته (في الشعر الجاهلي) زعم ان له منهجا يدرس به تراث العرب كله ، وسمى هذا المذهب ، مذهب الشك »(3) .

لنرتفع بافكارنا الى شكاكين قدامى اصبحت شكوكهم واخبارهم في مستوى التراث الميثولوجي . فهناك دعاء يقراه (الصابئة) المندائيون في عباداتهم ــ وعندهم ــ قد ورد على لسان النبي شيت جاء فيه :

« ليست الشمس مطلبي ولا تهواها نفسي » .

« فالشمس التي عنها تتحدثون تشرق في الصباح وتغرب في المساء » .

« الشمس التي عنها تقولون » .

« ما هي الا باطل زائل ستأتي نهايته » .

« الشمس ستنتهي الى لا شيء وعابدو الشمس سينتهون الى لا شيء »(4) .

وهناك نشيد (اخناتون) وهو الدعاء الذي كان كهنة (آتون) يرتلونه للاله الواحد المتمثل بالشمس :

« عندما تغرب في الافق الغربي » .

« تظلم الارض كالموت » .

« ويخرج الاسد من عرينه » .

« وكل ما يزحف ، انها تلدغ » .

« وعندما يطلع النهار ، وتشرق في الافق » .

« تسوق الظلام بعيـدا » .

« يستيقظ الناس ويقفون على اقدامهم » .

« جميع من في الكون يعملون اعمالهم » .

« ما اكثر اعمالك ، انها تخفى عن نظر الانسان » .

« ايها الاله الاوحد الذي لا مثيل له »(5) .

وانتقل هذا النشيد الى التوراة في مزامير داوود :

« تجعله ظلمة فيصير ليلا » .

« فيه يدب كل حيوان الوعر » .

« الاشبال تزمجر لتخطف ولتلمس من الرب طعامها »(6) .

بقليل من التامل او كثيره نجد مثل هـذا الشك البدائي يسعى للوصول الى ما هو اعلى من الظواهر الملموسة ، ولم يكن المطلوب من المعلمين القدامى والشكاكين الموغلين في القدم اكثر من ذلك لان طفولة الانسان الفكرية في عصوره الاولى متماسكة مع ذهنية مشدودة الى الظاهرة الطبيعية ذات التفسير العسير ولم يكن كثيرا عليهم ان يطفروا بشكوكهم الى الوحدانية بشكل او بآخر لتامين متطلبات حياتهم المعاشية وحماية وجودهم من الآفات الحياتية والظواهر المبهمة . وقد سبق هذا الشك غير المعترف به منهجيا بمئات السنين بل بآلافها فلاسـفة الفترة (الهلينستية ـــ الرومانية) باطوارها الثلاثة ما بين اواخر القرن الرابع قبل الميلاد وبين القرن الاول قبل الميلاد ويتلخص منهجهم بالشك « في كفاية الحواس والعقل في الوصول الى المعرفة بطبيعة الاشياء ».

وبقيت فطرة الشك تتجاذبها التطورات الحضارية حتى ظهور (محمد ابو حامد الغزالي 1059 ـــ 1111 للميلاد) فاستبدت به وكادت تودي به ، فلم يجد مخرجا الا بدراسة كتب الفلاسفـة ، وبذلك اصبحت شكوكه منهجية قائمة على اسس علمية . فدرس التيارات الثقافية في عصره ، وكانت متمثلة بجماعة المتكلمين (المعتزلة) والباطنية والفلاسفة والمتصوفة . ودرس من وراء هذه التيارات تاثيرات الفلسفة اليونانية عليها ، فتاثر اولا بجميع التيارات وعالجها بمحاكمات عقليـة عالية حتى استقر على التصوف كما يدل كتابه (المنقـذ من الضـلال والموصل الى ذي العزة والجلال) واعتبر بعد هذا الاستقراء الفلاسفة كافة مشمولين بالكفر(7) . والف كتاب (تهافت الفلاسفة) .

ولعل كتابه هذا كان ردا حاسما على الفلاسفة اذ انهم كـانوا « يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد واللجاج وانهم انفتح باب الحيرة عليهم وسدّ باب اليقين عنهم ، ولهذا قل تالههم وتنزههم وصاروا يقولون بتكافؤ الادلة »(8) . غير انه بعد مروره بتيار المتكلمين وقف مترددا في قبول انكارهم لكرامات الاولياء ، فهم « من دعاة الفكر والاستنارة رغم مذهبهم الكلامي وما كانوا فيه من تدقيقات »(9) .

ويقول ياقوت الحموي : « اتفق اهل صناعة الكلام على ان متكلمي العالم ثلاثة ، الجاحظ وعلي بن عبدالله اللطفي وابو زيد البلخي »(10). ويعتبر (آدم متز) الجاحظ والبلخي يمثلان الفكر الحر في الزمن الذي سبق الغزالي ويشبه الجاحظ بـ (فولتير) والبلخي بـ (الاسكندر همبولت) بين دعاة الفكر الحر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأما الغزالي فيتلخص مذهبه الذي استقر عليه « بأننا لا نقدر ان نعتبر الاقيسة العقلية اداة صالحة لمعرفة الحق بل الاداة الصالحة لذلك هي الذوق الباطني »(11) . وقال ايضا بعدم مقدرة الانسان على قياس خلق الله للكون بالاعتماد على العلاقة السببية في ظواهر الطبيعـة وحوادثها ، وبهذا استدل هو الموجود القادر على كل شيء . وبهـذه النظرة ثبّت خلافه مع الفلاسفة معتبرا « التجلي » الذوق الباطني الاداة الصالحة للمعرفة وذلك بعد ان مر بمرحلة من الدراسة والتامل خلال التيارات الفكرية المعاصرة له وعالجها بالشك من اجل الوصول الى اليقين . فمذهب الشك عنده ضرب من ضروب الرياضة الفكرية والانتقال مما هو ادنى الى ما هو أعلى مجتازا في سبيل معرفة الحق مختلف الاهواء والسفسطات وحتى المعارف المعترف بها تراثا او معاصرة، وليس من السهل تقرير الجانب النفسي عند الغزالي وهو ينتقل من مذهب الشافعية الى الفلسفة الى التصوف مرورا بالدرس والتدريس عبر مدن طوس ونيسابور وبغداد والشام والقـدس والاسكندرية في طريقه الى مراكش ، وليس من السهل تقرير الجانب الاجتماعي وهو يؤلف تهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال الى جـانب قوله :

هبني صبوت كما تـرون بزعمكم
وحظيت منـه بلثم خـد ازهر
اني (اعتزلت) فلا تلوموا انـه
اضحى يقابلني بوجه (اشعري)(12)

وهذه الصعوبة تاتي من كون الانسان المفكر تعتوره صعوبات اجراء تغييرات كثيرة في سلوكه وفي مجتمعه « حتى يصبح قادرا على تحقيق رسالته وعلى استمرار بقائه كقوة فعـالة من قوى النشاط الانساني »(13) . وهذه القوة تعتمد المحاكمة العقلية في فعاليتها مبتداة بالشك منتهية باليقين «النتيجة». وقد سبق الغزالي مقولة (انا افكر اذن انا موجود) بمئات السنين اذ انه سبق (رينيه ديكارت 1596 ـــ 1650 للميلاد) باتخاذ مذهب الشك منهجا ، وسبقه باعتبار « معظم المقررات الدراسية لا تخرج عن كونها تلقينا لآراء القدماء التقليدية» . وروافد الشك التي تاثر بها الغزالي بالاضافة الى تناقضات عصره الفكرية وتاملاته الشخصية ذات صلة بالمدارس اليونانية من امثال البيرونية الاولى والثانية ومن مفكريها بيرون وتيمون اللذان تكلما في الحواس والعقل وكفايتهما للوصول الى معرفة طبيعة الاشياء . ولئن كان ديكارت قد جبن عن التصريح بشكوكه في فترة من فترات حياته وخصوصا عندما سمع بادانة (غاليلو) من قبل الكنيسة سنة 1634م فان الغزالي لم يجبن عن مناهضة التيارات المخالفة لمذهبه من قبل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم ينشر ديكارت (تاملاته قبل عام 1641 م مستفيدا من صلتــه الحسنة (بالاميرة اليزابيث) وقد اهداها فعلا كتاب (التاملات) ، وديكارت لم يكن ملحدا بل متمسكا بكاثوليكيته غير انه .. رفض في تاملاته ان يقبل من المعتقدات الا ما يبدو انه صادق) ، وقد وصف الصدق بانه « هذا النوع من القضايا غير القابلة للشك » كالقوانيـن الرياضية . ونزع الى ان في مقدور الانسان ان يشك في كثير من الامور « التي تعد بين العامة على درجة كبيرة من اليقين »(14) . وعنـدما اراد ان يبرهن على وجود الانسان ربطه بتفكيره . فقال مقولته المأثورة (انا افكر اذن انا موجود) وقد ادى هذا الضرب من التفكير التجريبي الى تقدم كبير في استثارة افكار جديدةعلى المستويات العلمية المختلفة. وقد ذهب ديكارت في شكه الى اعتبار « جميع الحيوانات حتىالعليا منها ، انما هي مجرد آلات حية وليس لها حياة عقلية ، ونشاطها عبارة عن الوظيفة الآلية للتركيب الطبيعي للجسم(15) . وليس من شان هذه الاكتوبة نقد او مناقشة هــذا التطرف في الشك ســوى القول انه راي ، اثار جدلا علميا فادى الى تطور علم الاحيــاء وعلم الفسلجة ان كان من جانب نظرية التطور او جانب علم دراسة وظائف الاعضاء ، فكلا العلمين تقدما على ضوء شكوك ديكارت وذلك بـكون سلوك الكائنات الحية دون المرتبة الانسانية وذات صلة بالتطوروكذلك وظائف الاجهزة وخصوصا الجهاز العصبي . واما المرتبة الانسانيـة فمتميزة بالفكر الواضح او كما يسميه هو (الفكر غير القابل للشك) . وقد علل الوجود الانساني بوجود التفكير ووضوحــه لدى الانسان فقال : « انه يستطيع الشك بوجود الأنا الجسم) ولا يستطيع الشك بوجود (الانا الفكر) ومن هذا المنطلق استطاع بما لديه من افكار ان يتوصل الى معرفة الله كما توصل الى ذلك الغزالي من قبل عن طريق التصوف . ويرى الدكتور زكي نجيب محمود : لو ان ديكارت اختصر بحثه (في المنهج) على الرياضة وما اليها من تفكير استنباطي لما كان على منهجه غبار(16) . واما تطبيق منهجه على الطبيعة ايضا فغير مقبول لان الرياضة يقينية والطبيعة اخباريـة ، لذلك هي احتمالية(17) . ولم يعترف الدكتور زكي نجيب محمود بان ادراك المفكر لامر ما من الامور التجريبية يستند الى (الزمكان) وما يلفهما من معارف خاصة او عامة ، مرفوضة او مقبولة ، فالمسالة التجريبية يجب ان تـكون الاستجابة لها مستندة الى هدف ، كالتطلع الى معرفــة اليقين او الوصول له . « وان يكون المفكر نشطا في حــل مشكلة او موقف مشكل »(18) . فهي اذن قضية تربوية وبيئية وثقافية في آن واحد. فشكوك ديكارت ابتدات من اول السلم كشكوك الغزالي بالنسـبة لتعدد الثقافات والمذاهب وانتهت الى اليقين في اعلى السلم (الظرفي) نسبة الى التقدم الفكري (الحضاري) وعلاقة ذلك بالزمان والمكان، وقد لاحظنا اهمية الظرف (الزمكاني) في دعاء الصابئة كما ورد في كتابهم المقدس (كلاستا) ولاحظناه في دعاء كهنة (آتون) فمزامـير داوود . ونلاحظه في شكوك النبي ابراهيم بربوبية النجم والقمـر والشمس في الوصول الى يقين ووجود الرب الواحد الخالق المدبر(19).

وبعد هذه السلسلة من الشكاكين منذ عهد الميثلوجيا الى عهـد المذهب التجريبي نتساءل عن شك الدكتور طـه حسين الذي اعلنـه سنة 1926 م في محاضراته التي القاها على طلاب الجامعة في القاهرة فاصبحت بعد ذلك كتاب (في الادب الجاهلي) ، لنتساءل بماذا شك الدكتور والى ماذا توصل الدكتور ؟

علمنا مما تقدم ان الشكاكين امتحنوا افكارهم وروضوا انفعالاتهم العقلية وفق تاملات خاصة ومناهج واضحة واما الدكتور طه حسين فقد جاء بشكه تقليدا لمستشرقين قصدوا الطعن بالحضارة العربية فسلك دربهم تحت راية الشك ، وليس ادل على ذلك من تكرارهلآراء (المستشرق مرجليوث)(20) . فلم يكن شكه مذهبا ، بل قصـــدا لافراغ حضارة العرب قبل الاسلام من بعض مقوماتها كالشعر الجاهلي وبلغ به التقليد الاعمى للمستشرقين ان يضع المتنبي في قائمة الشعراء الشعوبيين (في الادب الجاهلي ـ الطبعة الاولى) وذلك لان بلاشيرمثلا لا يستسيغ ان يكون المتنبي بطلا قوميا وان « يبقى الشـرق تحت وصاية اوربا الفكرية »(21) . وعندما عجز الدكتور طه حسين ان يجد ابا معترفا به للمتنبي قرر انه لقيط وانه قرمطي لان المستشرق بلاشير راى ان المتنبي لقيط وقرمطي ، ودفعته عقدة الذنب الى الاعتراف « بان المتنبي ليس باحب الشعراء اليه » لذلك يجب ان لا يكون شاعرا معترفا بقوميته ونسبه . ولعله الف كتابه (مع المتنبي) زلفى لبلاشير الذي يقول : « بان العرب في العصر الحديث قد اتخذوا من المتنبي ممثلا لطموحهم واحلامهم ، وارادوا بأبتعاثه ان يتخذوه مثلا عاليـا في النضال » . فراى الدكتور ـ كما يبدو ـ ان يحول دون ذلك ،فشك بنسبه وشكك بقوميته ، ولكي يوهم بعض معاصريه بانه صاحب مدرسة في البحث حاول تجريد الشاعر احمد شوقي من اسباب تطلعاتـــه القومية (في حديث الاربعاء) وعزا عبقريته وتفوق غيره من الشـعراء والمفكرين الى دماء غير عربية تجري في عروقهم .

ولست بصدد نقد مذهب الدكتور في الشك وخصوصا رايـه المسجل في الادب الجاهلي ، لان معظم معاصريه قد فرغوا من ذلك وثنى عليهم من هم في عمر ابنائهم وحتى من هم في عمر احفادهم(22) .وقد حدثنا محمود محمد شاكر عن ازدواجية الدكتور في تراجعه غيرالمعلن عن شكه في الادب الجاهلي (23) . بما ينفي أصالة مذهب الشك عنده ويوضح انه اراد من دعواه معولا يهدم به حضارة العرب قبل الاسلام بصورة عامة وشعرهم بصورة خاصة . فعرب قبل الاسلام مسلم بنقاوة دمائهم لذلك يجب ان لا يكون لهم شعر وعرب بعد الاســلام اختلطت دماؤهم بالاعاجم فاصبح لهم شعر ورووا من تواليفهم شعرا جاهليا ،اليس هذا ما كان يخامر ضمير الدكتور ؟ وعندما تحـدث عن لغة اليمن ولغة عدنان وعن امرىء القيس اليماني والشعر الذي نسب اليه العدناني فاتته حقيقة « ان من اعظم اســرار الحياة لغات الناس »(24) . وان تطور اللغة يحدث عرضيا ولا شعوريا وهو تطور لا يخضع للقاعدة الجغرافية او القاعدة القبلية ، ومن اكبر الاخطاء ان يستنتج الباحث ان الانسان في سابق عهده كان قليل التمازج الفكري وقليل التنقل وقليل التاثر بما حوله من معرفة ولغة . فاطــراف الجزيرة العربية اقرب الى بعضها للتنقل والتفاعل الفكري واللغوي من سيبريا الى اميركا عبر (مضيق بهرنك) وعهـد العرب قبل الاســلام اعمق بكثير من السنوات المعدودات التي تحدث عنها وفيها الدكتور طه حسين . « فليس من العجب ان يكون لعرب الجاهلية شعر ، بل العجب ان لا يكون لهم ذلك » وهم أصحاب عمــق حضاري كشف بعضه الآثاريون وهم في سبيل الكشف عن البعض الآخر ، مما يشير بجدية الى التفاعل العقلي والانفعال العاطفي كما تتطلب ذلك طبيعـة الحياة الصحراوية والضرورات المعاشية والمقومات اللغوية للتعبير عن التفاعل والانفعال في آن واحد . فالتشكيك الذي طرحه الدكتور طـه حسين تقليدا لبعض المستشرقين اقرب الى انكار البيّنة من البحث

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

عنها ، وهذا التشكيك ، بل هذا الانكار نابع من اسس مقومات شخصية الدكتور طه نفسه نتيجة لعوامل الاضطراب النفسي المترتب على التناقض بين بيئته القروية وثقافته الازهرية وتأثير افكار المدرسة الفرنسية عليه . وليس بمقدور احد ، حتى المتخصص بعلم النفس عزل العوامل الاساسية في تكوين شخصية الفرد عبر مراحل نضوجه العقلي والجسدي عن سلوكه في الرفض المطلق او القبول المطلق او الرفض والقبول على اساس المحاكمة العقلية . فكثير من مقومات الشخصية تدفع صاحبها لا شعوريا الى التشبث بالوهم حتى يصبح ذلك الوهم في عرفه بمستوى الحقائق . وهذه النظرية العلمية في ممارسة الحياة لدى الناس وبعضهم عباقرة كالدكتور طه حسين ، تتكافأ مع خاصية نفسية منطوقها « بالرغم من ان الشخص تحيط به بيئته النفسية فانه ليس جزءا منها »(25) . وقد حدث هذا للدكتور طه حسين لانه ارتقى سلمه الثقافي عبر بيئات غير متجانسة وكلمة (البيئة غير المتجانسة) تعني في قاموس النفسانيين « تلك التي يتساوى فيها تأثير جميع الوقائع على الشخص »(26) . فتأثير القرية وتأثير الازهر وتأثير باريس في فترة العشرينات من هذا القرن (وهذا مهم جدا) اثرت في تكوين شخصية الدكتور طه حسين تأثيرا غير متجانس، فانتجت شكه في الشعر الجاهلي كرمز لا شعوري من تأثير جهالة البيئة القروية عليه في طفولته وجعلته يتصور ان معظم الشعر الجاهلي الذي وصلنا هو من نظم الرواة بعد الاسلام كرمز لا شعوري آخر نابع من تأثير بيئة الازهر عليه ، وتقليده للمستشرقين او (سطوه) على نتاجهم الفكري – كما يقول محمود محمد شاكر – وزعمه انه من انتاجه ، انما هو رمز لا شعوري ثالث من تأثير قوالب باريس الثقافية – حينئذ – عليه ، ولم تكن لعبقريته في الانشاء والبيان سلطان يكبح جماح هذه الرموز (البيئة غير المتجانسة) المكونة لشخصيته ، لان ذلك قدره البيئي بالاضافة الى العلاقة بين البنيان الجسمي وبين المزاج الشخصي خلال السلوكات في الحياة بعد تبلور مقومات الشخصية عنده ، وقد سجل لنا الاستاذ عباس خضر شيئا من انفعالات الدكتور وغضبه كلما سمع كلمة (اعمى) حتى اذا لم يكن هو المقصود بها(27) . وهذا الشاهد العدل يؤيد بشكل ما رأي الاستاذ المحامي فهد المولى في : ان من اسباب كره الدكتور طه للمتنبي ان الشاعر ذكر (العمى) في شعره بمناسبات عدة .

« واذا خفيت على الغبي فعاذر

ان لا تراني مقلة عمياء »

نستخلص مما تقدم ، ان الشك عند الدكتور طه حسين لم يكن منهجا كما كان لدى الغزالي وديكارت ، بل هو انفعال ذاتي قائم على مسببات التكوين الشخصي ، مما غذّى عنده دوافع نوعية طموحة كالرغبة في التفوق والمكانة الاجتماعية والاكتساب والانجاز ، وكان لذكائه الاثر البليغ في ترجمة (الرغبة) الى ممارسة فعلية . لذلك ان كانت شكوك اصحاب المناهج قد ساعدت على تقدم المعرفة ، فشكوك اصحاب الرغبة – والدكتور طه حسين منهم – ساعدت على الايهام وهذا ما كان يسعى اليه المستشرقون المتحيزون ضد العرب ويعمل له بعض تلامذتهم الراغبون بالتفوق .

الهوامش :

1 – انور الجندي : آفاق جديدة في الادب ، ص 167 عام 1978 .

2 – عبدالقادر المازني : قبض الريح ، ص 75 عام 1927 .

3 – محمود محمد شاكر : المتنبي 40/1 ط 2 .

4 – ناجية راني : التراث الشعبي ، العدد 9 السنة 5 .

5 – جون ويلسون : الحضارة المصرية ، ص 366 .

6 – المزامير : المزمور 104 .

7 – الغزالي : المنقذ من الضلال ص 74 وما بعدها .

8 – متز : الحضارة الاسلامية 357/1 ط اولى .

9 – المصدر السابق 1 / 358 .

10– ياقوت الحموي : الارشاد 141/1 . انظر هامش متز 358/1 .

11– الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص 207 .

12– وفيات الاعيان 354/3 .

13– د. برنال : رسالة العلم الاجتماعية ص 311 .

14– الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص 140 .

15– الدكتور يوسف مراد : مقدمة ميادين علم النفس ص 31 .

16– دكتور زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي 210/2 .

17– المصدر السابق من 209/2–246/2 .

18– هوراس .ب.انجلس : ميادين علم النفس ص 192 .

19– القرآن الكريم : سورة الانعام الآيات 76–79 .

20– عدد تموز من مجلة الجمعية الملكية لسنة 1925 ، انظر مقدمة محمود محمد شاكر لكتاب المتنبي ط 2 ص 15/1–21 .

21– انور الجندي : آفاق جديدة في الادب ص 163 .

22– الدكتور هاشم الطعان : الادب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ، رسالة دكتوراه 1978 .

23– محمود محمد شاكر : المتنبي ط 2 هامش رقم (1) 42/1 .

24– جورج سارتون : تاريخ العلم ص 43 .

25– ك. هول و ج لندزي : نظريات الشخصية ص 204 .

26– المصدر السابق ص 206 .

27– مجلة الثقافة (المصرية) العدد 41 السنة الرابعة فبراير 1977 مقال بقلم عباس خضر ص 48 بعنوان هؤلاء عرفتهم (طه حسين) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريب دواوين العراق

اصل الدواوين وتطور وجودها قبل التعريب :

كان الديوان(1) في عهد عمر بن الخطاب (رض) ، يعني السجل الذي يضم اسماء المقاتلة واهليهم ومقدار اعطياتهم وارزاقهم ، اي ديوان الجند ، ولما تعددت الدواوين صار معناه السجل بصورة عامة ، وصار اخيرا يطلق على المكان الذي يحفظ فيه السجل(2). ويعتبر الخليفة عمر بن الخطاب اول من دوّن الدواوين(3) ، ومنح العطاء واقامه على اسس منظمة ، وقبل عهده ، كان ابو بكر الصديق (رض) عندما يقسم الاموال ، يعطي الناس بالتساوي ولا يرى التفضيل(4) . ويبدو ان رغبة الخليفة عمر في ان تكون هناك اسس منظمة ، وثابتة في توزيع الاموال ، ومنح الاعطيات ، هي التي دفعته الى الاخذ بفكرة عمل الديوان .

ويرى معظم الفقهاء والمؤرخين القدامى ، ان مجيء ابي هريرة (ت 59هـ ــ 678 م) باموال كثيرة من البحرين ، كان هو العامل المسبب لتدوين الدواوين(5). فقد فكر الخليفة في الكيفية التي يوزع بها هذه الاموال لكثرتها ، فخطب في الناس قائلا : « ايها الناس انه قد جاء مال كثير فان شئتم ان نكيل لكم كلنا ، وان شئتم ان نعدّ لكم عددنا ، وان شئتم ان نزن لكم وزنا لكم ». فاقترح احد الحاضرين على الخليفة ان يدون الدواوين(6) . وقد قيل ان الذي اشار على عمر بالديوان ، كان الوليد بن هشام بن المغيرة(7) ، لانه راى ملوك الشام يفعلون ذلك(8). وهناك من يذكر اسم خالد بن الوليد (ت 21 هـ ــ 641 م) بدلا من الوليد بن هشام(9) ، ومهما يكن من امر فان تعدد الاسماء والاشخاص يدل على ان الخليفة عمر بذل جهودا عظيمة ، واستشار عددا كبيرا من الناس ، لاجل ان يصل الى الاجراء الذي يحقق مصلحة الامة ، ويتلاءم مع الشريعة الاسلامية . وكان من كبار الصحابة الذين استشارهم عمر : علي ، الذي قال له : « تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال فلا تمسك منه شيئا »(10) ، اما عثمان بن عفان فقد كان له راي آخر ، حيث قال : « ارى مالا كثيرا يسع الناس وان لم يحصوا حتى تعرف من اخذ ممن لم يأخذ خشيت ان ينتشر الامر ». وقد قارن عمر بين هذه الآراء جميعا ، ثم قرر ان يأخذ بنظام الديوان ، وذلك بسبب ميله للسياسة المركزية والى تهيئة مورد ثابت للدولة(11) . ثم امر بكتابة الناس على منازلهم فكتبوا له، وهكذا ظهر اول ديوان في الدولة الاسلامية ، وهو ديوان العطاء او الجند ، وكان يتالف من سجل باسماء المسلمين الذين يستحقون العطاء والمقاتلين ، ومقدار اعطياتهم ، ورتب العطاء على وفق اسس معينة، يأتي في مقدمتها السبق والبلاء في الاسلام(12) .

لقد حاولت بعض الروايات ، ان ترجع الفضل في عمل الديوان الى الفرس ، ومن ذلك ما ذكره ابن طباطبا(13) (ت 709هـ ــ 1309م) من ان احد (مرازبة)(14) الفرس هو الذي نصح الخليفة بهذا ،وكذلك ما أورده الجهشياري(15) (ت 331هـ ــ 942 م) من ان صاحب الاقتراح هو (الفيرزان) او (الهرمزان)(16) حسبما يذكره الماوردي(17) (ت 450هـ ــ 1058 م) ، وابن خلدون(18) (ت808هـ ــ 1405 م) ، ولكن ابا يوسف(19) (ت 182 هـ ــ 798 م) ، وابن سعد(20) (ت 230 هـ ــ 845 م) ، والبلاذري(21) (ت 279 هـ ــ 892 م) ، والطبري (22) (ت 310 هـ ــ 922 م) لم يذكر اي واحد منهم لا (الهرمزان) ولا غيره من الفرس ، وهذا ما يجعلنا نميل الى اعتبار معظم الروايات التي ترجع الفضل في انشاء الديوان الى الفرس، انها روايات مفتعلة من وضع الشعوبية(23) .

وهناك اختلاف في التاريخ الذي دونت فيه الدواوين ، فيذكر الطبري(24) ان سنة (15 هـ ــ 636 م) ، هي السنة التي دونت فيها الدواوين ، بينما يذكر ابن سعد(25) والبلاذري(26) ان ذلك كان في سنة (20هـ ــ 640 م) ، ولكن المرجح ، ان توزيع العطاء ، وتدوين الدواوين ، كان بعد هذا التاريخ ، وقد اسلفنا القول في ان قدوم ابي هريرة من البحرين بالاموال كان بعد سنة (20هـ ــ 640 م) ، يضاف الى هذا ان هناك رواية اخرى تؤيد ان فرض العطاء وتدوين الدواوين كان بعد انتهاء الفتوحات في العراق والشام، ومجيء الاموال منهما(27) وذلك نتيجة لتنظيم خراج السواد خاصة على يدي عثمان بن حنيف(28) ، وحذيفة بن اليمان(29) ، والذي بلغ اكثر من مائة مليون درهم قبل وفاة عمر بن الخطاب(30) .

وبعد فتح العراق واستقرار العرب فيه ، اصبح في الكوفة والبصرة ديوانان ، احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم ، وهو الذي وضعه الخليفة عمر ، والآخر للامور المالية وحساباتها بالفارسية(31) ، لان العرب ابقوا في البداية على معظم التنظيمات القديمة في البلاد المفتوحة ، ويعود سبب ذلك في راي احد الكتاب الغربيين ، الى ان العرب : « اتوا ليبنوا لا ليهدموا » ، لذلك كان من الحكمة ان يستعملوا الجهاز القائم فعلا وبنجاح ، والا يستبدلوه بجهاز جديد بصورة مفاجئة »(32) . ومن الملاحظ هنا ، ان العرب على الرغم مما تعلموه من الاغريق والآراميين والاقباط ، فان التأثير الفارسي في الدولة والحضارة كان اكبر(33) ويبدو ذلك واضحا من اعتراف عبدالملك بن مروان حينما قال لروح بن زنباع(34) انه « شامي الطاعة ، عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة »(35) . والكتابة هنا تعني مسك الدفاتر والسجلات(36) ، ولقد كان هذا الامر واضحا بالنسبة للعراق بصورة خاصة ، وعلى سبيل المثال فان (Sprengling) (37) يعزي نجاح زياد بن ابي سفيان في حكم البصرة واجزاء من فارس ، الى اجادته للغة الفارسية احسن من غيره من العرب . ولقد ادرك زياد اهمية وجود الاعاجم العالمين بامور الخراج(38) للقيام بضبط الدواوين والاشراف على الحسابات التي كانت ما تزال بالفارسية ، ولهذا فقد كان يشرف على كتابة الخراج في عهده (زاذان فروخ)(39) وقد استمر عبيدالله بن زياد على هذه السياسة ايضا ، فوثق بالدهاقين(40) اكثر من العرب ، لانه رآهم ابصر بالجباية ، واوفى بالامانة ، واهون بالمطالبة(41) . وعندما خضع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي

د. عبد الواحد ذنون طه
الموصل

العراق للزبيريين ، استخدم مصعب بن الزبير ، فارسيا على الخراج، يدعى (سارزاذ)(42) ، ولكن ابن اخيه حمزة بن عبدالله(43) سلك سلوكا مغايرا ، فقتل دهقان الاهواز لانه تأخر عليه في حمل الخراج(44) .

عوامل تعريب الدواوين :

ان توفر عامل الاستقرار ، وطبيعة العصر ، الذي ظهرت فيه بوادر الانتقال من البداوة الى الحضارة ، ومن الامية الى حذق الكتابة، وظهور عدد كبير من المثقفين العرب ومواليهم ، بينهم كتاب ومحاسبون مهرة(45) كل ذلك ادى الى ازالة العقبات التي كانت تقف امام عملية التعريب ومسك السجلات بانفسهم .

اما على مستوى القيادة فقد كان عبدالملك والحجاج اداريين من الطراز الاول ، لهذا فقد رغبا في التعمق بالقضايا التي تواجههما ، وبما انهما لم يعرفا سوى العربية ، فقد برزت الحاجة الماسة الى تعريب امور مختلفة(46) . ان اتخاذ اللغة العربية اداة لادارة الدولة وضبط الامور المالية فيها ، يعني رغبة اولي الامر من العرب في ترأس جهاز الدولة والسيطرة عليه ، ذلك ان اجراء المعاملات الكتابية والحسابات المالية باللغة العربية ، وهي لغتهم القومية الخاصة ، كان يمنح هؤلاء الحكام امكانية السيطرة على نشاط الادارة المالية في البلاد(47) وكان وجود الدواوين باللغات الاجنبية يعني وجود موظفين اجانب من غير العرب والمسلمين ، وهذا اعتراف من الدولة بشرعية هذه اللغات ، واعتبارها لغات رسمية ، ويبدو ان عبد الملك والحجاج لم يكونا يرغبان في هذا الامر .

ان موضوع سيادة اللغة العربية ، على اهميته ، لم يكن العامل الوحيد لعملية التعريب ، خاصة اذا علمنا مدى حرص الحجاج على ضبط الادارة والاطلاع على كل الامور التي تجري في الولاية ، لهذا فمن المفروض انه اراد ان يدرس سجلات الضرائب ، ويتحقق منها بنفسه ، وهذا لا يتم بطبيعة الحال ، الا بعملية التعريب ، فكان هذا من اهم دوافعه لنقل الدواوين الى اللغة العربية . كما كان يتوخى غاية اخرى ، وهي الاشراف على شؤون الادارة المالية ، ومحاسبتها ، مما يفسح له المجال لحل الازمة الاقتصادية التي كانت تهدد البلاد(48) .

هذه هي الاسباب الحقيقية لعملية تعريب الدواوين ، لكن المؤرخين العرب لم يتعمقوا في هذه الدوافع ، بل نراهم يحاولون تعليل هذا العمل العظيم باسباب ساذجة لا قيمة لها ، من ذلك مثلا قولهم : ان عبد الملك امر بتعريب دواوين الشام لان « رجلا من كتاب الروم احتاج ان يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال في الدواة . .»(49) او لانه طلب امرا من كاتبه الرومي ، فرأى منه توانيا وتثاقلا(50) . وبالنسبة لدواوين العراق ، لا نراهم يقدمون سببا وجيها لعملية التعريب ، وكل ما في الامر ، انهم يصفون هذه العملية وكأنها تمت عرضا وبرغبة من الحجاج نفسه ، اذ لا يوجد نص صريح فيه امر من عبدالملك للحجاج بتعريب الدواوين ، ولكن هذا لا يمنع من الاعتقاد ، بأن العملية تمت نتيجة للسياسة العربية العامة للدولة ، على ضوء الاسباب والعلل التي ألمحنا اليها .

عملية التعريب ودور الفرس في اعاقتها :

وقد اشرف على عملية تعريب دواوين الخراج في العراق ، صالح بن عبدالرحمن(51) الذي قام بدور كبير في هذا المضمار . لقد دخل صالح الى ديوان الخراج مع زاذان فروخ ، عندما استدعي الاخير من عزلته الى الوظيفة من قبل الحجاج ، وهذا يعني ان صالحا قد تدرب تحت يد زاذان فروخ في ديوان الخراج بالبصرة ، ثم اصبح مساعده الخاص ، ولهذا فقد كان كثيرا ما يحضر معه الى مجلس الحجاج . وكان هذا الشاب يعرف الفارسية والعربية جيدا ، ومعرفته بالاخيرة كانت احسن بكثير من معرفة زاذان فروخ،اوابنه مردانشاه(52) وقد جعله هذا اضافة الى حيويته ، ومظهره اللطيف قريبا من قلب الحجاج ، لهذا فقد وجد نفسه حالا في امرة الحجاج وله ميزة خاصة عنده . وقد شعر صالح بذلك ، فاخبر سيده زاذان فروخ ، عن مخاوفه من تقديم الحجاج له ، وابعاده استاذه ، فأجابه الاخير : « لا تظن ذلك ، هو احوج الي منه اليك لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري »(53) . ولكن صالحا اجابه ، انه يستطيع لو شاء ان يحول الحساب الى العربية ، وفعلا حوّل قسما منه ، عندما طلب اليه زاذان فروخ ذلك لاختباره . ولما رأى الاخير نجاح صالح ، خاف على مركزه ، وعلى مصير السجلات الفارسية ، ثم نصح اصحابه ، ان يلتمسوا لهم مسكنا ومكسبا غير هذا، فقد ذهب مكسبهم(54). وطلب الى صالح ان يتمارض ، ولكن الحجاج شعر بغيابه ، فارسل اليه طبيبه الخاص ، فلم يجد به علة ، وعندما بلغ زاذان فروخ ذلك ،امره بالظهور من جديد(55) . وبعد ذلك صدر امر الحجاج بنقل الدواوين الى اللغة العربية في سنة (78 هـ — 697 م)(56) ، ولكن البلاذري(57) يجعل بدء عملية التعريب ، بعد مقتل زاذان فروخ في البصرة ايام فتنة ابن الاشعث ، وذلك بعد ان اخبر صالح بن عبدالرحمن ، الامير ، بما كان قد جرى بينه وبين زاذان فروخ في نقل الديوان ، فحفز ذلك الحجاج على الاسراع في النقل ، وعهد بذلك الى صالح(58) .

ان التاريخ الذي حدده الجهشياري(59) للتعريب ، وهو سنة (78هـ — 697 م) يمكن ان يكون معقولا ، ولا يوجد تعارض بين عمل صالح في الترجمة ، وبين وجود زاذان فروخ ، وابنه من بعده على ديوان الخراج ، لان ما ترجمه صالح ، ثم بدأ بادخاله الى العربية، هو الكتب الرسمية ، واوراق الحسابات التي تعرض امام الحجاج ، في حين بقيت سجلات المقاطعات ، والاقاليم كما كانت بالفارسية ، الى ان حان الوقت لتغييرها ايضا(60) . لقد امضى صالح ، وقتا غير قليل في تدريب الرجال القادرين والراغبين في اتمام هذه المهمة ، وفي نفس الوقت استمر الموظفون والكتاب القدامى المدربون على ما كانوا عليه ، في حين انهمك صالح ومساعدوه في تنظيم ، وتنسيق سجلاتهم في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدائرة المركزية . وبذلك تكون الخطوة العظيمة قد اتخذت على الرغم من كل الصعوبات(61) .

لقد حارب الفرس فكرة تعريب الدواوين حتى آخر لحظة ، وقاموا بمحاولتين لاعاقتها ، ففي المحاولة الاولى التي تزعمها مردانشاه ابن زاذان فروخ ، حاول ان يقنع صالحا باستحالة ترجمة المصطلحات الفارسية الى العربية ، فساله : « كيف تصنع بدهويه (العشر) وششويه ؟ (واحد من العشرين)(62) » قال : اكتب عشر ونصف عشر . قال فكيف تصنع بويد ؟(63) قال اكتبه ايضا والويد النيف والزيادة تزاد »(64) ولقد عبر مردانشاه عن يأس الفرس من صالح بن عبدالرحمن ، وذلك عندما لعنه قائلا : « قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية »(65) .

وفي المحاولة الثانية ، حاول الفرس اتباع اسلوب الرشوة فبذلوا لصالح مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ، فابى ومضى قدما في مهمته بعد ان ثبت في وجه التهديدات والاغراءآت « ولكنه لم يخن زملاءه المستخدمين ، والا لما بقوا في مناصبهم لحظة اخرى »(66) . وليس من الغريب بعد هذا ان يتخرج على يد هذا الرجل ، معظم الكتاب العظماء للجيل التالي في الشرق ، يقول الجهشياري(67) : « وكان عامة كتاب العراق تلامذة صالح » . وفيه يقول عبدالحميد بن يحيى ، كاتب مروان بن محمد : « لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب »(68) . ولكن مركزه لم يكن واضحا ، فهو لم يعد بالتاكيد المساعد الخاص لزاذان فروخ ، غير انه كان مقربا من الحجاج شخصيا ، ويقوم بالمهام التي تعهد اليه مباشرة مستمدا السلطة على معاونيه ، وكتابه من قربه من الامير ، اضافة الى قوة شخصيته(69) وقد استمر محافظا على مركزه الى نهاية عهد الحجاج ، حيث ولي خراج العراق لسليمان بن عبدالملك(70) (96ـ99هـ ـ714ـ 717 م) الا انه لقي نهاية مؤلمة في زمن يزيد الثاني (101 ـ 105هـ ـ 719 ـ 723 م) ، فقد عذب ومات في السجن على يد عمر بن هبيرة(71) .

يذكر (E.G.Browne) (72) ، ان محاولة التعريب ، وتخليص دوائر الدولة من غير العرب انتجت فقط نجاحا جزئيا ووقتيا ، وليس هذا صحيحا ، لان النتائج التي تمخضت عن عملية التعريب كانت عظيمة جدا ، وفي مقدمتها تحقق نصر اللغة العربية ، على الفارسية ، والرومية والقبطية ، ولقد اصبح تعريب الدواوين سبيلا الى تعريب الجاليات في اقاليم الدولة المختلفة ، فكان هذا من اكبر العوامل في انتشار اللغة العربية(73) التي اصبحت لغة الثقافة والادارة الى جانب كونها لغة السياسة والدين . لقد تضمنت عملية نقل الدواوين من الفارسية الى العربية فقدانا كبيرا لتاثير الفرس(74) ، كما كانت احد العوامل التي اثارت استياء اعداء الدولة الاموية(75) ، ولهذا فليس من المستغرب، ان نرى بعض الروايات(76) المتاثرة بالشعوبية ، تحاول ان تظهر التعريب، وكانه مرتجل ، او تنسبه الى اسباب تافهة وهو : « اعظم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن نظم وفق خطة شاملة »(77) . لقد كان هذا العمل يعني اكثر من مجرد التعريب لسجلات الضرائب ، انه نشر للثقافة العربية التي طغت على الثقافات الاخرى وطبعتها بطابعها الخاص وهذا ادى حتما الى زوال نفوذ بعض الفئات التي كان كيانها مستمدا من التفوق في الثقافة والمدنية .

الهوامش :

1 ـ كلمة ديوان في الاصل ، كانت تطلق على الكتبة ، ثم تحول المعنى الى محل جلوسهم وعملهم ، فاصبح يطلق عليه اسم الديوان : ابن قتيبة، عيون الاخبار : 50/1 ، الصولي ، ادب الكتاب ، ص187 ، الماوردي، الاحكام السلطانية، ص 199 ، مقدمة ابن خلدون، ص 243 ،بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص 66 .

2 ـ الدوري ، النظم الاسلامية ، ص 194 .

3 ـ الجاحظ ، العثمانية ، ص 94 ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك 2750/1ـ 51 ، الجهشياري، الوزراء والكتاب ، ص 16 ، المسعودي، التنبيه والاشراف ، ص 250 .

4 ـ ابو يوسف ، الخراج ، ص 42 ، الاحكام السلطانية ، ص 200 .

5 ـ استعمل ابو هريرة على البحرين واليمامة سنة (20 هـ / 640 م) ، وبقي في منصبه الى سنة (22هـ/642م) : الطبري : 2594/1 ، 2647 ، 2693، ولهذا فيكون قدومه بالاموال ، ومن ثم شروع الخليفة عمر بتدوين الدواوين قد تم بعد سنة (20 هـ / 640 م) .

6 ـ ابو يوسف ، ص 45 ، وانظر : طبقات ابن سعد ج3 ، ق1 ،ص316، البلاذري ، فتوح البلدان : ص 554 ـ 55 ، الوزراء والكتاب ، ص 16 ـ 17 ، الاحكام السلطانية ، ص 119 .

7 ـ لم اعثر على اسم الوليد مع ابناء هشام بن المغيرة المخزومي ، ولعل الرجل المقصود هو : هشام بن الوليد بن المغيرة ، الذي اسلم يوم الفتح ، انظر : ابن قتيبة ، المعارف ، ص 70 ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 144 ـ 45 ، 147 .

8 ـ طبقات ابن سعد ، ج3 ، ق1 ، ص 212 ، فتوح البلدان ،ص549 ، الطبري : 2750/1 .

9 ـ الاحكام السلطانية ، ص 200 ، مقدمة ابن خلدون ، ص 244 .

10ـ طبقات ابن سعد : ج3 ، ق1 ، ص 212 ، فتوح البلدان ، ص 549، الطبري : 2750/1 ، الاحكام السلطانية ، ص 199 ـ 200 .

11ـ الدوري ، النظم الاسلامية ، ص 188 .

12ـ عن تفصيلات منح العطاء في عهد عمر انظر : ابو يوسف ، ص 43 فما بعدها ، ابو عبيد ، الاموال ، ص 224 فما بعدها ، طبقات ابن سعد، ج3 ، ق1 ، ص 212 ـ 16 ، العثمانية ، ص 211 ـ 13 ، فتوح البلدان ، ص 548 فما بعدها ، الطبري : 2412/1 فما بعدها ،الاحكام السلطانية ، ص 201 .

13ـ الفخري ، ص 68 .

14ـ المرازبة : جمع المرزبان ، وهم ما وراء الملوك ، اي حكام الثغور وحماة الحدود ، و (مرزهو) : الحد بالفارسية ، ومرزبان هو صاحب الحد: الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص 70 ، المعجم الذهبي مادة (مرزبان).

15ـ الوزراء والكتاب ، ص 17 ، وانظر ايضا : الصولي ، ادب الكتاب، ص 190 .

16ـ الهرمزان : من كبار رجال الفرس ، حارب المسلمين اثناء فتح العراق، ثم اسر ، وارسل الى عمر بالمدينة ، فعفا عنه . وقد اسلم وسمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(عرفطة) ، وفرض له الخليفة في الفين من العطاء ، اتهم بقتل عمر هو وفيروز المعروف بابي لؤلؤة وجفنة ، ولما طعن عمر قتل الهرمزان : طبقات ابن سعد ، 64/5 ـ 65 ، المعارف ، ص 187 ، الطبري : 2534/1 ، 2556 فما بعدها .

17ـ الاحكام السلطانية ، ص 199 .

18ـ المقدمة ، ص 244 .

19ـ الخراج ، ص 45 .

20ـ الطبقات الكبرى ، ج3 ، ق 1 ، ص 212 فما بعدها .

21ـ فتوح البلدان ، ص 549 فما بعدها .

22ـ تاريخ الرسل والملوك : 2750/1 .

23ـ انظر : الريس ، الخراج في الدولة الاسلامية ، ص 134 (الحاشية) من راي الكاتب في مسالة (الهرمزان) بصورة خاصة ، حيث انه يعتبرها مخترعة او من وضع الشعوبية .

24ـ تاريخ الرسل والملوك : 2411/1 ، وفي « الاموال » ص 223 ، ان عمرا قرر توزيع العطاء منذ اجتماع الجابية / وهي قرية من اعمال دمشق ، اجتمع فيها عمر بن الخطاب مع امراء جنده في الشام سنة (15هـ/636م) : الطبري :4401/1 فما بعدها ، ياقوت ، معجم البلدان : 3/2) .

25ـ الطبقات الكبرى ، ج3 ، ق1 ، ص 213 .

26ـ فتوح البلدان ، ص 550 ، وانظر : الاحكام السلطانية ، ص 200 ، مقدمة ابن خلدون ، ص 244 .

27ـ ابو يوسف ، ص 43 ـ 44 ، الاموال ، ص 224 .

28ـ عثمان بن حنيف بن وهب الانصاري ، له صحبة ، ولاه عمر بن الخطاب مساحة ارض السواد هو وحذيفة بن اليمان ، وكان عاملا على البصرة في عهد علي بن ابي طالب ، توفي في زمن معاوية الاول : ابو يوسف ، ص 36 ـ 38 ، المعارف ، ص 208 ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب : 112/7 .

29ـ حذيفة بن اليمان ، واليمان لقب واسمه (حسل) او (حسيل) ابن جابر من بني عبس ، وهو من الصحابة ، ولي المدائن في عهد عمر ، توفي سنة (31 هـ / او 36 هـ/ 651 او 656 م) طبقات خليفة ابن خياط ، ص 48 ، 130 ، طبقات ابن سعد : 8/6 ، تهذيب التهذيب 219/2 .

30ـ ابو يوسف ، ص 26 ، 36 ـ 38 ، فتوح البلدان ، 339ـ42 ، ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 14 ، المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص 133 .

31 الوزراء والكتاب ، ص 38 ، الصولي ، ص 192 .

32- G. Philip, The Monetary Reforms of Abd Al-Malik, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Jesho, III, 1960, p 242.

33- M.Sprengling, From Persian to Arabic, The American Journal of Semibic Languages and Literature, Vol 56, 1939, p. 180.

34ـ روح بن زنباع بن سلامة الجذامي ، ويقال ابو زنباع الدمشقي ،وهو تابعي جليل ، وكانت منزلته عند عبدالملك ، كالوزير لا يكاد يفارقه ، توفي بالاردن سنة (84 هـ/703م) ، وقيل انه بقي الى ايام هشام بن عبدالملك : ابن الاثير ، اسد الغابة : 189/2 ، ابن كثير ، البداية والنهاية : 9/54ـ55 .

35ـ الوزراء والكتاب ، ص 35 ، الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص 61 .

36- Sprenging, op. cit., p. 180.

37- Ibid., p. 183.

38ـ تاريخ اليعقوبي : 279/2 .

39ـ تاريخ خليفة بن خياط : 197/1 ، الوزراء والكتاب ، ص 26 ، وكان هذا شخصية بارزة في التنظيمات العربية الاولى لشؤون الضرائب في النصف الشرقي من الدولة الاسلامية ، وقد بقي افراد عائلته يعملون في هذا الحقل من خدمة الحكومة مدة ثلاثة اجيال من بعده ، حتى زمن العباسيين ، ولو انهم لم يتبوأوا المكانة التي كانت له .كان زاذان فروخ في الثلاثين من عمره عندما عينه زياد على كتابة الخراج ، وقد احتفظ بمنصبه بعد وفاة زياد ، فاصبح مستشارا لابنه عبيدالله بن زياد . ويتصف هذا الرجل بقوة الذاكرة ، فقد قيل انه تمكن من تدوين اسماء ثمانين الفا من المقاتلة والذرية ، اثر الحريق الكبير الذي وقع في ديوان البصرة ، ولم ينس الا امراة واحدة ، على ما في ذلك من مبالغة ملحوظة !! وقد ابتعد زاذان فروخ عن العمل اثناء سيطرة مصعب بن الزبير ، الذي استخدم فارسيا آخر بدله ، ولم يظهر اسم زاذان فروخ من جديد حتى مجيء الحجاج بن يوسف الى العراق : الوزراء والكتاب ، ص 99 ،

Sprengling, op. cit., pp. 186-88.

40ـ جمع دهقان : ويعني التاجر ، او زعيم فلاحي العجم ، او رئيس الاقليم ، او مقدم القرية ، وهو تعريب (دهكان) وقيل ان اصل (دهكان) هو (دهخان) اي رئيس القرية ، وقد يكون الدهقان من العرب ايضا : ابو يوسف ، ص 146 ، لسان العرب ، مادة(دهقن)، ادي شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، ص 8 .

41ـ البلاذري ، انساب الاشراف : 109/4 ، الطبري : 458/2 ، ابن الاثير: الكامل في التاريخ : 140/4 .

42ـ الوزراء والكتاب ، ص 24 .

43ـ حمزة بن عبد الله بن الزبير ، ولاه ابوه البصرة نحوا من سنة ، وكان غلاما متهورا لم يرض به اهل البصرة ، فعزله واعاد مصعب بن الزبير : انساب الاشراف : 256/5 ، 265 ، 271 ، 274 ،الطبري: 750/2 .

44ـ انساب الاشراف : 256/5 ، الطبري : 751/2 .

45ـ مقدمة ابن خلدون ، ص 244 .

46- Sprengling, Op. cit, p. 194.

47- E. Belaev, Arabi, Islam, I Arabski Khalifat V Rannim Sredno Vekovii, (Moskova, 1965), p. 187.

48ـ انظر : العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص109،
E. I2. "Al - Hajjaj b. Yusuf".

49ـ فتوح البلدان ، ص 230 ، الاحكام السلطانية ، ص 202 .

50ـ الوزراء والكتاب ص 40 ، الصولي ص 192 ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد : 169/4 ـ 70 .

51ـ وهو من الموالي الذين نشأوا وتربوا في بيئة عربية اسلامية ووصلوا الى مراكز ممتازة في الدولة . وكان ابوه من سبي سجستان ، أصابه الربيع بن زياد الحارثي (الذي ارسل لفتح سجستان سنة 30هـ/650م) في قرية (ناشروذ) ، ثم اشترته امرأة من بني تميم ثم من بني مرة . وقد كتب صالح للحجاج بعد زاذان فروخ : فتوح البلدان ، ص 484 ـ 85 ، قدامة بن جعفر ، الخراج (مخطوط) ، الورقة 197ب ـ 198 أ ، الوزراء والكتاب ، ص 58 .

52- Sprengling, Op. cit., p. 195.

53ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، وباختلاف يسير في : الوزراء والكتاب ، ص 38 ، الصولي ، ص 192 ، العسكري ، الاوائل ، ص 207 ، ابن النديم ، الفهرست ، ص 242 ، الاحكام السلطانية ، ص203.

54ـ الوزراء والكتاب ، ص 38 ، الصولي، ص192، الاوائل ص207 .

55ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، الفهرست ، ص 242 .

56ـ الوزراء والكتاب ، ص 38 .

57ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، انساب الاشراف ، ص 352(طبعة اهلورت).

58ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، ويرجع (الريس) في كتابه : الخراج والدولة الاسلامية ، ص 203 (الحاشية) ، هذا الرأي الاخير ، ويبدو ان التاريخ الذي يورده الجهشياري لنقل الدواوين لابد ان يكون خطأ ، وهو يرى انه ربما كان مقلوبا ، والصواب ـ في رأيه ـ انه في سنة سبع وثمانين (705 ـ 706 م) واذا اخذنا بهذا الرأي فمعنى هذا ، ان التعريب تم في عهد الوليد الاول ، وليس في عهد عبدالملك الذي توفي سنة (86هـ/705م) ، وهذا غير ثابت من الناحية التاريخية.

59ـ الوزراء والكتاب ، ص 38 .

60ـ من ذلك مثلا ان حسابات خراسان ظلت بالفارسية الى سنة (124هـ/741م) حيث تم تعريبها في زمن نصر بن سيار ، وذلك بأمر من يوسف بن عمر والي العراق : الوزراء والكتاب ، ص 67 .

61- Sprengling, Op. cit., pp. 195-96.

62ـ في العربية صيغ ملائمة للكسور نازلا الى العشر ، ولكن ليس هناك اصطلاح لما هو ادنى من العشر : Ibid., p. 196.

63ـ الويد (Wid) تعني الاكثر قليلا : Ibid., p. 196.

64ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، وفي « الاوائل » ص 207 ، ان زاذان فروخ نفسه هو الذي سأل صالحا عما يصنعه بالاضافات عند الترجمة ، فاجابه صالح « اقول ايضا » .

65ـ فتوح البلدان ، ص 368 ، الفهرست ، ص 242، الاحكام السلطانية، ص203 .

66- Sprengling, Op. cit., p. 196.

67ـ الوزراء والكتاب ، ص 39 .

68ـ فتوح البلدان ، ص 369 .

69- Sprengling, Op. cit., p 197.

70 ـ تاريخ خليفة بن خياط : 317/1 ، الطبري : 2/ 1282 .

71ـ الوزراء والكتاب ، ص 58 ، وعمر بن هبيرة الفزاري هو والي العراق ولاه يزيد الثاني على العراقين (الكوفة والبصرة) سنة (103 هـ / 721 م) توفي بالشام : تاريخ خليفة : 335/1 ، المعارف ، ص 408.

72- "A Literary History of Persia" Vol. 1 (Cambridge 1951), p. 206.

73ـ الريس ، عبدالملك بن مروان موحد الدولة العربية ، ص 286 .

74- Sykes, "A History of Persia" Vol 1 (London 1958), p.550.

75ـ جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، ص 67ـ68 .

76ـ انظر : فتوح البلدان ، ص 230 ، الوزراء والكتاب ، ص 40 ، الصولي ، ص 192 ، العقد الفريد : 169/4 ـ 70 ، الاحكام السلطانية ، ص 202 .

77ـ الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص 15ـ16 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اهم المصادر والمراجع :

* ابن الاثير : علي بن ابي الكرم (630هـ /1233 م) .

1 ـ الكامل في التاريخ ، (بيروت ، 1965 ـ 1967) .

* البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (279هـ/892م) .

2 ـ انساب الاشراف ، ج4 طبعة : Max Schloessinger (القدس ، 1938) .

ج5 طبعة : S. D. F. Goitein (القدس ، 1936)

ج11 طبعة : W. Ahlwardt (غريفزولد ، 1883) .

3 ـ فتوح البلدان ، نشر : صلاح الدين المنجد (القاهرة ، 1957) .

* الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ / 868 ـ 869 م).

4 ـ العثمانية ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة ، 1955).

* الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس (331هـ/942م) .

5 ـ الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبدالحفيظ شلبي ، ط1 (القاهرة ، 1938) 0

* ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (808هـ/1405م) .

6 ـ المقدمة ، طبعة : دار احياء التراث العربي (بيروت ،؟)

* ابن خياط : ابو عمر خليفة بن خياط العصفري (240هـ/ 854 م) .

7 ـ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : اكرم ضياء العمري (النجف ، 1967) .

* ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصري (230هـ/844م) .

8 ـ كتاب الطبقات الكبير ، نشر : ادورد سخاو (ليدن ، 1905–1921).

* الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى (335هـ/946م) .

9 ـ ادب الكتاب ، باعتناء : محمد بهجة الاثري ، الطبعة السلفية (القاهرة ، 1341 هـ) .

* الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (310هـ/922م) .

10ـ تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دي غوية (ليدن ، 1879 – 1903) .

* ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (709هـ/1309م) .

11ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده (مصر ، ؟) .

* ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن محمد (328هـ/939م) .

12ـ العقد الفريد ، تحقيق : احمد امين ، احمد الزين ، ابراهيم الابياري مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ط 2 (القاهرة ، 1948 – 1953) .

* ابو عبيد : القاسم بن سلام (224هـ/838م) .

13ـ كتاب الاموال ، طبعة : محمد حامد الفقي (القاهرة ، 1353هـ) .

* العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (382هـ/992م).

14ـ كتاب الاوائل ، تحقيق : محمد السيد الوكيل (طنجة ، 1966) .

* ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276هـ/889م) .

15ـ المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1960) .

* قدامة : ابو الفرج قدامة بن جعفر (337هـ/948م) .

16ـ الخراج ، مخطوطة مصورة بالفوتستات في المكتبة المركزية بجامعة بغداد رقم (13) ، عن مخطوطة باريس المرقمة ( ) .

* الماوردي : ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب (450هـ/1058م).

17ـ الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط 2 (القاهرة 1966) .

* المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (346 هـ /957 م) .

18ـ التنبيه والاشراف ، تحقيق : عبدالله اسماعيل الصاوي (القاهرة ، 1938) .

* اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (284هـ / 897 م) .

19ـ تاريخ اليعقوبي ، طبعة : هوتسما ، (ليدن ، 1883) .

* ابو يوسف : القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري(182هـ/798م).

20ـ الخراج ، ط 3 ، المطبعة السلفية ، (القاهرة ، 1382هـ) .

* بارتولد : ف . بارتولد .

21ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة : حمزة طاهر ، ط 3 (دار المعارف بمصر ، 1958) .

* جوزي : بندلي جوزي .

22ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، طبعة : دار الروائع ،(بيروت،؟).

* الدوري : عبدالعزيز .

23ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، مطبعة المعارف (بغداد،1949) .

24ـ النظم الاسلامية ، ط 1 (بغداد ، 1950) .

* العلي : صالح احمد

25ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري، ط 1 (بغداد ، 1953) .

26- Belaev. E., "Arabi, Islami Arabski Khalifat V Rannim serdno Vekovii, (Moskova,1966).

العرب والاسلام والخلافة العربية في العصور الوسطى المبكرة (باللغة الروسية) .

27- Browne, E. G. "A LiteraryHistory of Persia, Vol 1 (Cambridge 1951).

28- Philip, G., "The Monetary Reforms of Abd Al - Malik", Journal of the Economic and Social History of the Orient, JESHO, III, 1960.

29- Sprengling. M. "From Persian to Arabic". The American Journal of Semitic Languages and Literature, Vol, 56, 1939.

30- Sykes, S. P. "A History of Persia , Vol. I. (London, 1958).

31- The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, 1960.

وقد رمزنا لها في المقال بـ E. I2

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفكرة التاريخية في الأسطورة

الاسطورة معنى وتعريفا :

الاسطورة اشتقاقا من (سطر) اي الف الاساطير او الاحاديث التي لا اصل لها ـ الاحاديث العجيبة الخارقة للطبيعي وللمعتاد عند البشر . فاذا قيل : « سطر فلان علينا يسطر » ، اذا جاء باحاديث تشبه الباطل . ويقال هو يسطر ما لا اصل له اي يؤلف . ويقال سطر فلان على فلان اذا زخرف له الاقاويل ونمقها(1) .

والاسطورة تعريفا : هي حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل ، وما يميزها عن الخرافة هو الاعتقاد بها(2) .

ويعتقد البعض ان تسمية « اسطورة » تدل على انها من اصل يوناني Historia و Storia في اللاتينية وتعني التاريخ ، عربت فصارت اسطورة وجمعت على اساطير ، واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، اي ارادوا بها تواريخ الماضين وحكاياتهم وقصصهم(3) .

ان هذا الاشتقاق لا يمكن ان يكون صحيحا ، فالأجدر ان تقول انها مشتقة من الجذر العربي (س ط ر) بمعنى كتب ، وهو جذر موجود في مختلف اللغات السامية ، والاصل في السطر هو (الخط والكتابة) ، قال الله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون)(4) اي وما يكتبون(5) .

وتظهر كلمة (الاساطير) العربية في القرآن الكريم شائعة الاستعمال ، وتعبير مالوف يفهمه الناس عموما ، ويستبعد جدا ان تكون التسمية قد جاءت عن اليونان او اللاتين ، أو ان عرب الجاهلية اخذوها عنهم قبل الاسلام واستعملوها بالشكل المذكور والمعنى نفسه . وفي الآية الكريمة : (وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض . انه كان غفورا رحيما)(6) ، دلالة صريحة وواضحة على وجود الكتب والاساطير عند الجاهليين . فلما قال المشركون : ان هذا الا افك افتراه محمد من يهود فهي تملى عليه يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الاساطير تقرأ عليه من قولهم امليت عليك الكتاب(7) . وقوله تعالى : (اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)(8) ، يقول اذا تقرأ عليه آيات كتابنا قال : هذا مما كتبه الاولون استهزاء به وانكارا منه ان يكون ذلك من عند الله(9) . وزعموا ان الرسول (ص) اكتتب القرآن الكريم من (اساطير الاولين) وهي احاديث سطرها المتقدمون كاخبار الاعاجم فهي تقرأ عليه او كتبت له(10) .

وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش انه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن ، واليه الاشارة في الآية الكريمة : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي)(11) ، وهي من سورة النحل ، وهذه من السور المكية . كانوا يزعمون ان الذي يعلم محمدا (ص) هذا القرآن عبد رومي ، وكان صاحب كتب عبد لابن الحضرمي ، وكان المشركون يرون رسول الله (ص) حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : انما يعلمه(12) .

العناصر المكونة للاسطورة :

حينما أخذ الانسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على ابنائه قصص اسلافه ممتزجة باساطيره ومعتقداته ، بدأ التاريخ يظهر الى حيز الوجود في صورة بدائية اولية ، وبدأ الاحساس يتكون في ذهن البشرية منذ اقدم العصور(13) .

وكانت عناصر الصور المكونة لمحتويات الرواية التاريخية في الاسطورة ، تظهر في تاريخ الخبر متسمة ان حوادث الافراد تجري فيما بينها بطلاقة اكثر ، ولا يوجد أي توقف او تلكوء في الروايات المثيرة ، وان لا تظهر لها اية نهاية ، فالخطابات اطول واكثر ، والمعارك اعنف مما في التواريخ الحقيقية ، والاماكن المحلية توصف في الغالب بتعابير عامة جدا .

ان البناء الخرافي في الاسطورة يضم كل لون ، وفيه يعتمد القاص على خياله الذي كثيرا ما لا يسعفه ، فحينئذ يلخص مصادر الاخبار ، فيجمع احيانا سوية جميع انواع المؤرخين من مختلف الازمنة في سبيل ان يقدم سلسلة من رجال السند لرواياته .

والشعر هو من اهم ما يمزج بالرواية الاسطورية التاريخية ، وتتميز الاشعار المذكورة في الروايات بلغتها السهلة التي تختلف عن الشعر العربي عموما بعدم الحاجة لمعرفتها الى التعمق في دراسة اللغة العربية ، وكثيرا ما تجعل سهولتها جذابة جدا للقارىء . والى جانب الشعر كان السجع مقبولا في الرواية التاريخية بالطبع ، وهو يتخذ اشكالا ساذجة .

وتحتوي روايات الاسطورة على اضفاء طابع البطولة الفائقة في الحروب ، والبطولة وبعض الحب في السير واندحار الشر أمام صلاح الباطل ، وتضاؤل جميع الاخطار الصعبة امامه بجهد قليل(14) .

لقد كانت الرواية التاريخية العربية في اصلها من منتوجات الجزيرة العربية ، فقد كان للعرب قصص تحدثوا فيها عن ايامهم وحروبهم كحرب (داحس والغبراء) بين عبس وذبيان ، وحروب الفجار بين قريش وكنانة ، ويوم الكلاب بين تميم ومذحج ، ويوم ذي قار بين العرب والعجم ، وغيرها من الحروب التي اوردها ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد)(15) . ولقد كانت هذه الحروب والايام محورا لكثير من امثال العرب وقصائد شعرائهم ، مما لم يفت المدونين من ذلك تدوينها في كتب التاريخ والادب ، وان كانت قد شابها كثير من التزيد والاضطراب(16) .

وعند مجيء الاسلام صار العنصر المهم الذي يميز القصص التاريخية العربية عن بقية قصص السالفين ، هو اهتمامها الكبير بالدين الذي يعبر عن نفسه فيها جميعا . والبطولة في التاريخ تظهر نفسها في الحروب التي تنشب ضد الكفار (الجهاد) . ويمكن القول ان الحروب الاسلامية المستمرة التي اثارت خيال الناس ، كانت موجهة ضد الكفار ، سواء حروب الفتوحات الاسلامية او الحروب الدائمة مع الروم أو مع الصليبيين ، ففي العنصر الديني تتلاقى الحياة والقصص ، وبدونها قد تبدو الروايات للمسلم العادي عقيمة وغير واقعية . لذلك كان من الضروري جعل بعض الشخصيات الاسلامية اسلافا في الجهاد الاسلامي ، ليشعر الناس ان في هذا السلوك ما يمكن ان يقر الاقتداء به في تربيتهم الاسلامية ، والخاتمة السعيدة الحقيقية الوحيدة التي يمكن ان تحظى بها مخاطر البطل هي هزيمة الكفار او اعتناقهم الاسلام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربية

■ د. نافع توفيق العبود

ان الرواية التاريخية العربية الاسلامية في مراحلها الاولى سبقت تبلور العلم والادب الاسلاميين ، فقد وجد هذا النوع من الرواية في عهد مبكر من مجيء الاسلام ، اما الرواية الادبية فقد صارت فيما بعد جزءا من الادب التاريخي الذي لم يعد ينقله القصاصون ، بل اصبح ينقله العلماء كتابة او مشافهة دون ان ينتبهوا الى اصوله(17) .

الاسطورة ومستلزماتها الغيبية :

للاسطورة مستلزمات غيبية تستند اليها وتنعكس بواسطتها على المجتمع ، فاذا استعرضنا بايجاز علاقة الاسطورة بالسياسة ، نجد ان العرب قبل الاسلام كانوا يجمعون بين الرمز الاسطوري والرمز السياسي أو الاجتماعي ، وكانوا يستعينون بالبداوة على الحضارة ، وبالدين أو الاسطورة على السياسة .

وتلقي بعض المعلومات التاريخية المتوفرة ضوءا على صلة الرمز الاسطوري (بومة ، صقر ، راس ثور ، هلال) بالرمز السياسي (صورة ملك ، اسم مدينة ... الخ) ، وقد ضرب اليمنيون نقودا نقشوا عليها صور الملوك واسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند وزينوها برموز سياسية او اجتماعية كصورة البومة او الصقر او راس الثور ــ رمز الزراعة والفلاحة(18) .

وكان العرب قبل الاسلام يعتقدون في الاسطورة ورموزها ومستلزماتها الغيبية ، ومن ذلك اعتقادهم بالكهانة والعرافة وخط الرمل وتعبير الرؤيا وقدسية الهلال الذي يعتبر عندهم رمزا دينيا قديما له ثلاث مدلولات هي الولادة والموت والبعث ، مقابل الشمس التي ترمز الى الوحدة والقوة والذكاء . كذلك كانوا يؤلهون الكواكب ويعبدونها ، ولقد نسجوا اساطير كوكبية منها « ان الدبران خطب الثريا واراد القمر ان يزوجه فابت عليه وقالت للقمر ما اصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ، فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه »(19) . ومنها ايضا « ان الجدي قتل نعشا فبناته تدور به تريده ، وان سهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو بالسيف فقطع وسطها »(20) .

ونستنتج عند تحليلنا لهذه التصورات الاسطورية الكوكبية ، ان الفكر الاسطوري التاريخي العربي ، كان يعكس بعضا من معطيات الواقع الاجتماعي المتعلق بالزواج والصداق والمال ، القتل والاخذ بالثار على تخيلاته لوجود الكواكب ولحركاتها .

وعدا هذه الرموز الاسطورية التي ظهرت عند العرب قبل الاسلام ، نجد عندهم اساطير اخرى عديدة لا تعتمد على سند من دين أو تاريخ ، ومثال ذلك تلك الاساطير التي ابتكرها المؤرخون والمفسرون حول بناء الكعبة ، رغبة منهم في اضفاء قداسة عليها اكثر مما ورد في القرآن الكريم .

وبصدد بناء الكعبة ينبغي ان نذكر هنا قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم »(21) فهذه الآية الكريمة تدل على الجزم بان بناء البيت من عمل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وانهما قصدا ببنائه عبادة الله تعالى ونشر الوحدانية .

اما الاساطير التي وردت في غير هذا فيمكن ايجازها فيما يلي :

1 ـ ان الكعبة بنيت في السماء على غرار انموذج لا يزال موجودا يسمى البيت المعمور ، وذلك قبل ان تخلق الدنيا بالفي سنة ، وان آدم عليه السلام اقامها على الارض تحت الموضع الذي يقابل انموذجا تاما .

2 ـ ان الله امر الملائكة من سكان الارض ان يبنوا في الارض بيتا على غرار البيت المعمور وأمر في الارض ان يطوفوا به كما يطوف اهل السماء في البيت المعمور .

3 ـ ان آدم عندما هبط الى الارض مع زوجه من الجنة ، لم يسمع اصوات الملائكة حول العرش فاقبل آدم حتى وصل مكة وساعدته الملائكة فبنى البيت متخذا احجارا من خمسة جبال طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودي وحراء .

4 ـ ان البيت المقدس اغرق في طوفان نوح وان الله تعالى امر ابراهيم عليه السلام ان يعيد بناءه وان اسماعيل ساعد اباه في البناء فكان يجيء بالحجارة وابراهيم يبني حتى رفع القواعد من البيت .

5 ـ ان ابراهيم لما امره الله ببناء البيت لم يعرف موضعه ، فبعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وابراهيم يمشي في ظلها الى ان وافت مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها : يا ابراهيم ان ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص(22) .

بعض المعتقدات الاسطورية عند العرب :

في اخبار العرب نماذج كثيرة لبعض عاداتهم وتقاليدهم الميثولوجية ، يمكن ان نشير الى عدد مختار منها لكثرتها وتنوعها(23) :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1 ـ اذا مرض احد الملوك حملته الرجال على اكتافها يتعاقبون .

2 ـ تحريم الخمر على انفسهم حتى ياخذوا الثار لقتيلهم .

3 ـ خضاب نحور الابل : فكانوا اذا ادرك ابلهم الصيد يخضبون نحر السابق بدم الصيد .

4 ـ الهامة : كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يطلب بثاره خرج من راسه طائر كالبومة يسمى الهامة وصاح : اسقوني اسقوني ! حتى يطلب بثاره .

5 ـ تصفيق الضال : كان الرجل اذا ضل في الفلاة ، قلب ثيابه وحبس ناقته وصاح في اذنها بكلمات خاصة وصفق بيديه ، ثم يحرك الناقة فيزعمون انها تهتدي الى الطريق .

6 ـ ضرب الثور ليشرب البقر : كانوا يزعمون ان الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب فيضربون الثور ليشرب البقر .

7 ـ ذهاب الخدر من الرجل : كانوا يقولون ان الرجل اذا خدرت رجله فذكر احب الناس اليه ذهب الخدر .

8 ـ العيافة : وهي زجر الطير والتفاؤل باسمائها واصواتها واتجاهاتها وممراتها ، وبذلك يتشاءمون ويتفاءلون .

9 ـ النهيق لاتقاء الوباء : كانوا يعتقدون اذا قدم احدهم قرية وخشي وباءها ، ونهق قبل ان يدخلها لم يصبه الوباء .

10 ـ التفقئة والتعمية : ذلك انه اذا بلغت ابل احدهم الفا فقأ عين الفحل ، فاذا زادت عن الالف فقأ عينه الاخرى ، ويزعمون ان ذلك يكف العين عنها .

11– مسح الطارف عين المطروف : كانوا يزعمون ان الرجل اذا طرف عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سكن الما .

علاقة الاسطورة بالعبادة :

يرى البعض ان الفكر الاسطوري كان اساساً للفكر الديني او الفلسفي الغيبي ، كما كان عند سواهم من شعوب الشرق خاصة ، وشعوب العالم القديم عامة(24) .

ومن هنا فقد اهتمت الاسطورة العربية بتصوير علاقة العرب بعباداتهم ، فقد كان لكفار قريش وغيرهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات انواط يعظمونها وياتونها كل سنة فيعلقون اسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما(25) . وفضلا عن ذلك فانهم عبدوا العزّى ، وهي على ما قيل نخلات مجتمعة(26) .

ويبدو ان تقديس الاشجار ظل مستمرا في مصر على النحو الذي ورد ذكره عند الجاهليين حتى اواخر القرن التاسع عشر ، واهم النباتات التي يعتقدون فيها هي الاشجار الفخمة وجذوع النخل ، وكثيرا ما يقومون بعمل الموالد للاشجار الغليظة ويطلقون عليها لقب « سيدي الاربعين »(27) .

ولما كانت عبادة الاشجار (الانصاب) من عبادات عرب الجاهلية ، فانهم مالوا الى تقديسها والتقرب اليها عن طريق سكب دمائهم على البعض منها ، وكانوا في ذات الوقت يبتهلون الى الآلهة . ولا ريب فان نزف الدماء هنا يدل على نوع من الفداء والتضحية .

وامتدت عبادة العرب الى الكواكب ، التي حظيت عندهم باحتفالية اسطورية ، فكانت الزهرة ترمز الى الهة الجمال والحب واضفى العرب عليها صفات مجتمعهم القبلي الترفيهية كالطرب واللهو والسرور . اما الشمس فقد عبدها عدد من القبائل العربية في الجزيرة وتسموا باسمها : عبد شمس ، امرؤ الشمس ، عبد شارق ... الخ . وفضلا عن ذلك فانهم عبدوا القمر ، وزعم بعضهم ان بنات الله الثلاث (مناة واللات والعزّى) هي آلهات القمر ، وفسروا زعمهم قائلين ان مناة ترمز للقمر المظلم ، واللات للقمر المنير ، والعزّى للاثنين معا(28) .

دور القصاص في رواية الاساطير :

لم يتوقف فن القصص عند العرب بعد ظهور الاسلام ، غير ان تطورا جديدا قد حصل عما كان عليه في العصر الجاهلي ، اذ اوضح القرآن الكريم كثيرا من المعلومات التاريخية التي وردت في الاساطير العربية كقبائل عاد وثمود وطسم وجديس مثلا ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى استمر القصص وصار للقرآن نصيب منه . وقد ذكر الجاحظ مثلا احد كبار القصاص المسلمين وهو مسلم بن جندب (ت 106 هـ) الذي كان يقص في مسجد الرسول (ص)(29) .

وفي العصور الاسلامية التالية تنبه رجال السياسة الى فن القصص، لانهم ادركوا سلطانه على عقول الناس ، وقوته في توجيه عقولهم ، فاتخذوه لسانا للدعاية وسبيلا لافتعال الاحاديث واختلاق الاقاصيص في الاغراض السياسية والحزبية المختلفة .

ولعل معاوية بن ابي سفيان اول من تنبه الى ذلك ، فولى رجلا على القصص كان اذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعى على اهل خصومته وحربه ، وكان هو اذا فرغ من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه(30) .

ومثل ذلك فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق وجراء فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة 77 هـ ان عتاب بن ورقاء سار في اصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ثم قال : « اين القصاص ؟ فلم يجبه أحد . فقال : اين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه احد . فقال : انا لله .»(31) .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنبا الى جنب ، يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويموهان على العقول صور الباطل ، فلما هدأت ثائرة الاحزاب وسكنت رياح الفتن ونضجت العقول ، عاد القاص الى المسجد فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمائه ، فانقلب الى العامة يسامرهم بما اثر من ايام العرب ونقل من اساطير العجم وروى من اخبار الفتوح .

وفي العصر العباسي انتشر القصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر مجتمعاتها وحاجة من حاجات عامتها . وفي بغداد حاضرة بني العباس صارت الاسمار والخرافات مرغوبا فيها مشتهاة في ايام خلفائهم وبرز عدد من القصاص ممن افتعل القصص ومنهم احمد بن دلان وابن العطار وسهل بن هارون وعلي بن داود والعتابي واحمد بن ابي طاهر(32) . كما بدأ ابو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتاليف كتاب اختار فيه الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، واحضر المسامرين فاخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة ما يحلا بنفسه ، فاجتمع له من ذلك اربعمائة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة واقل واكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتمية الف سمر(33) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وظلت الحاجة الى القصاص تشتد كلما انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي وبخاصة في اواخر العصر العباسي وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة وعسف المتغلبين من المغول وغزو الصليبيين المتعصبين ، فطلبهم العامة تفريجا للكرب والخاصة تشجيعا على الحرب.

« اهمية القصص والاساطير من الناحية التاريخية » :

تحتم كتابة التاريخ على الباحث ان يستعين بكتب التاريخ والادب والجغرافية والفقه والقصص والاشعار والاساطير وغير ذلك .

ومن الواضح ان للقصص والاساطير اهمية كبيرة في الكشف عن عقلية السواد الاعظم من الامة ، وبعد نظرهم الى الامور ونوع تفكيرهم ، فتكرار الاشارة الى اهمية الاحلام والنبوءات في التاريخ يشير الى مجتمع يعتقد بهذه الامور ، ويرى لها اهمية عملية ، وتلك نتيجة لضآلة ثقافته وتفشي الامية فيه .

كما ان بعض الخرافات لها اهمية في دراسة التاريخ لانها تكشف عن نواحي اخرى مهمة ، فالاعتقاد بان من اكل سبع تمرات في الصباح لا يدخل الشيطان داره ذلك اليوم ، يشير الى انتاج واسع من التمر . والخرافة التي تزعم بان من فتح عينيه ونظر الشمس دون ان تدمعا مباشرة فهو كافر ، تشير الى عيون تتفشى فيها الامراض ، ويندر فيها من يستطيع فتح عينيه على قرص الشمس .

والاسطورة التي ظهرت في العهد العثماني والتي مفادها ان بغداد حين خططها المنصور احاطها بحبل علق عليه جرسا في جهة وامر الا يبدأ

بينائها الا بعد دق الجرس ، فمر حمار فدق الجرس وبدأ البناءون بالبناء فلما سمع المنصور بذلك تاوه طويلا وقال : « بغداد نصيب الغريب » ، تلك الاسطورة هل تتكون مثلها الا عند امة اذلت اربعة قرون(34) ؟

ومما تجدر الاشارة اليه ان « الف ليلة وليلة » كنز ثمين يكشف عن العقلية الشعبية في البلاد الاسلامية في مختلف عصورها ، فهي تمثل هذه العقلية في خرافاتها وسذاجاتها وصراحتها المكشوفة في الامور العاطفية وشكها بالمراة واحاطتها بالاسوار ، وحبها للمغامرات والعجائب ورايها في البذخ المتمثل في قصور الملوك ورفاهية التجار ، كما انها مزيج من الواقع والخيال في قصصها المختلفة .

ان الاقاصيص الاسطورية المتداولة تمثل في الغالب صفحات من الحياة اليومية للناس ، ومن الصعب استخلاص حقائق تاريخية ثابتة منها ، نظرا لما تحويه تلك الاقاصيص عادة من المبالغات والاكاذيب خاصة وهي تنتقل من جيل الى جيل . اضف الى ذلك ان المؤرخين القدامى قد شحنوا كتبهم بالقصص والاساطير ، لاننا نجدهم جامعين لكل شيء سواء كان دينا او فلسفة او علما او تاريخا . فالمؤرخ يبدأ عادة بآدم فيطوي العصور والاجيال طيا حتى يصل الى عصره ، ومتى بلغ العصر الاسلامي فاضت قريحته واستطرد من قصة الى قصة ومن اسطورة الى اسطورة ، وهو في ثنايا قصصه واساطيره قد يذكر شيئا يونانيا او رومانيا . فالتاريخ على هذه الصورة مفكك مرقع ، لذلك سرعان ما يفقد المؤرخ الارض التي يقف عليها ويرجع العقائد العربية الى عناصر اجنبية .

وقد بالغ اولئك المؤرخون في الدور او الادوار التي اداها اولئك الاجانب الى العرب جنسا وعقيدة ولغة وادبا حتى مسخوا ذلك التاريخ وحجبوا عنا الوجه العربي الفصيح . ولا نكون مبالغين اذا قلنا ان اكثر الكتب التاريخية العربية لم تخل من هذه الهنات . لذا فيتحتم على المؤرخ المعاصر ان يكون حذرا عند محاولته الاستفادة من هذه الكتب العربية .

الهوامش :

(1) ابن منظور ، لسان العرب (دار صادر ــ دار بيروت 1955) : 363/4 ــ 364 الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس (منشورات مكتبة الحياة ، بيروت) : 267/3 .

(2) د. خليل احمد خليل ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي ط 1 (دار الطليعة ، بيروت 1971) : 8 .

(3) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ط 1 (دار العلم للملايين ، بيروت 1971) : 316/8 .

(4) القلم : آية 1 .

(5) تفسير الطبري : 17/29 ــ 18 .

(6) الفرقان : آية 5 .

(7) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : 317/8 .

(8) القلم : آية 15 .

(9) تفسير الطبري : 27/29 ــ 28 .

(10) تفسير ابن كثير : 309/3 ــ 310 .

(11) سورة النحل : آية 103 .

(12) تفسير الطبري : 119/14 وما بعدها .

(13) د. حسن عثمان حسن ، منهج البحث التاريخي ، ط 3 (مصر 1970) : 12 .

(14) فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح احمد العلي (نشر مكتبة المثنى ، بغداد ، 1963) : 262 .

(15) انظر في عدة مواضع : ابن عبد ربه ، العقد الفريد .

(16) علي الجندي وآخرون ، اطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والاسلام ، ط 1 (القاهرة) : 13/1 .

(17) روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين : 258 .

(18) د. خليل احمد خليل ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي : 75 .

(19) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي (مطبعة الهلال ، القاهرة) : 15/3 .

(20) المصدر نفسه : 16/3 .

(21) سورة البقرة : آية 2 .

(22) محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ــ عصر ما قبل الاسلام ط 2 (مطبعة السعادة ، القاهرة 1952) : 129 ــ 130 .

(23) راجع على سبيل المثال المصدر نفسه : 177 ــ 179 .

(24) د. خليل احمد خليل ، مضمون الاسطورة : 28 .

(25) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب : 60/6 .

(26) د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ط 7 (نشر مكتبة النهضة المصرية 1964) : 71/1 .

(27) سعد الخادم ، الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (نشر ضمن سلسلة الالف كتاب ، نشر مكتب النهضة المصرية) : 30 .

(28) د. خليل احمد خليل ، مضمون الاسطورة 42 .

(29) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ط 1 (القاهرة 48 ــ 1950) : 367/1 ــ 368 .

(30) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية : 543/2 .

(31) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (طبعة دار صادر ــ دار بيروت 65 ــ 1966) : 423/4 .

(32) ابن النديم ، الفهرست (طبعة فلوجل) : 308 .

(33) المصدر نفسه : 304 .

(34) د. عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، (مطبعة المعارف ــ بغداد 1949) : 28 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صوت من الماضي

تاريخ التدوين الموسيقي في بلاد الرافدين منذ الألف الثاني قبل الميلاد

بحث في التدوين الموسيقي والسلالم الموسيقية البابلية وما اكتشف من الاثار الموسيقية المدفونة بما فيها اغنية العبادة الحورية

فاروق العمري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آنية الاله آيا اله المياه والحكمة
ينبع منها دجلة والفرات

المبحث الاول

« بريشتو مودو مودا لوكاليم »

ـ هذا السر فليكلم العالم به المتعلم له وليعلمه اياه ـ

كلمة الختام من مدونة موسيقية آشورية .

يفخر الملك شولكي احد ملوك سلالة اور الثالثة في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، في انشودة له ، بانه فنان بارع يجيد العزف والغناء كما انه يجيد تسوية اوتار الآلات الموسيقية المختلفة ، في حين تنبئنا المراسلات الملكية لمدينة ماري ـ تل الحريري ـ بان الملك شمشي آداد اوعز لابنه بالحاق ابنة ملك ماري « ياهدوم ليم » بمدرسة الموسيقى التابعة لقصره في شباط إنليل ـ شاغر بازار ـ لتتلقى ثقافتها الموسيقية .

ولدينا شواهد اخرى كثيرة مثل هذه تدلنا على مدى اهتمام الاولين بالمؤسسة الموسيقية في العراق القديم والتي كانت بصورة عامة تتركز حول المعابد ، وان كانت تخرج احيانا عن اغراضها الدينية لمناسبات احتفالية يومية دنيوية او عسكرية .

وهناك حقيقة هامة اخرى نستخلصها من هذه المؤسسات وهي ان الفن الموسيقي في العراق القديم كان قائما على قواعد ثابتة تطورت باستمرار لينشأ عنها ما سيصبح فيما بعد الكيان الثابت للمؤسسة الموسيقية العراقية القديمة ، ذلك الكيان الذي لم يك بمعزل عن البقعة الجغرافية المحيطة به من حيث المكان ، ولا عن سنة التطور الحضاري من حيث الزمان ، بحيث يمكننا القول ان البحث في الفن الموسيقي العراقي القديم ، يمكن ان يتعدى مجاله الجغرافي ليشمل العالم القديم بأسره ، بل ان هذا الاثر يمتد الى شعوب وحضارات اخرى تالية ، بحيث يمكن القول ان التراث الموسيقي للعراق القديم ، اصبح مثل جوانب اخرى من تراثنا الحضاري جزءا من التراث الموسيقي المعاصر ، حيث كما سيتبين لنا ان التراث الموسيقي المعاصر مدين الى حد بعيد الى التراث العراقي الاول الذي ساد الدروب الاولى للانسان .

ان معلوماتنا الحالية عن التراث الموسيقي المدون للعراق القديم(1) ، يمكن ارجاعها بصورة عامة الى خمسة بحوث اساسية مستقلة معززة بالوثائق التي هي في الاكثر رقوم من طين ، سواء منها ما يتعلق بالمدونات والمعزوفات الموسيقية الفعلية او بالسلالم الموسيقية القديمة لبلاد ما بين النهرين .

وفي هذا البحث سنتطرق الى ما يلي :

1 ـ السلالم الموسيقية السباعية للعراق القديم
2 ـ التدوين الموسيقي بطريقة الابعاد .
3 ـ انشودة العبادة الحورية من اوغاريت « رأس شمرا » المدونة بالسلم البابلي .

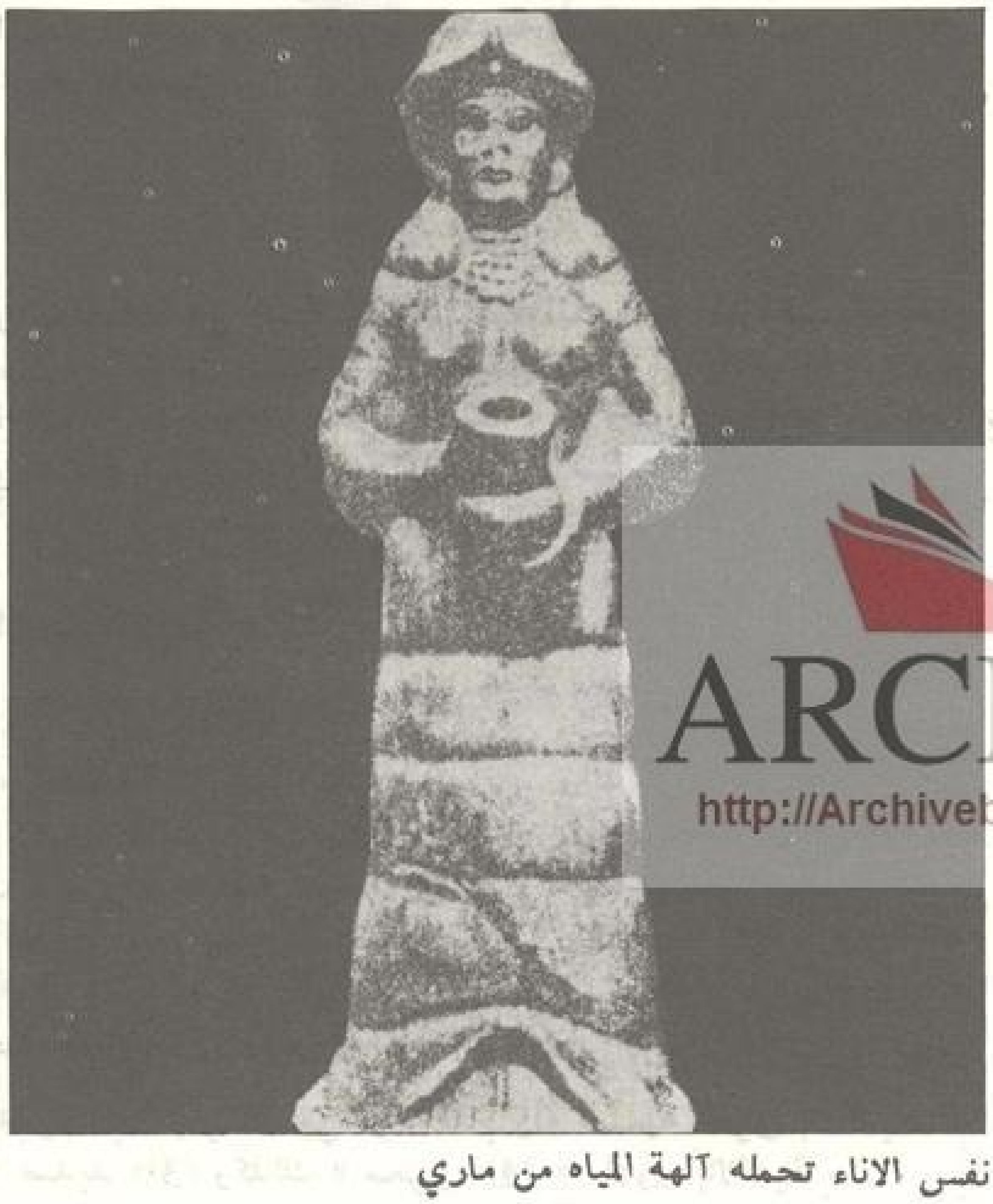

نفس الاناء تحمله آلهة المياه من ماري

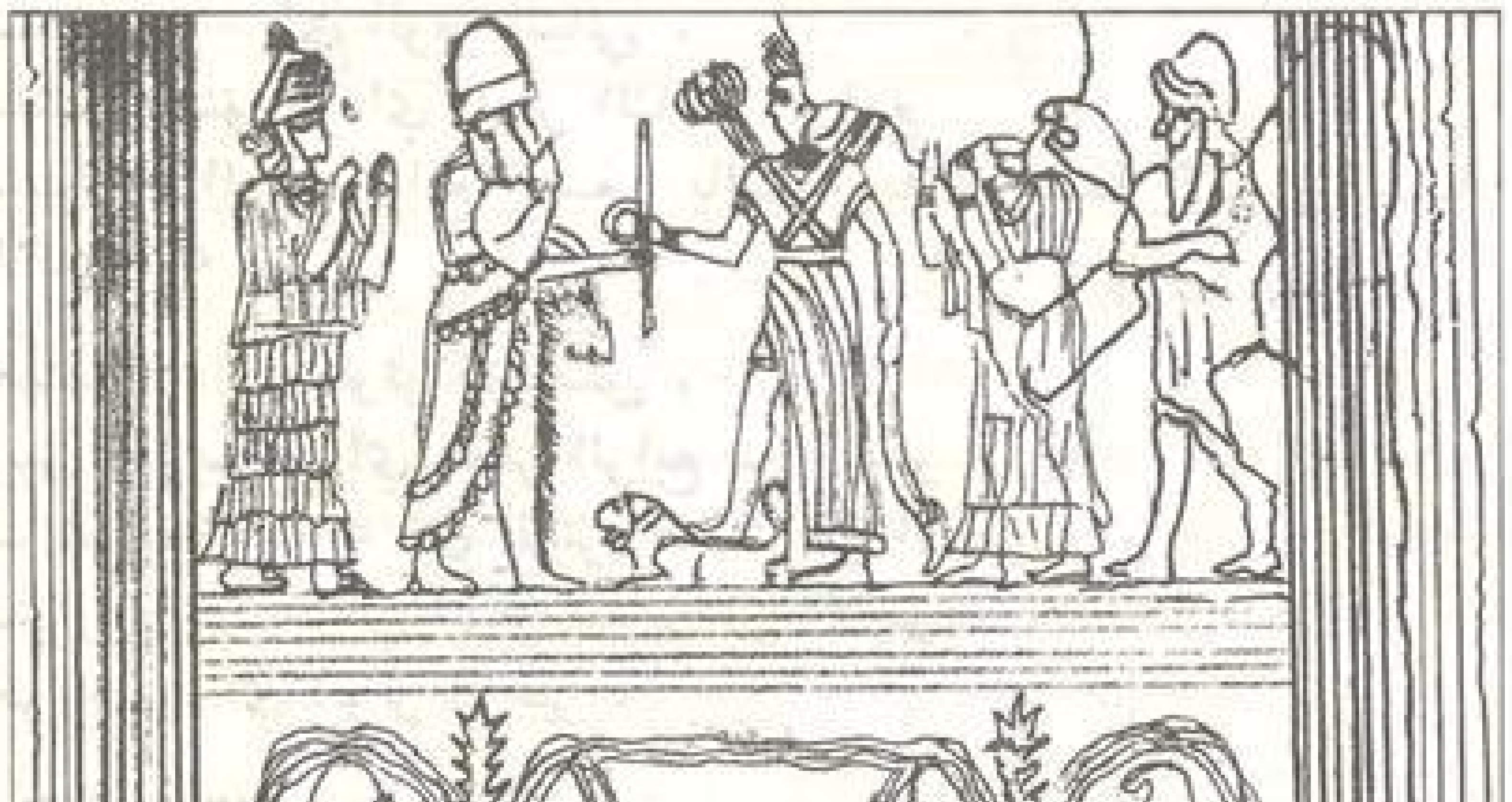

نفس الاناء في مراسيم تسلم ملك ماري السلطة من عشتار .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا يعني اننا سنرجيء البحث عن : ـ

1 ـ الفترة التي كان السلم العراقي القديم فيها خماسيا .
2 ـ المدونات الموسيقية الاخرى للعراق القديم .
3 ـ طريقة التدوين بالاحرف الهجائية التي اعقبت مرحلة التدوين بالابعاد والتي اصبحت فيما بعد وعبر مرحلة تفاعل وتطوراساس التدوين الموسيقي المعاصر .
4 ـ الآلات الموسيقية التي استعملت لهذا الغرض .
5 ـ البحث المقارن مع الشعوب القديمة الاخرى كمصر واليونان والهند والصين .

■

ان معلوماتنا عن السلالم الموسيقية السباعية العراقية يمكن ردها بصورة عامة الى خمسة رقوم طينية من العراق بالاضافة الى رقم انشودة العبادة الحورية من « اوغاريت » ـ راس شمرا ـ بالساحل السوري شمال اللاذقية والمدون بالسلم الموسيقي البابلي .
وهذه الرقوم حسب تسلسلها في البحث هي كالآتي : ـ

اولا ـ الرقيم الاول :

رقيم نابنيتو U3011 وهو الثاني والثلاثون في هذه السلسلة وقد قام بتحقيقه كل من الدكتور كورني والدكتور بنو لاندسبرجر وقامت بنشره الدكتورة آن درافكورن كيلمر في العدد 16 من مجلة دراسات آشورية التابعة للمعهد الشرقي لجامعة شيكاغو في العدد مكرس لتكريم البروفسور لاندسبرجر ص (264 ـ 265) ويستفاد منه ان اوتار القيثارة هي كالآتي : من الامام الى الخلف ، ويراد بالامام هنا الجهة القريبة الى رأس الحيوان في الكنارة(2) .

1 ـ قدموم اي الوتر الامامي او الاقدم وله تسمية اخرى بالاكدية « صديد »(3) وكذلك « محرو »(4) = الاول بالاكدية .
2 ـ شمشوم = اي الوتر التالي .
3 ـ شلشو قطنو = اي الوتر الثالث الرفيع
4 ـ آيابنو = الوتر الرابع الصغير بالسومرية او صفة الآلة ، آيسا بالاكدية(5) .
5 ـ خمشو = اي الوتر الخامس .
6 ـ ربيي اخريم = اي الوتر الرابع من الاخير .
7 ـ شالشي اخريم = اي الوتر الثالث من الاخير .
8 ـ شني اخريم = اي الوتر الثاني من الاخير .
9 ـ اخروم = اي الوتر الاخير .

ثانيا ـ الرقيم الثاني :

الرقيم الرياضي CB. S. (10996) المكتشف في مدينة نيبور ـ نفر ـ وقد حققته الدكتورة آن كلمر في مجلة اورينتاليا العدد 29 لسنة 1960 (ص 273 ـ ص 308) وهو ايضا يحوي اسماء الاوتار كالرقيم السابق غير انه يتوقف عند الوتر السابع .

فالوتر الثامن يكون معادلا او بالاحرى جواب الوتر الاول . ويفهم منه ان الاوتار 8 ، 9 ، 10 .. الخ في الديوان الثاني ، تعادل على التوالي الاوتار 1 ، 2 ، 3 .. الخ في الديوان الاول ، مما يدل على سباعية السلم (اوكتاف ، ديوان كامل) . فبقصد البقاء ضمن ديوان واحد تكون الابعادكالتالي :

الابعاد حسب ما وردت في الرقيم الرياضي CB. S. (10996)

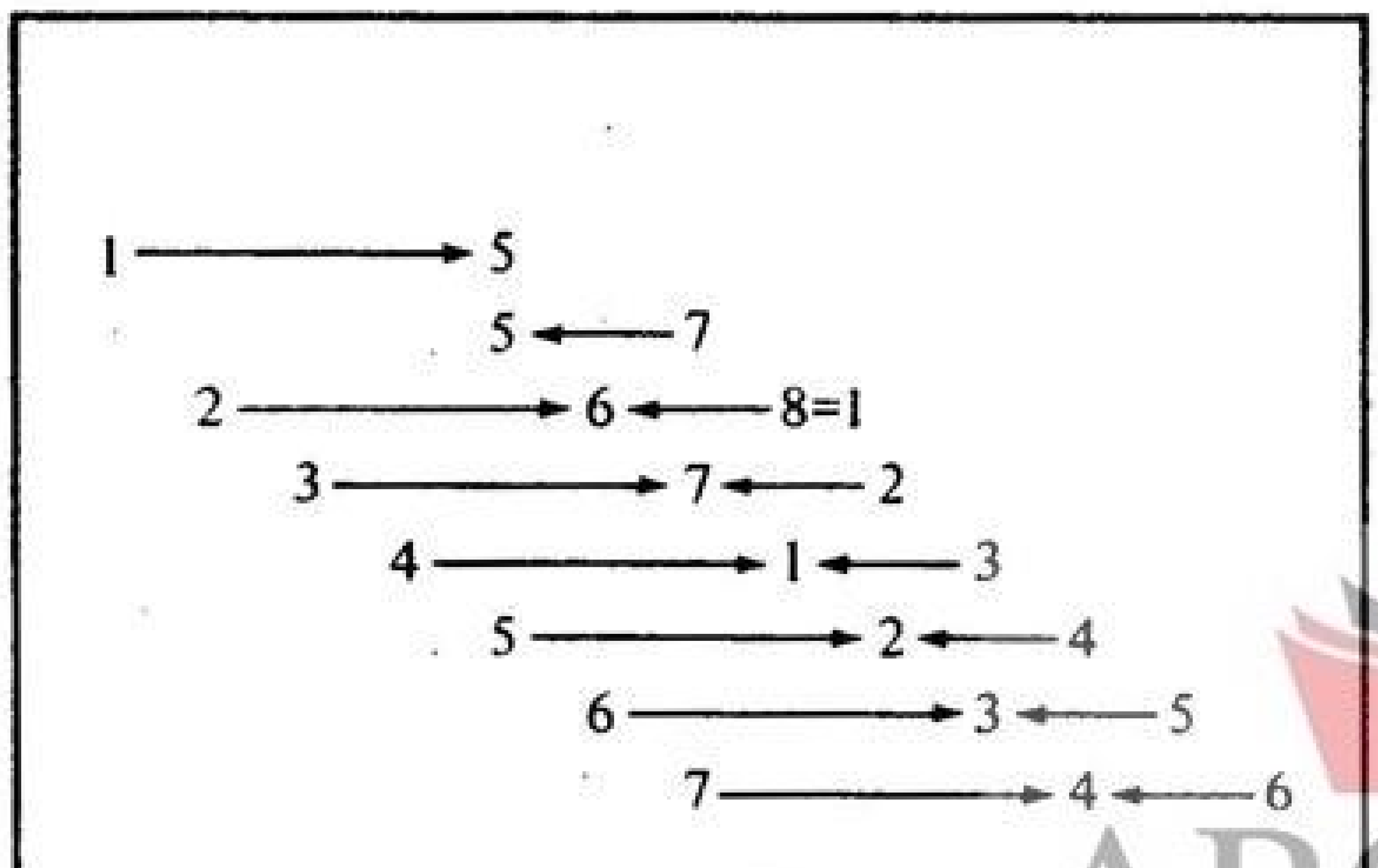

نفس الابعاد بعد اختزالها ضمن اوكتاف ديوان واحد .

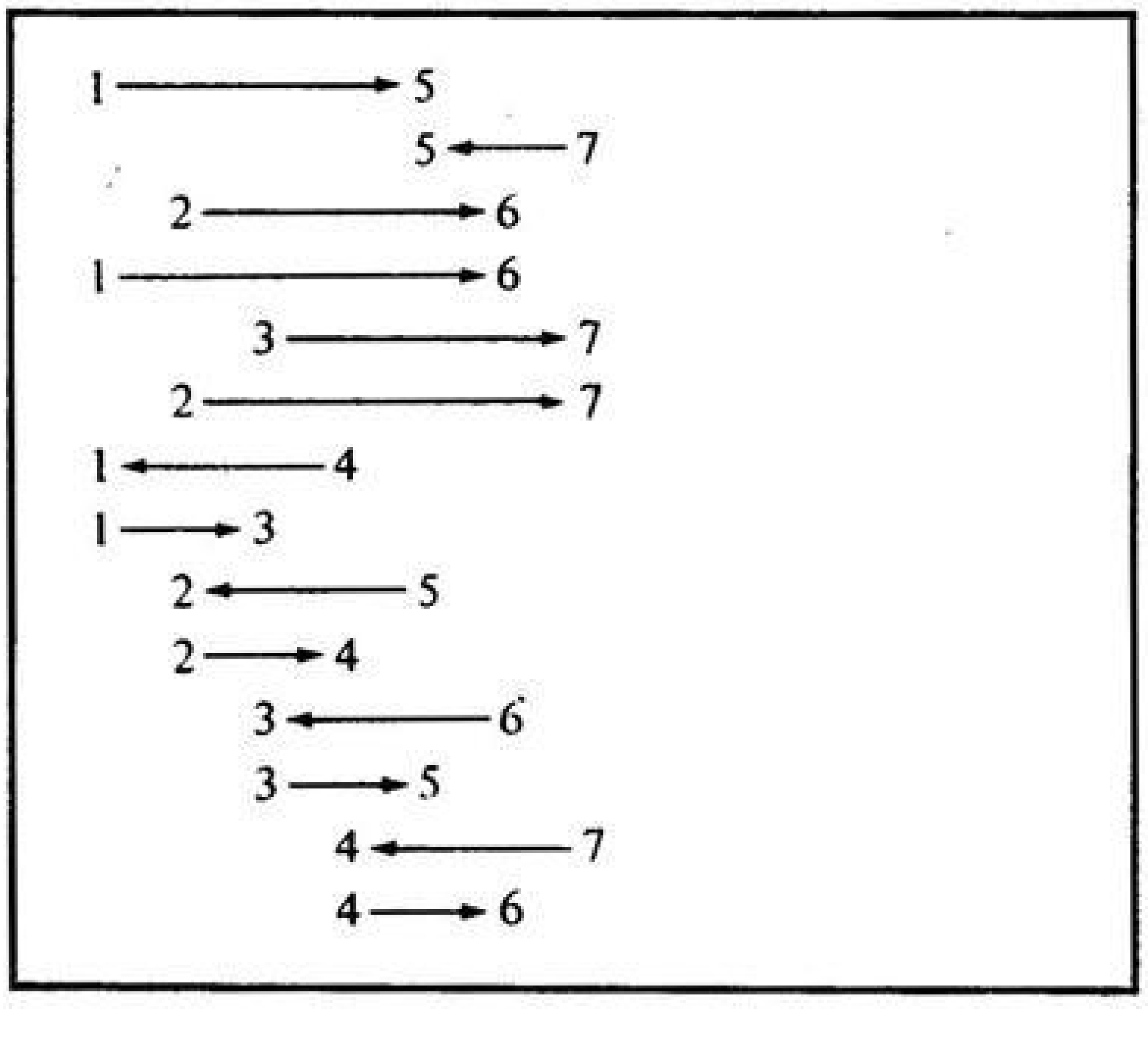

وقد بين لنا نفس هذا الرقيم الاوتار التي تشملها هذه الابعاد الاساسية اضافة الى اسمائها والجدول التالي يبين هذه الابعاد كالآتي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.co

اسم البعد	امتداده من الوتر	الى الوتر	معناه	ملاحظات حوله
نيش كاباري	1	5	صعود المثيل او البديل	
شيرو(6)	7	5	اللحن الاساس للاغنية	تقارن مع كلمة شعر بالعربية واصلها الغناء بالسومرية
اشارتو	2	6	الاعتيادي او المستقيم	قد تقارن اللفظة مع عشيران ويلاحظ ان الراست بالفارسية تعني ايضا المستقيم
شالشاتو	1	6	الثالث	تقارن مع ثلاثة بالعربية
امبوبو .	3	7	نوع من الناي القصبي	تقارن مع انبوب بالعربية ويلاحظ ان النوى في موسيقانا ايضا مشتق من الناي(7) ولنا عودة الى هذا الموضوع ادناه
ريبوتو	2	7	الرابع	تقارن مع اربعة بالعربية
فيدكابلي	1	4	سقوط الوسط	
اسكواواشكو	1	3	عصا الرمي اوالنصيب	تقارن مع لفظة عشاق لا يزال تعبير « شمرة عصا » مستعملا في العراق
كابليتو	5	2	الوسط	
تينوركابليتو	2	4	جسر الوسط	
كتمو	6	3	مسدود او مغطى	تقارن مع مكتوم بالعربية لنا عودة الى موضوع كتمو ادناه
تيتوراشارتو	3	5	جسر الاعتيادي	
بيتو	7	4	مفتوح	تقارن مع مفتوح بالعربية لنا عودة الى موضوع بيتو ادناه
شردو	4	6	؟	

وفيما يتعلق بالابعاد امبوبو وكتمو وبيتو نود ان نبدي الملاحظات التالية :

ان الامبوبو هو نوع من الناي القصب ومن المحتمل ان البعد امبوبو انما سمي كذلك لان اوتار هذا البعد كانت تسوى على صوت ناي الامبوبو تماما كما قد يسوى وتر النوى على صوت الناي وربما امكن تفسير البعد كتمو والبعد بيتو ايضا على هذا الاساس حيث تجري تسوية اوتار البعد كـ ـو حال كون ثقوب ناي الامبوبو مسدودة اومغطاة اي مكتومة — تذكر ان كتمو تعني مغطى او مكتوم — في حين تسوى اوتار البعد بيتو حال كون ثقوب ناي الامبوبو مفتوحة — تذكر ان بيتو تعني مفتوح —

والواقع انني عثرت على آلـة من الطين المفخور هي من جنس المصافير او ناي فخاري ربما كانت تستخدم « لدوزنـة » الكنارة او القيثار . فان صح ذلك فانها تكون اقدم « دوزان » من نوعه في العالم، هذه الآلة التي نجد صورتها ادناه .

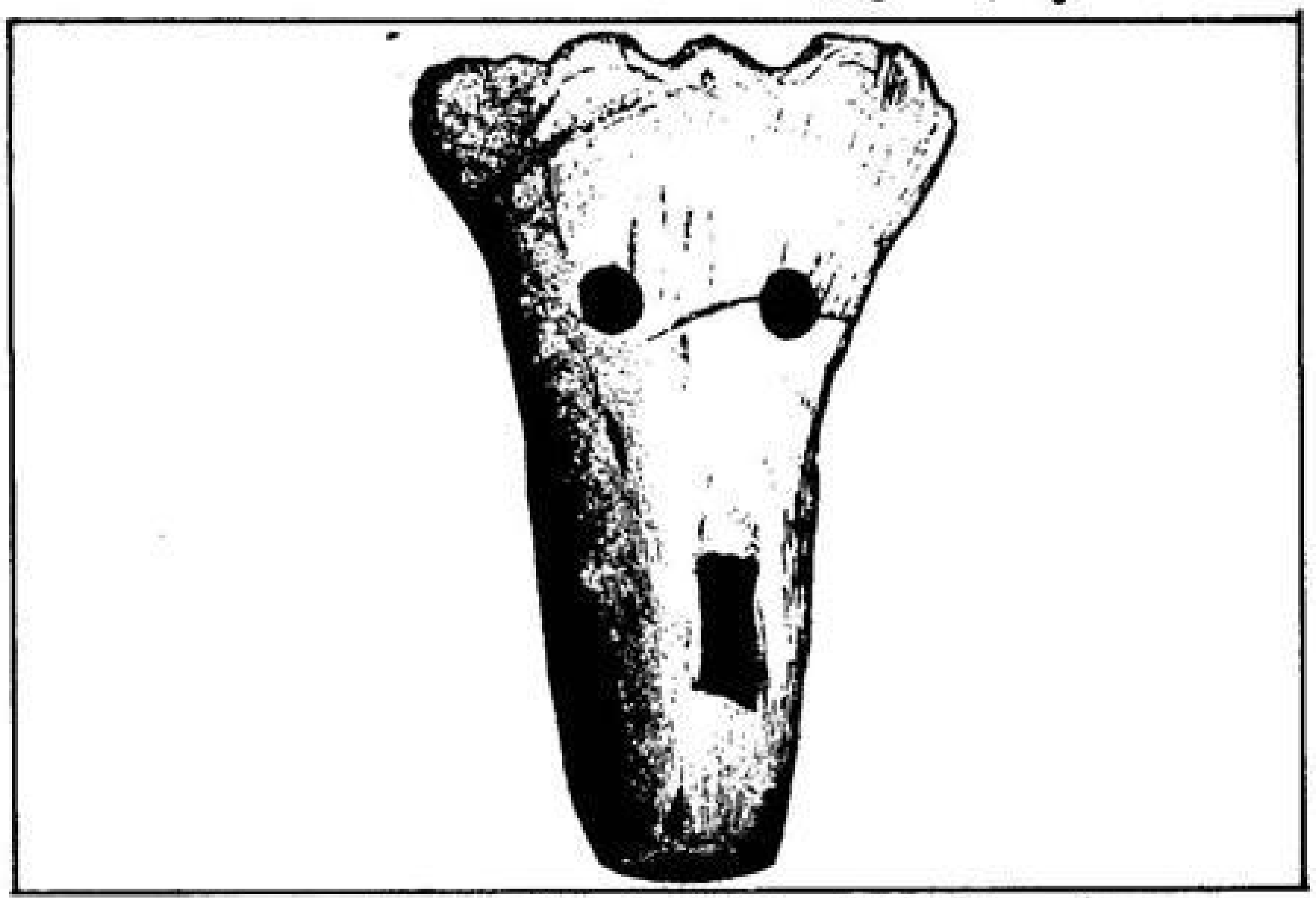

وهي الوحيدة من نوعها عثر عليها الكابتن ويلوك في بابل مع مجموعة من الدمى الصغيرة في بيرس نمرود . وقد قام باهدائها الى المتحف البريطاني . من المؤسف ان هذه الآلة فقدت من المتحف المذكور غير انه لحسن الحظ هناك صورة لهذه الآلة التي يبلغ طولها ثلاث بوصات في كتاب كارل انجل

Instruments of the Most Ancient Nations

المطبوع عام 1864 الصفحة (76) . ويذكر انجل انها تحتوي على ثقبين للاصابع فاذا سد كلا الثقبين فانها تعطي النغمة C واذا سد احدهما فقط فانها تعطي النغمة E اما اذا فتح كلاهما فانها تعطي النغمة G . وفي هذا المجال فان تسمية الابعاد امبوبو ، كتمو ، وبيتو ربما كانت تشير الى الوضع الذي يجب ان تكون عليه آلة « الدوزنة » هذه لدى تسوية اوتار هذه الابعاد . ونجد ادناه النغمات الثلاث لهذه الآلة كما دونها انجل

غير انه قد يكون هناك تفسيرا آخر لهذه المسالة اذ يذكر كالپن ص(17)

The Music of the Sumerians-Francis

نوعا من الناي يدعى كتمو (اي مغطى) وذلك لكون قصبة الناي مغطاة بقطعة من الخشب او ما شابه ذلك كنوع من التحسين عن الانواع السابقة التي كانت تغطى بالفم بدلا من ذلك . وهذا الناي مذكور في فهرست الاغاني الآشورية اكتشفت في آشور حيث ورد ذكر (17) اغنية حب تغنيها النساء وجاء ذكر ناي الكتمو فيها باسم كانزابو . وهناك ناي قصبي آخر ملتف الراس اسمه (بيتو) اي المفتوح

وفي هذه الحالة يمكننا ان نفترض مثلا ان اوتار البعد امبوبو كانت تسوى على ناي الامبوبو في حين تسوى اوتار البعد كتمو على ناي الكتمو واوتار البعد بيتو على ناي البيتو . ومن الطريف ان ذات المصدر اعلاه اضافة الى كورت ساكس ص (114)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

"The Rise of Music in the Ancient World"

يذكر ان الامبراطور الصيني هوانغ تي في الالف الثالث ق.م امر وزيره الامبراطوري لنغ لون (آمر الموسيقى) بأن يعبر جبال كوون لودن الى الغرب حتى يبلغ بلاد بقطريا وعلى وجه التحديد منطقة تاهيا التيعرفها البحاثة البريطاني گيلز بانها احدى اقاليم بقطريا في حين ذهب البحاثة اوتو فرانكه الى انها بلاد الطوخاريين الذين سكنوا الاطراف الجنوبية الشرقية لصحراء غوبى وكانوا حلقة الاتصال بين حضارة وادي الرافدين وبقية العالم القديم .

وكان الغرض من الزيارة هذه هو عمل انابيب من القصب ـ مثل الامبوبو ـ تدعى LüS بأطوال مختلفة تحفظ كل واحدة منها نغمة معينة . وبالفعل قام لنغ لون بعمل اثنى عشر انبوبا قصبيا كل واحد منها يؤدي نغمة معينة وسميت النغمة الاولى في السلم هوانغ شونغ .

« لا يزال دوزان آلة الكمان الحديثة يشبه مجموعة من الانابيب القصبية سوى انها مصنوعة من المعدن » .

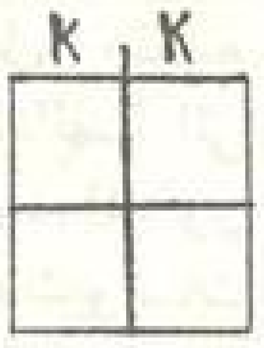

والواقع قد عرف الصينيون نوعا من الفلوت يدعى تيك وهذا الفلوت مماثل تقريبا الى فلوت سومري يدعى تيگي وتيگو بالاكدية .

والاقوام الصينية التي ينسب اليها هذا الفلوت هم قبيلة او قوم شيانغ، وهؤلاء حسب احدالآراء قدنزحوا الى الصين من منطقة جنوبي العراق او الخليج . وهناك بحث ممتع في المجلد الثاني من لغة العرب للاب انستاس ماري الكرملي ص (272) بعنوان « قبور غريبة قديمة في البحرين سابقة لعهد التاريخ » يتحدث فيها كاتب المقال الاستاذ رزوق عيسى نقلا عن تيرين دو لاكودري العالم الفرنسي عن الصينيين الاوائل من نسل ذوي الشعر الاسود كما يسميهم السومريون الذين يفترض انهم نزحوا من الخليج العربي .

عن فلوت التيك الصيني هذا يذكر الامير تساي يو الصيني (القرن السادس عشر) الذي شاهد نموذجا له بانه كان سباعي السلم

سلم التيك الصيني

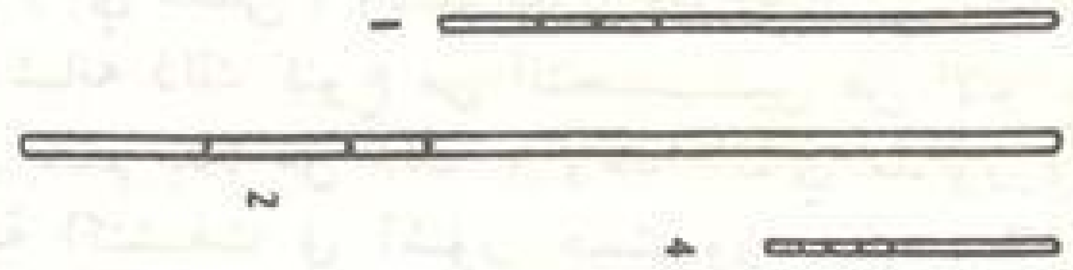

1 ـ التيك الصيني

2 ـ الفلوت المصري

4 ـ الانبوبالفضيمن اور 2800 ق.م

اما ال التيگي السومري فقد كان بالتاكيد سباعي النغمة ، اذ له اسم آخر « ايمين إي » اي النغمات السبع كما اننا نجد في قصيدة مكرسة لمناقب معبد انكي في اريدو (حوالي 0 22ق.م) ذكرا « لنغمته السابعة » كما ترد النغمات السبع في رقيم يتحدث عن احتفالات معبد نيناب (2000 ق . م) ـ گالپن ص 13 .

وهناك اسماء اخرى لهذه الآلة . ويلاحظ ان اسماء الآلات الموسيقية كانت تسبق عادة بعبارة تنم عن المادة التي صنعت منها گيش = خشب ، گوش = جلد او قصب او زبر = صفر ، نحاس الخ .. ولا نزال نلمس آثار هذا التقليد في اسماء آلاتنا الموسيقية كالعود والرق .

ومن حسن الحظ انه عثر في المقبرة الملكية في اور على ثلاث نايات او انابيب مزدوجة فضية واحد هذه الانابيب الثلاثة بحالةجيدة

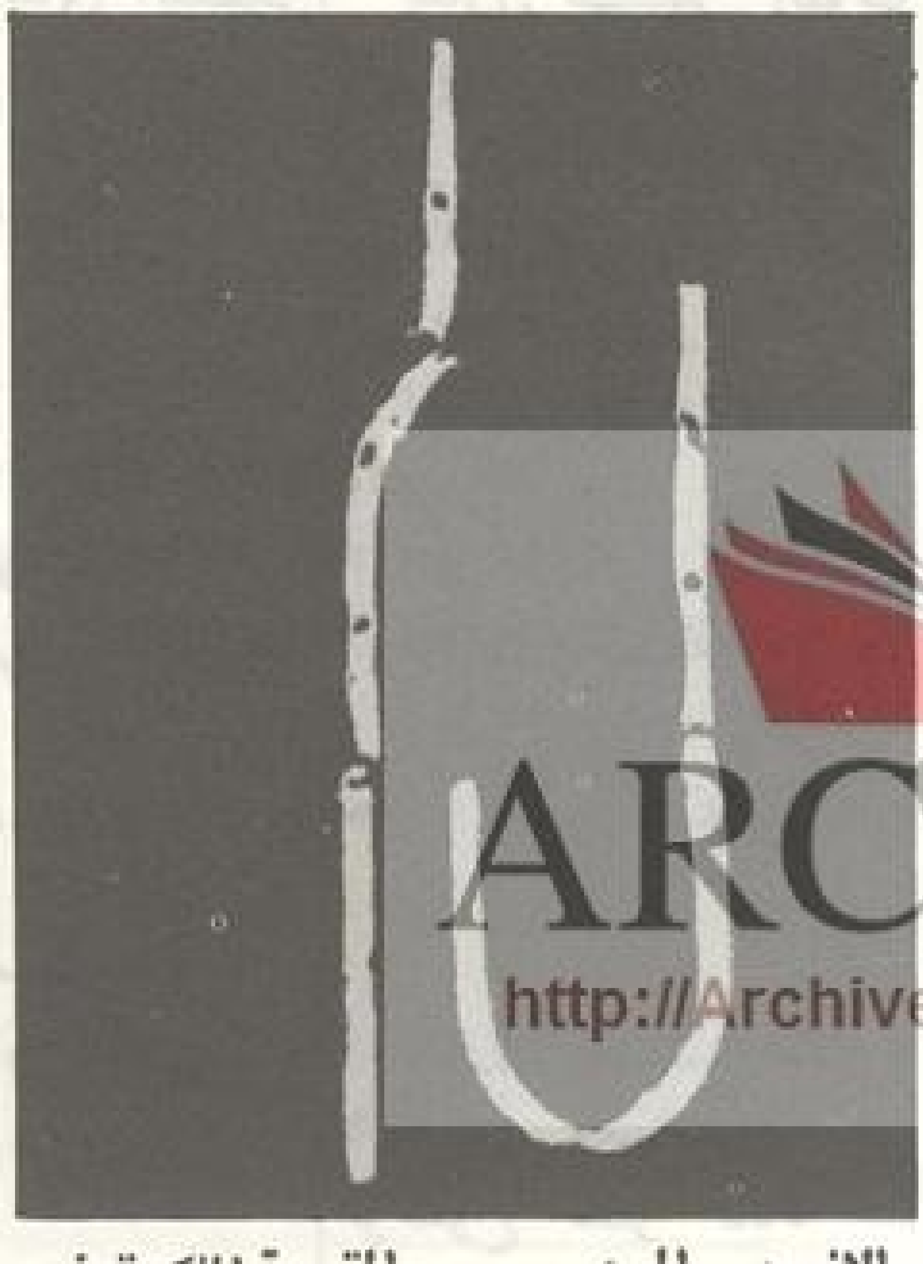

الانبوب المزدوج من المقبرة الملكية في اور 2800 ق.م متحف الجامعة . بنسلفانيا

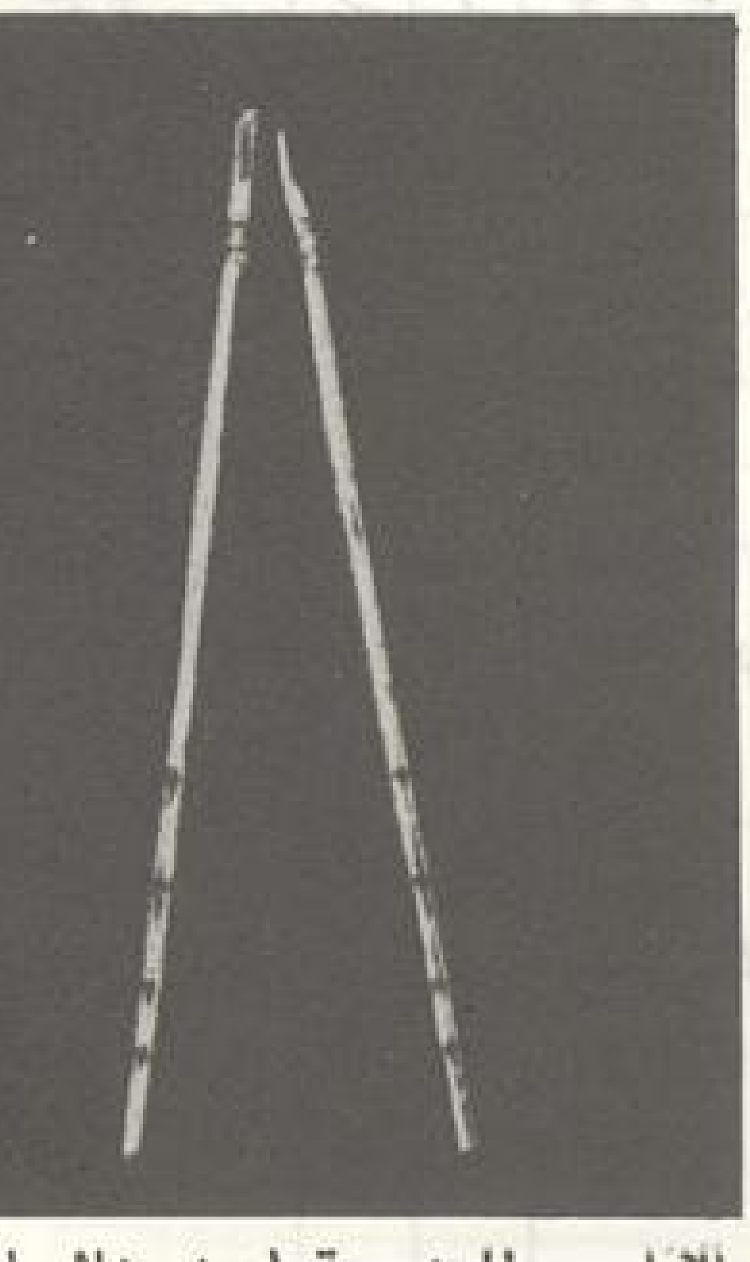

الانابيب المزدوجة اعيد بناؤها من قبل J. P. Robertson متحف الجامعة . بنسلفانيا

باستثناء ثلاثة ملمترات من جهة الفم وقد ثبتت مقاييسه هنا نقلا عن لاڤينياك ، لانه هو وفيتس الفرنسي ومن بعد مواطنه ڤيكتور لوري واخيرا كورت ساكز الالماني ، قاموا جميعا بعمل مقاسات دقيقة لاطوال هذه الآلات وابعاد ثقوبها حيث امكن على اساسها صنع نماذج جديدة لها ومعرفة نغمات سلمها بطريقتين : **الاولى** بطريقة عمليةاي بالنفخ فيهذه الآلات ، **والثانية** بطريقة نظرية او رياضية تستعمل فيها قواعدالفيزياء (الصوتيات) في معرفة النغمة النظرية التي يجب ان تصدر عن هذه الآلة .

ان المطلعين على صناعه الناي يدركون الصعوبات العملية التي ترافق مثل هذا المشروع والتي منها ان التردد يعتمد على عوامل عدة تلعب فيها شدة النفخ دورا في التردد الناتج . غير اني اوردت هذا البحث لاننا اذ بحثنا في السلالم الموسيقية البابلية من جهة آثارية ومن جهة علم الموسيقى النظرية ، فمن الممكن أن يكون اعادة بناء هذه الانابيب « النايات » تجربة عملية الى حد ما في اثبات السلم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفيما يلي مقاييس احد هذه الانابيب من اور

الطول = 0.27 م (حوالي 5ر10 بوصة) القطر = 0.004 م (حوالي 16/3 بوصة)

الفتحة 1 (الادنى) القطر 0.0035×0.0045م المسافة 0.237م

الفتحة 2 القطر 0.0035×0.0045م المسافة 0.218م

الفتحة 3 القطر 0.0040×0.0050م المسافة 0.188م

الفتحة 4 القطر 0.0040×0.0060م المسافة 0.156م

ان تجاربا مماثلة اجريت على النايات المصرية والصينية بما فيها التيك الذي تحدثنا عنه. ولضيق المجال نكتفي بايراد نتيجة احدى هذه التجارب على الناي المصري الذي يبدو انه هو الآخر كان سباعي النغمة التجربة لفيكتور لوري وهي مقدرة بحساب السنتات .

(نصف البعد الطنيني المعتدل ــ 100 سنت)

	سنت	سنت	سنت	سنت	سنت	سنت	سنت
تجربة رقم 15 :	132	138	186	174	178	208	295

ثالثا ــ الرقيم الثالث (KAR. 158) يبحث في الابعاد الرئيسية والثانوية على غرار الرقيم الرياضي ترد فيه ابعاد ثانوية مثل موروب . للتوسع فيه يرجع الى مقالة ولستن في مجلة العراق ص (224) .

رابعا ــ الرقيم الرابع ــ رقيم تسوية اوتار القيثارة (U 80/7)

وهو اهم هذه الرقم اكتشفت في اور وقد عثر عليه الدكتور ادموند سولبيرغر بين الرقوم الطينيــــة المكتشفة في اور والموجودة في المتحف البريطاني والتي لا تزال في انتظار دورها في النشر . وقد قام بتقديمه الى عالم الآثار البريطاني الشهير البروفسور رادلبنر گورني الذي حققه في المجلد الثلاثين لسنة 68 من مجلة العراق التي تصدرها مدرســـة الآثار البريطانية في العراق باللغة الانجليزية (معهد جرترود بيـــل التذكاري) ص 229 . وقد دفع به ايضا الى الدكتور ديفيد ولستن من الكلية المجدلية بجامعة اوكسفورد وهو من الاختصاصيين في علـــم الموسيقى ، وسنرى فيما بعد كيف ان اكتشاف هذا الرقيم مهـــد الطريق لمعرفة السلالم الموسيقية البابلية وكيف انها اثبتت صدق حدس الدكتورة مارسيل دوشين گيمه من جامعة لييج ببلجيكا ، والدكتور ولستن عن السلم حتى قبل اكتشاف الرقيم المذكور (على سبيل المثال سباعية السلم التي ذهبت اليها الدكتورة مارسيل تظهر واضحة كمـــا يذكر كورني حيث يلاحظ بحق انه في كل مرة يسوى فيها الوتر الاول او الثاني فان الوتر الثامن او التاسع تشمله التسوية) . وقد نشـــر ولستن بحثه المهم عن هذا الرقيم وعن السلم في نفس العدد من المجلد اعلاه ص 229 .

هذا الرقيم كان احد شطريه مفقودا غير انه بالنظر لوجود علاقة تناظرية بين الجزئين فقد امكن اكمال الجزء المفقود على هذا الاساس وفيما يلي ترجمة الرقيم كما نشرها كورني تعقبها الترجمة العربيـــة للرقيم بعد اكماله .

LEFT COLUMN

1. [. . . . . x *ú*]*ḫ?-ri?-im*
2. [. . . . .].-*tum*
3. [. . . . . *re-b*]*u-tum*
4. [. . . . . . . *ni-i*]*d? qá-ab-li-tim*
5. [. . . . . . .] *i-šar-tim*
6. [*uḫ*] - *ru* - *um*
7. [. . . . . . .] *i-šar-tum*
8. [. . . . .].-*tim*
9. [. . . . . . . *muš-d*]*i-im*
10. [. . . . . . *ki-it-m*]*u-um*
11. [. . . . . Y *u*]*ḫ-ri-im*
12. [. . . . .]

RIGHT COLUMN

[*šum-ma* ^{giš}ZÀ.MÍ *pi-i-tum-ma*]

1. [*e-e*]*m-b*[*u-bu-um la za-ku*]
2. *ša-al-š*[*a-am qá-at-na-am te-ni-ma*]
3. *e-em-bu-bu-u*[*m iz/ṣ-z/ṣa- . .*]
4. *šum-ma* ^{giš}Z[À.MÍ *e-em-bu-bu-um-ma*]
5. *ki-it-mu-um* [*la za-ku*]
6. *re-bi úḫ-ri-im* [*te-ni-ma*]
7. *ki-it-mu-um i*[*z/ṣ-z/ṣa- . .*]
8. *šum-ma* ^{giš}ZÀ.MÍ *k*[*i-it-mu-um-ma*]
9. *i-šar-tum la za-*[*ku-at*]
10. *ša-mu-ša-am ù úḫ-ri-a-a*[*m te-ni-ma*]
11. *i-šar-tum iz/ṣ-z/ṣa-*[. .]
12. NU SU
13. *šum-ma* ^{giš}ZÀ.MÍ *i-šar-t*[*um-ma*]
14. *qá-ab-li-ta-am ta-al-pu-*[*ut*]
15. *ša-mu-ša-am ù úḫ-ri-a-am te-*[*ni-ma*]
16. [^{giš}]ZÀ.MÍ *ki-it-mu-*[*um-ma*]
17. [*šum*]-*ma* ^{giš}ZÀ.MÍ *ki-it-m*[*u-um-ma*]
18. [*i-ša*]*r-ta-am la za-ku-ta-am t*[*a-al-pu-ut*]
19. [*re-bi*] *úḫ-ri-im te-n*[*i*]-*m*[*a*]
20. [^{giš}ZÀ.MÍ *e-em-bu-bu-um-ma*]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

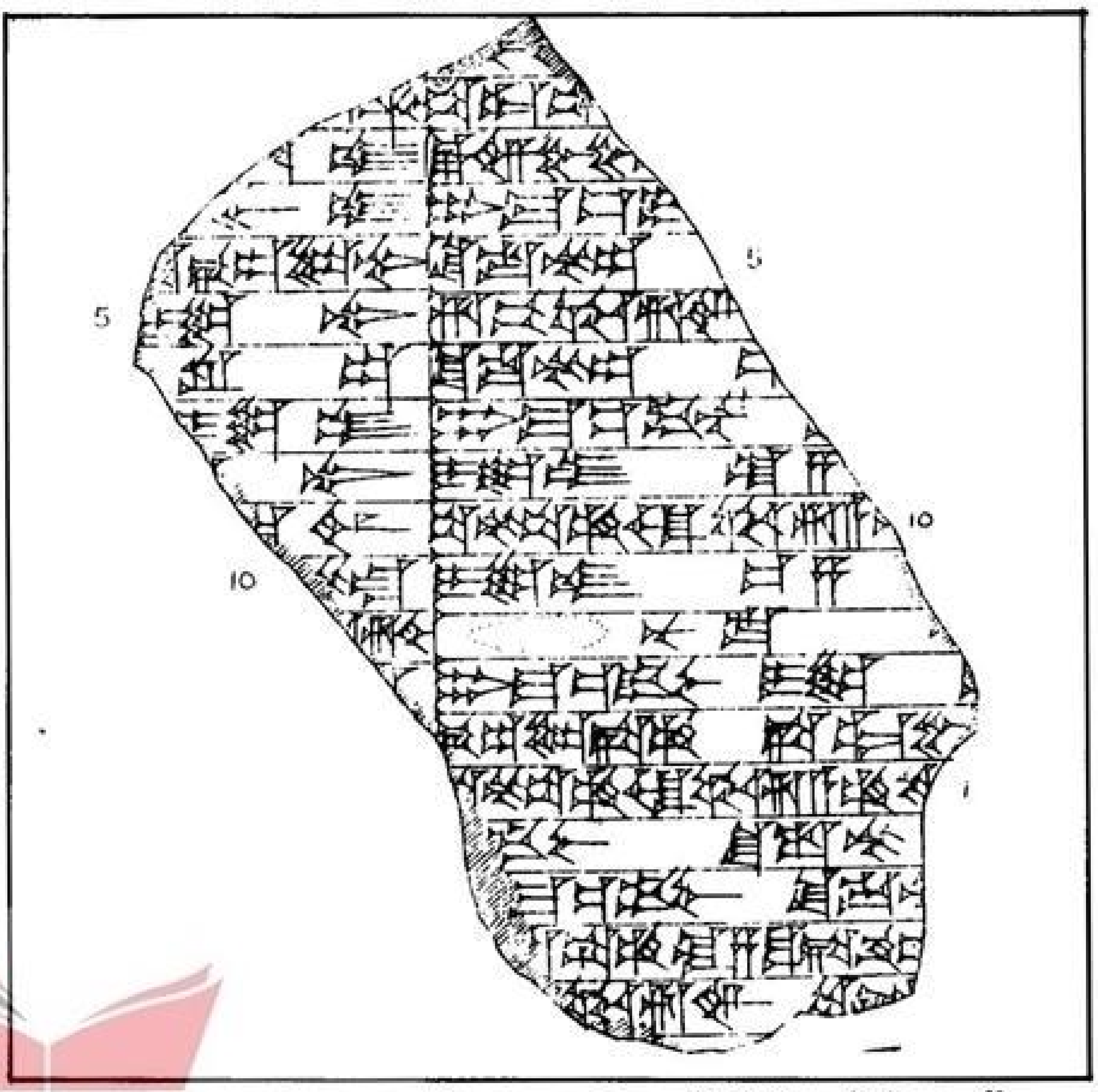

الترجمة العربية للرقيم :

ملاحظة ـ السطور من 1 الى 19 هي الاصلية ، اما السطور التي توجد حروف ازاءها فهي مفقودة اكملت على اساس التناظر بين الشطرين . الارقام بين الاقواس تشير الى الابعاد موضوعة البحث

الاوتــار

ا ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على الكابليتو ولكن]

ب ـ [(بعد) نيش كاباري لم يك واضحا] (5-1)

جـ ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر)الامامي و (الوتر) الثاني من الخلف] (8-1)

د ـ [فيصبح (بعد) نيش كاباري واضحا]

هـ ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على النيش كاباري ولكن]

و ـ [(بعد) نيد كابلي لم يك واضحا] (4-1)

ز ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر) الرابع] (4)

ح ـ [يصبح (بعد) نيدكابلي واضحا]

ط ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على النيدكابلي ولكن]

ي ـ [(بعد) بيتو لم يك واضحا] (4-7)

ك ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر) الثالث من الخلف] (7)

ل ـ [فيصبح (بعد)بيتو واضحا]

م ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على البيتو ولكن]

1 ـ (بعد) امبوبو لم يكن واضحا . (7-3)

2 ـ فانك تعيد تسوية (الوتر) الثالث الرفيع (3)

3 ـ فيصبح (بعد) امبوبو واضحا .

4 ـ اذا كانت الكنارة (منصوبة) على الامبوبو ولكن

5 ـ (بعد) كتمو لم يك واضحا (6-3)

6 ـ فانك تعيد تسوية (الوتر) الرابع من الخلف (6)

7 ـ فيصبح (بعد) كتمو واضحا

8 ـ اذا كانت الكنارة (منصوبة) على الكتمو ولكن

9 ـ (بعد) اشارتو لم يك واضحا (6-2)

10ـ فانك تعيد تسوية (الوتر) الثاني والخلفي (9-2)

11ـ فيصبح (بعد) اشارتو واضحا

12ـ لا غير (اي تتوقف التسوية)

13ـ اذا كانت الكناره (منصوبة) على الاشارتو ولكنك

14ـ كنت تعزف (بعد) كابليتو غير واضح (5-2)

15ـ فانك تعيد تسوية (الوتر) الثاني والخلفي (9-2)

16ـ فتصبح الكناره (منصوبة) على الكتمو .

17ـ اذا كانت الكناره (منصوبة) على الكتمو ولكنك

18ـ كنت تعزف (بعد) اشارتو غير واضح (6-2)

19ـ فانك تعيد تسوية (الوتر) الرابع من الخلف (6)

20ـ فتصبح الكنارة (منصوبة) على الامبوبو

ا ا ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على الامبوبو ولكنك]

ب ب ـ [كنت تعزف (بعد) كتمو غير واضح] (3-6)

جـ جـ ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر) الثالث الرفيع] (3)

د د ـ [فتصبح الكنارة (منصوبة) على البيتو]

هـ هـ ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على البيتو ولكنك]

و و ـ [كنت تعزف (بعد) امبوبو غير واضح] (7-3)

ز ز ـ (فانك تعيد تسوية (الوتر) الثالث من الخلف] (7)

ح ح ـ [فتصبح الكنارة (منصوبة) على النيدكابلي]

ط ط ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على النيدكابلي ولكنك]

ي ي ـ [كنت تعزف (بعد) بيتو غير واضح] (7-4)

ك ك ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر) صنعة الاله آيا] (4)

ل ل ـ [فتصبح الكنارة (منصوبة) على النيش كاباري]

م م ـ [اذا كانت الكنارة (منصوبة) على النيش كاباري ولكنك]

ن ن ـ [كنت تعزف (بعد) نيدكابلي غير واضح] (4-1)

س س ـ [فانك تعيد تسوية (الوتر) الامامي] (1)

ع ع ـ [فتصبح الكنارة (منصوبة) على الكابليتو]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا يتبين ان القسم الاول من الرقيم يتحدث عن كيفية توضيح بعد معين عن طريق اعادة تسوية الاوتار ، بينما يتحدث القسم الثاني من الرقيم عن كيفية تبديل نصب القيثارة من سلم الى آخر .

ويمكن عمل جدول لعلاقات القسم الاول من الرقيم كما يلي :

نصب الكنارة	البعد غير الواضح	الاوتار التي يمسها التعديل لغرض التوضيح
1 ـ كابليتو	نيش كاباري [1ـ5]	1و8
2 ـ نيش كاباري	نيد كابلي [4ـ1]	4
3 ـ نيد كابلي	بيتو [7ـ4]	7
4 ـ بيتو	امبوبو [3ـ7]	3
5 ـ امبوبو	كتمو [6ـ3]	6
6 ـ كتمو	اشارتو [2ـ6]	9و2

لا غير (لتوقف التسوية) .

أما القسم الثاني من الرقيم فيمكن عمل جدول لعلاقاته كما يلي :

نصب الكنارة الابتدائي	البعد غير الواضح	الاوتار التي يمسها التعديل	النصب الجديد للكنارة
1 ـ اشارتو	كابليتو (5ـ2)	9و2	كتمو
2 ـ كتمو	اشارتو (2ـ6)	6	امبوبو
3 ـ امبوبو	كتمو (6ـ3)	3	بيتو
4 ـ بيتو	امبوبو (3ـ7)	7	نيد كابلي
5 ـ نيد كابلي	بيتو (7ـ4)	4	نيش كاباري
6 ـ نيش كاباري	نيد كابلي (1ـ4)	1	كابليتو

كانت نقطة الابتداء للدكتورة مارسيل دوشين ملاحظة ان الوتر الثالث « شلشو قطنو » يحمل اسم الوتر الرفيع وقد خلصت الى ان النصف نغمة « البقية » Semitone تظهر بين هذا الوتر والوتر الرابع بحيث ان الكنارة تكون منصوبة على سلم يعادل سلم C ماجور ممتدا من C الى D في الديوان الذي يعلوه . وقد ذهبت الى ان الوتر الرابع (صنعة الاله آيا) يطابق الوتر الاغريقي ميزي ومعناه (الوسط) وقد بين وولستن عدم عملية هـذا الافتراض في مقالته المذكورة وذهب الى ان الوتر الخامس لا الرابع هو الذي يمكن ان يطابق وتر الميزي ومعناه ـ الوسط ـ الاغريقي وافاد بحق ان هذا الوتر يبدأ منه البعد كابليتو ولعله ليس من قبيل المصادفة ان معنى هذا البعد اي البعد كابليتو بالذات هو ايضا « البعد الوسط » وحوله تتركز تسوية سلم القيثارة .

ومن الطريف ان نذكر هنا قولا لارسطور :

-Aristotle XIX, 20:
Διὰ τί ἐάν τις μὲν τὴν μέσην κινήσῃ ἡμῶν, ἁρμόσας [δὲ] τὰς ἄλλας χορδάς, κεχρηται τῷ ὀργάνῳ, οὐ μόνον ὅταν κατὰ τὸν τῆς μέσης γένηται φθόγγον, λυπεῖ, καὶ φαίνεται ἀνάρμοστον ἀλλὰ καὶ κατὰ τὴν ἄλλην μελῳδίαν

وترجمته العربية :

[« عجبت » كيف ان المرء يغير تسوية « وتر » الميزي بعد ان يكون قد ضبط تسوية بقية الاوتار فاذا بكل شيء يبـدو نشازا ، لا يقتصر ذلك فقط عندما ناتي على وتر الميزي بل يتعدى ذلك الى اللحن باكمله] .

غير انه بعد اكتشاف رقيم تسوية الاوتار عدلت الدكتورة مارسل دوشن گيمه عن هذه الآراء ونشرت سلالم القيثارة بالنوطة الحديثة .

في عام 1966 كانت الدكتورة مارسيل دوشين گيمه وزوجهـا البروفسور جاك دوشن گيمه من جامعة لييج ببلجيكـا في زيارة الى شيكاغو بالولايات المتحدة حيث انغمست في محادثة حول موضوع السلالم البابلية مع البروفسور گوتر بوخ والدكتورة آن درافكورن كيلمر ولم يك رقيم تسوية اوتار القيثارة U 80/7 قد نشر بعد . وقـد أسفر اللقاء عن اهتمام الدكتورة وزوجها بالموضوع حيث اسهما اسهامات مهمة في دفع الموضوع الى امام . فالبروفسور جاك مثلا هو الذي اقترح العلاقـة الدورية في الرقيم الرياضي CBS 10996 والتي على اساسها اكمل البروفسور گوتر بوخ والدكتورة كيلمر النقص الموجود في الرقيم المذكور بسبب فقدان جزء منه حيث قام البروفسور صموئيل نوح كرامر مشكورا باعارتهم الرقيم الاصلي .

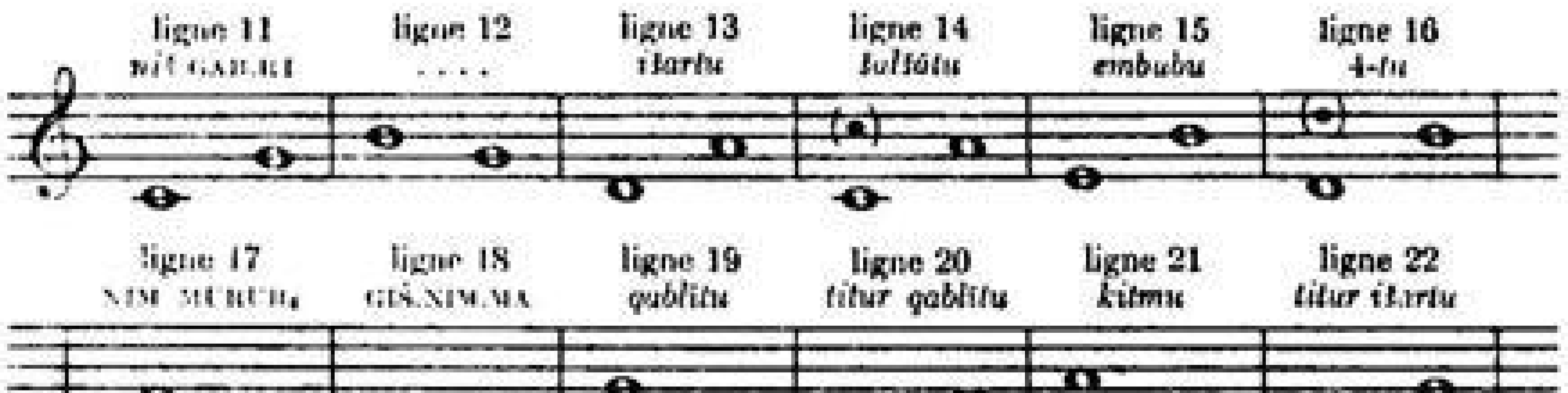

الابعاد حسب مارسيل دوشن گيمه

Figure 14

Tunings According to the Tuning Text U. 7/80

("unclear" intervals shown by a bracket)

First Series: Tuning	Strings 1 2 3 4 5 6 7	Bracket	Second Series: Tuning*	Strings 1 2 3 4 5 6 7	Bracket
qablītu (كابليتو)	E♯ F♯ G♯ A♯ B C♯ D♯	nīš gabarî (نيش كباري)	išartu (= Dorian) (اشارتو دوريو)	E F G A B C D	qablītu (كابليتو)
nīš gabarî (نيش كباري)	E F♯ G♯ A♯ B C♯ D♯	nīd qabli (نيد كابلي)	kitmu (= Hypodorian) (كتمو فوق الدوري)	E F♯ G A B C D	išartu (اشارتو)
nīd qabli (نيد كابلي)	E F♯ G♯ A B C♯ D♯	pītu (بيتو)	embūbu (= Phrygian) (امبوبو فريجي)	E F♯ G A B C♯ D	kitmu (كتمو)
pītu (بيتو)	E F♯ G♯ A B C♯ D	embūbu (امبوبو)	pītu (= Hypophrygian) (بيتو فوق الفريجي)	E F♯ G♯ A B C♯ D	embūbu (امبوبو)
embūbu (امبوبو)	E F♯ G A B C♯ D	kitmu (كتمو)	nīd qabli (= Lydian) (نيد كابلي ليدي)	E F♯ G♯ A B C♯ D♯	pītu (بيتو)
kitmu (كتمو)	E F♯ G A B C D	išartu (اشارتو)	nīš gabarî (= Hypolydian) (نيش كباري فوق الليدي)	E F♯ G♯ A♯ B C♯ D♯	nīd qabli (نيد كابلي)
išartu (اشارتو)	E F G A B C D	qablītu (كابليتو)	qablītu (= Mixolydian) (كابليتو مكسوليدي)	E♯ F♯ G♯ A♯ B C♯ D♯	nīš gabarî (نيش كباري)

*Corresponding Greek octave-species given in parentheses.

القوس ـــــــ يشير الى البعد غير الواضح

خلص وولستن من عبارة « غير واضح » التي ترد في رقيم تسوية الاوتار الى انها تنصرف الى بعد رابع زائد ترايتون او خامس ناقص سيصار الى جعله تاما باعادة تسوية الاوتار المعنية .

وفي هذه الاثناء طلع هانز كومل من جامعة توبنجن بمقالته في المجلد 39 ص 252 من مجلة اورينتاليا

Zur Stimmung der Babylonischen Harfe

في سلم وتسوية القيثارة البابلية وقد استطاع كومل ان يثبت استنادا الى رقيم التسوية ان السلم الموسيقي للكنارة البابلية قائم على مايعرف بدورة الاخماس (لم نتوسع في شرحها حيث بالامكان الرجوع اليها في اي كتاب يبحث في نظرية الموسيقى (سليم الحلو الموسيقى النظرية مثلا) وبموجبها تتعاقب الاخماس الصاعدة مع الارباع الهابطة وبعد ستة من هذه الاخماس والارباع (باستعمال سبع نغمات) فان النغمة الاخيرة تكون بعدا رابعا زائدا (ترايتون) او بعدا خامسا ناقصا مع النغمة الاولى . مثل هـذه الدورة تعطينا سـبع نغمـات Pitches للاوكتاف الواحـد مكونة سلما دياتونيا F. G. A. B. C. D. E. يحتوي على بعد رابع زائد واحد « ترايتون » .

[السلم الدياتوني ، هو السلم الذي يتبع احد السلالم الماجور او المانيور . بعكس السلم الملون الكروماتي او الخنثوي كما يسـميه الفارابي] .

ولدى اعمال هذه الفكرة اي فكرة دورة الاخماس هذه ظهرت سبعة سلالم تحمل نفس اسماء الابعاد الاساسية للكنارة .

وقد اثبت كومل ان السلم « سلم كابليتو مثلا » انما يسمى كذلك لان دورة الاخماس هذه تبدأ في هذا السلم من هذا البعد اي من بعد كابليتو (5–2) وان اي سلم انما يسمى باسم البعد الذي تبدأ منه دورة الاخماس . فدورة الاخماس هذه تبدأ في سلم كابليتو من البعد كابليتو وفي سلم اشارتو من البعد اشارتو وهكذا . .

خامسا ـ الرقيم الخامس : رقيم الفهرست VAT (10101)

وهو فهرست لاغاني الحب الآشورية نشره الدكتور ابلنغ عام 1919 في لايبزغ .

(Keilschrifttexte aus Assur Religiösen Inhalts) No. 158.

وهي كالآتي :

23 ـ اغنية حب في « مقام او سلم » اشارتو اكديه

37 ـ اغنية حب في « مقام او سلم » كتمو

24 ـ اغنية حب في « مقام او سلم » امبوبو

4 ـ اغاني حب في « مقام او سلم » بيتو

[ ] ـ اغاني حب في « مقام او سلم » نيدكابلي

[ ] ـ اغاني حب في « مقام او سلم » نيش گاباري

[ ] ـ اغاني حب في « مقام او سلم » كابليتو

[مجموع اغاني الحب . . .] اكديه

ويتبين من ذلك ان المصطلحات التي كانت تطلق على الابعاد الرئيسة للقيثارة اصبحت ايضا تطلق على السلالم للاسباب التي شرحناها . واخيرا نجدها في الرقيم اعلاه تستعمل لوصف الاغنية ايضا وهذا يعني ان القيثارة يجب ان تكون منصوبة على سلم كابليتو مثلا عندما نعزف اغنية من مقام او سلم كابليتو ، تماما كما نقول اليوم ان مقطوعة موسيقية هي في مقام حجاز او في سلم سي ماجور .

لدى اعمال دورة الاخماس هذه التي اكتشف كومل ان سلالم القيثارة مبنية عليها نشأت لدينا سبع سلالم كما هو مبين ادناه في الشكل .

دورة السلالم حسب دورة الاخماس التي اكتشف كومل

ان سلالم القيثارة مبنية عليها نقلا عن مقالته

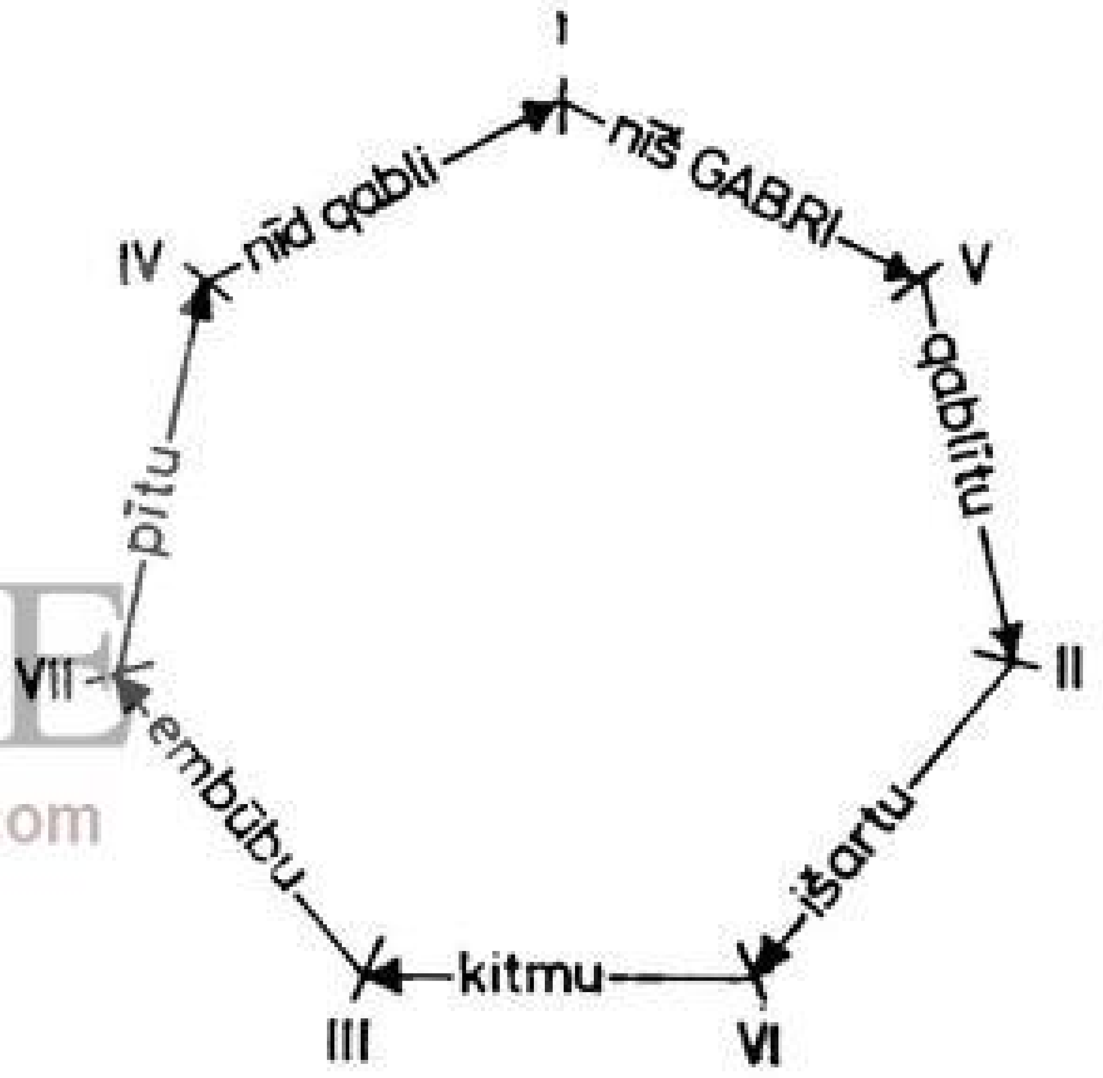

ومن الطريف اننا نجد مثلا انه لدى المقارنة بين سلم اشارتو « ومعناه الاعتيادي » وبين السلم الاغريقي الدوري الذي هو الآخر السلم الاعتيادي للموسيقى الاغريقية ، ان هناك تماثلا بين السلمين وكذلك الامر بالنسبة لبقية السلالم في النظامين حيث نجد في كل منهما مثيلا للآخر في النظام الذي يقابله . ولما كان النظام البابلي هو الاقدم فان هذا يوحي باستناد النظام الاغريقي او بالاحرى السلالم الاغريقية القديمة على السلالم البابلية علما بان هذه السلالم او الاجناس الاغريقية تشكل اساس السلم الغربي الحديث . ولما كانت السلالم الاغريقية القديمة لها ما يماثلها في السلم الشرقي فقد اوردنا هذه المقارنة ايضا نقلا عن كورت ساخس ص 283

The Rise of Music in the Ancient World

وعن ص 121 من كتاب موسيقى الشرق الادنى لكلير بولين

Music of the Ancient Near East - Clair C.J Polin

راست يقابل الليدي في سلم G
نوى يقابل فريجي في سلم A
بكهاه يقابل فوق الفريجي في سلم D
حسيني عشيران يقابل فوق الفريجي في سلم E
ARAD يقابل فوق الفريجي في سلم A
اوج يقابل مكسو ليدي في سلم F
عجم عشيران يقابل ليدى في سلم F
نهاوند يقابل فوق الدوري في سلم G

وهناك مقارنات اخرى للعشاق والبيات والاصفهان والحجاز

I - Arabic عربي D, E, F, G, A, B, C, D

(tonal intervals or steps) 3/4 3/4 4/4 4/4 3/4 3/4 4/4

Greek Phrygian فريجي D, E, F, G, A, B, C, D

(minor characteristic)

1 1/2 1 1 1 1/2 1

11 - Arabic عربي E, F, G, A, B, C, D, E

3/4 3/4 4/4 3/4 3/4 4/4 3/4

Dorian دوري E, F, G, A, B, C, D, E

1/2 1 1 1 1/2 1 1

III- Arabic عربي F, G, A, Bb, C, D, E, F

(major in character)

4/4 4/4 2/4 4/4 4/4 3/4 3/4

Lydian ليدي F, G, A, Bb, C, D, E, F

1 1 1/2 1 1 1 1/2

ملاحظة : ليدي ، فريجي نسبة الى مملكتي ليديا وفريجيا بآسيا الصغرى ، اما دوري فنسبة الى الاغريق الدوريين ، ليديا عاصمتها سارديس اكتشفت عام 1958 وآخر ملوكها قارون الذي تروى عنه اسطورة اكتناز الذهب الشهيرة ، اما فريجيا فعاصمتها كورديون اكتشفت عام 1889 وملوكها عرفوا بلقب ميداس او كورداس .

ملاحظات عامة حول السلم :

يبحث وولستن في موضوع علاقة الكواكب السيارة بالسلالم الموسيقية ويذكر في هذا الصدد انه منذ عهد افلاطون كانت تعزى الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الكواكب نغمات معينة [الواقع ان الفكرة اقدم من ذلك وقد عرفها البابليون والمصريون القدماء ونشاهد لها اثرا واضحا في ديانة صابئة حران ، حيث تنسب الى الكواكب السيارة نغمات سماوية معينة ـ كاتب المقال] وهو يذكر بحق ان الفكرة شرقية المصدر . وحسب منطوق النظرية الاغريقية ، فان الانغام التي كانت تصدر عن الكواكب كانت كما في السلم الاغريقي التالي :

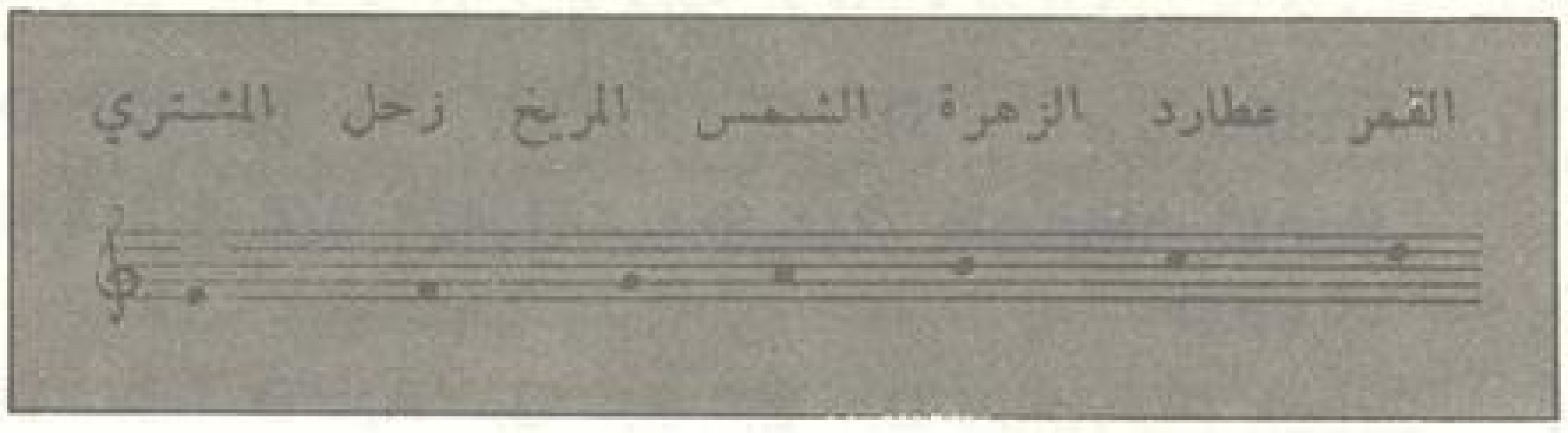

وهذا هو نفس سلم اشارتو البابلي ، وفي حين ان الاجناس (السلالم) الاغريقية ، كانت حسب التسلسل الآتي : دوري ، فوق الدوري ، فريجي .. الخ . مبتداة من النغمات D, A, E .. الخ نجد نفس التسلسل متبعا في السلالم البابلية بالنسبة لنغمات الابتداء حيث تتبع السلالم البابلية السبع نفس التسلسل : اشارتو ، كتمو ، امبوبو ... الخ . هذا التسلسل ذاته نجده متبعا في الكتابات الموسيقية العربية للاشعبي .

ويبحث ديو كاشيوس ـ راجع : (History XXXVii) 17-18 في ان هذا التسلسل هو ايضا تسلسل ايام الاسبوع : السبت او يوم زحل ـ الاحد او يوم الشمس ـ الاثنين او يوم القمر ... الخ . والتسلسل الرباعي لهذا التسلسل يمكن ان تنتج عنه سلسلة جديدة هي السلسلة التالية :

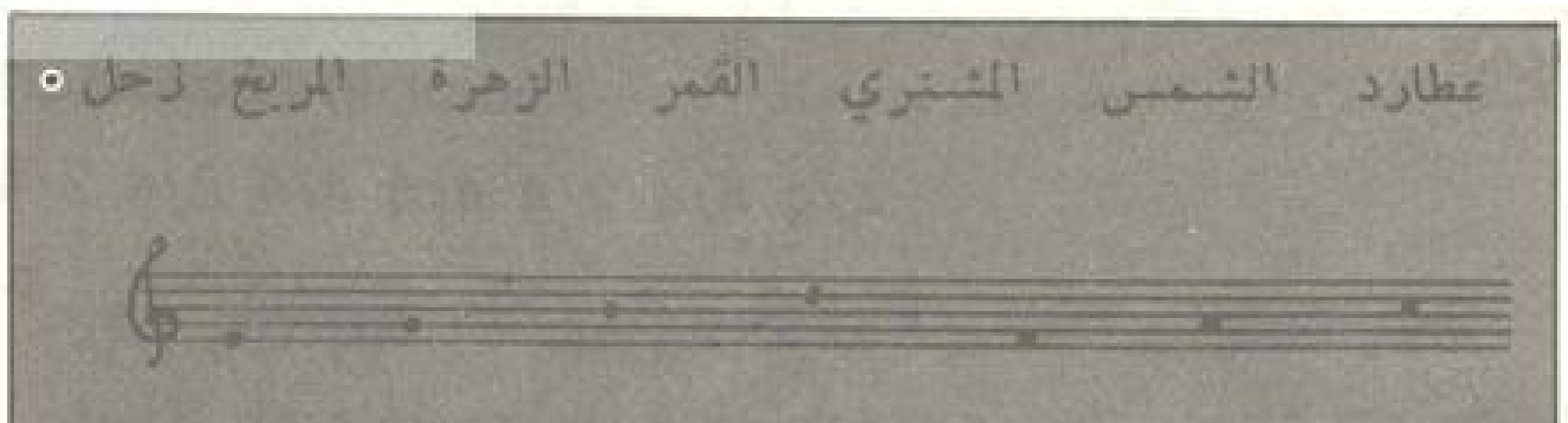

وهذه السلسلة تماثل تسلسل الابعاد الثانوية للسلم البابلي كما وردت في الرقيم الرياضي (10996) C. B. S

وبعد استعراض الفكرة القديمة حول سيادة الكواكب بالنسبة الى ساعات النهار حيث يفترض ان كل ساعة من ساعات النهار لكل يوم من ايام الاسبوع يحكمها كوكب معين وعلاقة ذلك بالابراج [هذه الفكرة واردة لدى كثير من الامم وهي بالتاكيد واردة لدى الكندي ـ كاتب المقال ـ انظر تاريخ الموسيقى الشرقية لسليم الحلو ص 272 وكذلك ذات المصدر ص 132 بالنسبة لوروده في الموسيقى التركية و ص 33 بالنسبة للموسيقى الصينية و 78 بالنسبة للموسيقى المصرية] .

وبعد مناقشة لـ (Neugebaur) ، يخلص ولستن الى ان للبابليين يدا في صياغة هذه النظرية المتعلقة بأيام الاسبوع وعلاقتها بالابراج والكواكب والموسيقى السماوية التي تصدر عنها فتترتب السلالم بموجبها . وفي هذا المجال اود ان اذكر ان الفكرة السائدة في بعض المصادر الموسيقية ترجح ان السلم الموسيقي للشعوب القديمة كان خماسيا في بدايته(8) ، وان ذلك كان مرتبطا بالكواكب السيارة فقد كان عدد الكواكب السيارة خمسا ، ولذا كان عدد نغمات السلم خمسا ، وكذا كان عدد ايام الاسبوع ، فلما عرف القدماء كوكبين آخرين ، ارتفعت ايام الاسبوع الى سبعة ومعها ايضا تحول السلم من سلم خماسي الى سلم سباعي .

ومن الطريف انني عثرت على بحث في مجلة العراق التي تصدر عن مدرسة الآثار البريطانية في العراق المجلد 31 ص 159 لكمال بالكان من انقرة بعنوان « الاسبوع الآشوري القديم » يبحث فيه موضوع الاسبوع البابلي القديم « خامشتم » ويفهم منه احتمال ان الاسبوع البابلي القديم خامشتم كان يتكون من خمسة ايام ثم تحول الى الاسبوع الحالي المتكون من سبعة ايام . فهل كانت تلك بداية التحول من السلم الخماسي الى السلم السباعي اثر اكتشاف سيارات جديدة كما حدث في مصر مثلا ؟

سادسا ـ الرقيم السادس « انشودة العبادة الحورية من اوغاريت »(9) « راس شمرا » شمال اللاذقية رقم الرقيم (R. S. 15.30 + 15.49 + 17.387) اكتشفت هذه الرقيمة في ثلاثة اجزاء مهشمة خلال خمسة مواسم تنقيب (1950 ـ 1955) من قبل البعثة الفرنسية التي يراسها البروفسور شيفر ، وهي الآن محفوظة بمتحف دمشق . وقد قام بنشرها البروفسور عمانوئيل لاروش من جامعة ستراسبورغ بفرنسا في المجلد الخامس من مجلة اوگاريتيكا لعام 1968 مع رقيمات موسيقية اخرى الا انها مهشمة للغاية ، لا يمكن الافادة منها . وهو يحتوي على ملاحظة بالاكدية تفيد ان الاغنية هي في سلم نيد كابلي « للآلهة من اورخيا ـ لعلها اورفه(10) ـ كاتب المقال ـ نقلها اموراپي ويرد ذكر الاغنية بعبارة زالوزي الغامضة ـ اجدها قريبة من (ارجوزه) ـ كاتب المقال ـ .

الجزء العلوي من الرقيم باللغة الحورية وهي لغة انسلخت عنها اللغة الاورارتية « لغة مملكة اورارتو ـ ارارات ـ المعروفة باللغة الخالدية او القانية نسبة الى بحيرة وان بتركيا والتي انبثقت عنها اللغة الارمنية الحالية » وقد توغل الحوريون الى شمال العراق وسوريا منذ نهاية القرن الثامن عشر ق . م . وفي القرن الخامس عشر ق.م. تمكنت دولة ميتاني الحورية ان توسع نفوذها من البحر الابيض المتوسط حتى شمال العراق . اما موقع عاصمتهم واشكاني كان « الفخاريه » على الخابور شرقي تل حلف وحران .

كانت اراپخا ـ كركوك الحالية ـ مركزهم الرئيس في الشمال، وتعتبر مدينة « نوزي » ـ الاصح نوزو ـ يورغان تپه الحالية ـ الواقعة على بعد بضعة كيلو مترات من كركوك احدى مراكزهم المهمة في العراق .

وهم ليسوا من الاقوام الهندو ـ اوربية رغم ان ملوكهم ومعظم آلهتهم كانوا كذلك . اما لغتهم فانها هي الاخرى لم تكن هندو ـ اوربية(11) .

ويحوي هذا الجزء كلمات الاغنية التي تدور حول الآلهة نيكال زوجة إله القمر [يلاحظ ان زوجة اله القمر العراقي سين بالاكدية و نانار بالسومرية هي الاخرى تحمل اسما قريبا من نيكال هو نين گال](12)

اورنمو في الوسط . إله القمر نانار في اقصى اليمين
وزوجته الالهة نين گال في اقصى اليسار

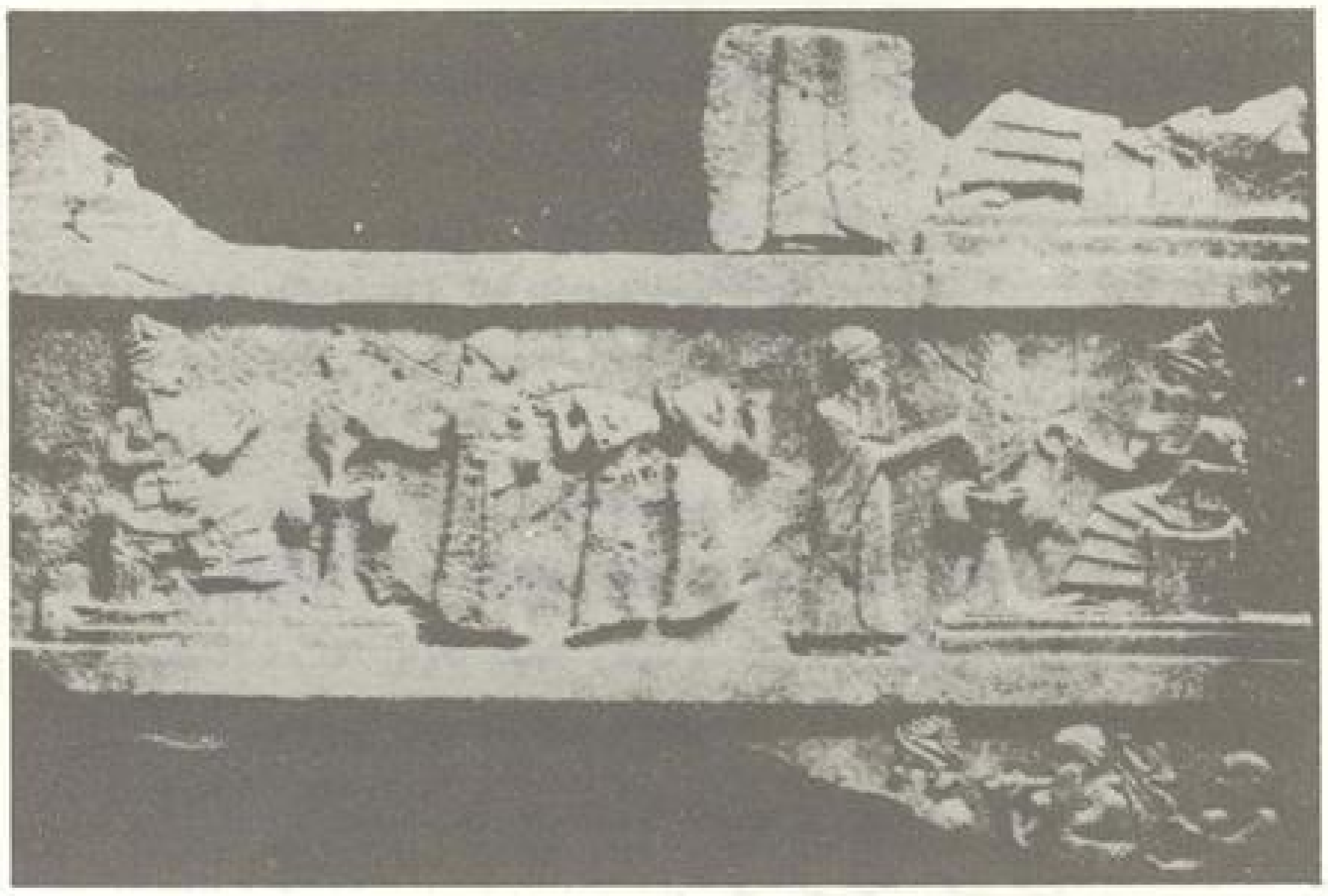

ولحداثة العهد بفك رموز اللغة الحورية فان ما يتبين من كلمات الاغنية هي عبارات « محبوبة القلب » و « انت تضمرين لهم الحب في القلب » و « انما ولدنا منك » (We. SHAL TA-TIB-TI-Shl-YA)

اما الجزء الاسفل من الرقيم فيحوي « النوطة » الموسيقية للاغنية بالاكدية وبنظام الابعاد الموسيقية العراقي الذي سبق شرحه وكان الدكتور هانز كرتربوك اول من انتبه الى أن الاصطلاحات الموسيقية التي وردت فيها ، هي ذاتها المكتشفة في العراق وانماحورت على النحو الذي تنطق به في اللغة الحورية فمثلا البعد « شيرو » اصبح بلفظ شاهري واسكو اصبحت اشكي وهكذا .

وقد دونت النوطة الموسيقية لهذه الاغنية على النحو التالي :

كابليتي « كابليتو » (3) ، اربوتو (1) ، كابليتي [3] ..

تيتم اشارتي « تبيتوراشارتو » 10 .. وهكذا الخ .

والآن كيف نبدأ العزف ؟

نحن نعرف ان البعد كابليتي يمتد بين الاوتار (5 الى 2) فماذا تعني كابليتي(3) ؟

ـ وولستن ذهب الى امكانيتين :

أ ـ ان نعزف ثلاثة أوتار في البعد كابليتي صعودا .

ب ـ ان نعزف ثلاثة اوتار في البعد كابليتي هبوطا .

وهكذا بالنسبة لبقية الابعاد المذكورة في النوطة .

ولدى عزفها لاحظ وولستن ان اللحن كان يبدو مقبولا اكثر في الهبوط اي الامكانية ب . غير ان هذا الامر كان يصطدم بعقبتين اساسيتين فاولا لم تتطابق كلمات الاغنية مع اللحن تماما، وثانيا كيف يفسر الرقم (10) الذي يلي البعد تيتم اشارتي في النوطة مع علمنا بعدم وجود بعد يحتوي على عشرة أوتار ؟ (البعد تيتم اشارتي او تيتور اشارتو كما ورد في النص العراقي يمتد بين الاوتار 3 الى 5) .

كوتر بوخ حاول ان يتجاوز هذه الصعوبة باعادة تفسير عبارة اشتماري باعتبار انها قد تعني « اعادة المقطع » وان الرقم 10 ينصرف اليها .

ـ لم تقتنع الدكتورة آن كيلر بهذه الحلول فخرجت بحل جديد من مقتضاه مثلا ان كابليتي (3) ، تعني اننا نعزف طرفي البعد كابليتي ثلاث مرات ، ولما كان طرفا البعد كابليتي هما الوتران (3 ـ 5) فاننا نعزف هذين الوترين معا ثلاث مرات وهكذا بالنسبة لبقية الابعاد ، وبذلك تجاوزت عقبة الرقم (10) وان هذا المبدأ ـ مبدأ عزف وترين معا ـ هو مبدأ الديكورد ثنائية الوتر او الداياد وهو شكل من اشكال الهارموني او البوليفوني تعدد الاصوات الذيكان يظن انه احدثعهدا من عهد موسيقى ما بين النهرين القديمة غير اننا يجب ان نذكر ان بلوتارك المؤرخ اليوناني القديم يذكر ان المصريين القدماء عرفوا هذا الفن اي البوليفوني وانهم كانوا ينسبون اكتشافه الى الاله ماناكيروتي مانيروس ـ بن الابدية ـ فان عرف المصريون هذا الفن فلا غرابة ان يكون العراقيون القدماء قد عرفوه أيضا .

اعادت كيلر تنسيق مقاطع الكلمات مع مقاطع اللحن فوجدنا محاولتها هذه تتطابق فيها الكلمات مع مقاطع الاغنية كما ان اللحن يبدو ملائما ومقبولا .

وقد قامت هي واستاذ الفيزياء في جامعة بركلي الدكتور روبرت براون الذي حضر الى بغداد قبل ثلاث سنوات بمناسبة انعقاد المؤتمر الموسيقي فيها ـ وكنت حاضرا ذلك المؤتمر الذي اشترك فيه ايضا الاستاذ سالم حسين ، وكذلك استاذ الموسيقى الدكتور ريشارد كروكر ـ وبالاستعانة بخرائط زودت بها من المتحف البريطاني ، قامت بصنع نماذج للكنارة الفضية العراقية من اور وكذلك قامت بصنع كنارة كنعانية من مجيدو حيث قامت بعزف الاغنية خلال محاضرة في جامعة بركلي .

اما في العراق فقد كلفت الاستاذ سالم حسين خلال سفرته الى لندن بجلب تفاصيل ومقاييس آلة البالاك القيثارة السومرية من اور والكنارات السومرية المحفوظة في المتحف البريطاني .

وقد انجزت شخصيا خرائط الآلات التالية :

آلة البالاك القيثارة السومرية

الكنارة العراقية الذهبية

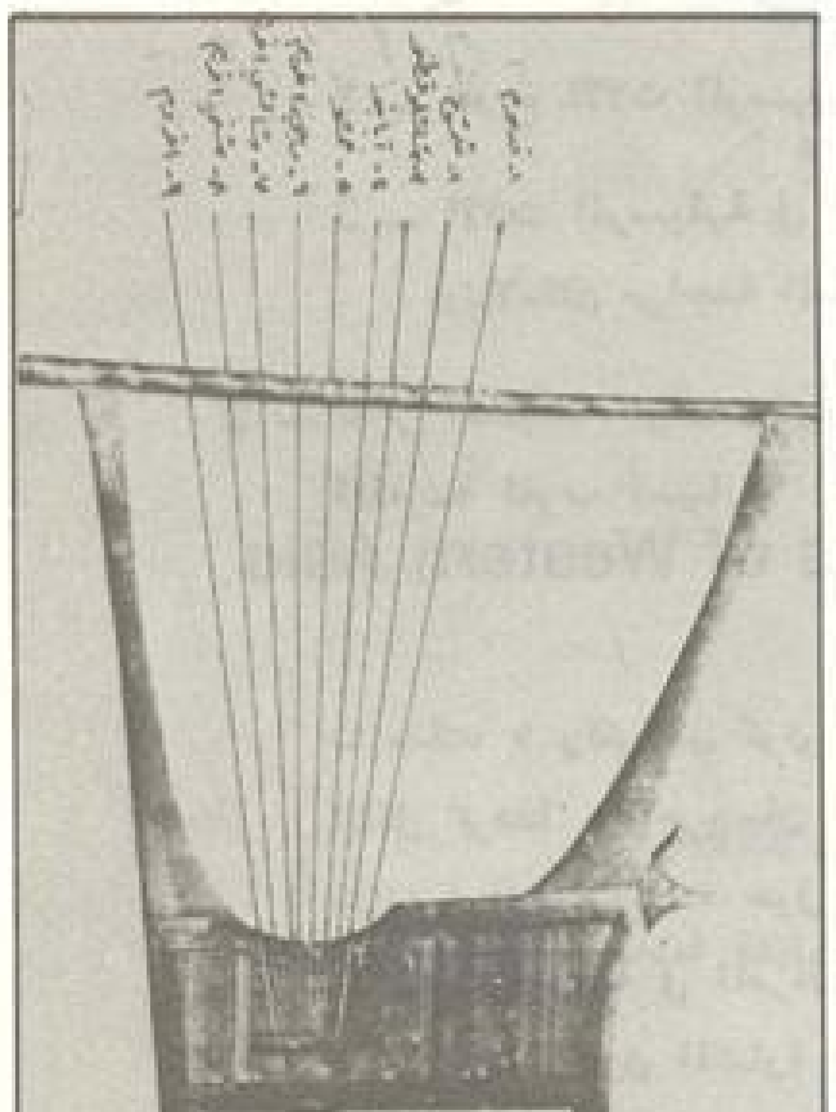

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكنارة الآشورية

قيثارة عراقيـة (2000) ق.م

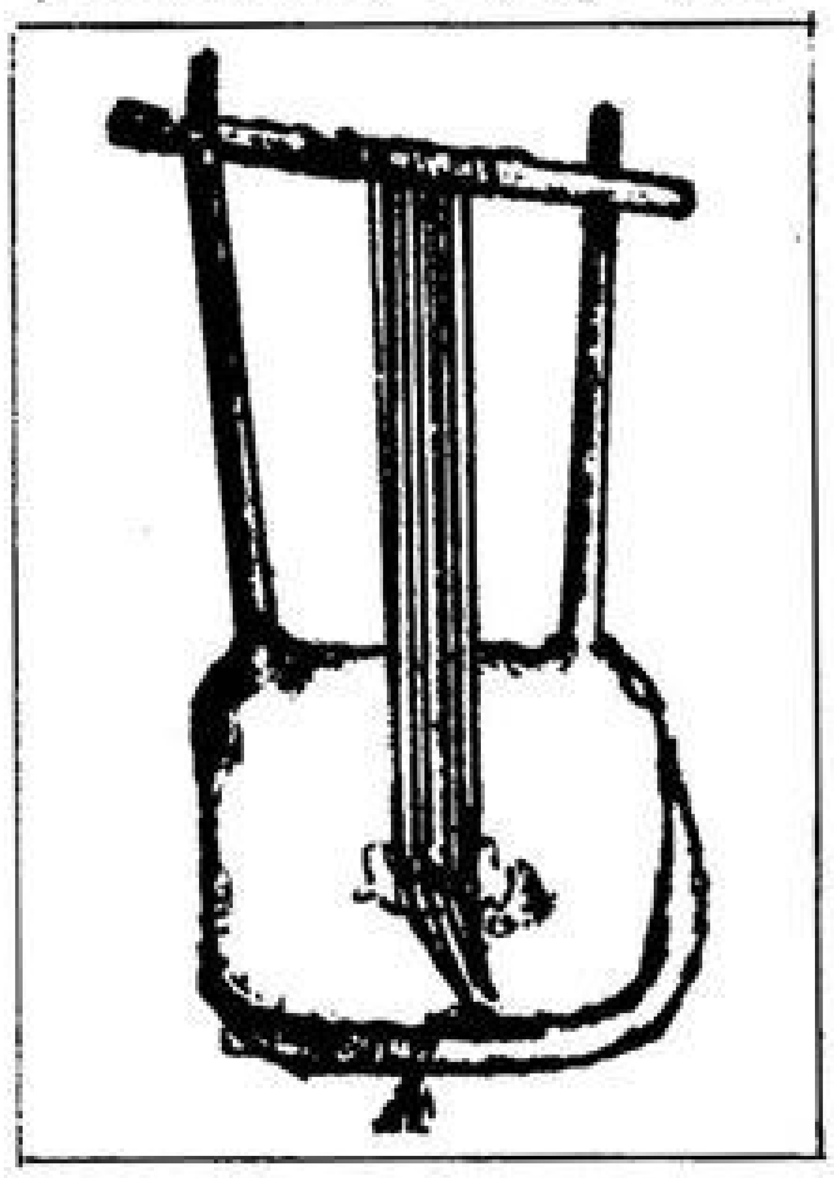

4 ــ القيثارة الآشورية المبينة في الجدارية المعروفة بالفرقة العيلامية وذلك لغرض اداء هذه الالحان بالآلات الاصلية التي عزفت عليها قبل آلاف السنين .

وربما بحثنا في بحث مقبل بقية المدونات الموسيقية وكيف انتقل العراقيون القدماء من طريقة التدوين بالابعاد الموسيقية الى طريقـة التدوين بالاحرف الهجائية التي ربما اصبحت بصورة غير مباشـرة اساسا لطريقة النيومس التي سبقت التـدوين الموسيقي الغربي المعاصر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش :

1 ــ لم نتطرق في هذا المجال الى التراث الموسيقي المادي واعني بذلك الآلات الموسيقية المكتشفة حيث يمكن الرجوع في هذا المجال الى الكتابين القيمين للدكتور صبحي انور رشيد باللغة العربية

1 ــ تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم .

2 ــ الآلات الموسيقية في العصور الاسلامية .

وبالامكان مراجعة المصادر الاجنبية في آخر المقال .

2 ــ تذكر السيدة جوان ريمر في ص (18) من كتابها « الآلات الموسيقية القديمة لغرب آسيا »
Ancient Musical Instruments of Western Asia by Joan Rimmer.
ما مفاده « ولكن ان كون الاوتار التي اشير اليها بالامامية تبدو انها الاقل ترددا ، يوحي بأن البحث انما يدور عن اوتار القيثارة وليس الكنارة السومرية » حول الفرق بين الكنارة والقيثارة انظر تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم ، د. صبحي انور رشيد ، ص 27.

عموما تكون الكنارة ذات ساقين وحامل في حين ان القيثارة ذات ساق واحدة تنزل منها الاوتار مشكلة زاوية حادة وتكون اوتارها الامامية هي الاطول وبالتالي ذات تردد اقل .

وقد امكن تجاوز هذه النقطة بجعل الاوتار الامامية للكنارة اكثر سمكا .

3 ــ عبارة صديدو تعني ايضا الطليعي او المقابل الذي في المقدمة واظن ان عبارة صد في العربية من نفس الاثل وقد نبهني الاستاذ المهندس قحطان المدفعي الى كلمـة اخرى بالعربيـة بنفس المعنى هي كلمـة « صنديد » .

4 ــ حول عبارة « محرو » انظر عبارة عشتار تمتدح نفسها :

Sa. a i . bi mèn sa. a a. ba mèn LI mahru anãku LI arku anãku

انا الوتر الاول انا الوتر الاخير .

وهنـاك ملاحظـة اخرى في الرقيم التالي الرقيم الرياضي (C. B. S. 10996) تشير الى كون الوتر 8 يعادل الوتر 1 .

اي ان الوتر الثامن هو جواب الاول ، الامر الذي يوحي بأن السلم كان « اوكتاف » «ديوان كامل» ، ويلاحظ ايضا ان عدد الاوتار في رقيم نابنيتو (U. 3011) هو تسعة بينما يتوقف الرقيم الرياضي C. B. S. (10996) عند الوتر السابع الامر الذي يعزز نفس الفكرة السابقة .

5 ــ الاله آيا الاكدي هو ذات الاله انكي السومري اله المياه والحكمة وهو حامي الفنون بما فيها فن الموسيقى بل ان احد اوتار القيثارة آيابنو ــ صنعة الاله آيا يحمل اسمه .

ونجد هذه الفكرة تتردد باستمرار عبر شعوب عدة فلدى الاغريق مثلا ــ انظر تاريخ الفكر الفلسفي الجزء الاول ، د. محمد علي ابوريان ص (162) ــ نجد ربات الفنون ، ربات الميثولوجيا التسع ، بنات الاله زيوس ، هن اللاتي يشملن الفنون برعايتهن ، ومنهن اشتقت عبارة موسيقى وهن :

1 ــ ربة الكوميديا Thalie
2 ــ ربة التاريخ Clio
3 ــ ربة المأساة Melpoméne
4 ــ ربة الرثاء Erato
5 ــ ربة البيان Calliope
6 ــ ربة الموسيقى Euterpe
7 ــ ربة الرقص Terpsichore
8 ــ ربة الشعر الغنائي Polymnie
9 ــ ربة علم الفلك Uranie

ومن الطريف ان بعض المصادر العربية الاسلامية القديمة لها راي آخر في الموضوع فبعضها يرى اشتقاق كلمة الموسيقى من « استسقى موسى » من الآية الكريمة 60 من سورة البقرة « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » صدق الله العظيم .

ونجد نفس الفكرة في مصر ايضا حيث يختص احد الالهة بحماية الفنون وبصفة خاصة لفن الموسيقى حيث يذكر بلوتارك ان الاله ماناكيروني ـ مانيروس ومعناه ابن الابدية هو المخترع الاول لفن الموسيقى ، فيما تعتبر الالهة حتحور ربة الموسيقى والرقص والشعر .

6 ـ المرحوم الاستاذ فؤاد سفر في حديث لي معه كان يرى احتمال ارتباط كلمة شبرو مع نجمة الشعرى ، وهذا غير مستبعد في ضوء ارتباط الموسيقى بالكواكب .

7 ـ في حديث لي معه في الشتاء الماضي كان الموسيقار الاستاذ عباس جميل هو الذي استرعى الانتباه الى كون النوى مشتق من لفظة الناي .

8 ـ يقول الدكتور الحفني في تاريخه الموسيقي السنة الاولى العدد السابع الصفحة الخامسة من مجلته الموسيقية : (كان السلم الموسيقي المصري قديما سلما (خماسيا) ، وكان في اعتقادهم ان هذه الاصوات الخمسة منبثقة من الكواكب الخمسة التي عرفوها في ذلك العصر وهي: عطارد ، والزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وزحل .

ولما تقدم المصريون في المعارف والرقي زادوا في سلمهم حتى صار سباعيا ، فاضافوا الشمس والقمر الى عداد كواكبهم وقابلوا بين ايام الاسبوع وعدد الكواكب ولهذا جعلوه سباعيا ، وبهذه المقابلة اوجدوا انسب الابعاد الصوتية لهذه الاصوات السبعة وعرفوا سرها ووضعوا جدولا لكل ساعة من ايام الاسبوع توافق النغمة الاولى . والساعة الثانية ، توافق النغمة الثانية . وهكذا حتى يجيئوا على جميع السبع نغمات . فيبتدأ من اولها ثانية . فالساعة الثامنة من اليوم نفسه ، اي اليوم الاول من الاسبوع نفسه . توافق النغمة الاولى . والساعة التاسعة ، توافق الثانية وهكذا ..

ولما كانت ساعات اليوم اربعة وعشرين ، وعدد النغمات سبعا ، فان اليوم الاول ينتهي بالنغمة الثالثة ويبدأ اول ساعات اليوم الثاني بالنغمة الرابعة ، وهكذا تكون نغمة اي ساعة من ساعات اليوم ، هي الرابعة لنغمة مماثلتها من ساعات اليوم المتقدم .

فاذا جاء الموسيقي وعزف نغمات ساعة خاصة من ايام الاسبوع ، ولتكن الساعة الواحدة بعد الظهر مثلا ـ نشأ من تلك النغمات سلم موسيقي كل نغمة فيه هي الرابعة لسابقتها فاذا عزف هذا السلم بالعكس ـ اعني من آخر الاسبوع الى اوله ـ نشأ من هذا الضرب سلم خماسي هو السلم الموسيقي المصري القديم . ومن الغريب ان بهذه الطريقة ـ طريقة موافقة الموسيقى للفلك ـ يظهر كيف ان النغمتين الرابعة والخامسة هما اشد النغمات توافقا مع نغمة القرار وجوابها. وهو ما تؤيده قواعد الموسيقى ونظرياتها ، وهذا اقدم ما عرف من عدم الانسجام الصوتي (الهارموني) .

ويقول بلوتارخ المؤرخ اليوناني القديم : (ان المصريين كانوا يعتقدون ان الاله ـ ماناكيروني مانيروس ـ ومعناه : ابن الابدية . هو المخترع الاول لهذا الفن) .

ويقول الدكتور الحفني : (ان السلم الموسيقي الذي كان مستعملا عند المصريين القدماء في الدولتين القديمة والوسطى ، هو السلم الخماسي الآنف الذكر الذي كانت اصواته على ابعاد كاملة او بعضها احيانا على بعد ونصف البعد . وبظهور الدولة الحديثة غاب هذا السلم الخماسي ،وحل مكانه (السباعي) ، ولكن هذا السباعي يتطلب معرفة ما كان عليه من المسافات الصوتية والوقوف على الالحان القديمة التي اندثرت منذ آلاف السنين والتي كانت من ارقى الموسيقات حتى ان افلاطون قد فضلها على موسيقى بلاده في عصره واقترحها لليونان في جمهوريته ، وان ما يزيد في قيمة شهادة هؤلاء الفلاسفة من الوجهة الموسيقية الفنية هو ما يعرف عن ان الفيلسوف قديما كان مجمعا لانواع العلوم والفنون وفي صدرها الموسيقي ورياضياتها .

9 ـ قمنا باذاعة هذه الاغنية للمرة الاولى من تلفزيون بغداد في تشرين الاول الماضي في برنامج العلم للجميع للاستاذ كامل الدباغ .

10ـ انظر العراق القديم ، لجورج رو ، تحت عبارة اورفه .

11ـ انظر تاريخ سوريا لفيليب حتى ص (150) .

12ـ انظر مادة Nin - gal ص (255) من حفريات اور لليوناردوولي.

مصادر البحث

1 ـ المصادر العربية

1 ـ د. صبحي أنور رشيد

* تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم .
* الآلات الموسيقية في العصور الاسلامية .

2 ـ سليم الحلو

* تاريخ الموسيقى الشرقية .
* الموسيقى النظرية .

3 ـ جرجيس فتح الله

* تاريخ الموسيقى العربية

حتى القرن الثالث عشر الميلادي .

ترجمه عن هنري جورج فارمر .

4 ـ د. محمود احمد الحفني

* تاريخ الموسيقى الكبير ، للفارابي .
* علم الآلات الموسيقية .

5 ـ د . محمد علي ابو ريان

* تاريخ الفكر الفلسفي

الفلسفة اليونانية

6 ـ الاب انستاس ماري الكرملي

* لغة العرب ، المجلد الثاني ، ص 272 .
* قبور غريبة قديمة في البحرين سابقة لعهد التاريخ لرزوق عيسى.

7 ـ توفيق وهبي

« بحث عن ديانة الحضر » ، بالانجليزية .

2 ــ المصادر الغربية

1 - Engel, Carl.
The Music of the Most Ancient Nations

2 - Sach Curt
The Risc of Music.
in the Ancicnt World.
East and West.

3 - Galpin Francis W .
The Music of the Sumerians and their immediate Successors the Babylonians and assyrians.

4 - Wooley, Leonard.
1 - Ur Excavations Report.
2 - Excavavations at Ur.

5 - SANDVED, K. B.
The World of Music.

6 - Gurney. O
The Hiltites

7 - Polin, Clair. C. J.
Music of the Ancient Near East.

8 - Aristotle x1x20.

9 - Plutarch - In Timeo

10- Sound From Silence
— Kilmer, Ann Draffkorn
— Crocker, Richrd L.
— Brown, Robert R.

11- Jacobs Arthur
A New Dictionary of Music.

12- Kramer Samual Noah
Summerian Mythilogy.

13- Timeus 36.

14- Nichomachus, Harmonics.

15- Chrysostom, On. 68.7.

16- Cleonides 202.

15- History XXXVii 17-18 on Dio Cassius

17- The Exact Sciences in Antiguity - 1957. P. 168, on Neugebauer's .

18- Lavignac, Laurencie
— Encyclopédie de la Musique (1913)
— Lavignac's Encylp. Mus.

19- Drower, E.S.
The Mandaeans of Iraq and Iran
London, 1937.

20- Hitti Philip K.

BARNETT. R. D. 969. "New Facts about Musical Instruments from Ur." Iraq 31 : pp. 96-103.

BIGGS. R. D. 1968. "The Sumerian Harp." American Harp Journal 1 : pp. 6-12.

DUCHESNE-GUILLEMIN, M. 1963. "Découverte d'une Gamme babylonienne." Revue de Musicologie 49 : pp. 3-17.

- 1965. "Note complémentaire sur la Découverte de la Gamme babylonienne." Studies in Honor of Benno Landsberger =Publications of the Oriental Institute of theUniversity of Chicago Assyriological Studies No. 16 (Chicago), pp. 268-272.

- 1966. "A l'Aube de la Théorie Musicale : Concordance de trois tablettes baby - loniennes." Revue de Musicologie 52 : pp. 147 - 162.

- 1967. "Survivance orientale dans la Désignation des Cordes de la Lyre en Grèce ? "Syria 44 : pp. 233-246.

1969 "La Théorie babylonienne des Métaboles musicales." Revue de Musicologie 55 : pp3-11.

- 1969. "La Harp à Plectre iranienne : son Origine et sa Diffusion. "Journal of Near Eastern Studies 28 : pp. 109-115.

- 1970. "Note complémentaire surl'Instru-- ment Algar" Journal of Near Eastern Studies 29 : pp. 200- 201.

GURNEY. O. R. 1968. "An Old Babylonian Treatise on the Tuning of the Harp." Iraq 30 : pp.229-233.

GüTERBOCK(H. G. 1970. "Musical Notation in Ugarit." Revue d'Assyriologie 64 : pp. 45-52.

HARTMANN. H. 1960. Die Musik der sumerischen Kultur (Frankfurt am Main).

KILMER. A. D. 1960. "Two New Lists of Key Numbers for Mathematical Operations." Orientalia 29 : pp. 273-308.

- 1965."The Strings of Musical Instruments: their Names. Numbers. and Significance" Studies in Honor of Benno Landsberger= Publications of the Oriental Institute of the University of Chicago, Assyriological Studies No. 16 (Chicago), pp. 261- 268.

- 1971. "The Discovery of an Ancient Mesopotamian Theory of Music" Proceedings of the American Philosophical Society 115 : pp 131-149.

- 1974. "The Cult Song with Music from Ancient Ugarit : Another Interpretation." Revue d'Assyriologie 68 : pp. 69-82.

KüMMEL, H.M. 1970 "Zur Stimmung der babylonischen Harfe." Orientalia 39 : pp. 252-263.

LAROCHE, E. 1968. "Documents en langue hourrite provenant de RasShamra. II. Textes hourrites en cunéiformes syllabiques." Ugaritica V (Paris) : pp. 462-496.

- 1973. "Études hourrites : Notation Musicale." Revue d'Assyriologie 67 : pp.124-129.

RIMMER. J. 1969. Ancient Musical Instru - ments of Western Asia in the British Museum (London).

SPYCKET. A. 1972. "La musique instrumentale Mésopotamienne." Journal des Savants, July-September, pp. 153-209.

STAUDER. W. 1957Die Harfen und Leiern der Sumerer (Frankfurt am Main).

- 1961. Die Harfen und Leiern Vorderasiens in babylonischer und assyricher Zeit (Frankfurt am Main).

- 1967. Ein Musiktraktat aus dem zeiten vorchristlichen Jahrtausend" Festschrift WalterWiora (Kassel) pp. 157-163.

- 1970. "Die Musik der Sumerer Babylonier und Assyrer" Orientalische Musik = Handbuch der Orientalistik, Erste Abt : Der Nahe und der Mittlere Osten, Ergänzungsband IV (Leiden), pp.171-243.

WULSTAN. D. 1968. "The Tuning of the Babylonian Harp." Iraq 30- : pp. 215-228.

- 1971. "The Earliest Musical Notation." Music and Letters 52 : pp 365-382.

- 1974. "Music from Ancient Ugarit." Revue D'Assyriologie 68 : pp. 125 - 128.

لقاءات

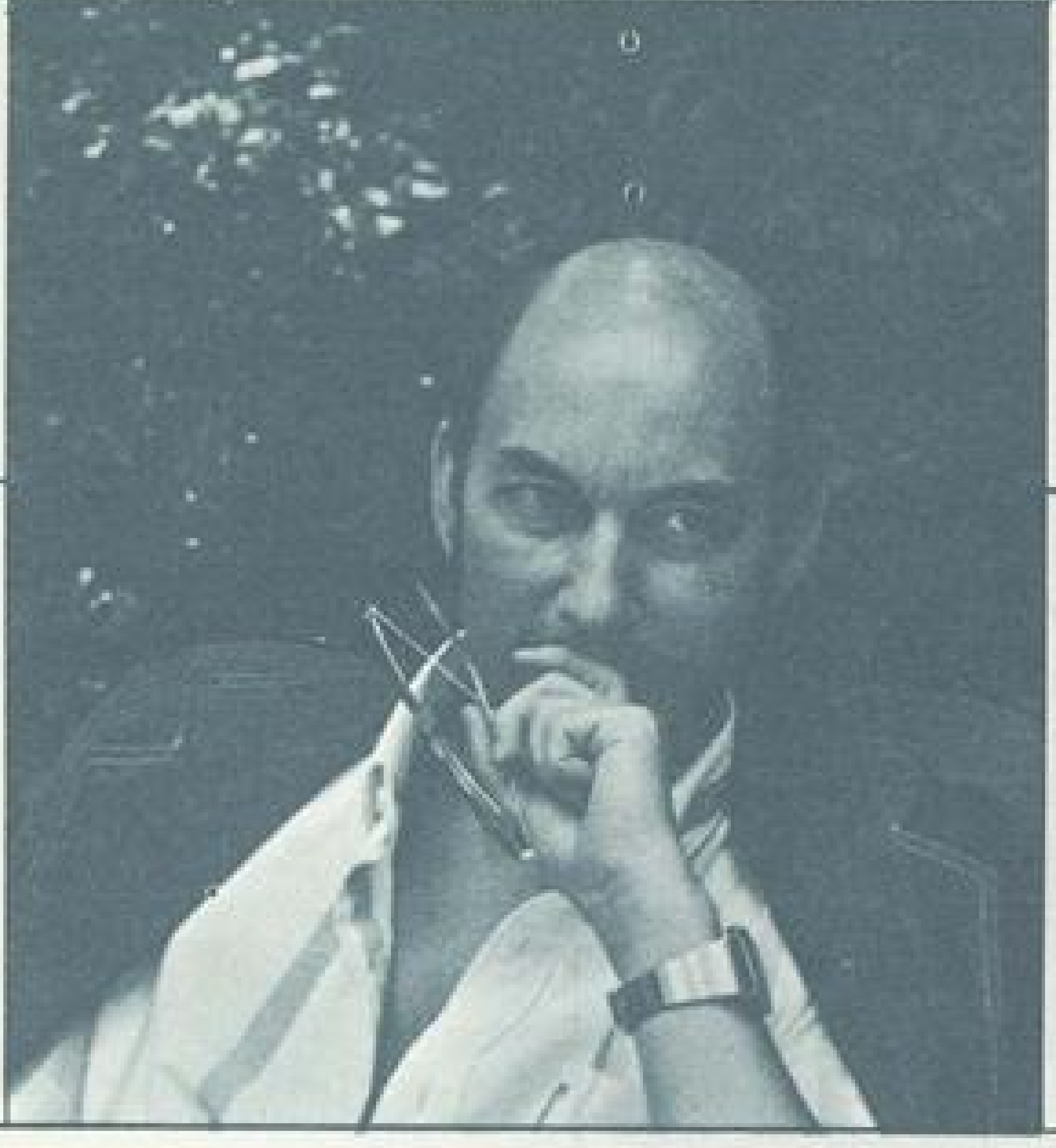

الناقد الفرنسي كلود ميشيل كلوني
فلم الأسوار قفزة فنية للسينما العراقية

.. كلما تحدثت مع الناقد السينمائي كلود ميشيل كلوني ، اجد نفسي امام ناقد جريء متخصص يعطي السينما العربية حقها في النقد دون خوف او مبالغة .. يتحمس للسينما العربية ولكن بحدود .. يتعمق في امراضها ولكن بتؤدة .. يحاول وضع أصبعه على الجرح .. غير أنه لا يضمن الشفاء الا ضمن شروط فنية تبدو صعبة وبنفس الوقت .

.. انتابتني هذه المرة الرغبة في التعرف اكثر على اراء هذا الناقد الفرنسي فقررت ان اجلس معه جلسة طويلة لنجري معا اطراف الحديث عن السينما والامل واشياء اخرى .

■ **لقد شاهدنا سوية عرضا خاصا لشريط « الاسوار » .. اريد ان اتعرف على رايك وبكل صراحة ؟**

ـ بكل صراحة هزني فيلم الاسوار .. ولهذا اعتبره قفزة فنية في السينما العراقية كما انه يعتبر خروجا على المالوف السينمائي في العراق وربما في العالم العربي . خصوصا اذا عرفنا ان العراقلا زال يحبو وهو يتلمسطريقه السينمائي.

لكن والحق يقال ان العراق يفتقر حتى الى الافلام السهلة وهذا لا اعتبره افتقارا انما أبتعاد عن الافلام التافهة التي تعج بها السينما المصرية مثلا وهي مزية فنية ربما ستترك آثارها الطيبة على العمل السينمائي في العراق خصوصا وقد لمست اثناء زيارتي للعراق بأن المسؤولين في المؤسسة السينمائية عندكم يعملون بجد واخلاص لايجاد صيغ جديدة للتعامل والانتاج السينمائي وهذه مزية لان السينما العراقية وضمن هذه الشروط وهذه الظواهر الجديدة ستجد طريقها العربي والعالمي وفي وقت قريب وهذه فرصة نادرة .

.. ان الحركة السينمائية عندكم وبسبب من الامكانيات الثقافية والاقتصادية المتاحة ستولد ولادة حقيقية وربما فيلم الاسوار هو الوليد الشرعي لهذه الجهود الجديدة التي يبذلها العراق في مجال السينما .

.. ان محمد شكري جميل ادهشني من قبل في « الظامئون » وفي بعض افلامه الوثائقية وكنت اتوقع ان يقدم عملا أفضل .. لانني شعرت بأن له طاقة فنية طيبة تتفجر كلما حانت لها الفرصة المناسبة .. ولهذا وقبل أن نرى فيلم « الاسوار » كنت على يقين بنتائجه الطيبة مع بعض التحفظات البسيطة.

ان ـ الاسوار ـ يكشف لنا حقيقة لا زالت خافية وهي ان المخرجين العرب لو اتيحت لهم الامكانات اللازمة فانهم سيبدعون حتما ولا يقل ابداعهم هذا عن الابداع الفرنسي والعالمي وعلى حد سواء .

لقد شاهدت معظم الافلام العراقية ابتداء من « سعيد افندي » ومرورا « بالرأس » وأنتهاء « بالاسوار » .. وكنت احس دائما ان عنق الزجاجة لابد وان ينكسر لتخرج السينما العراقية من اسوارها وفعلا فقد خرج « الاسوار » من اسواره .

هذا كله لا يمنعنا من تسجيل بعض الهنات التي رافقت عرض الاسوار ومنها ان المخرج اسرف كثيرا في استعمال « الزوم » صدقني لو كنت استاذا في السينما لحرمت على طلابي استعمال « الزوم » لانه يوقعنا في فخ السهولة والتبسيطية !! كذلك الاسراف في استعمال فكرة ـ الفلاش باك ـ التي كثيرا ما يضيع على المشاهد فرصة المتابعة خاصة وان المشاهد اصبح عالميا ربما لا تسعفه الخلفية السياسية للمتابعة السهلة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على المخرجين العرب ان يتعاملوا مع افلامهم بعقلية عالمية .. ولا أقصد هنا بعقلية مقلدة أبدا .. ان سبب نجاح الاسوار هنا في فرنسا وبشهادة بعض النقاد هو ان العقلية الفنية سواء في الاخراج او المونتاج وحتى التصوير كانت عقلية عراقية صرفة .. وهنا انا اشدد اللوم على بعض المخرجين العرب الذين يعملون افلامهم بعقلية اوربية متناسين ان المشاهد الاوربي يفضح مثل هذه الاعمال المنسوخة !!؟ '

ورغم الهنات البسيطة فان الاسوار استطاع ان يقدم مشاهد انسانية رائعة .. ان مشهد الحلاق محسن وهو يطلق العصفور من قفصه .. ثم متابعة الصبي لهذا العصفور لقطة انسانية معبرة .. كانت لقطة الطلاب وهم يعتصمون في مدرستهم .. كانت موفقه الى حد كبير . هذه لقطات ومشاهد اخرجت بشكل جيد وناجح .

■ **من «سعيد افندي» .. الى «الاسوار» اين وصلت السينما العراقية ؟**

ـ من الصعوبة بمكان الرد على هذا السؤال يحتمل المقارنة بين الفيلمين من جهة ، كما يحتمل دراسة نقدية لتاريخ السينما العراقية من جهة اخرى .. لكن على العموم فان سعيد أفندي كان فيلم لمرحلة معينة أثبت نجاحه وفقا لظروف ومقاييس تلك المرحلة .. والاسوار هو كذلك فيلم يعكس تطلعات المرحلة الحاضرة بامكاناتها الزاخرة .. لقد كان فيلما جيدا ـ سعيد افندي ـ لكنه لم يكن مفاجأة ؟؟!

.. بينما ـ الاسوار ـ كان مفاجأة فنية تعكس لرحلة سينمائية متطورة وهذا التطور السينمائي لابد له ان ينمو في مناخ صحي هو موجود فعلا في هذا الوقت .

■ **كيف تشخصون هنا امراض السينما العربية ..؟؟**

ـ اولا يجب ان تعرف بان مفهوم السينما العربية عندنا هنا مفهوم مبتور .. ان السينما المصرية وبعض من افلام السينما الجزائرية هي النموذج الذي يقدم من وقت لاخر وبشكل بعيد عن الضجة والاهتمامات الاعلامية .

.. ان الجمهور الفرنسي تعرف على أفلام المغرب العربي لاسباب جغرافية وسياسية .. بالنسبة لي فقد اتيحت لي الفرص لمشاهدة معظم الافلام العربية ووجدتان مشكلة السينما العربية تكمن في مسالتين هامتين ،

1 ـ كتابة السيناريو .. لا زالت السينما العربية بحاجة الى كتاب سيناريو من الطراز الاول . ان كتابة السيناريو أصعب عمل يواجهه المخرج او الكاتب . ان هذا النقص الكبير في التخصص السينورياوي سيبقي السينما العربية أسيرة في سجنها . اذن لابد من البحث عن كتاب سيناريو جيدين وفتح معاهد للغرض نفسه .

2 ـ الجانب التكنيكي .. ان التكنيك في السينما العربية وبكل صراحة غائب تماما .. ولابد وان يلتفت المخرجون الى هذا العنصر الفني المهم .. لان التكنيك الرديء يفسد العملية السينمائية برمتها . هذه هي امراض السينما العربية .

■ **والممثلون .. اليست لهم امراضهم ايضا ..؟؟**

ـ هذا صحيح .. وقد لمست بان النسبة الكبيرة من الممثلين العرب قد انحدروا من المسارح .. وهذا خطأ كبير لان الممثل المسرحي الجيد لا يمكن ان يكون ممثلا سينمائيا جيدا والعكس صحيح ايضا . والحلهو احترام روح الاختصاص في العمل الفني وعدم الركض وراء الشهرة .. وهناك ملاحظة أخرى وهي ان الممثلين العرب لم يعرفوا نوع علاقاتهم مع المخرج وكثيرا ما يحدث

سوء فهم وهذا بتقديري يوقع العملية السينمائية في مشاكل لا حصر لها .

■ **كيف يتم الحوار الثقافي من خلال السينما العربية والعالمية ..؟**

ـ يضحك كلود ميشيل كلوني ثم يرد بسرعة : الافضل ان نعمق الحوار بين السينما العربية .. ان السينما العربية تعاني من مرض عضال وهو غياب الحوار السينمائي العربي .. فليس معقولا ان مخرجا ناجحا مثل يوسف شاهين او صلاح ابو سيف او شادي عبدالسلام لا يمكن للمشاهد العربي ان يرى افلامهم !!؟

.. وانت قلت لي في البداية من ان فيلم ـ الاسوار ـ يعرض في بغداد ودمشق وبيروت .. ترى لماذا لا يعرض في العالم العربي كله ؟؟.

.. اذا كنتم حقا تريدون ان تنطلق السينما العربية نحو افاق عالمية فالاحرى ان تطلقوها في افقها العربي .. لان الحوار العربي عندما يكون غائبا فليس من السهل ان يتلمس طريقه نحو حوار عالمي هادف . وهنا اشدد على مسألة ايجاد مختبر سينمائي عربي واحد .. لان تعدد المختبرات او اعتمادها على مختبرات اجنبية سوف يضيع الفرصة امام الفيلم العربي كي ينهض بمسؤوليته التاريخية والفنية .

■ **هذا في الداخل .. لكن ما هي مشاكل السينما العربية في الخارج ..؟؟**

ـ اكبر مشكلة تواجه عرض الشريط العربي في الخارج هي مشكلة التوزيع خاصة ونحن نعرف ان هناك « مافيا عالمية » تسيطر عليها شركات التوزيع العالمية ومنها الصهيونية . غير اني اقول ان الوقت اليوم يتيح فرصة لايجاد شركات توزيع والتعامل معها بشكل جدي وثابت .

.. خلال السنوات الاخيرة حدثت معطيات جديدة لصالح السينما العربية وما اشتراكها في مهرجانات عالمية الا دليل على صحة ما اقول .. كما ان النقاد في العالم بداوا وبشكل بسيط الانتباه الى النتاج الفني العربي .

■ **صحيح .. وكتابك الاخير ـ قاموس السينما العربية الجديدة .. مساهمة طيبة على هذا الطريق .**

اجرى الحوار : كاظم المقدادي

مؤتمرات

تسخير العلم و التكنولوجيا للتنمية

الأمم المتحدة

مؤتمر الامم المتحدة للعلم والتكنولوجيا للتنمية

ڤينا ـ النمسا

٢٠ ـ ٣١ آب ١٩٧٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اقرت الجمعية العامة للامم المتحدة بقرارها 184/31 في كانون اول 1976 الدعوة الى عقد مؤتمر للامم المتحدة لتسخير العلم والتكنولوجيا للتنمية خلال عام 1979 .

وسيعقد في فينا اواخر آب من هذا العام هذا المؤتمر الذي سيشارك فيه العراق بوفد رسمي .

ان انعقاد مثل هذا المؤتمر والاجراءات التحضيرية له قد اثار وسيثير الكثير من النقاشات والاستفسارات والاراء حول موضوع « العلم والتكنولوجيا » ودورهما في خدمة التنمية . وقد حاولت في هذا المقال ان اجمع المعلومات واعكس ارائي في الكثير من المسائل المتعلقة بالموضوع .

وللتدليل حول دور العلم والتكنولوجيا في التنمية بصورة عامة واهميتها من الدول النامية بصورة خاصة ، نذكر الصورة التالية : اظهرت دراسة على المستوى العالمي انه في عام 1973 صرفت مبالغ تقدر ب 96 الف مليون دولار للعلم والتكنولوجيا من كافة اقطار الارض . وكانت نسبة المصروف هذا في كافة الاقطار النامية (حيث تعيش اكثرية سكان المعمورة) هي 3 ٪ فقط ان هذه الصورة تعكس بشكل حقيقي نظرة الدول النامية بصورة عامة لموضوع مثل العلم والتكنولوجيا ونظرة الدول المتطورة للموضوع نفسه .

ارجو في الختام ان اكون قد وفقت في طرح نقاط للتساؤل والمناقشة لدى القاريء حول موضوع يتصاعد به يوما بعد يوم ، الا وهو التكنولوجيا بصورة عامة .

التكنولوجيا ـ افكار مقروءة

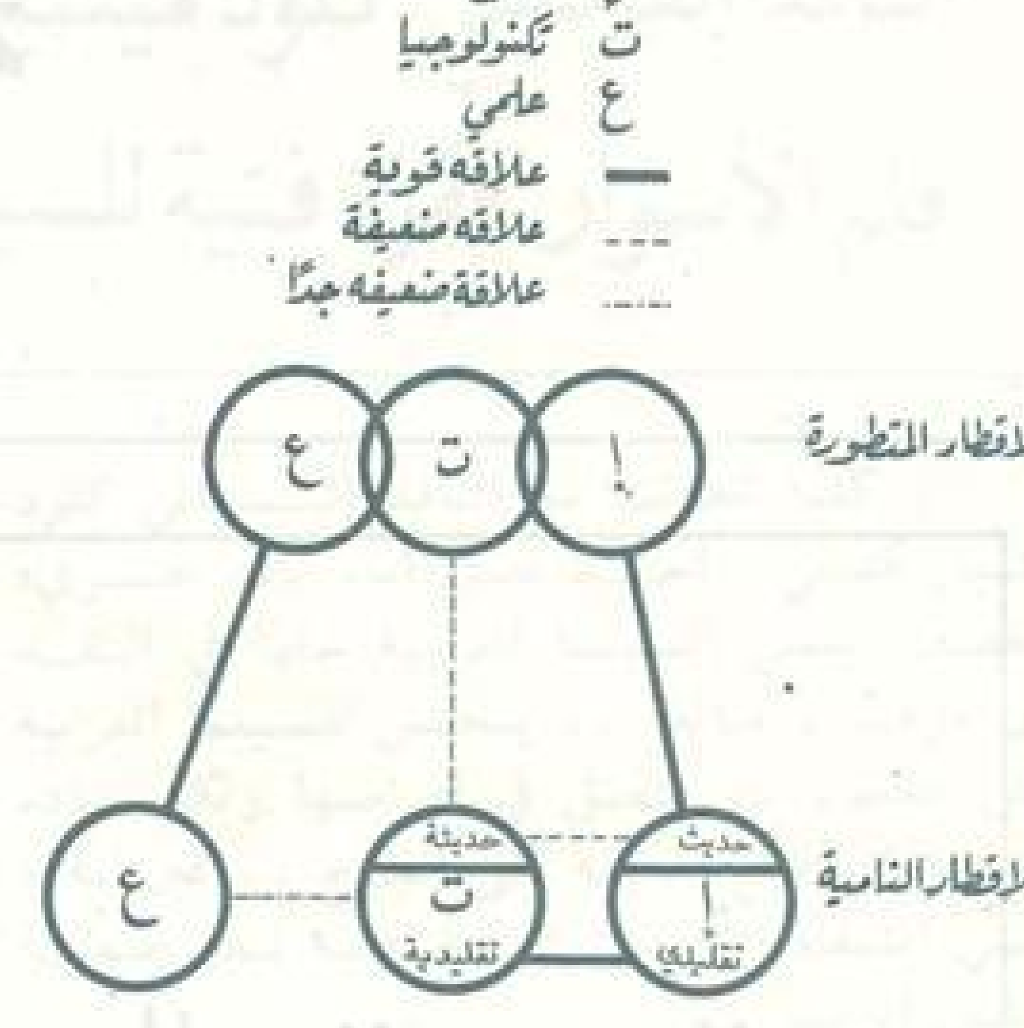

تخطيط يمثل العلاقة بين العلم والتكنولوجيا والانتاج في الاقطار المتطورة وتلك الاقطار النامية !

ماهية التكنولوجيا :

يمكن تعريف التكنولوجيا بصورة عامة بانها (مجموعة المعارف والخبر المتراكمة والمتاحة والادوات والوسائل المادية والتنظيمية والادارية التي يستخدمها الانسان في اداء عمل ما او وظيفة ما في مجال حياته اليومية لاشباع الحاجات المادية والمعنوية سواء على مستوى الفرد او المجتمع) .

ارتباطها :

ترتبط التكنولوجيا موضوعيا بالبحث العلمي وهي اي التكنولوجيا جزء من المعرفة الانسانية العامة وتمتد اصولها عبر قرون طويلة لتراكمات من المعرفة البشرية وتغتني بخصائص الواقع الحضاري لكل بلد .

اهميتها :

تعتبر التكنولوجيا من اهم عناصر التقدم والتنمية الاجتماعية والاقتصادية وقد ساهم تطور التكنولوجيا في الدول الصناعية المتقدمة بنسبة عالية جدا فيما حققته من زيادة في حجم الانتاج وزيادة في دخل الفرد .

جاء في احد تقارير الامم المتحدة مايلي « ... تملك التكنولوجيا قابلية تحويل الطبيعة وتوجيه التنمية ، لهذا فان الحق مع القائل بان من يسيطر على التكنولوجيا فانه يسيطر على التنمية. وهي بهذا قضية سياسية وبالتالي فان السياسات والاساليب في حقل العلم والتنمية يجب ان تخضع لسيطرة المجتمع وتوجه نحو تطمين احتياجات التنمية . وهي بهذا قضية سياسية وبالتالي فان السياسات والاساليب في حقل العلم والتنمية يجب انتخضع لسيطرة المجتمع وتوجه نحو تطمين احتياجات التنمية .

التنمية بحاجة الى توجه جديد للتكنولوجيا وبالتالي فان الوصول الى مثل هذا التوجه للتكنولوجيا ليس بحاجة لاكتشاف حسب بل لاستخدام ذلك الاكتشاف بعد تطويره وبنائه على اسس ما تملكه الانسانية من تكنولوجيات موجودة في ذلك الوقت ... لذا فان العلم والتكنولوجيا سيساهمان في تحديد البدائل الاقتصادية لاي منتوج او استخدام للمواد او البضائع او الخدمات » .

نقل التكنولوجيا وضرورته :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في محاولات الدول النامية لتحقيق معدلات متسارعة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لابد لها من الاعتماد على التراث العلمي والتكنولوجي الانساني المتراكم لدى الدول المتقدمة ونقله اليها وكذلك الاستفادة من التراكمات في المعرفة العلمية والتكنولوجية المكتسبة في البلدان المتقدمة دون الحاجة الى البدء من نقطة الصفر .. وتعتبر هذه العملية بالذات مكسبا للقادمين الجدد (اي الدول النامية) ان احسنوا اختيار استيعاب وتطويع التكنولوجيا المنقولة .

تجارة نقل التكنولوجيا :

وهكذا بدات عملية تجارة نقل التكنولوجيا تخضع لتحديدات عسيرة وشروط قاسية تفرضها الشركات والدول المالكة وتعتبر مصدرا مهما للارباح ووسيلة للسيطرة الاقتصادية والاستغلال غير المشروع .ولاعطاء فكرة عن اهمية هذه التجارة نقول ان 43٪ من جملة الاستثمارات الثابته في الاقطار العربية تدفع مقابل ادوات انتاج مستوردة كوسيلة رئيسة لنقل التكنولوجيا للاقطار العربية في اوائل السبعينات ، وان قيمة السلع المستوردة الخاصة بنقل التكنولوجيا مثل (الآلات ووسائل المواصلات ومنتجات صناعية)للاقطار العربية الموجودة في قارة آسيا كانت ثمانية الاف مليون دولار عام 1975 .

مؤتمر الامم المتحدة لوضع قواعد سلوك لنقل التكنولوجيا :

احساسا بالغبن الواقع على الدول المستوردة للتكنولوجيا وتحسس هذه الدول بالخسائر التي تتحملها ، نشطت هذه الدول في الجمعية العمومية للامم المتحدة واصدرت توصية بتاريخ كانون الاول 1965 حول فحص امكانية الممارسات الوطنية والدولية الجارية لنقل التكنولوجيا وتوصية اخرى بشان الحاجة لازالة الممارسات المقيدة في نقل التكنولوجيا .. واخيرا صدر قرار 2302 (اس. في . آى) عن الجمعية العمومية للامم المتحدة في دورتها السادسة الخاصة في ايار / 1974 حول برنامج العمل لوضع قواعد سلوك نقل التكنولوجيا .

وبناء على ذلك اجتمعت مجموعة الخبراء الحكوميين ستة اجتماعات ابتداء من 8 تشرين ثاني / 1976 حتى 6 حزيران 1978 وكانت حصيلة هذه الاجتماعات مسودة القواعد المذكورة تشمل اقسامها اختيارات متعددة تعكس وجهات نظر المجموعات الاقليمية المختلفة حيثما تعذر الوصول الى توصيات محددة وهو واقع يعكس الاختلافات السياسية والاقتصادية المختلفة للدول.

وقد عقد المؤتمر جلساته الاولى في اواخر 1978 الا انه انتهى الى باب مسدودة وعقد هذا المؤتمر في دورة ثانية (مستانفة) في شباط من هذا العام وانتهت الجلسات كذلك الى باب مسدود كانت نتيجة انسحاب الدول النامية من المؤتمر كتعبير عن احتجاجها لعدم تجاوب الدول الصناعية الراسمالية معها .

مؤتمر الامم المتحدة حول دور العلم والتكنولوجيا للتنمية :

ان اعتبار قواعد السلوك لنقل التكنولوجيا ليست العامل المحدد لتقليص او على الاقل الابقاء على ، الفجوة المتزايدة الاتساع بين الدول المتقدمة والدول النامية وذلك لان العامل المحدد لهذا الامر هو استكمال الاقطار النامية بناء اسسها وقواعدها العلمية والادارية والتخطيطية وادارة عجلة برامج تنميتها اي استخدام العلم والتكنولوجيا في التنمية . نظرا لاهمية دور العلم والتكنولوجيا في التنمية اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارها 31 / 184 في كانون اول 1976 الذي ينص على عقد مؤتمر للامم المتحدة حول دور العلم والتكنولوجيا للتنمية خلال عام 1979 ، وعلى الرغم من النقد الكثير الذي وجه الى مثل هذا المؤتمر والى مايمكن ان يسفر عن نتائج والشك بامكانية تحقيق نتائجه ، نقول على الرغم من كل ذلك فان عقد المؤتمر هذا والعمليات التحضيرية

التي تسبقه (وما الندوة التي عقدتها مؤسسة البحث العلمي للتحضير لهذا المؤتمر الا مثالا لذلك) ستقدم امكانيات لفتح حوار عام حول موضوع استخدام العلم والتكنولوجيا للتنمية .

وظيفة العلم والتكنولوجيا :

يمكن القول ان العلم والتكنولوجيا وظيفة اجتماعية يجب ان يكونا خاضعين لسيطرة المجتمع مثلهما مثل اي وظيفة اجتماعية اخرى مثل الملكية التي تخضع في الدول المتوجه نحو الاشتراكية والدول الاشتراكية الى سيطرة المجتمع . لذا فان القرارات التي ستصدر بشان استخدام العلم والتكنولوجيا بالضرورة ستكون في سبيل التنمية وتطوير ذلك المجتمع حيثما استعملا .

ويحضرني هنا قول السيد النائب صدام حسين عند لقائه بالوفود المشاركة في المؤتمر القومي لاستراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك بتاريخ 1978/5/9 (... اننا لاننظر للتنمية في اي نشاط على انها حالة متجزاة عن الصورة العامة والشمولية للحياة) .

النظام الاقتصادي الدولي الجديد :

والان وبعد ان تم التعرف على الهوة الفاصلة والتي تكبر يوما بعد آخر بين دول العالم الثالث والدول المتطورة يطرح السؤال التالي :

ماهي الوسائل التي يمكن بها تقليص الفجوة والهوة هذه ؟ .. ان واحدا من اكثر الوسائل المعروفة في ايامنا هذه هو النظام الاقتصادي الدولي الجديد الذي قد يساعد في ايقاف سعة هذه الهوة اذا لم يستطع من تقليصها .

وقد جاء في خطة عمل الامين العام لمؤتمر الامم المتحدة للعلم والتكنولوجيا للتنمية التي قدمها الى الاجتماع الثالث للجنة التحضيرية للمؤتمر بهذا الخصوص مايلي « ... تبني اهداف النظام الاقتصادي الدولي الجديد على المشاركة والتوافق والغايات المشتركة والتعاون ضمن اطار العلاقات المتوازنة فيما يخص احتياجات ومطامح الاقطار كافة وبصورة خاصة الاقطار النامية . ان التفكير بالنظام الاقتصادي الدولي الجديد قد بدا لتصحيح اللا مساواة واصلاح الظلم وسد الفجوة المتنامية بين الاقطار النامية والاقطار المتقدمة ولتسريع الاقتصادية والاجتماعية في الاقطار النامية ، واحلال السلام » . وفيما يخص العلم والتكنولوجيا فان النظام الاقتصادي الدولي الجديد يجب ان يؤكد : ـ

1 ـ التعاون بين الاقطار النامية والمتطورة في انشاء وتقوية وتنمية البنى الاساس للعلم والتكنولوجيا في الاقطار النامية .

2 ـ التوسع الملحوظ في المساعدات للدول النامية وبصورة خاصة في البرامج العلمية والتكنولوجية للاقطار النامية ضمن الاهداف الممكنة والتي يتم الاتفاق عليها .

3 ـ الزيادة الحقيقية في نسبة تخصيصات البحث والتطوير في الدول النامية المخصصة لحل مسائل ذات اولوية للاقطار النامية ولخلق تكنولوجيا ذاتية ملائمة ومتوافقة مع اهداف ممكنة متفق عليها .

4 ـ توسيع التعاون الدولي المستند على مبادىء وتعليمات مخصصة لتنظيم العلاقات العلمية والتكنولوجية بين الدول بطريقة منسجمة مع المتطلبات والاهداف الخاصة بالدول النامية وبصورة خاصة في مجال نقل التكنولوجيا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولنسال انفسنا عن ماهية العلاقة بين النظام الاقتصادي الدولي الجديد واستخدام العلم والتكنولوجيا .. الجواب هو هنالك علاقة بين هذين الشيئين المجردين وذلك لان واحدة من ركائز النظام الاقتصادي الدولي الجديد هو ايجاد ضوابط جديدة في عملية نقل التكنولوجيا اضافة الى تطوير القدرة الذاتية في مجال العلم والتكنولوجيا في البلدان النامية وذلك عن طريق الاستفادة من التراكمات في المعرفة الانسانية للعلم والتكنولوجيا لتطوير هذه البلدان ولابقاء الهوة بينها وبين الدول المتطورة كما هي ، على الاقل .

الاستخدام الامثل للعلم والتكنولوجيا :

ماهي الاتجاهات التي يمكن التفكير بها للاستخدام الامثل للعلم والتكنولوجيا للتنمية الحقيقية ؟ وكيف يمكن للمجتمع ان يسيطر على العلم والتكنولوجيا ؟ لاتوجد هناك اجوبة محددة لهذين السؤالين كما لاتوجد هنالك تعليمات بهذا الخصوص ، لكن هنالك نقاط جوهرية يمكن ان يتم الانطلاق منها في النقاش والحوار للوصول الى الصورة الامثل للاجابة على ماجاء اعلاه من اسئلة (الاعتماد على النفس) ، (قابلية الاختيار على المستوى القطري) ، (العلاقات الخارجية) .

والان لنلقي نظرة على كل من هذه النقاط تصعيدا لتاكيد دورها عن طريق النقاش المفتوح .

الاعتماد على النفس :

الاعتماد على الذات لايعني الحكم المطلق والمجرد المعزول عن التجارب والخبر الانسانية . ان الاعتماد على النفس في مجال التكنولوجيا يعني القابلية الوطنية على تشخيص المشاكل ، امكانية اختيار الحل الامثل من العديد من الحلول ويعني كذلك القابلية على استخدام هذه الحلول وبصورة اكثر دقة فان الموضوع يشير الى تعريف الحلول عن طريق استخدام المصادر المحلية وبصورة خاصة عند المجابهة بمشكلة تؤشر عن كيفية ايجاد حل لها داخلي او قطري اي بدون الرجوع الى المؤسسات الخارجية . وعلى اي حال فان الاعتماد على النفس في حقل التكنولوجيا لايستبعد تبادل الخبر لانه لايمكن حل كافة المشاكل بالمصادر الداخلية (اي ـ الانغلاق على النفس) وبالتاكيد فان مثل هذه الحلول لاتكون آنية لذا سيكون هنالك مجال للتبادل في الخبر والمصادر لحل تلك المشاكل لكن المبادرة تبقى والضرورة تقضي ان تبقى في ايدي العالم الثالث الذي كان ولايزال سوقا للتكنولوجيا المتقدمة . ان اعادة تركيب هيكل العمل في حقل التكنولوجيا لايتوقع ان ينصلح عن طريق شروط وثائق عقود نقل التكنولوجيا (اي مدونة قواعد السلوك لنقل التكنولوجيا) ان التبادل المتوقع في الخبرات يمكن تصوره بشكل تعاون مابين ابناء العالم الثالث لتشخيص احتياجاتهم وتعاونهم يمكن لهم ، حيث تطلبت الحاجة الى المبادرة لوضع برنامج لتطمين او سد هذه الاحتياجات بالمساعدة الخارجية .

قابلية الاختيار :

تعتبر مسالة القابليات الذاتية لاي بلد من شروط تطوير التكنولوجيا في ذلك البلد ، ويكون مثل هذا الموضوع ممكنا عن طريق تسهيل الحصول على المعلومات وتطوير القابليات المحلية لتخطيط وتحليل وتقييم التكنولوجيات الملائمة لاحتياجات البلد ولتحفيز البحث العلمي وتطوير الارتباط بين مؤسسات البحث والتطوير والقطاعات الاقتصادية وبين النظام التعليمي .

المعلومات :

تشكل المعلومات واحدا من الاحتياجات الرئيسة في تحليل التكنولوجيا وفي عملية تطوير القابليات المحلية في حقل التكنولوجيا ، لذا فان الضرورة تقضي لانشاء شبكة واجهزة للمعلومات

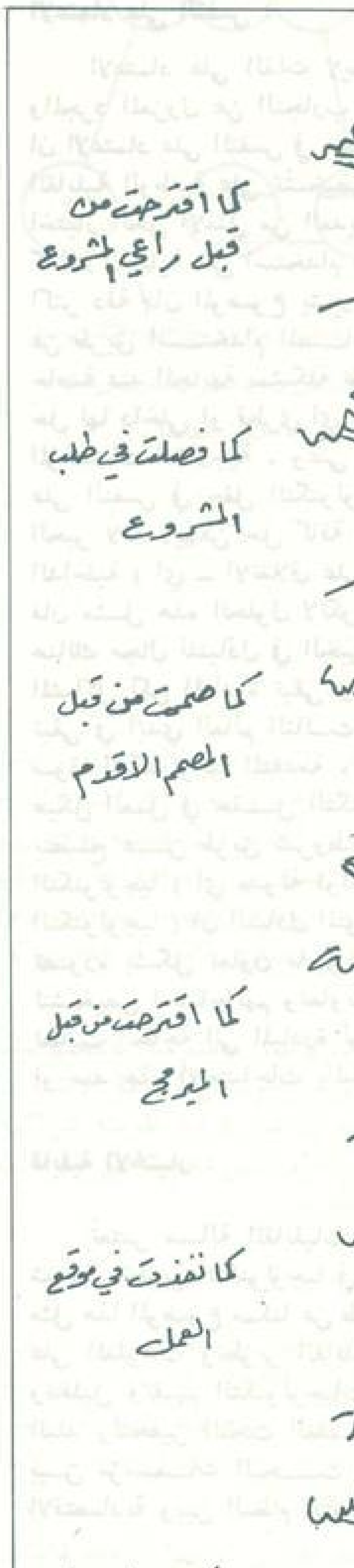

الملائمة تقدم خدمتها المجانية لكل من يطلبها ، ان المعلومات عن الاختيارات التكنولوجية والبدائل التكنولوجية واسعار التكنولوجيا تكون ضرورية، وقد تساهم الامم المتحدة التي تملك الامكانات لتجهيز هذه المعلومات الى الدول التي تكون بحاجة لها ، لكي تنشا شبكة المعلومات الداخلية التي تخصها توزع لا المعلومات المتوفرة لدى القلة الى مجموع اوسع حسب ، بل تكون وسيلة لايصال المعلومات الجديدة .

التخطيط والتحليل :

يمكن لستراتيجية التنمية (*) ان تخلق نظاما ناجحا للبحث والتطوير ويمكن لها ايضا ان تتداخل بين التخطيط الكلي وتصميم وتطبيق المشاريع التنموية . وان النجاح يعتمد كذلك على تطوير الكوامن لدى الانسان لتشجيع الخلق والابداع والابتكار واستخدام هذه المعطيات في اختيار المشاريع التنموية .

ان السؤال الاول الذي يسال اثناء عملية التخطيط هو لماذا ولمن نخطط ؟ .

ولتسهيل التذكير بالاجابة على مثل هذا السؤال سنطرح بعض النقاط التي تساعد بعد تعريفها بالاجابة على السؤال اعلاه وهذه النقاط هي : الموارد بالنسبة لمفهومها هي معرفة الناس ل (ماذا يجب عمله لاعطاء نتائج معينة) ومن هذا التعريف فالموارد ذات جذور تاريخية وثقافية وحضارية ويمكن القول ان الموارد تعني دهاء البشر وقابليتهم لتبديل ظروفهم الى مصادر . ان عنصر الدهاء ضروري عند اختيار التكنولوجيا المناسبة وليس المهم ان يبدا التخطيط بالاحتياجات او بالمصادر اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار اولا الاحتياجات التي مرت بتحليل علمي لتثبيت ماهيتها وكيف يجب مجابهتها . ثانيا اخضاع المصادر الى التدقيق العلمي لكي تعرف ماهيتها وخواصها وكيفية استخدامها ، عندما يمكن التحرك اما باتجاه الاحتياجات وكيفية ايجاد بدائل لاشباعها او باتجاه المصادر وبدائل استخدامها وهنا تظهر التكنولوجيا الملائمة كواسطة مثالية .

التكنولوجيا الملائمة :

التكنولوجيا الملائمة وسيلة وليست فكرة جامدة وهذه تتضمن : ـ

أ ـ تعريف الابعاد النسبية للتكنولوجيا وبهذا يمكن اغناء القطاع الاقتصادي بالطريقة التقليدية لتقييم التكنولوجيا من وجهة نظر خليط الراسمال والعمل وكثافة كل منها .

ب ـ وضع مقاييس معيارية لتقييم اداء التكنولوجيا على كل بعد من الابعاد .

جـ ـ التقييم الذي يقود حتما الى صورة معقدة مليئة بالعديد من البدائل وبهذا فان التخطيط يصبح عملية سياسية تشمل اثناء التطبيق تدخل افراد لهم صلاحية لاتخاذ القرارات . والقرار يكون من معظم الاحوال لتعديل او تبديل في التكنولوجيا الاصلية والتي ينتج عنها تكنولوجيا هجينة هي مزيج من عدد من التكنولوجيات بالاضافة الى استخدام قرار بالخيار بين مايمكن اعتباره ملائما او اكثر ملائمة بدون اسقاط الاهداف الاجتماعية المطلوبة .

ان التكنولوجيا الملائمة هي مفهوم نسبي ، وهنالك ضرورة مثلا لتطوير تكنولوجيات غير كثيفة راس المال ، وهذا يعني تطويع تكنولوجيات معتمدة على الاكتشافات العلمية للشعوب الفقيرة وتعتمد على المصادر الاولية المحلية ، مع الاخذ بنظر الاعتبار عدم امكانية استخدام التكنولوجيات غير كثيفة الراس مال في كافة المجالات ، ففي بعض الحالات تقضي الضرورة استخدام تكنولوجيات كثيفة راس المال ولايمكن ايجاد حل آخر . وحتى في هذه الحالات هنالك مجال في مثل هذه التكنولوجيات كثيفة راس المال للاختيار بدقة للاصلاح وللاحسن ، والاختيار هنا في التكنولوجيا الملائمة يكمن في نوعية التكنولوجيا وصلتها بحجم السوق وتوفر المصادر الاولية وتاثيرها على البيئة ... الخ .

وهنا يدخل العلم كمساهم اساس للتثبت من مستوى صلاحية التكنولوجيا الملائمة التي يتوقع اختيارها وعدم تاثيرها السيء على البيئة ولتطمين الاحتياجات البشرية .

ملاحظة اخيرة يجب التذكير بها وهي ظاهرة انفصال الشخصية اثناء تحليل المواقف التكنولوجية في نطاق اقطار العالم الثالث (ان كان لنا الحق التكلم على مستوى اقطار العالم الثالث) وهذه الظاهرة هي حينما تلعن باليد اليمنى ظاهرة التبعية التكنولوجية تكون اليد اليسرى مشغولة بالتفاوض من اجل الحصول على تكنولوجيات غير ضرورية ومدانة احيانا بسبب رخص اثمان تلك التكنولوجيات او لاي سبب ظاهر اخر او خفي . ان التكنولوجيا الاكثر ملائمة يجب ان تكون هي الوسيلة التي تساعد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتهدي مواقف اقطار العالم الثالث ، فاذا كانت هناك تكنولوجيا غير ضرورية عند ذاك يقضي المنطق رفض مثل هذه التكنولوجيا حتى ولو كانت بدون مقابل وهذا موقف غير واقعي اذ لاتوجد اصلا تكنولوجيا مجانية لكننا استخدمناها لبيان موقف حدي ، وذلك لان رخص مثل هذه التكنولوجيا وحتى مجانيتها فهي تعني دائما اسعار وقيم مخفية ناتجة من ربط المصادر المحلية او اشغال الخبرات المحلية في انتاج غير مجدي .

البحث العلمي المحلي وربطه بالانتاج والتعليم :

تستخدم التكنولوجيا الجديدة للتنمية في محاولة لسد احتياجات معينة وهذا يعني ان الغرض قد تهيا بعد وجود طلب معين . وتعتمد التكنولوجيا الجديدة كذلك على مبدأ استخدام المصادر المحلية بصورة اساس ، وهذا يعني بان البحث يجب ان يركز على مايمكن استخدامه من المصادر المحلية .

من المعلوم ان التكنولوجيا الجديدة كوسيلة لايمكن لها ان تقدم ماهو مطلوب منها الا اذا تدرب الافراد الذين سيستعملون هذه التكنولوجيا ، ان هذا تحصيل حاصل ، لذا فان العلاقة بين البحث والتطوير والتنمية تكون معتمدة بشكل جاد على توفر نظام تعليم ملائم . وقد يكون الامر بحاجة لاعادة مناهج الدراسة في العلوم الطبيعية والتطبيقية كي تتركز على مسائل لها علاقة بالتنمية المحلية او ان الامر بحاجة حتى لاعادة كتابة الكتب الدراسية المقررة .

ويمكن القول بان هناك امكانية لتطوير المصادر الكامنة في العالم الثالث عن طريق نظام تعليم اكاديمي (في الجامعات) يسمح او يساعد على اطلاق الكوامن ولا يضغط عليها لمصلحة الشكل الاكاديمي او الاسلوب الاكاديمي السائد ، والذي تكون بصورة عامة نتيجة للقهر التسلطي الاستعماري السابق .

وكما هو معروف فان عملية التنمية تحتاج الى العديد من المهارات الحرفية واذا ما استخدم نظام تعليمي مناسب فانه سيحفز وينمي هذه المهارات لدى شباب تلك المجموعة من البشر الذين يستخدمون ذلك النظام التعليمي في سبيل الاعتماد الذاتي في ضبط العملية التكنولوجية واستخدامها بالشكل الصحيح (ان الاستخدام الملائم للتكنولوجيا قد يكون حقيقة ملموسة لدى اقطار العالم الثالث) كما قال احد المهتمين بالموضوع .

العلاقات الخارجية :

التعاون بين اقطار العالم الثالث ضرورة واجبة لتقوية القابليات المحلية ، وتمثل الحاجة الى مصادر مادية او الى طاقات علمية وتكنولوجية بشرية سمة من سمات دول العالم الثالث ، ولتطمين او لسد مثل هذه الحاجة فان الضرورة تقضي انشاء شبكة اتصال علمية بين اقطار العالم الثالث لتبادل الخبر والنتائج وتسهيل مهمة تشكيل فرق بحثية من اقطار مختلفة تشارك في اعمال ذات مردود مفيد ومشترك للاقطار المشاركة في مثل هذه الفرق . وان جوهر مسالة التعاون هذا يكمن في تشخيص المشاكل التي تكون بحاجة لحل وبالتالي فان نجاح التعاون لايعتمد على كون المشاركين في مثل هذه الفرق وكونهم منتمين لاقطار من منطقة جغرافية واحدة بل يعتمد على التركيز على المشكلة التي تعاني منها هذه الاقطار .

ويتطور التعاون بين مثل هذه الاقطار اثناء العمل في مجالات مختلفة منها اختيار التكنولوجيا الملائمة واين الحاجة اليها ، وقد يقود مثل هذا التطور في العمل الى ان تتم عملية نقل التكنولوجيا افقيا (**) بين اقطار العالم الثالث أنفسها .

ان نقل التكنولوجيا يكون ضروريا ومطلوبا حين يتم بين اقطار العالم الثالث وذلك لان الخبر والمعلومات المنقولة تكون اكثر من تلك التي تطورت وانبثقت من حلول في الدول المتطورة ويجب ان لايغيب عن البال ان نقل التكنولوجيا بين اقطار العالم الثالث يحتاج كذلك لغربلة التكنولوجيات المتوفرة ، لاختيار الملائم منها ، وتكون قابلية الاختيار والتي سبق وشرحناها سابقا هي المستخدمة في هذا المجال .

المجتمع العلمي :

التكنولوجيا عنصر غير محايد ،لذا فالضرورة تقضي ان يفهم الذين ينشغلون بالتكنولوجيا محيطهم وعلى التكنولوجيين الذين ينقلون النتائج المجردة الى منتوج ان يكونوا مرتبطين بسياسة المجتمع الذي يحيطهم لذا يفضل او يجب ان تجري برامج لربط احاسيس مثل هؤلاء الافراد بالبعد الاجتماعي او الاقتصادي لمجتمعهم وارتباطهم بذلك واجب يمليه عليهم شرف المواطنة لتطوير مجتمعهم .وهناك ضرورة لاقناعهم بان النجاحات الكبيرة جدا لاي مجتمع ماهي الا مجموعة كثيرة جدا من النجاحات الصغيرة (حتى على مستوى الفرد) .

وبهذا فان مثل هؤلاء العلماء والتكنولوجيين مسؤولية ليست صغيرة في ربط البحوث وتوجيهها لخدمة القطاعات الاقتصادية لكي تصب نتائجها في الخط العام للتنمية ، آخذين بنظر الاعتبار احاسيس الفرد العلمي عند مجابهته لمعضلة ما وتفكيره بحلها عن طريق البحث العلمي وغير متناسين ان اكبر معضلة تجابه الانسانية حاليا هي محاولة سد او تطمين الاحتياجات الاساس للكتل البشرية التي تسكن الكرة الارضية .

المعلومات ووسائل الاعلام :

المعلومات هي حاجة انسانية اساس ، ولما كان العلم والتكنولوجيا وسيلتين مؤثرتين على مجاميع المجتمع الانساني ، اذن الحاجة ماسة للاعلام عن القضايا التي تدور في نطاق العلم والتكنولوجيا ، وبالتالي فالمسؤولية لتحقيق ماتقدم تقع على عاتق وسائل الاعلام وبالمناسبة فالشكر واجب لدار الجماهير لاصدار ملحق طب وعلوم لجريدة الجمهورية والذي يعتبر الخطوة الاولى في طريق الصحافة العلمية الجديدة ، لكن الصحافة العلمية الجديدة التي نتوقعها لاتبرز الاخبار العلمية من الاقطار المتطورة لابهارنا كقراء، بل لاستخدام مثل هذه الاخبار لتحفيز روح التقصي لدى القاري الاعتيادي لمرفة اوجه الحياة المحيطة به ولتحفيز القاريء المختص لاستخدام العلم والتكنولوجيا وعلى كافة المستويات للوصول الى مصب كبير هو التنمية لشعبنا الذي تعب كثيرا في حياته الماضية ويتطلع نحو حياة افضل من السابق .

د . عدنان شفيق فهمي

استاذ مساعد باحث

مركز نقل وتطوير التكنولوجيا

(*) ستراتيجية التنمية هي غير خطة التنمية كما هو معروف لان الاولى ابعد من ناحية السقف الزمني وكذلك الحال فيما يخص ستراتيجية البحث هي ليست خطة البحث . لذا فاذا ماخطط للبحث والتطوير اعتمادا على خطة التنمية عندها تكون لدينا حلقة مفرغة ، ولن تكون هنالك امكانية للتحرك بالاتجاه الصحيح المطلوب .

(**) تتم عملية نقل التكنولوجيا بشكلين اساسيين الاول افقي اي من قطر لاخر والشكل الثاني العمودي اي تطوير اكتشاف ما الى تكنولوجيا داخل القطر ذاته .

« التقرير » ومعاناة الأنسان البريء

— 1 —

للفنان بدري حسون فريد (ولد عام 1927) نشاط فني متعدد الجوانب ، فقد اشتغل في الصحافة الفنية والنقد المسرحي ، وفي تشكيل الفرق المسرحية ، وفي التاليف والتمثيل الاذاعي والتلفزيوني والسينمائي وفي الاخراج المسرحي الى جانب عمله كمدرس في اكاديمية الفنون الجميلة . وتركت اعماله اثرا واضحا على العديد من الاجيال الفنية . وخلال السنوات الماضية حقق نجاحا طيبا في اخراجه لمسرحيتي « مركب بلا صياد » لاكاديمية الفنون الجميلة ،و « الاشجار تموت واقفة » للفرقة القومية للتمثيل التي الف واخرج لها مسرحيته الاخيرة : التقرير . غير ان حظه في التاليف المسرحي اقل شانا من الاخراج ، و « التقرير » مثال مناسب لاثبات هذه الفرضية.

احسب ان بدري حسون فريد يرى ان اعماله غير مفهومة من الاخرين بما فيه الكفاية ، لذلك يعمد ، كما في المسرحية الاخيرة ، الى توضيح فكرة المسرحية وبنائها الفني . ولا يكتفي بكتابة مقدمته التوضيحية في صدر النص ، بل يلجأ الى كراس العرض المسرحي لكتابتها مجددا . وقد يكون هذا الاسلوب نوعا من الدفاع عن النفس ، او محاولة لاقناع الاخرين باسرار عمله . وعلى اية حال ومهما تكن الدوافع ، فان التصدي للكتابة عن « التقرير » لايعني اهمال « المقدمة » او استصغارها ، ولكن ينبغي ان « يحاكم » العمل نقديا على ضوء « التطبيق » الذي ظهر في النص وتجسد في العرض . ولعله لم يسبق لبدري ان تحمل المسؤولية الكبرى عن مستوى عمله كما حصل في هذه المسرحية . فقد قام الى جانب التاليف والاخراج ، كعنصرين اساسيين ومرتكزين هامين لاي عرض مسرحي ، بتصميم الديكور والملابس ...

— 2 —

خلاصة قصة المسرحية ، التي تدور حوادثها في عام حافل شابه الترقب والقفز وسبق قيام ثورة 14 تموز ، هو عام 1957 ، ان امجد (قام بالدور نزار السامرائي) مدرس الكيمياء ، كان يلقي على طلابه درسا موضوعه «التجزئة والتحليل والضياع » فيعترض عليه الطالب دريد (قام بالدور صاحب نعمة) ابن احد اعمدة السلطة الملكية وصديقه سمير (عادل عثمان) زاعمين ان الموضوع يحمل هدفا سياسيا مقصودا . ويخبر دريد مدير المدرسة (غازي التكريتي) والجهات المسؤولة عن خطورة المدرس . فيستدعيه ويحقق معه . فينكر امجد اية صلة له باي تنظيم سياسي او اي نشاط معاد . وان الدرس الذي القاه علمي ثبت في المنهج المقرر . يطلب منه المدير التوقيع على « شهادة براءة » ليثبت ولاءه للسلطة والا كانت عاقبته وخيمة . ونتيجة ذلك يمر امجد بازمة نفسيةحادة ويشعر بالالم والتعاسة والخوف من التعذيب الذي قد يتعرض له اذا ما رفض التوقيع . ويلتقي به زميله وصديقه المدرس عباس (سامي قفطان) بعد ان علم بالحادثة ويطلب منه ان يرفض امر المدير لانه اذا ما وافق سيتعذب اكثر ويتمزق وسيحتقره شعبه وامته ، بل واهله وزوجته وسيعامل كخائن وجاسوس . فعليه ان يصمد ويكون شجاعا صلبا . وتدعوه زوجته حذام (سعدية الزيدي) هي الاخرى الامتناع عن التوقيع . يقترح عليها ان يكتب ، دفاعا عن النفس ، « تقريرا » مفصلا عن حياته وبراءته من اي نشاط سياسي . فتعارض زوجته هذه الفكرة ، وتضطر الى هجره لعدم تخليه عن نيته كتابة التقرير . واثناء معاناة امجد وحيرته ، يلقى القبض على شخص يتصل به ، اعتقادا بان امجد راس سياسي كبير استطاع تضليل السلطة بمهارة وذكاء . ويعيش امجد يوما مليئا بالعذاب والتمزق بين نقائه ، الذي تدعوه اخلاقه الى الحفاظ عليه وبين الانصياع للسلطة خوفا من بطشها . وتحصل امام ناظريه حوادث كثيرة تعطي صورة الواقع الذي يعيشه الشعب ، المطاردات والمضايقات واستشهاد احد العمال النقابيين الهاربين من السجن واشتباك الجماهير برجال الشرطة بشجاعة وهي تتظاهر وتهتف بسقوط الاستعمار وعملائه .

— 3 —

ان قصة امجد هي قصة الرجل البريء البعيد عن السياسة الذي تطارده السلطة القمعية لانتزاع اعتراف معين يثبت ارتباطه بتنظيم سياسي مناهض . سبق وان تناولتها اعمال ادبية ومسرحية كثيرة مختلفة في التفاصيل والشكل والمضمون . من الامثلة على ذلك مسرحية « بائع الدبس الفقير » لسعد الله ونوس ، ومسرحية « الدراويش يبحثون عن الحقيقة » لمصطفى الحلاج ، ومسرحية بيترفايس « كيف يتم تخليص السيد موكينبوت من آلامه ؟ » ورواية فاضل العزاوي المعروفة « القلعة الخامسة » وان القاريء النبيه سرعان ما يكتشف ، ان الخطوط العريضة لبناء شخصية امجد بطل مسرحية « التقرير » لم تبث بمهارة فنية ومعالجة فكرية كما ظهرت به في المسرحيات المذكورة . ومهما تكن درجة استفادة بدري من تلك الاعمال ، فان شخصية امجد هي الشخصية الوحيدة التي سرت في صدرها انفاس واهنة ، اما بقية الشخصيات فقد كانت مجرد اشباح مصابة بفقر فني وفكري عام طالما رايناه واضحا في مسرحيات المؤلف الاخرى. فهي شخصيات مسطحة ونمطية واحادية الجانب، زاد فقرها ادقاعا هذا الترهل والمط والتكرار في الحوار والمشاهد والاحداث التي اتبعت المؤلف قبل غيره في محاولة منح عمله ابعادا رمزية او تعبيرية ، واتعب معه الممثلين والمشاهدين .وبالرغم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من ان بدري يبدو حريصا على العناية بالتفاصيل الا انه لايمسك بها كربان ماهر ، اذ يعوزهـا التبرير والاقناع وخاصـة ما يتعلـق ببواعـث الشخصيات .

لاباس من ذكر امثلة معينة . اراد المؤلف في « التقرير » ان يبرهن « دراميا » على ان شعبنا بقطاعاته الشعبية وشرائحه الاجتماعية قد ناضل ضد العسف الملكي . فماذا فعل ؟ اقحم بافتعال مشهد بائع الشلغم (اسامة القيسي) الذي يمنعه مراقب البلدية (طارق سعيد) من العمل ليقول بان رجال السلطة الصغار يسومون الكادحين القهر والعذاب . وافتعل باقحام مشهد جلوس عباس وامجد في حديقة عامة ليناقشا مسالـة « البراءة » ، فياتي صدفة الحارس الليلي (صبحي العزاوي) فينصت لحديثهما ومن ثم يفاجاهما . فيسرع عباس بتصنع السكر ، الا ان الحارس يكشف عن نفسه كمواطـن متعاطف مع افكار عباس ، ثم ينصحهما بالحذر ، ليقول المؤلف ان الكادحين مع المناضلين . ومن اجل ان يبرهن المؤلف على « ان الحب سياسة » وهي جملة تبدو غريبة عن السياق العام للمسرحية ، فانه ينتقل الى مشهد الشابة نداء (شذى سالم)ابنة البيك (فوزي مهدي) التي تصر على موقفها من حبيبها عباس والايمان بافكاره ، دون ان يتعب المؤلف في محاولة تبرير ولادة الحب بين ابن العائلة الكادحة وابنة العائلة البورجوازية . ومن اكثر المشاهد افتعالا الى حد مضحك مشهد زفة العرس التي تتحول الى مظاهرة صاخبة ، تبدا اول امرها بموسيقى شعبية وزغاريد تتردد فيها جملة مراقب البلدية « شيل بابا شيل » التي لاتصلح اصلا لان تقال لبائع جوال يدفع عربة بائسة ، اراد المؤلف اقناعنا بان الجملة تعني رحيل السلطة والملك والوصي ! ثم يهتف الناس المشاركون في الزفة بسقوط « النظام الاستعماري الامبريالي » ! فتتعرض الزفة ـ المظاهرة الى الرصاص ويسود الهرج خشبة المسرح . في الواقع ان المشهد بحد ذاته يدلل على الخيال الواسع للمؤلف ، ولكن السؤال الذي كان ينتظر اجابة المؤلف والمخرج هو أي عريس هذا الذي يقبل ان تتحول زفة عرسه الى مظاهرة سياسية تتعرض للنار ، بل وأي تنظيم سياسي هذا الذي يرتضي من الناحية الاخلاقية والسياسية ان يحول زفة عريس الى مجزرة ؟

ولم يكتف المؤلف والمخرج بهذه المشاهد ، فجعل شخصية الشرطي (رضا الشاطي) كاريكاتيرية تهريجية بملابسها المرتبكة وطابعها المضحك ، من اجل ان يحط من هيبة السلطة . فيقوم الممثل بحركات بائسة ، فيؤدي للمعاون (عبد علي اللامي) تحية صاخبة تسقط على صورة الملك فيصل الثاني المعلقة على الحائط للايحاء بقرب سقوط الحكم . وتقوم هذه الشخصية المزعزعة بالاحتجاج على ضرب المواطنين برمي السدارة على الارض وخلع الملابس الرسمية .. وهذه احدى المفارقات التي تفتقر الى الصدق الفني التي زرعها المؤلف في غير تربتها الصالحة للانبات .

وان مشهد القبض على محمود (محمد عبد الرحمن) بعد تسليمه رسالة طارق الى امجد ، والقبض على عباس ، ومشهد نداء ، وبائع الشلغم ، ومشهد حذام لو جرى تكثيفها وتبريرها لحققت نتائج مفيدة دراميا كان يحولها الى « عوامل خارجية » تثير « الصراع الداخلي » في اعماق امجد ، في تردده وتمزقه بين اتخاذ الموقف المنسجم مع نقائه واخلاصه لواجبه ووطنه واحساسه بكرامته ، وبين هلعه من العذابات التي سيتعرض لها في غياهب السجن . ومما يدعونا الى هذا الافتراض ان اشارات خافتة تشير لهذه المسالة ، لم يعرها المؤلف الاهتمام اللائق بها ، فطغت بسبب ذلك نزعة عرض المشاهد لمجرد العرض وعلى حساب « الدراما » .

« التقرير » مسرحية سياسية تقليدية اجتمعت فيها من غير انسجام مذاهب مسرحية متباينة . فقد تعثرت الى جانب اتجاهها التعليمي ، المدرسة الواقعية بالتعبيرية والطبيعية بنزعة التجريد .

وتكشف المسرحية ـ اذا جاز لنا ان نسميها مسرحية ـ عن نفسها للمتفرج مبكرا وقبل بدء العرض . فالستارة الامامية مفتوحة وحل عوضا عنها جدار من القصب . رسمت عليه بالصبغ اطارات باب وشبابيك ، وعلى يسار الديكور قطعة قماش خطت عليها بالاسود جملة « يسقط الحكم الملكي الرجعي » وبذلك سلبت من المتفرج الحق في اشباع فضوله وتشوقه بالرغم من ان المؤلف اعتمد الراوي (عماد بدن) او قائدالمجموعة كطريقة تعليمية ـ كما سماها المخرج ـ لتلخيص احداث او التعليق عليها ، او قطع مشاهد او الاعلان عن الاستراحة التي اعقبت الفصل الاول .

ان مناظر الديكور الكبيرة التي تتحرك على عجلات الى الامام والخلف او لتحجب جزءا من الحيز المسرحي ، يذكرنا بطريقة تصميم ديكور مسرحية « نشيد الارض » التي اخرجها محسن العزاوي . ولا يبدو لاستخدام القصب كخاصة للديكور علاقة باحداث المسرحية ، وانما استعملت كزينة « شكلية » حسب وتبدو غريبة عن بقية الاجزاء الواقعية كمنظر بيتامجد والصف وغرفة المعاون ، ومتنافرة مع الاسلوب الطبيعي في استخدام احدث جهاز في معالجة الاسنان وبكامل ادواته الذي وضعه بثقله الكبير على يمين مقدمة المسرح ، ومتناقضا مع منظر الشجرة التجريدي الذي وضعه ـ كنوع من الموازنة في الكتلتين ـ في يسار مقدمة المسرح .

ونجد تكرارا آخر في تصميم الديكور ، في منظر غرفة امجد الذي ظهر على شكل مرتفع يصعد اليه بسلم ، والذي سبق وان ظهر في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

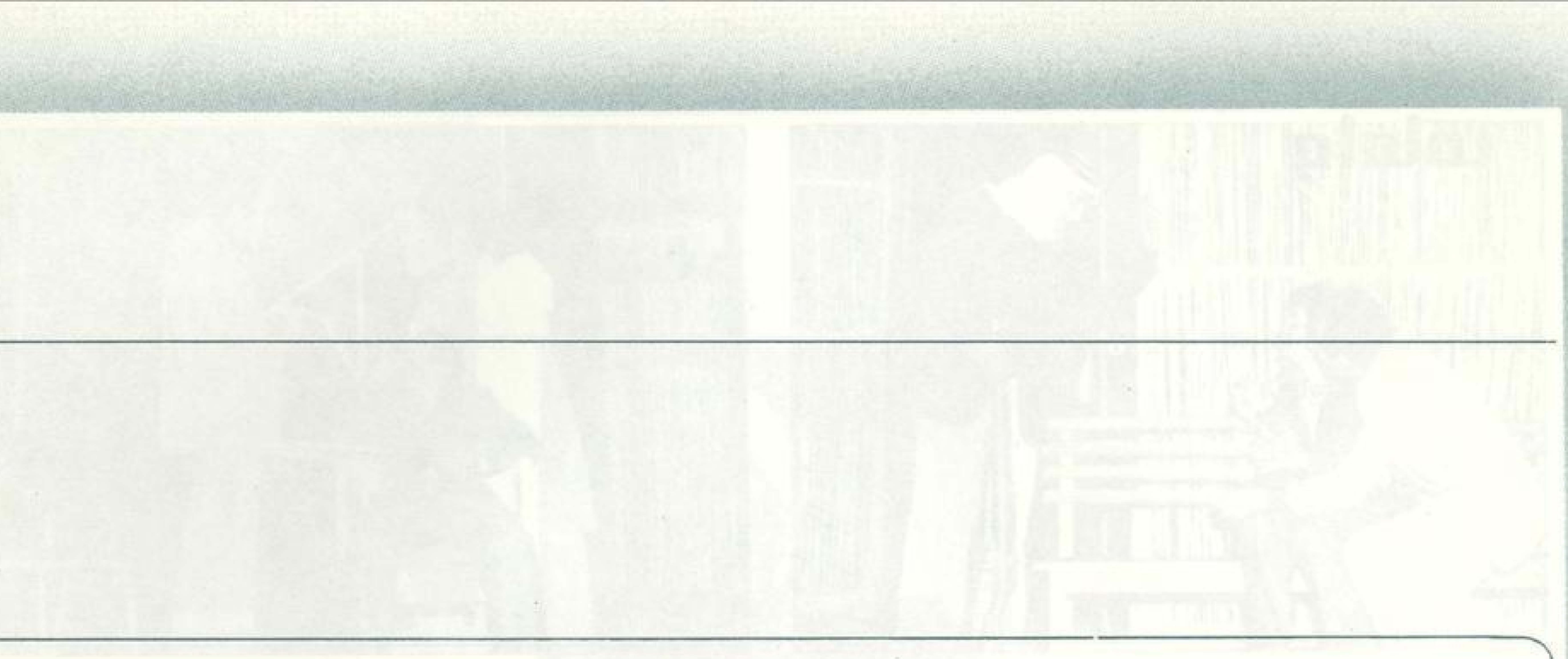

مسرحية « بضاعة تحت الطلب » التي اخرجها بدري لفرقة الخنساء . كما ان استخدامه للتنغيم الحزين المؤلم « اويلي .. » لخالد صباح سبق وان استخدمه ابراهيم جلال عند اخراجه لمسرحية « مقامات ابي الورد » .

ولم يكيف المخرج منظر الصف بلونه الخشن بمهارة ، فقد ركنت على الارض وفي مواجهة الجمهور سبورة كتبت عليها ثلاث كلمات هي « التجزئة ، التحلل ، الضياع » ويوم 57/4/5 بينما جلس الممثلون على مكعبات بدلا من الرحلات ، والسبورة على يمينهم . وفي كل مرة يكيف المنظر بعد تعديلات طفيفة ليمثل غرفة المدير وغرفة المعاون ، وتنتقل السبورة خلالها !

ونجد التركيب المشوش لاتجاهات المسرحية المختلفة في تصميم الملابس . فقد حاول المخرج الاخبار عن زمن المسرحية باختيار اربطة عنق رفيعة وسراويل فضفاضة بعض الشيء وسترات طويلة وتسريحات شعر مميزة ، ولكن الغريب ظهور الممثلين والممثلات في المشهد الاول لمرة واحدة بملابس موحدة هي سراويل وقمصان بيضاء وعباءات عربية سوداء ، ثم لايستعملونها ثانية باستثناء قائد المجموعة الذي يظل محتفظا بملابسه طيلة العرض .

- 5 -

لكل كاتب مسرحي وسائله او حيله الفنية في نقل المعلومات او تنمية الصراع . والكاتب المعاصر عاف منذ زمن الوسائل المستهلكة والتقليدية ، الا ان مؤلف « التقرير » لم يجد ـ كما يبدو ـ في متناول يده غير استخدام« الرسالة» ليقول بان العراقيين في الخارج يناضلون هم ايضا ضد السلطة ، وان الوحدة العربية تتجسد في بلاد الغربة ايضا ، حين ينجد الطلبة العرب زميلهم العراقي بعد فصله من البعثة . والغريب في الامر ان حامل الرسالة قام بفتحها ويخبر امجد عن مضمونها واهميتها ،ولا يتورع امجد ـ كانسان مثقف ـ وببساطة عن فتحها ثم اتلافها ! .. واستعمل المخرج التسجيلات الصوتية وهي اضعف الوسائل الدرامية لتبرير الصراع الداخلي ، وبكثرة باعثة على الملل .

ان فكرة المسرحية الرئيسة ، يوضحها امران . الاول ، نوعية علاقة امجد بعباس بصفته مناضلا معروفا بافكاره الوطنية والقومية كالدعوة الى انهاء الحكم الملكي ، والتبشير بالوحدةالعربية والتقدم . والثاني ، هو البعد النفسي لأمجد.

ويظهر ان « تعليمية » المسرحية قد شجعت المؤلف كثيرا لأن يردد وبتكرار ثقيل مايريده ، كانما لايثق بقدرة المتفرج على الفهم ! ، او انه غير واثق من وضوح ما يقوله ! .. كالحوارات الطويلة عن الشعب الطيب الواعي والمناضل والنصر الذي لاريب فيه . وكان مصرا على زج بطله في اتون الصراع الداخلي والتمزق ،والصراع الذي يفرضه عليه العالم الخارجي ، وبالتحديد بواسطة عباس الذي يحاول ان يدفعه لاتخاذ الموقف الايجابي السليم . قدم المؤلف بطله مخلصا في اداء واجبه ، ساعيا لتنشئة جيل من المتعلمين والمثقفين . لايرضى بان يجتاز دريد الى صف اعلى الا عن جدارة واستحقاق ، ولا يستسلم لضغط ابيه ولا يخاف تهديده ! ولكنه يتصاغر الى حد بائس في حضرة مديره ، ويعلن له بانه انسان وحيد بلا سند . وانه رفض الانسياق مع زملاء الدراسة في العمل السياسي . ويقسم بشرفه و « ستر زوجته » ! بانه يقول الحقيقة . ويستعطفه لمساعدته لانه لو فصل من عمله او سجن فسيموت جوعا . ويرعبه حديث عباس في الحديقة .

وينظر عباس الى صديقه بصفته انسانا طيبا وبسيطا وكادحا . سبق وان رصده التنظيم ، فوجده نقيا طيب الاعماق ، محبا لوطنه وامته ، مخلصا في عمله ، لا يخون بلده أو امته ، ولا اصدقاءه او زملاءه ومع ذلك فانه يتعرض لالحاح غريب من عباس ، الحاحا يوحي بالعكس . ويرى عباس اذا كان امجد لم ينضو تحت لواء التنظيم بعد فلا بد وان يغير موقفه لانه اصلا منتم بضميره وعمله وشرفه !! اذا اين هي المشكلة ؟ في ظني ان هذا المعنى ورد بشكل غير مباشر في قول الطبيب (سالم شفيق) « ان الاسنان مثل العائلة الواحدة لو نخر او عطب احدها ، فان بقية الاسنان ستتأثر وتتحسس بالالم » والطبيب لا يقلع السن الا اذا تسوست كليا . ولم ينهج المؤلف على هذا المنوال في مشاهده الاخرى ، كان يمكن ان تمنح مسرحية شانا وقيمة فنية .

ومن الطبيعي ان كسب انسان للتنظيم واقناعه باتخاذ موقف صلب وهو المتردد المرتعب، يتم عن طريق انشاء علاقة حميمة تقوم على الفهم والعطف والشعور الانساني الفياض تجاه انسان يتعرض لصراع عنيف ولحظات ضعف . ولكن المؤلف ـ كما ظهر لي ـ شاء ان يضطهد هذا النموذج ويقسو عليه . اذ يقوم عباس بجرح مشاعره اكثر من مرة . ويخاطبه بلهجة ادانة ارهابية استفزازية تدفع أي انسان الى اتخاذ الموقف السلبي ان لم يكن المعاكس . يقول لامجد انه اذا قدم البراءة فانه سيتعذب ويتمزق ليل نهار وسيحتقره شعبه وامته ، سيشيحون بوجوههم عنه ويشكون بامره ويقاطعونه اجتماعيا ونفسيا حتى اهله وزوجته سترفضه . ويزعم عباس ـ وهنا شيء مضحك ـ ان امجد لا يعرف زوجته حذام جيدا ، فانها حتى وان عرفت الضغوط الكبيرة التي يتعرض لها ، وحسبت حسابا للنتائج والعواقب فانها لن ترضى بان تدوس على نفسها وتوافقه على تصرفه . مع العلم بان المؤلف لم يوضح نوع العلاقة بين عباس وزوجه أمجد . ويضيف عباس ان تصرفات امجد ستفضحه كاي خائن للقضايا الكبيرة لانها ستصدر عن « بؤرة الخيانة العفونة والوساخة » وانه سيتعذب حتى يصبح الموت اهون واحسن . ثم يخاطبه بقسوة جارحة « بانه لو لم يكن يحب شعبه وامته ووطنه والناس ، ولو كان وسخا قدر الافعال لهانت عليه الامور ولاصبح نسخة من انسان عفن ، دودة تتحرك على الارض الطيبة ، بل انه اسوء من الدودة لانه سيكون خطرا » بل ويتهدده بغضب بانه سيخرج عن طوره ويفقد اعصابه !! ويحذره بانه ينبغي ان يخاف من الشعب الذي سيقتص « قريبا »من الخونة والجواسيس اكثر مما يخاف السلطة . كانما الاخلاص للشعب ينبغي ان يصدر بدافع الخوف من القصاص ليس الا . لا اظن ان انسانا ما يقنعه كلام صديق يقذف بوجهه بهذه الحدة . والاقسى من ذلك صدور كلام مشابه من زوجته التي يفترض فيها ان تحنو عليه وتعامله برقة المحبة المتفهمة .

واخيرا ، لم تكن المسرحية تستاهل شرف الادعاء بالتعبير عن « الوحدة العربية » فنيا ، لان محور الافعال المسرحية هو معاناة امجد . كما ان المسرحية لم تعبر عن « القضية » بشكل فني ممتع ومؤثر وسليم ، ولم يكن موضوعها ذا بعد فلسفي متميز . وقد حملت المسرحية عيوب تجربتنا القاصرة في المسرح السياسي . ولا تشكل المحاولة رقما جديرا باضافته الى رصيد الفرقة القومية للتمثيل ، صاحبة الانتاج ، اشترك في اظهاره الى الوجود كادر متمرس ، قدراته افضل مما اظهرت في العرض . وقد بذل عدد من الممثلين ، رغم ضعف النص والاخراج ، جهدا كبيرا لتقديم شيء حسن كنزار السامرائي وسامي قفطان . وكان مشهد نداء وابيها ومشهد معاون الشرطة مقبولين . وتميزت طريقة الراوي بالحيوية والرشاقة .

علي مزاحم عباس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شكري غانم و « عنترة » والوحدة العربية

حين شاهد الفرنسيون تمثيل مسرحية « عنترة » للشاعر اللبناني شكري غانم (1861 ـ 1932)على مسرح الأوديون في باريس في 10 شباط سنة 1910 هتفوا قائلين : « لقد عاد راسين الى الحياة » . وشكري غانم علم بارز من اعلام اليقظة القومية والفكر العربي ، اتخذ من باريس مقرا له ليكون على صلة وثيقة بالاحرار والوطنيين الذين هاجروا او نفوا من ديارهم على عهد السلطان الاحمر عبد الحميد ، عندما كان الوطن العربي يئن تحت وطأة الاستبداد التركي ويعاني من الظلم والقهر والولايات ما يعاني ، لكن شهرته لم تتسع الا على اثر انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس ، وخطبته الشهيرة فيه التي لفتت اليه انظار المتطلعين الى الحرية في كل مكان .

ولد شكري غانم في بيروت عام 1861 في أسرة أصلها من لحفد في كسروان ، عندما بلغ التاسعة من عمره دخل مدرسة « عينطوره » فمكث فيها تسع سنوات ، يتلقى العلم ، ويتدرب على أصول النظم ، حتى تخرج ولسانه لا يلهج بغير الشعر . غادر عينطورة عام 1879 وقد سجل في دفاتره عدة قصائد وطنية وعاطفية تبشر بولادة شاعر ، سوف يتربع على سدة الشعر يوما ، بالرغم مما في هذه القصائد من سذاجة وافراط عاطفي ، يرافقان شعر الصغار عادة .

سافر شكري غانم من عينطورة الى مصر ، فاقام فيها حينا من الزمن ، ثم غادرها الى باريس سنة 1882 حيث كان أخوه خليل يعمل محررا في جريدة « الفيغارو » ، فحصل لشكري على وظيفة مترجم في المقر الفرنسي بتونس ، لكن هذه الوظيفة لم ترق له ، لانه كان يطمح لان يكون اديبا وشاعرا . وفي صباح يوم ابحر الى باريس مرة ثانية ، ونزل في بيت أخيه خليل الذي سارع الى اظهاره في الاوساط الادبية والثقافية ، وفي باريس انشا جريدة « كوريسبونداس دوريان » ليدافع من خلالها عن القضية العربية ، ويقف الى جانب العرب في الحرب العالمية الاولى مطالبا بحقهم في الحياة الكريمة ، بما كان له من صداقات مع اشهر الساسة الفرنسيين ، مثل بوانكاريه ، وكليمنصو ، وجورج ينغ وغيرهم ، كما انجز فيها اكثر مؤلفاته التي بدات بالظهور منذ عام 1904 متأثرا باسلوبه بالشاعر روستان .

حين ناهز الثلاثين من عمره نشر أول ديوان له بعنوان « أشواك وأزهار » ، ثم مثلت له على مسرح الاوديون سنة 1904 مسرحية « زهرة الحب » ، وهي مسرحية شعرية في فصل واحد ، ثم مسرحية « ربع ساعة من الف ليلة وليلة » . وفي عام 1908 الف رواية « دعد » التي تدور حوادثها بين بيروت ونهر الكلب ، وقد وصف فيها بيروت وصفا جميلا رائعا ، وتحدث عن ذكرياته فيها يوم كان صغيرا . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل أتبع ذلك بعدد من المسرحيات الشعرية مثل « الاجنحة المتكسرة » و « النسور التسعة » ، وهي مسرحية في خمسة مشاهد ، و « يوسف » ، و « جيافور » و « تيمورلنك »... الا أن شهرته الواسعة لم تقم على أي عمل من اعماله مثلما قامت على مسرحية « عنترة » التي كان يبغي من تاليفها ايقاظ الشعور القومي ، واذكاء روح الشجاعة والبطولة عند العرب ، وتقريب الاذهان في فرنسا الى بوادر القومية العربية الاولى باحياء شيء من التراث العربي القديم .

ولكن قبل ان نتحدث عن مسرحية عنترة ، يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند دوره الفعال في الثورة التي قامت بها تركيا الفتاة ، بما نشر من آراء سياسية في جريدته «كوريسبونداس دويان» الا ان اسمه لم يلمع ويتالق الا على اثر اشتراكه في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس في حزيران سنة 1913 ، وكان يضم سوريين ولبنانيين وفلسطينيين ، وقد كان لهذا المؤتمر اهميته القومية البالغة ، لانه كان فجر اليقظة القومية لثورة العرب على الحكم العثماني ، وكان الشهيد عبد الحميد الزهراوي رئيسا للمؤتمر ، وشكري غانم نائبا للرئيس ، وشارل دباس أمينا للسر ، فالقى الخطبة الختامية في المؤتمر ، عبر فيها عن توقه الشديد لان يرى الامة العربية حرة ، سيدة ، يحكمها رجل واحد . لقد خرج المؤتمرون بنتيجة هي انه يجب على الشعوب العربية أن تعمل من أجل اللامركزية ، وتنفصل عن جسم الدولة العثمانية ، وتنال استقلالها التام .

والواقع ان اسهام شكري غانم في هذا المؤتمر القومي كان دليلا واضحا على نمو الحس القومي عنده ، فعلى الرغم من سنوات غربته الطويلة ، وانصرافه الى الثقافة الفرنسية وآدابها ، لم ينس وطنه وعروبته ، وهذا الحس القومي النابض خط واضح الملامح في مسرحية عنترة ، فقد وفق فيها الى بث الدعاية للقضية العربية ، ووحدة البلاد العربية ، وهو في باريس ، وكانت باريس يومئذ ارقى وسط سياسي واخطره في العالم . ولم يكن هدفه من تاليف مسرحية عنترة الا ايقاظ الشعور القومي العربي ، والدعوة الى الوحدة العربية في فترة من احلك الفترات ، بدليل قوله على لسان عنترة ، بطل المسرحية : « لاشيء يوقف شعبا سائرا . اني اراه يصعد من المشرق الى المغرب درجة فدرجة بتالق عظيم ، يكفهر له الكوكب الذهبي في صدر الفلك . ان تكون البلاد العربيةمتحدة ، يحكمها سيد واحد ، ما كان الا حلما بديعا ، بالامس كان حلما ، واما اليوم فلا » .

استمد شكري غانم مسرحيته من التراث العربي ، وفي مقدمته الاخبار التاريخية والشعر والسيرة الشعبية بنوع خاص . وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني اخبار متفرقة قليلة عنه ، مفادها ان عنترة كان عبدا لأبيه من امة حبشية سوداء تدعى « زبيبة » ، وكان يرعى الابل لوالده ، وينظم الشعر الحماسي ، ثم أحب ابنة عمه عبلة بنت مالك ، واستطاع اخيرا ان يصبح حرا ، بفضل شجاعته الخارقة ، وبطولته الفريدة، وقوته المدهشة . ويقال انه لما بلغت اخباره وصفاته النبي محمدا ، وسمع قوله :

ولقد أبيت على الطوى اظله

حتى انال بـه كريـم المآكـل

قال : « ما وصف لي اعرابي قط فأحببت ان اراه ، الا عنترة ! » .

حاول شكري غانم توجيه احداث المسرحية التي الفها سنة 1898 نحو فكرة توحيد القبائل العربية ، وجمعها تحت راية واحدة ، وليس هذا بمستغرب من كاتب وشاعر ومسرحي التزم بقضايا امته ، وسعى الى توحيدها ، وعمل على ايقاظها من السبات العميق الذي ران عليها عدة قرون ، وهي غارقة في ظلام الجهل والتخلف والعبودية . صحيح ان احداث السيرة الشعبية تكاد تشف عن مثل هذه الفكرة القومية التي تحث العرب على نبذ خصوماتهم ، للوقوف في وجه اعدائهم صفا واحدا ، الا ان براعة شكري غانم تجلت في ابرز الفكرة ابرازا حيا ، واعطاها ابعادا جديدة ، فكان بذلك اديبا ملتزما الى ابعد حدود الالتزام ، احسن الدعاية لفكرته القومية التي آمن بها ايمانا مطلقا .

لقد عرف شكري غانم كيف يختار لمسرحيته اللفظة المناسبة التي تلائم المناخ العربي ، ولا يستغرب هذا من شاعر تمثل التراث العربي ، وتبحر في فقه اللغة الفرنسية ايضا ، حتى لكأنه ناقر عود ، او نافخ مزمار ، وبهذا التناسق بين الشكل واللفظة الموفقة ، عرف الغرب بالصفاء المشرقي ، فجاء شعره فاكهة عربية ، في مناخ لم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يألف وجودها فنالت بذلك شهرة واسعة ، ومثلت على عدة مسارح ، كالاوديون في باريس ، والسيشان في ليون ، وحولت الى اوبرا غنائية ، وضع الحانها الموسيقار الفرنسي بيير ديبون . ويبدو ان شكري غانم حاول تمثيلها في مصر قبل ذلك بخمس سنوات ، اي سنة 1905 ، ليخلع عنترة السمات الشرقية ، ولعل نجاحها في مصر ، دفعه الى ان يعرضها على اشهر مسارح فرنسا في ذلك الزمان مرات متعددة . وكدليل على مابلغته هذه المسرحية العظيمة من الشهرة الذائعة، والاهمية البالغة ، اسوق رايا فيها لفليكس فارس ، مؤلف كتاب « رسالة المنبر الى الشرق العربي » الذي شاهد تمثيلها على مسرح الاوديون حوالي سنة 1921 ، وهو الى جانب شكري غانم في المقصورة التي اعتاد أن يراقب منها التمثيل كل ليلة ، جاء فيه :

« منذ خمس عشرة سنة ، مررت بباريس ، وتسنى لي أن اقابل صديقي ونسيبي المرحوم شكري غانم ، الشاعر اللبناني العبقري المشهور ، فدعاني لشرفته الخاصة في الاوبرا ، لحضور روايته « عنترة بن شداد » .

« شهدت الرواية ، وانا الى قرب مؤلفها ، وكنت قد استصحبت معي نسخة منها لأتلوها بينما يتغنى الممثلون باشعارها ، فما فاتني معنى من معانيها . ومضت السهرة ، وعلية القوم من الفرنسيس يصفقون للأشجار الرائعة التي كان ينشدها عنترة العبسي بلغتهم ، وبنبرات الحانهم، وقد اكرهت لأشارك القوم باعجابهم ،على ان امحو من حافظتي كل ما أعرفه عن عنترة ، وكل ما احفظ من أشعاره ، ولكن عند نهاية التمثيل ، لم أملك نفسي من مصارحة شكري غانم فقلت له،

« ان ما استحقه عنترة من أعجاب القوم ، انما حق لك جله ، ان لم اقل كله ، فاستغرب الشاعر ، وطلب الايضاح فقلت :

« انك نفخت روح شكري غانم في هيكل عنترة ، بل انتزعت العبقرية منه ، لتحشوه بعبقرية الفرنسيس ،ولو ان عنترة لم يكن الشاعر الذي نعلم ، ولو انه لم يترك للأدب العالمي من الهام الصحراء ما صور فيه جميع وقائعه ، لكان هنالك ما يبرر امداده بروائع خيالك ، ولكن عنترة ملأ التاريخ شعرا ،وانت لم تأخذ من أبياته، أو معنى معانيه » .

ترجمت مسرحية عنترة مرتين ، فبعد ان مثلت على مسرح الاوديون في باريس مدة ليست بالقصيرة ، ونالت حظا كبيرا من الشهرة وسعة الانتشار ، قام الشاعر اللبناني المرحوم الياس أبو شبكة بترجمتها وطبعها في مطابع « قوزما » في بيروت ، دون ان يذكر تاريخ أو سنة الطبع ، والارجح انه ترجمها وطبعها بين العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، وجهد ان ينقل القصائد التي وضعها شكري غانم شعرا ، وليس اقدر على فهم الشاعر ،وترجمة افكاره من الشاعر، وقد اخترت منها هذا المقطع الذي يشيد فيه عنترة ببطولته :

يدخل عنترة فيلتفت الى اصدقائه ويقول :
« حيا الله العرب وحياكم ، لقد وقفت فؤادي لعبلة ، وذراعي للوطن » :

سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي
وما فعلا في يوم حرب الأعاجم
سقيتهما والخيل تعثر بالقنا
دماء العدا ممزوجة بالعلاقم
على مهرة منسوبة عربية
تطير اذا اشتد الوغى بالقوائم
وتصهل خوفا ، والرماح قواصد
اليها وتنسل انسلال الأراقم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهناك ترجمة نثرية جيدة ودقيقة قام بها الاستاذ الياس سعد غالي ، وطبعتها وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية عام 1963 ، وكلف الدكتور صالح الأشتر بمراجعتها ، ووضع مقدمة لها ، بين فيها علاقة المسرحية بالسيرة الشعبية المعروفة ، وموقف مؤلفها من القضايا القومية ، واكد حرص شكري غانم فيها على ابراز الخط القومي العربي ، وتوجيه أحداثها نحو فكرة توحيد القبائل العربية في دولة واحدة ، وتحت زعامة سيد واحد . ولا يستغرب الدكتور الاشتر بروز هذا العنصر القومي عند شكري غانم ، وهو الذي كان من ابرز أعضاء المؤتمر العربي الاول ، الذي انبعثت منه الخيوط الاولى لصمود العرب القومي ، وكفاحهم ، وثورتهم على مظالم الحكم العثماني ، واكد في مقدمته أن الشاعر شكري غانم لم يختر قصة عنترة العبسي موضوعا لمسرحيته ، الا لانها تتيح له ان يبث في تضاعيفها دعوته الصريحة الى الوحدة العربية وقد أشار الشاعر خليل مطران الى هذه الحقيقة في القصيدة التي حيا بها شكري غانم مسرحيته عندما قال :

وانما سؤله اعزاز موطنه
وقومه باتحاد الراي والهمم

كذلك أكد من جهة أخرى ، أن هذا الخط القومي البارز في مسرحية عنترة ، كان في مقدمة الاسباب التي دفعت الاستاذ الياس سعد غالي الى ترجمة المسرحية ، فكأنه يريد بتعريبها وتقديمها الى القراء ، أن يضع بين أيديهم أثرا ممتعا لواحد من الادباء العرب الرواد الذين قادوا امتهم نحو بعثها القومي الحديث .

ويضيف الدكتور الاشتر ان الاستاذ غالي ، وان كان قد تمرس بالترجمة زمنا ليس باليسير ، فان لغته العربية ما تزال بحاجة الى مزيد من الصقل والتهذيب ـ على حد زعمه ـ ثم يعتذر له بان ترجمة الشعر ليست بالامر الهين . ولما لم يرق للمترجم هذا الكلام الذي يحمل في طياته كثيرا من التجني واغماط الحق ، فقد رد عليه بمقالة نشرتها مجلة « الآداب » اللبنانية في عدد تموز سنة 1964 جاء فيها « ان الدكتور الاشتر قد أفسد من حيث أراد ان يصلح ، اذ وقع في أخطاء أساءت الى المسرحية والى مؤلفها كل الاساءة ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التصحيحات التي أجراها ... كاغفاله كلمة « المتحدة » في عبارة « أجل ان تكون البلاد العربية متحدة يحكمها سيد واحد »التي هي بيت القصيد في المسرحية)».

ومهما يكن من أمر ترجمتي الياس أبي شبكة ، والياس سعد غالي ، فان مسرحية عنترة لم تعرض على أي مسرح من مسارح الاقطار العربية ، وخاصة بعد نهضة المسرح الاخيرة ، كما عرضت من قبل على مسرح الاوديون في باريس ، او السالیشان في ليون مثلا ، مع انها مسرحية تاريخية بطولية ، تدعو الى الوحدة العربية صراحة ، كما تدعو الى دفن الاحقاد ، ونبذ الخصومات ، وتثير اشعارها الحماسية الرائعة عاطفة الشجاعة والحمية في نفس كل عربي . ولا يخامرني ادنى شك انها لو وقعت في أيدي بعض مخرجينا ، وأكثرهم لم يقراها ، ولم يسمع بها ، لبادر الى اخراجها ، وعمل على تمثيلها فورا ، ولاسيما في هذه الظروف الراهنة التي تعاني فيها امتنا العربية كثيرا من الفرقة والتمزق واختلاف الراي ، وهي لا تقاس أبدا بتلك المسرحيات السوقية الرخيصة التي تعرض على مسارحنا التجارية ، لترضي غرائز المشاهدين ، وتعبر عن نزواتهم التافهة . صحيح أنها تسليهم خلال فترة العرض ، لكنها سرعان ما تنطفيء بعد تخطيهم عتبة المسرح ، كما ينطفيء وميض البرق ، لانها لم تحمل في طياتها قيما انسانية رفيعة ، ولم تتضمن معالجة قضية من القضايا المصيرية الهامة .... ونشكو بعد هذا ان المسرح العربي يعاني ازمة في النص !

عاصفة شكسبير تثير عاصفة في ايطاليا

تجربة المخرج جورجو ستريلر

« العاصفة » هي العمل المسرحي الجديد الذي قدمه المخرج الايطالي جورجو ستريلر مؤخرا على مسرح « تياترو ليريكو » في ميلانو . ويمكن القول باختصار ان المخرج عرض على المشاهدين تشكيلة مثيرة من الاساليب المسرحية ،فيما وصلت مخيلة المخرج ذروتها ،وذلك بمساعدة المصمم المسرحي الفنان لوتشانو داميانــي والموسيقار فيورينتسو كاربي حيث نجح هؤلاء الثلاثة فــي خلق لوحات ساحرة ، بل سحرية . لقد شارك في انجاز هذا العمل المسرحي ثمانون شخصا (بما في ذلك 18 ممثلا ايمانيا و 8 موسيقيين ومغنيين اثنين) . واستغرقت التدريبات من 10 – 14 ساعة يوميا طيلة اربعة أشهر كاملة . والنتيجة : اكثر من ثلاث ساعات عرض لواحدة من أقصر المسرحيات التي كتبها وليم شكسبير .

تحتل الجزيرة التي نفي اليها دوق ميلان الشرعي المخلوع بروسبيرو مكانا يبلغ ارتفاعه مترين في وسط المسرح تماما . ان الجزيرة بكهوفها والبحر الذي يحيطها « تتعرض طيلة الوقت للاهتزاز فيحافظ المثلون على توازنهم بصعوبة كبيرة »كما كتب الناقد ايطالو موسكاتي. اما شبح الريح (آرييل) فقد تم تثبيته بحبل فولاذي لايراه المشاهدون ليحلق فوق المسرح بخماره الابيض الرقيق الشفاف وسط اشعة أنوار رصاصية وزرقاء وبنفسجية دون أن تمس اقدامه ارضية المسرح . استطاعت جوليا لاتساريني التي لعبت دور آرييل برشاقتها وسخريتها أن تخلق لوحة پلاستيكية رائعة لعلها احدى اكثر اللحظات المؤثرة في المسرحية حسبما يتفق في ذلك اغلبية المشاهدين والنقاد على حد سواء .

وتكتب مجلة (اسپريسو) الاسبوعية أن ظهور السحب العائمة فوق الجزيرة والدمى المصنوعة من ورق لتكون احيانا بديلا عن الممثلين انفسهم وغير ذلك من الألاعيب كان يصاحبه في كل مرة تصفيق صاخب من قبل المشاهدين « السعداء كأطفال » على حد تعبير المجلة . وانها مسرحية تعتبر حكاية رائعة للاطفال كما يرى ايطالو موسكاتي . اجل ، انها حكاية ولكن هل هي حكاية للاطفال فعلا ؟ يكتب الناقد كارلو ماريا پينا في مجلة « سيباريو » بانه لايوجد « أي شيء ساذج وطيب في هذه الحكاية الساذجة » . ويتركز اهتمام العديد من النقاد على الجانب الفلسفي والاجتماعي للمسرحية وعلى قراءتها المعاصرة في الترجمة الجديدة الى الايطالية كما انجزها اوغستينو لومباردو .

لقد سبق للمخرج جورجو ستريلر الالتقاء بشكسبير 12 مرة ، كما انه اخرج « العاصفة » بالذات قبل 13 سنة عندما كان في بداية مسيرته المسرحية . لقد اعتبرت هذه المسرحية صعبة الاخراج دائما . وحين بدأ ستريلر العمل على اخراج « العاصفة » قال « من الضروري تحدي المستحيل » . وقبل البدء بالتدريبات انكب ستريلر على دراسة المسرحية طيلة سنة كاملة . وذكرت جريدة « بايزي سيرا » بان احد العاملين في مسرح تياترو پيكولو هو جيجي لوناري أعد مئات الصفحات من التحليلات والدراسات الفلسفية والتاريخية والفيلولوجية للمسرحية بناء على طلب المخرج .

وقالت جريدة « بايزي سيرا » في كلمة تحت عبارة « من التحرير » نشرت بعد مقالة الناقد إليو باليارانى بان ستريلر لم يظهر على المسرح لتحية الجمهور بعد العرض الافتتاحي الا مرة واحدة اختفى بعدها من المسرح ذلك لانه لم يكن راضيا عن العمل . ان هذا يدل طبعا على متطلبات المخرج العالية تجاه نفسه . ولكن يبدو فعلا ان الامور لم تكن مطابقة تماما لما خطط له ستريلر. في العروض الاولى كان يسمع احيانا صوت صفير الاستهجان وسط التصفيق العاصف ، فليس الجميع فهموا المسرحية . وبالاضافة الى اعجاب النقاد ، فقد نشرت الصحافة تعليقات لنقاد لم يتوانو عن شتم المخرج ، ومن بين هؤلاء الناقد والشاعر المعروف ادواردو سانغفينيتي .

أي شيء هي « عاصفة » ستريلر ؟

ان پروسپيرو الذي يدير الجزيرة بواسطة السحر والعلم يخضع الارواح لارادته وغالبا ماينزل من على خشبة المسرح الى قاعة المتفرجين ليراقب منها التأثير الذي تركه . انه ليس مجرد البطل الرئيسي للاحداث ، بل هو مخرج تلك احداث جميعها . وهكذا تظهر في مسرحية ستريلر فكرة المسرح داخل المسرح . لقد ترسخ في الدراسات الشكسبيرية رأي مفاده ان « العاصفة » هي الوصية الشعرية للكاتب المسرحي العظيم . حتى أن احد نقاد « عاصفة » ستريلر يفترض بان پروسپيرو بمحاولاته اعادة خلق العالم على اساس بدايات خيرة وعاقلة انما هو شكسبير نفسه . ويرى الناقد كارلو ماريا پينسا بان الممثل تينو كارورو الذي لعب دور لير في مسرحية « الملك لير » من اخراج ستريلر قبل خمس سنوات بنجاح ساحق .. كان نصيرا أكيدا لستريلر في دوره الجديد (پروسپيرو) في « العاصفة » ، بل

انه كان يعكس صورة المخرج نفسه .

ان صخب الالوان والمشاهد في مسرحية ستريلر انما هو صخب مملوء بالمحتوى . فلقد كان ذلك الصخب بمثابة ملحمة تؤكد امكانات المسرح الهائلة . ففي هذا العرض ذو الطابع « الاوپرالي الفخم » انعكست اساليب متعددة : الملحمية البريختية (معروف ان ستريلر يعتبر من ابرز مؤولي بريخت) والكوميدية الماكرة التي تذكرنا من جديد بعمل كوميدي سابق هو « خادم سيدين » لشكسبير أيضا ويعتبر من أفضل أعمال ستريلر المسرحية . وعلى سبيل المثال ، فان المهرج ترينكولو (ارماندو مارا) وحامل الاقفال ستيفانو (ميمو كريج) بمميزاتهما الفريدة كحديثهما بلهجتي سكان نابولي والبندقية ظهرا امام الجمهور هذه المرة في دوري پولتشينيلا بريغيلا .

استحوذت «العاصفة» (التي أصبحت الى جانب « البرج » لغومانستال اهم حدثين مسرحيين للموسم المنصرم في ايطاليا) على المتفرج بسحرها المسرحي بالذات . وقد وصف الناقد كارلو ماريا پينسا الجزيرة التي ظهرت على المسرح بانها « صندوق سحري للمعجزات المسرحية » .

غير أن الساحر الذي يحرك احداث الحكاية . . پروسپيرو نفسه يقوم في لحظة سعيدة من لحظات هذه القصة المدهشة بكسر عصاه السحرية فيتهشم الصندوق السحري أمام أنظار المتفرجين (تجري عملية تفكيك المعدات التكنيكية) : ان پروسپيرو – المخرج يرفض سحر المسرح . « لقد سعينا دائما لخلق مسرح بامكانه تغيير العالم » .. هذا ما صرح به ستريلر عشية العرض الاول للمسرحية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سينما

لورنس اوليفييه يركب الدراجة في آخر فلم له:

تضم كوميديا شكسبير « العاصفة » العديد من الالغاز ، ومنها الخاتمة . فبعد الانتصار الذي يستحقه پروسپيرو الذي استطاع بقوة عقله و موهبته ان ينتصر للمثل العليا وينتقم من اعدائه ثم يعود فيصفح عنهم بكل تسامح .. بعد ذلك كله يبدأ الحوار الداخلي الختامي اليائس للبطل الذي لايعرف ماذا ينتظره والذي يفقد مرة واحدة كل قدراته السحرية . ان المختصين في الادب الشكسبيري يرون في « العاصفة » ـ هي من الاعمال المتاخرة للكاتب العظيم ـ انعكاسا للآمال المنهارة لعصر النهضة .

« أية معجزة للطبيعة هو الانسان ! » .. هذا مايقوله هاملت ردا على الانحطاط والمكر . « يالطيبة الناس ! » .. هذا ماتقوله بطلة « العاصفة » ميراندا (تؤدي الدور الممثلة ذات الثلاثة عشر ربيعا فابيانا اودينتشيوم) . ولكن بالنسبة لها فان الكائنات « الاكثر روعة و ألوهية » هم بالضبط المنحطون والماكرون فيما لا تستطيع هي ملاحظة ذلك ، فان كلماتها صادقة تماما وربما لهذا السبب بالذات يكون الامر اكثر مرارة : ان مسرحية ستريلر يطغي عليها طابع الحزن منذ بدايتها حتى نهايتها ومن خلال كل شلال الألاعيب المسرحية البديعة والمثيرة للدهشة .

ان پروسپيرو ، وهو مخرج مسرح الحياة ، يرفض في مسرحية ستريلر محاولات تجسيد عالم مثالي كنقيض لعالم الشر والعنف وذلك على المسرح ـ الجزيرة الموضوع تحت تصرفه ، كما يرى كارلو ماريا پينسا في مقالته المنشورة في مجلتي « سيپاريو » و « ايبوكا » .

ولكن ما ان ينتهي المشهد الختامي المأساوي الاول حتى يبدأ المشهد الختامي الثاني المنعش للامال : تبدأ من جديد عملية تركيب المعدات على المسرح . « ربما كان ذلك يعني مقدمة لعمل مسرحي قادم ؟ » .. يطرح هذا السؤال فرانكو كواري وهو من اكبر دارسي المسرح الايطالي المعاصر .

بعد مضي بضعة أيام على العرض الافتتاحي اعلن ستريلر في مؤتمر صحفي عقد بمناسبة سفر فرقته المسرحية الى اليابان لتقديم « العاصفة » هناك قائلا : « ان هذه المسرحية هي ، في الغالب ، اصعب واهم أعمالي » .

اجل ، ان المسرح ليس كلي القدرة ، فان امكاناته محدودة . ومع ذلك .. ليحيا المسرح ! ان هذا هو بالذات شعور المتفرج وهو يغادر مسرحية « العاصفة » لجورجو ستريلر .

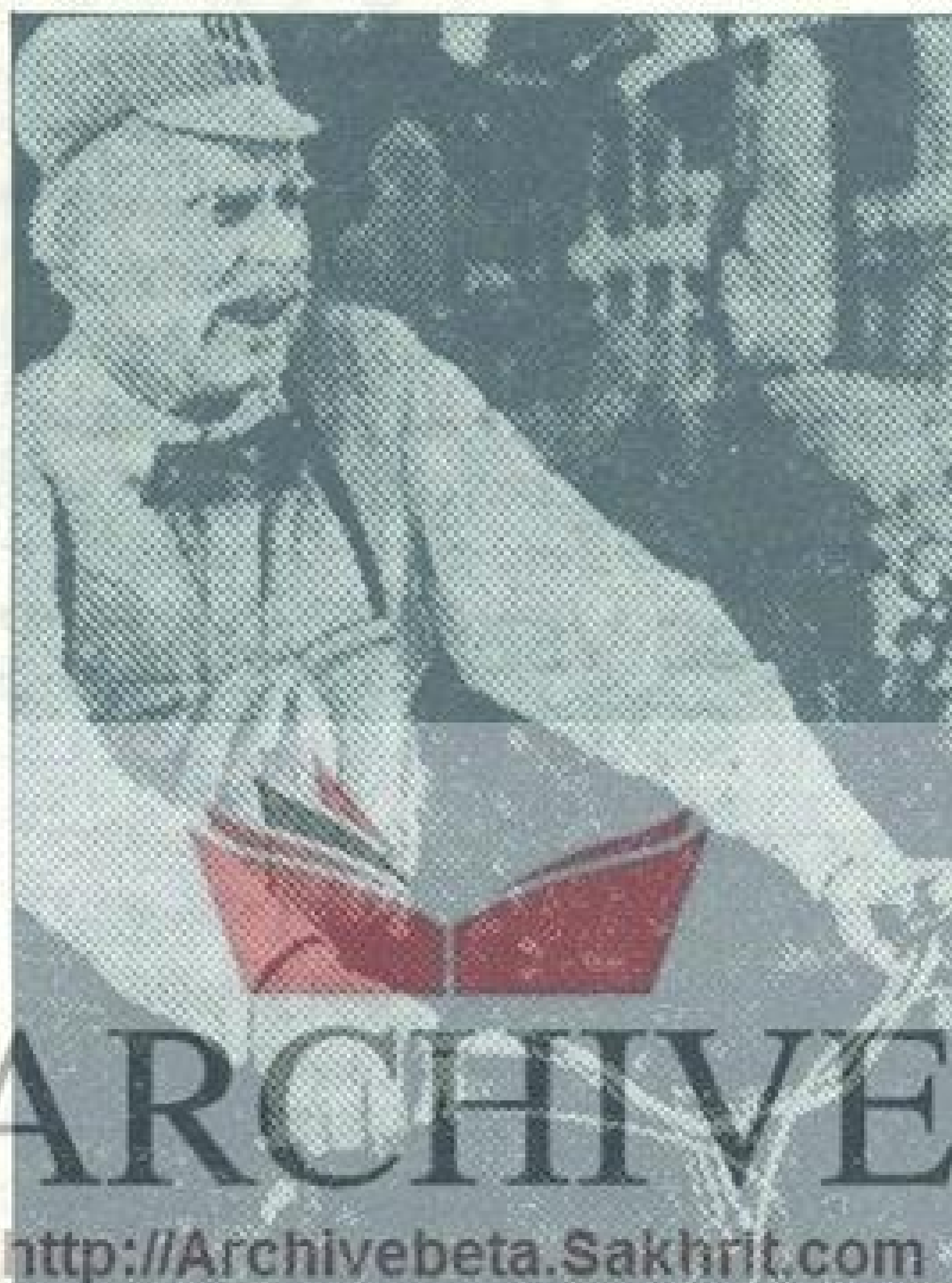

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هملت وعطيل ، ريتشارد الثالث وشايلوك ، الملك لير .. السرطان وتخثر الدم . اخطر امراض العضلات . ان لورنس اوليفييه الذي استطاع الانتصار على هذه الامراض برشاقة انكليزية ـ مضطر الان على توديع الادوار التي طالما تألق فيها سنوات عديدة .

فالسن (في 22 ايار احتفل بعيد ميلاده الثاني والسبعين) ومضاعفات الشيخوخة التي اوصلته الى حافة الموت عدة مرات حتى الان ادت الى تضييق دائرة نشاط الممثل الاشهر واقتصاره على تادية ادوار كبار السن . الا ان ذلك لم يمنع لورنس اوليفييه حتى الان من اظهار قدراته الابداعية وابتكار الجديد باستمرار وايجاد عشرات الجوانب الخلاقة في ادوار الشيوخ والضعفاء سواء كانت جوانب جذابة أم منفرة . في عام 1976 جسد اوليفييه الشر بعينه في شخصية الطبيب النازي من فلم « الماراثوني » وفي العام الماضي وفي فلم « اولاد في البرازيل » ادى بتالق دور مطارد للمجومين . وها هو يدهشنا اليوم من جديد في فلم « قصة حب صغيرة » حيث يؤدي دور شيخ فرنسي . واعترافا بعمله الخلاق على الشاشة (مثل في السينما لاول مرة في عام 1929) فقد منح في نيسان الماضي جائزة خاصة من الاكاديمية السينمائية الامريكية .

انه « الاوسكار » الثالث لاوليفييه . انه يملك جوائز معدنية بكمية تكفي لصب تجهيزات فارس من القرون الوسطى (بالمناسبة في عام 1947 منح اوليفييه لقب فارس وفي عام 1960 لقب پير انكلترة) ولكن من المتعذر تصور جائزة تناسب مواهب هذا الممثل الكبير اللهم الا تلك الجائزة التي سلمت في غرفة الماكياج بعد ان ادى دوره في « ريتشارد الثالث » سنة 1944 . وجد أوليفييه في الغمد الذي تركه له ممثل كبير اخر هو جون غيلفود واحدا من اشهر السيوف في انكلترة : في البداية كان يحمله الممثل العظيم ادموند كين في دور ريتشارد الثالث . وكما يفعل الملوك فقد منح كين سيفه لممثل اخر هو هنري ارفنغ اعترافا بموهبته ، ثم منحه ارفنغ متبعا نفس التقليد للممثل جون غيلفود الذي ظل يحمله 15 عاما قبل ان يتنازل عنه الى اوليفييه اعترافا بتفوقه. والان، بعد 35 عاما لمن سيعطي اوليفييه سيفه ؟ يجيب اوليفييه : « لن أعطيه لاحد ، فهو ما زال ملكي » .

كان والد اوليفييه رجل دين اشتهر باداته الدراماتيكي للوصايا الدينية . لم يكن عمر لورنس يزيد على العشر سنوات عندما مثل دور بروتوس في مسرحية للهواة ، وفي الرابعة عشرة من عمره مثل دور فتاة هي كاترين المتمردة . استطاع اوليفييه ان يحقق كل ما يحلم به ممثل ، وقد استمر ملكا لانكلترة اكثر من أي شخص اخر تربع على العرش الانكليزي . ان من حقه اليوم الركون الى الهدوء ، ولكنه يرفض ان يتحول الى تمثال حي فيستمر في البقاء ممثلا .

في مقابلة صحفية اخيرة ادلى خلالها بحديث للناقدة كاتريس بيل پيبر وأعلن بفنج بانه سيكون حديثه الاخير ، تحدث اوليفييه عن حياته بصورة مفصلة . وحسب اعترافه فانه لم يصبح اسطورة مسرحية الا عند ما كان في السابعة والثلاثين من

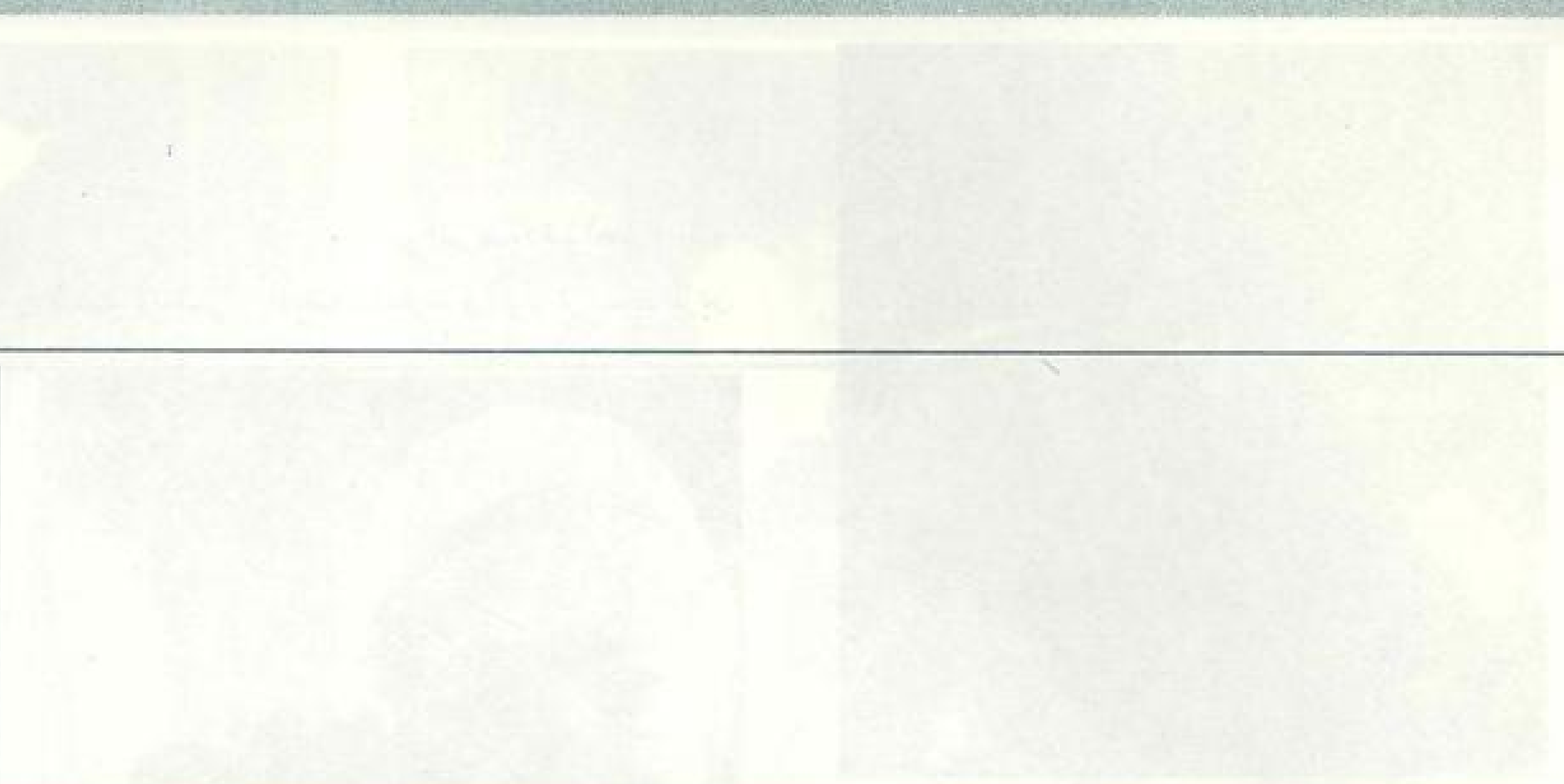

عمره وبعد ان مثل دور ريتشارد الثالث ملك انكلترة الاعرج الاجرامي . يقول لورنس اوليفييه بهذا الصدد : « للمرة الاولى بعد 19 عاما على المسرح اقتنعت بان الجمهور يظهر تجاهي اعجابا جماعيا . كنت اسمع الهمسات في الصالة : « انظروا .. انه هو ! » ، وكانت تلك همسات استنشقتها كما لو كانت نسمات بحرية في برايتون ، وفجاة شعرت باضطراب وفخر هائلين كدت أنسى معهما بطلي الاعرج » .

ان من راي لورنس اوليفييه على المسرح لا يستطيع نسيان قوة الاداء الهائلة التي يمتلكها والتي لا تعكس السينما الا جزء ضئيلا منها . كان أوليفييه على المسرح يفرض سلطته على الجمهور فورا مثيرا الدهشة بما هو غير منتظر تارة يغير نبرة صوته بحدة وتارة اخرى يتوقف فجاة او يتحول الى الصراخ في لحظات تبدو غير مناسبة على الاطلاق .

« ذات مرة قاسمتني ايفونا برينتان الرائعة بنصيحة سمعتها من مغني الاوبرا والممثل الروسي شالبابين : « خذي نفسا دائما في لحظة لا يتوقعها الجمهور ، ولكن ليس في نهاية الجملة او النوطة ابدا ، بل الافضل في الوسط او حتى عندما تكونين وراء الكواليس » . ان احدا لم يقدم لي ابدا أفضل من هذه النصيحة » .

للاسف ، انه اليوم لا يمثل في المسرح . « ليست لدي الان القوى والطاقات الجسدية الضرورية لتصبح ممثلا جيدا على المسرح : قويا ومعبرا . ان الادوار الكبيرة لا تعرف الشبع . فانت تعطيها كل ما تملك لكنها تطالبك : « أريد المزيد ! المزيد والمزيد ! » وذلك ما دام قلبك لم يتوقف بعد ودماغك وجسدك يستنفدان. ولحسن الحظ توجد السينما ، وأنا أمثل فيها كثيرا » .

الا ان النقاد يضربون اخماسا باسداس . لماذا يمثل اوليفييه في أفلام كثيرا ما تكون فاشلة. « ساكشف عن السبب . لانني ملزم بتربية ثلاثة اطفال ورعاية اسرتي وضمان مستقبلها . فماذا علي ان افعل ؟ هل أطلب من النقاد مساعدتي بالنقود ؟ اعتقد انهم لن يشعروا بالسرور حين أطلب منهم ذلك » .

ان حبه للحياة أمر مدهش . فقد ساعده ذلك على تحمل مجموعة كاملة من الامراض القاتلة . « كان السرطان اسهلها . فقد قلت له : لتذهب عني ، فلن اعطيك جلدي ! بعد ذلك كان تخثر الدم فاصبحت ساقي اليمنى إخف وزنا بعشرة كيلو غرامات . وفي هذا الوقت جاء التهاب العضلات . وهو مرض ياكل العضلات فتصبح ضعيفا بحيث لا تستطيع الوقوف على قدميك . انه شيء فظيع ! شيء ما يقبع في داخلك وينهش لحمك يوميا . وكان الطبيب ياتي ليستمع الى تنفسي ، فكنت اقول لنفسي : ترى أيظن هذا الابله انني مصاب بالسل ؟ » . ولم اعرف الا فيما بعد بانه كان يلتقط انفاسي الاخيرة .. » .

عندما يتكلم عن الموت يتذكر الممثل ستانلي بيكو الذي صارع السرطان وحيدا وبلا شهود وهو مقتنع بان ذلك « اكثر نبلا من التمدد في الفراش وسط افراد العائلة الباكين والذين يخرجون مناديلهم عندما يقيس الطبيب نبضك ».

« وعلى العموم ، فانني لست كبيرا الى هذا الحد . فانني ما زلت شابا نسبيا بالنسبة لسنواتي الاثنين والسبعين . في العام الماضي صبغت شعري وشواربي بالاسود لمتطلبات الدور، فلم يعطني احد اكثر من 45 سنة » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد تصوير هذا الفلم اجريت له عملية في الشرايين ، وكان في دور النقاهة عندما أصيب بالتهاب رئوي وهو اخطر ما يمكن ان يصاب به شخص في هذه السن . بعدها مباشرة عاد الى التصوير : « لم اكن قد شفيت تماما ، وكنت اقف على ساقين من الخبط ، ومع ذلك ركبت الدراجة الهوائية » .

حسب سيناريو فلم « قصة حب صغيرة » يجب على بطل الفلم ان يركب دراجة هوائية ويهبط بها من على مرتفع . ولم يكن المخرج جورج روي هيل ان يجازف بسنتين من العمل وبعدة ملايين من الدولارات كان قد انفقها حتى ذلك الوقت على الفلم ، فطلب من احدى الشركات تزويده بدراجة خاصة يثبت فيها محرك صغير مخفي وعجلة ثالثة مخفية ايضا . لكن لورنس اوليفييه احتج على ذلك بشدة . كان يغادر البندقية ، حيث كان يصور الفلم ، سرا وفي طريق خال يامر السائق بالتوقف ثم يخرج دراجة هوائية عادية من صندوق السيارة ويركبها ويهبط من مكان مرتفع امام انظار سائق السيارة المرتبك وكان لورنس يقول للسائق الذي كان اسمه اوريست : « لا تخف ايها الاغريقي النبيل ! » ثم يبدا بتحريك دواسات الدراجة بنشاط ، واثناء سير الدراجة الى اسفل المرتفع بسرعة كان يصرخ بصوت عال مرددا عبارة هنري الخامس المشهورة: « الله مع هاري وانكلترة والقديس جورج ! »

وبالطريقة ذاتها قاد لورنس اوليفييه دراجته اثناء تصوير الفلم أيضا ..

السينما العربية البديله

بقلم : وليد شميط

ما هو المقصود بالسينما البديلة ؟

اذا كان يجوز لنا اعادة طرح هذا السؤال اليوم، وبعد مرور سبع سنوات على ظهور شعار « السينما البديلة » للمرة الاولى في مهرجان دمشق لسينما الشباب العرب (1972) ، فلان هذا الشعار بقي مجرد شعار ولم يتحول الى حركة فعلية ترتكز على ارضية فكرية وجمالية مميزة ، كما هو الامر مثلا بالنسبة لشعار « السينما الثالثة » الذي طرحه الارجنتينيان سولاناس وجتينو ، رغم العدد الخاص الذي كرسته مجلة « الطريق » اللبنانية ، للسينما البديلة (عدد 8/7 – 1972) وضمنته مجموعة مقالات لنقاد وسينمائيين عرب حاولوا تناول اشكالية السينما البديلة من زوايا عدة .

صحيح ان ثمة بيانات صدرت في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وغيرها من العواصم العربية ، الا ان هذه البيانات التي اتفقت على نقد ورفض السينما التقليدية وعلى الدعوة الى قيام بديل عنها ، اختلفت حول جوهر وطبيعة هذا البديل وحول طرق ووسائل انتاجه ، بينما اعتبرت جماعة السينما الجديدة في مصر نفسها امتدادا للاتجاه المتقدم في السينما المصرية الذي تمثله اعمال صلاح ابو سيف ويوسف شاهين وتوفيق صالح ، اصدر عدد من المخرجين العرب الشبان بعد سلسلة اجتماعات عقدوها في بيروت في أعقاب مهرجان دمشق ، بيانا تحدثوا فيه عن انشاء تجمع ماركسي – لينيني يكون رديفا للتجمعات السينمائية النضالية في اوروبا الغربية ويعمل خارج اطار المؤسسات القائمة في القطاعين العام والخاص ، واذا كانت جماعة السينما الجديدة في القاهرة قد تمكنت من المشاركة في انتاج فيلمين روائيين ، فان التجمع الماركسي – اللينيني في بيروت لم يتمكن سوى من اصدار ذلك البيان اليتيم .

والنظرة الى السينما البديلة لم تقتصر على هذين الموقعين ، فالمسافة ليست بسيطة بين سينما تريد ان تكون امتدادا لاتجاه متقدم في السينما التقليدية وبين سينما تريد ان تكون نقيضا تاما لها ، بين سينما تريد ان تلعب دورا سياسيا مباشرا وسينما لا تدعي مثل هذا الدور .

والاسئلة التي طرحت في دمشق لا تزال الى حد كبير مطروحة اليوم ، ما هي السينما البديلة ؟ ماذا نريد منها ؟ هل يمكن صنع سينما

نور الشريف : قدم أفضل ادواره

الشيخ والصبي : الانظمة والمقاومة في فيلم لن نموت مرتين

بديلة في اطار المؤسسات والبنيات التقليدية القائمة ؟ هل توجد سينما بديلة عربية واحدة ذات سمات مميزة او هل هناك سينمات عربية مختلفة تجمعها اهتمامات واحدة ؟ كيف يمكن ايصال الافلام الجديدة الى الجمهور وحملهعلى نبذ الافلام التقليدية المخدرة سواء كانت من صنع اميركا واوروبا او من صنع الاستديوهات العربية ؟ علينا ايجاد جمالية اخرى غير جمالية السينما التجارية « الشعبية » الاميركية ، وجمالية السينما البرجوازية الفنية الاوروبية، كيف وما هي السبل الى ذلك ؟ كيف يمكن حل مشكلة انتاج وتوزيع الافلام ؟

يكفي ان تبقى هذه الاسئلة مطروحة حتى يستنتج المرء ان السينما البديلة لا تزال غير واضحة الرؤية لجهة طبيعتها ومضامينها واشكالها وامكانات تحقيقها وعلاقتها بالجمهور .

فالسينما البديلة مشروع طموح لم يكتمل ولم يتبلور بعد . ولكنه مشروع اكتسب خبرة كبيرة ، وتجربة السنوات الماضية جاءت باجوبة كثيرة . فالافلام العربية التي ظهرت خلال السنوات العشر الاخيرة ، على تباين قيمتها الفكرية والجمالية ، يمكن ان تعطي صورة عامة عن ملامح هذه السينما البديلة التي وان كانت لم تتبلور نهائيا بعد ولا تزال تفتقر الى ارضية حقيقية والى حركة فعلية تجمع السينمائيين وتصهر تجاربهم وتتغلب على تبعثرهم ، الا انها تعرف ماذا تريد . فالسينما البديلة تريد ان تكون ملتصقة بهموم وقضايا الانسان والمجتمع، وبحركة التاريخ والواقع ، وبقضية التحرر الوطني والقومي ، وبالنضال من اجل القضية الفلسطينية . تريد ان تقف من الواقع موقفا نقديا وتكشف تناقضاته وتساهم في عملية تغييره، اذ ان ما يميزها عن السينما التقليدية هي منطلقاتها الفكرية وانحيازها الى جانب طبقات الشعب الفقيرة والقوى المناضلة في سبيل التحرر الوطني والقومي . وهي تبحث عن جمالية سينمائية مميزة تتفاعل مع التراث المتقدم في السينما العالمية ، وتنهل من الثقافة العربية ما يكسبها اصالتها ويميزها كسينما تنتمي الى واقع معقد ومتعدد الوجوه والى ثقافة غنية في آدابها وفي فنونها الشعبية ، وان كانت تفتقر الى ثقافة الصورة التي لم تأخذ مكانها في الحضارة الاسلامية العربية .

انها سينما تبحث عن هويتها ، عن مميزاتها ، عن مفرداتها وعن شخصيتها ، واذا كانت عملية البحث هذه متعددة الوسائل والمنطلقات والمفاهيم ، ففي ذلك دليل عافية لسينما شديدة التنوع في وحدتها . وبحث السينما البديلة عن هويتها لا يعني على الاطلاق انفصالها عن التراث السينمائي العالمي وعن الحركات السينمائية المتقدمة اليوم ، وانما يعني ان السينما البديلة تريد ان تعبر عن واقع معين انطلاقا من مخزون هذا الواقع الفني والثقافي والادبي والفكري الذي وحده يضفي عليها شرعيتها ويكسبها هويتها . وتتخذ عملية البحث هذه طابعا حادا هنا قد يبدو لبعض التقدميين الغربيين شكلا من اشكال التعصب القومي ، الا انه يجب فهم هذا البحث على ضوء ما تعرضت له المجتمعات العربية من غزوات استعمارية بعضها كان له الطابع الاستيطاني ، وبالتالي من محاولات الاستعمار المتكررة لالغاء الهوية الثقافية العربية ، وخاصة في اقطار المغرب العربي وفي الجزائر بالذات ، وكذلك بسبب وعي السينمائيين الشبان ، ومعظمهم يعاني من ازدواجية الثقافة واللغة ، الى اهمية ان تكون الثقافة العربية هي المنبع الذي ينهلون منه لمواجهة الاستعمار الثقافي ووضع حد للبريق الذي لا تزال تشكله عواصم المستعمر القديم وما ينتج عنه من تبعية واستلاب . وهذا البحث ، ايضا ، هو ردة فعل على السينما المصرية التقليدية التي مارست خلال سنوات طويلة عملية نقل الانماط الغربية ، وخاصة الاميركية ، بشكل حرفي ، فمن المخرجين المصريين من كان ولا يزال ينقل الافلام الاجنبية مشهدا مشهدا على طاولة المونتاج ثم يعيد تصويرها .

وليس صدفة ظهور شعار « السينما البديلة » في المشرق العربي ، رغم ان جديد السينما العربية الفعلي يخرج اليوم من اقطار المغرب . فالمشرق كان اكثر تأثرا بالسينما المصرية التقليدية من المغرب ، وسينمائيو المشرق كانوا ولا زالوا اكثر احتكاكا بمفاهيم واعتبارات ومقاييس هذه السينما التي هي اقدم واقوى واهم السينمات العربية . فالسينما المصرية هي المرجع ، والبديل المطلوب هو بديل هذه السينما ، على الاقل من حيث الموقف الايديولوجي . واذا كانت السينما المصرية قد عجزت من التأثير الفعلي على معظم المخرجين العرب الشبان ، فهي قد تركت في المقابل اثرا كبيرا على معظم جماهير السينما في كافة الاقطار العربية . والفيلم المصري يكاد يكون الفيلم العربي الوحيد القادر اليوم على الوصول الى هذه الجماهير نظرا الى علاقته القديمة بها وهي التي تعودت على اللهجة المصرية واستساغت انماط واشكال الافلام .

ولقد عرف العرب السينما ، شأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العالم التي اكتشفت السينما منذ اواخر القرن الماضي بفضل مصوري لوميير الذين راحوا يجوبون العالم بكاميراتهم ويعرضون الاشرطة المصورة امام دهشة الناس واعجابهم ، الا ان التعرف على هذا الفن شيء وممارسته شيء آخر . وربما لا نكون في حاجة الى التذكير بأن الاقطار العربية كانت تحت سيطرة الحكم العثماني او الاستعمار الاوروبي تعاني من تخلف علمي واقتصادي لم يكن ليسمح لها باستيعاب وممارسة هذا الفن الجديد المعقد ،ولا كان الاستعمار نفسه على استعداد لجعل السينما كوسيلة تعبير واتصال في متناول ايدي العرب. ورغم هذا فلقد وجدت السينما ارضا خصبة في مصر التي جرى اول عرض سينمائي فيها العام 1896 وبدات في انتاج الافلام الاخبارية منذ اوائل القرن الى ان جرى تحقيق اول فيلم روائي مصري العام 1917 ، فلقد كانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية مهياة في مصر اكثر من غيرها لتقبل السينما وممارستها في حين ان بعض الاقطار العربية كانت ولا تزال تعتبر السينما بدعة منافية للدين . فالحركة الوطنية المصرية في تلك الفترة تميزت باتجاهات اصلاحية وجدت في تقدم الغرب وعلومه وصناعاته نموذجا يحتذى ، كما كانت القاهرة مركزا لحركة مسرحية قوية ونشطة ، فضلا عن ازدهار نسبي للصحافة . وقبل هذا كله فلقد رات البرجوازية المصرية في السينما مجالا هاما للاستثمار ومعبرا عن نهوضها وانفتاحها على تقدم الغرب . ولكن البرجوازية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ من فيلم رضا الباهي الاخير «الشمس والضباع»

«ثم تشرق الشمس» .. (نور الشريف وسهير رمزي) لاحمد ضياء الدين احد الافلام التجارية التي انتجتها مؤسسة السينما المصرية

التي وظفت اموالها في السينما واستفادت من ذلك ، فانها في المقابل جعلت السينما بعيدة كل البعد عن هموم مصر ومشاكلها وحركتها وانتفاضاتها ، اي بعبارة اخرى ابعدتها تماما عن هموم المجتمع وعن السياسة ، فتحولت السينما من وسيلة تعبير واتصال كان بامكانها ان تلعب دورا اساسيا في نهوض مجتمع تعاني اغلبيته الساحقة من الامية ، الى مجرد سلعة تجارية ادت دورا سلبيا خطيرا . وبقي هذا الطابع التجاري يسيطر على السينما المصرية حتى اليوم ، رغم فترة القطاع العام ورغم جهود قلة من السينمائيين وبيانات جماعة السينما الجديدة . فلقد حافظت السينما المصرية التقليدية على الوظيفة الاجتماعية والسياسية التي نشأت عليها وهي تزييف الواقع ، وتمييع الصراع الطبقي ، وتكريس الاخلاقية والايديولوجية السائدة ، والابتعاد كليا عن كل ما له علاقة بحركة المجتمع والتاريخ. لقد اقتصرت هموم هذه السينما ، باستثناء القليل ، على حكايات الحب والغرام والغيرة والزواج والطلاق التي تجري في قصور اغنياء القاهرة ، وسجنت نفسها في قصص الراقصات والمطربين وفي الكباريهات وعلب الليل . ولجأت الى ترويج الحلول التوفيقية والاصلاحية والاخلاقية والمثالية والفردية لمشاكل الناس والمجتمع . ونادرا ما ذهبت الى الريف رغم ان الفلاحين يشكلون الغالبية العظمى من الشعب ، والافلام القليلة التي تحدثت عن الريف ارادت ان تقول مع مطرب « الملوك والامراء » محمد عبدالوهاب « ما احلاها عيشة الفلاح ..! » ، متعامية عن كل فقر الفلاحين ومشاكلهم وبؤسهم وصراعهم مع الاقطاع واوضاعهم الحياتية والاجتماعية المزرية ! بل ان محمد كريم ، وهو احد رواد السينما المصرية ، كان يصر على غسل بقرات الفلاحين قبل تصويرها حتى تبدو نظيفة ومقبولة على الشاشة !

وبالطبع فنحن هنا لا نتحدث عن المحاولات الجادة في السينما المصرية وخاصة عن ثلاثة اسماء وثلاثة اتجاهات بارزة تشكل علامات مضيئة في حركة السينمات العربية في اكملها : يوسف شاهين وسينما المؤلف ، صلاح ابو سيف والسينما الواقعية ، وتوفيق صالح والسينما السياسية ، وهي الاسماء والاتجاهات التي يعتبر شباب جماعة السينما الجديدة انفسهم امتدادا لها .

غير ان السينما المصرية ليست كل السينما العربية . فلقد تضافرت عوامل عدة لقيام سينمات جديدة في الوطن العربي ولنشوء الحاجة الى خلق سينما بديلة تؤدي وظيفة فنية واجتماعية وسياسية مختلفة عن وظيفة السينما التقليدية المصرية . فالسينما ليست انتاجا منفصلا عن الواقع الاجتماعي الذي تنشأ فيه. انها نشاط فني واقتصادي يرتكز على البنية الاقتصادية والاساس الطبقي للمجتمع . ولقد ادت الاحداث والمتغيرات السياسية الكبرى التي عرفتها الاقطار العربية بدءا من الثورات التي قامت في مصر وسورية والعراق ، وحرب التحرير في الجزائر ، وحصول اقطار عربية عدة على استقلالها ، وقيام الثورة الفلسطينية العام 1965 ، وهزيمة العرب في حرب حزيران 1967 ، فضلا عن الاحداث السياسية العالمية التي تركت تأثيرا قويا مثل انتفاضات وثورات اقطار العالم الثالث ، وحركة الرفض التي اشعلها الطلاب في العالم الراسمالي ووصلت الى اوجها في ايار 1968 في فرنسا ، كل هذا ادى الى تعمق الوعي باهمية السينما على مستويين: بالنسبة لعدد كبير من الشباب صارت السينما وسيلة التعبير المفضلة والتي يمكن عبرها المشاركة في النضال السياسي ، ومن جهة ثانية اكتشفت بعض الانظمة العربية اهمية السينما كوسيلة اعلامية يمكن ان تنقل المعرفة وتخاطب الجمهور على اوسع نطاق ممكن ، فانشأ بعضها القطاع السينمائي العام من ضمن سياسة نقل وسائل الانتاج من القطاع الخاص الى القطاع العام ، مثل ما حصل في مصر وسورية والعراق والجزائر وغيرها . وبينما شمل القطاع العام في الجزائر كافة نشاطات السينما من استيراد وتوزيع واستثمار وانتاج ، اقتصر في بقية الاقطار على الاستيراد والانتاج فحسب.

وقامت السينما المرتبطة بالقضية الفلسطينية لتبلور اتجاها بدأ في الجزائر قبل الاستقلال مع افلام تسجيلية حول المجاهدين في جبال الاوراس ، ويستمر اليوم مع افلام حول القضية الفلسطينية والحرب اللبنانية.

ولقد ادى نشوء القطاع العام في عدد من الاقطار العربية الى تحرر السينمائيين من المقاييس والاعتبارات التجارية التي كانت تخضع لها السينما التقليدية ، وان كان فرض عليهم رقابة سياسية مباشرة تحد كثيرا من حرية القول والتعبير

غير ان السينما البديلة ليست من صنع القطاع العام وحده . فهناك سينما مستقلة ، وخاصة في لبنان والمغرب وتونس والكويت ، تحاول رغم كل العراقيل الاقتصادية ان ترى النور . وهناك السينما المهاجرة التي تصنع في شكل خاص في فرنسا حيث يقيم عدد غير قليل من السينمائيين العرب ، وخاصة من اقطار المغرب . وتحاول هذه السينما ان تعبر عن مشاكل وقضايا العمال العرب المهاجرين في فرنسا والذين يبلغ عددهم حوالي مليوني عامل.

وتتفاعل داخل حركة السينما البديلة ، رغم عدم تبلورها بعد ، اتجاهات تتفق في النظرة الى السينما كنشاط فني وفكري وثقافي وسياسي وتختلف في المنهج والاتجاه . فالسينما البديلة عند البعض هي سينما المؤلف وعند آخرين هي السينما النضالية او السياسية او الثورية. وثمة من يتحدث عن البديل الذي يجب ان يكون النقيض التام للسينما التقليدية في الشكل والمضمون وبين الانتاج والتوزيع .

من السينمائيين من يعتبر ان السينما البديلة هي خروج الكاميرة من الاستديو الى الشارع ، والتخلي عن « سياسة النجوم » ، واتاحة الفرصة امام السينمائي للتعبير عن نفسه ، واعتبار السينما وسيلة ثقافية وفكرية وفنية وليس مجرد وسيلة تسلية وسلعة تجارية .

من الواضح ان هذه النظرة الى السينما متأثرة الى حد كبير بالواقعية الجديدة الايطالية وبالموجة الجديدة الفرنسية التي روجت لسياسة المخرج المؤلف . ولقد وجدت هذه النظرة ارضا خصبة عند شباب جماعة السينما الجديدة في مصر الذين كان عليهم ان يواجهوا مفاهيم متخلفة تسيطر على صناعة سينمائية راسخة في بلادهم . ويتحدث البيان الذي اصدرته الجماعة في ايار 1968 عن اهمية تصحيح « النظرة الى السينما في مصر على ضوء المستوى الذي بلغه الفيلم في اوروبا » ، ويأخذ على السينمائيين التقليديين تخلفهم التقني والفكري،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقطة من فيلم سعيد مرزوق «المذنبون»

اليوم الطويل : انتاج التلفزيون العربي السوري

ويشدد على « الاسس العلمية » التي يجب ان تقوم عليها صناعة الفيلم ، وعلى اهمية انيكون « المخرج معاصرا باستمرار » ، وعلى ضرورة ان يجري تصوير الافلام في الاماكن الطبيعيةبدل البلاتومات ، وعلى نبذ « سياسة النجوم » . ويخلص البيان الى القول : « الذي نريـــده : سينما مصرية، اي سينما تتعمقفيحركة المجتمع المصري ، وتحلل علاقاته الجديدة ، وتكشفعن معنى حياة الفرد وسط هذه العلاقات ، بحيث اذا ما دخل واقمنا علاقات اخرى ، اكثر تطورا، تطورت معه السينما وكشفت ، مرة اخرى ،عن الانسان المصري في كل مرحلة تالية ، فهي اذن سينما معاصرة ، ولكي تكون السينما معاصرة فلا بد لها ان تعتصر خبرات السينما الجديدة على مستوى العالم كله ، فتستفيد من تجــارب السينمات القومية لا في اوروبة وحدها بـــل ايضا في البلاد التي حققت طفرة في انتاجهـــا السينمائي ووصلت الى العالمية بقوة تعميقهـــا لبيئتها المحلية » .

يتضح من هذا كله ان مفهوم « ســــينما المؤلف » الذي روجت له الموجـــــة الجديدة الفرنسية ، ترك اثرا كبيرا في شباب جمـــاعة السينما الجديدة الذين وجدوا فيه حـــــلا لسينما تفتقر الى الفكر ويسيطر عليها مفهوم « شباك التذاكر » و « والجمهور عاوز كده » ، وتتحكم في مصيرها اعتبارات ومقاييس المنتجكما رسمتها السينما التجارية عبر السنوات .

غير ان « سينما المؤلف » ، وهي كـــانت ضرورة في مصر ولا تزال ، هي اقل بكثير من طموحات السينمائيين الشباب في بقيـــــة الاقطار العربية التي كانت الممارسة السينمائية فيها متحررة من القيود والمفاهيم التجاريـــة التقليدية . فاذا كانت السينما قد ولدت فيمصر ثم في لبنان على اسس تجارية ، فانها نشـــأت في اقطار عربية اخرى ، وخاصة في الجزائرالتي تشهد ابرز واهم نشاط سينمائي عربي حاليا، على اسس مختلفة تماما . وبالتالي فان اشكالية السينما لم تعد محصورة في ان تكون معاصـــرة وفي التخلص من رواسب السينما التقليديـــة فحسب ، وانما هي في كيفية ربط السينما بالزمان والمكان ، بالحياة والتاريخ ، بهموم الوطن والانسان وفي كيفية التعامل مع الماضي والحاضر من منطلقات تمكن السينما من القيام بنقد الواقع وكشف تناقضاته ، والمساهمة في التغيير الاجتماعي وحركة التحـــرر الوطنى ، والتعبير عن قوى التقدم في المجتمع ، اي ان المطلوب من السينما هنا ان تلعب دورا فكريـــا وسياسيا في الدرجة الاولى . ومن هنا الحديث عن السينما النضالية والسياسية والثورية .

والافلام العربية الجديدة التي تشق هذا الطريق ليست قليلة . فمع افلام مثل « مائـــة وجه ليوم واحد » لكريستيان غازي ، و « كفر قاسم » لبرهان علوية و « بيروت يا بيروت » لمارون بغدادي من لبنان ، و « الحياة اليومية في قرية سورية » لعمر اميرالاي و« اليازرلي» لقيس الزبيدي و « السيد التقدمي » لنبيـــل المالح من سورية ، و « الظامئون » و «الاسوار» لمحمد شكري جميل و « بيوت في ذلك الزقاق» لقاسم حول و « النهر » لفيصل الياسري من العراق ، و « الشرقية او عنف الصمت » لمؤمن السميحي و « شمة » لحميد بناني و « الف بدويد » لسهيل بن بركة و « اليام اليام » لاحمد المعنوني في المغرب ، و « رسائل من سجنان » لعبداللطيف بن عمار » و « الســفراء » لناصر قطاري و « شمس الضباع » لرضا الباهي من تونس ، و « بس يا بحر » و « عرس الزين » لخالد الصديق من الكويت ، ومجموعة كبيرة من الافلام الجزائرية التي تحدثت عن حربالتحرير ثم عن الثورة الزراعية وتحاول اليوم انتتعامل مع الواقع الراهن مثل « عمـــــر قتلاتو » و « مغامرات بطل » لمـــرزاق علواش و « ليلى والآخرون » لـــسيد علي مازيف و « نهلـــة » لفاروق بلوفة ، بالاضافة الى افلامالموريتانيين ميد هوندو وسيدني سوخونا ، وبعض الافلام المصرية مثل « المومياء » لشادي عبــــدالسلام و « اريد حلا » و « الخوف » لسعيد مرزوق و « زوار الفجر » لممدوح شكري ، دونالحديث عن افلام توفيق صالح ويوسف شاهين وابو سيف ، مع كل هذه الافلام وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره ، وعلى تباين مستواهـــا الفني وطروحاتها الايديولوجية ، ترتسم ملامح سينما جديدة ، مختلفة ، بديلة ، تريد ان تكون الى جانب قوى التحرر الوطني والاجتماعي ، وان تلعب دورا في المعركة ضد الصهيونية والرجعية والتخلف . فهي تتحدث عن القضيـــــــة الفلسطينية ، وعن مخلفات المستعمر القــديم وعلاقة التبعية الثقافية والاقتصاديـــــة التي لا تزال قائمة بينه وبين بعض الطبقاتالحاكمة في اقطار عربية ، وعن قضايا العمالوالفلاحين والفقراء والنساء والشباب ، وتريد اعادةكتابة التاريخ ، والمساهمة في البحث عن الهويـــــة الوطنية ، والوقوف الى جانب قضية تحـــرر الانسان من كافة القيود التى تكبله .

والى جانب هـــــذه السينما الروائيـــة البديلة ، وجد عدد غير قليل من السينمائيين العرب في الفيلم التسجيلي الوسيلة الاكثـــــر فعالية في التعامل مع الواقع الراهن بـــــكل تناقضاته ومشاكله . واعتبر البعض ان الفيلم التسجيلي يجب ان يكون البداية الحقيقيــــــة للسينماالعربية البديلة . واذا كان معظم السينما التسجيلية قد تحول الى مجرد اشرطة دعائية واخبارية حول الدولة ونشاطات مؤسساتها ، الا ان السينما التسجيلية التي ارتبطتبالقضية الفلسطينية ثم بالحرب اللبنانية في شكل خاص هي من السينما النضالية التى تعتبر رافـــدا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اساسيا من روافد السينما البديلة .

والى جانب ذلك يمكن الحديث ايضا عن السينما التجريبية في اطار السينما البديلة . ان احد الهموم الرئيسية للسينما البديلة هو البحث عن جمالية جديدة وعن اشكال في السرد تكون نابعة من التراث الادبي العربي، ولكن عملية البحث هذه تختلف تماما عن الاتجاه الغالب في السينما التجريبية الغربية التي تنصرف الى الشكل وتكاد لا تعير المضمون اهتماما .

فالافلام التجريبية العربية ، على قلتها ورغم عدم ارتكازها على منطلقات واضحة وعلى اسس تمكن من الاستمرار تريد أن تضيف جديدا في الشكل وان تكون ملتزمة في المضمون، كما هو الامر مع افلام مثل « مائة وجه ليوم واحد » لكريستيان غازي و « اليازرلي » لقيس الزبيدي و « العرس » لفرقة المسرح الجديد في تونس ، حتى لا نذكر سوى هذه النماذج .

والسينما الثورية ، هل يمكن تحقيق سينما ثورية في مناخ غير ثوري ؟ لقد اكتشف السينمائيون العرب الشبان ان اصدار البيانات « الثورية » واطلاق الشعارات الحماسية الكبيرة لا يفيد بشيء . ادركوا عبر الممارسة ان العمل خطوة خطوة اجدى وانفع وافضل نتيجة . والسينما البديلة ، في اطار الاوضاع السياسية العربية القائمة ، لا يمكن ان تكون الا من انتاج الدولة ، وبالتالي فهي تخضع بالضرورة الى الايديولوجية السائدة من جهة والى الحدود الضيقة المتاحة للتعبير عن النفس خارج حدود هذه الايديولوجية من جهة ثانية . فالليبرالية الغربية التي تتيح للسينمائيين او للقوى السياسية المعارضة خلق مؤسسات انتاج وتوزيع بديلة ، غير موجودة في الاقطار العربية التى لا تطيق انظمتها السياسية النقد ،وخاصة من السينمائيين . وهذا ما يفسر صعوبة العمل بالنسبة لمخرجين يحاولون قدر الامكان تحقيق افلام مستقلة ، والعدد الكبير من الافلام الممنوعة ، وعدم وجود بنى سينمائية بديلة اذا استثنينا حركة نوادي السينما النشطة في اقطار المغرب العربي .

ومشاكل السينما العربية كبيرة بقدر ما هي كبيرة طموحاتها . وليست الرقابة السياسية اهم هذه المشاكل او العراقيل ، رغم ان ممنوعاتها تشمل كل ما له علاقة بنقد مؤسسات النظام السياسي وكشف الواقع على حقيقته والتحدث عن الجنس والدين وغيرها من المواضيع التي تعتبرها الدولة « حساسة وخطيرة » - مما يحمل السينمائيين على اللجوء الى الكتابة والرمز هربا من مقص الرقيب - فهناك الرقابة الاقتصادية التي تحول دون انتاج او توزيع الافلام بسبب مضامينها . والتوزيع مشكلة قائمة في ذاتها . في البداية اعتقد السينمائيون ان حل مشكلة السينما يكمن في حل مشكلة الانتاج . ولكنهم سريعا ما ادركوا ان المشكلة الحقيقية هي في التوزيع ، اذ ان انتاج الافلام دون توزيعها لا يحل شيئا . والمؤسف ان الافلام الامريكية والاوروبية والمصرية التقليدية تحتل نسبة كبيرة جدا من اوقات العرض في قاعات السينما في الاقطار العربية ، في حين بالكاد تجد الافلام البديلة مكانا لها .

ومشكلة العلاقة بالجمهور مطروحة على السينما العربية البديلة من زاوية أخرى ايضا، وهي زاوية كيفية مخاطبة هذا الجمهور باشكال سينمائية جديدة يقبلها ويستسيغها دون ان يحد هذا من التعمق في التجربة وفي البحث عن جمالية سينمائية لا تكون منفصلة عن التراث السينمائى العالمي المتقدم دون ان تكون نقلا عنه ، ولا تكون منفصلة عن التراث الفنى والثقافي العربى دون ان تكون سجينته .

والى جانب هذه المشاكل كلها يواجه السينمائيون العرب الشباب مشكلة تبعثرهم وعدم احتكاكهم الفعلي ببعضهم . فالسينما العربية البديلة تفتقر الى ذلك المناخ الجماعي الذي ساعد الفرنسيين على ايجاد « الموجه الجديدة » والبريطانيين « السينما الحرة » والبرازيليين « السينما نوفو » حتى لا نذكر سوى هذه الحركات الجماعية المجددة في السينما العالمية .

ومع هذا ، ورغم كل المشاكل ، فان الآمال كبيرة بالسينما العربية البديلة . هناك من قال ان جديد السينما في العالم سيخرج من العالم الثالث . ومما لا شك فيه ان السينما العربية البديلة ستلعب دورا فاعلا في هذا الجديد .

(*) ضمن برنامج المركز الثقافي العراقي في باريس للعام 1980 ، ينتظر تنظيم مؤتمر حول السينما العربية البديلة بحضور عدد من السينمائيين العرب .

أضواء وآفاق
عمارة

جانديكار : حلم نهرو الذي حققه لي كوربوزيه

بناء على طلب شخصي من الزعيم الهندي الراحل جواهر لال نهرو باشر المعماري الفرنسي في عام 1950 بتصميم عاصمة جديدة لولاية البنجاب . وكان كوربوزيه في ذروة شهرته آنذاك باعتباره واحدا من ابرز رواد العمارة المعاصرة واتجاهها السائد بين 1920 و 1950 والمعروف بالوظائفية (تحديد الشكل المعماري بوظيفة المبنى) .

كان نهرو يرحب بالافكار الجديدة في العمارة ويفخر لان بلاده ستصبح ميدانا لنشاطات معماريين عالميين كبار من أمثال لي كوربوزيه . كان على مصممي جانديگار التصدي لمهمة انشاء مدينة يقدر لها أن تصبح رمزا للهند الجديدة ومفخرة لشعبها .

كان ميلاد مدينة جانديگار ميلادا دراماتيكيا. لقد جابهت البلاد مشاكل عديدة بعد الاستقلال بسبب السياسة الاستعمارية وتقسيم القارة الهندية . فمن نتائج تلك السياسة ان البنجاب قسمت الى جزأين . الجزء الاول منها بعاصمتها القديمة لاهور ، وهي مركز اقتصادي وثقافي مهم اصبحت ضمن الباكستان . ولذلك تحتم على البنجاب الهندية أن تختار عاصمة جديدة هي جانديگار التي طرحت قضية بنائها مهمات معقدة جدا .

كان ملايين اللاجئين يجوبون أرجاء الهند ، وكانت البلاد تعاني من نقص في العمال المهرة ، ولم يكن هناك سمنت ولا فولاذ ، كما لم تكن الاعمال ممكننة ،وعلى العموم كان هناك نقص هائل في كافة المواد الانشائية . من جانب آخر كانت الظروف المناخية تضع مشكلة هامة اخرى أمام المعماريين والبنائين . فالشتاء هنا يستمر خمسة اشهر تكون الشمس خلالها ساطعة تعطي وفرة من الضياء والحرارة خلال النهار بينما تشتد البرودة خلال الليل وتصبح الحاجة ماسة للمباني المدفاة والملابس السميكة للبنائين . أما الصيف فيكون الحر مما لايطاق ، فيما تكون الامطار الموسمية المتساقطة خلال شهري تموز وآب قادرة على ازالة قرى كاملة من الوجود . تصل درجة الحرارة الى 50 درجة مئوية ونسبة الرطوبة الى 95 ٪ . وتحمل الرياح القوية معها الرمال صيفا وشتاء .

ورغم كل ذلك فقد أمكن بناء المدينة خلال فترة قياسية : ثلاث سنوات فقط . بالاضافة الى الفنيين الاجانب ساهم في عملية البناء معماريون هنود موهوبون يرتبط العديد من المنجزات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

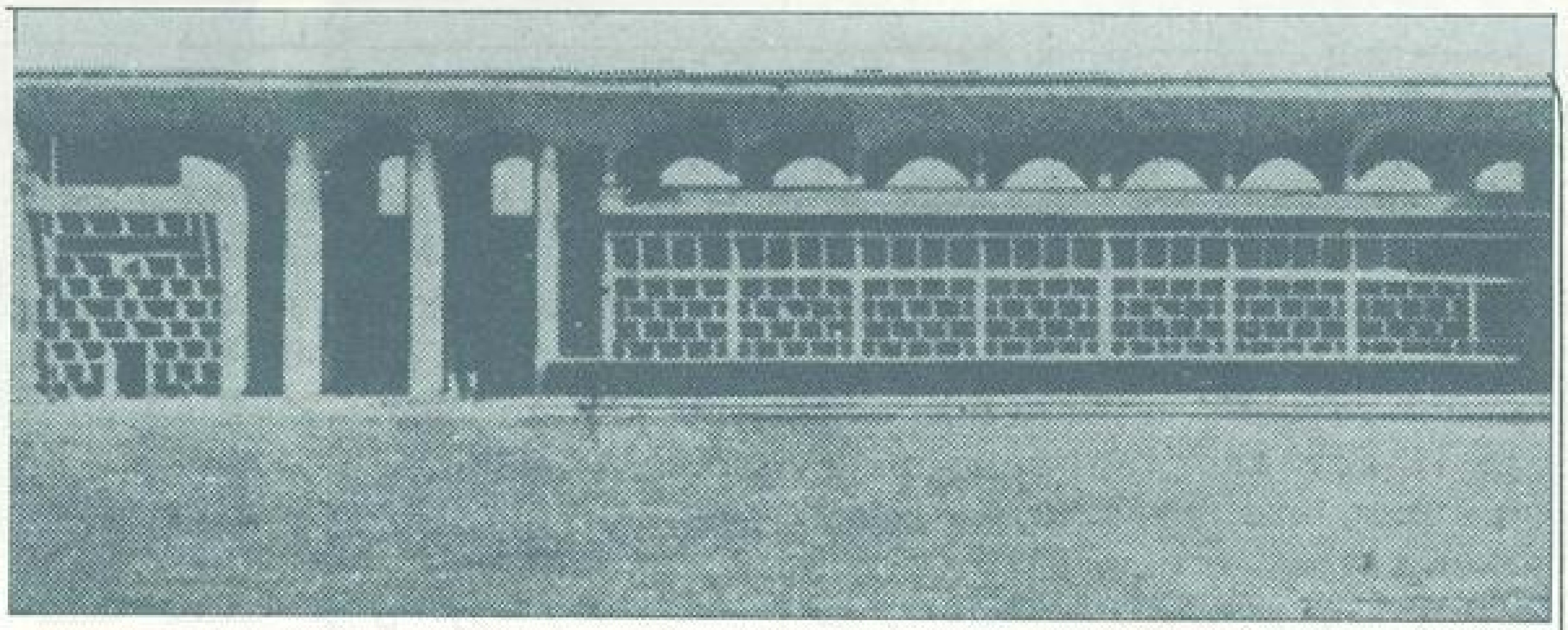

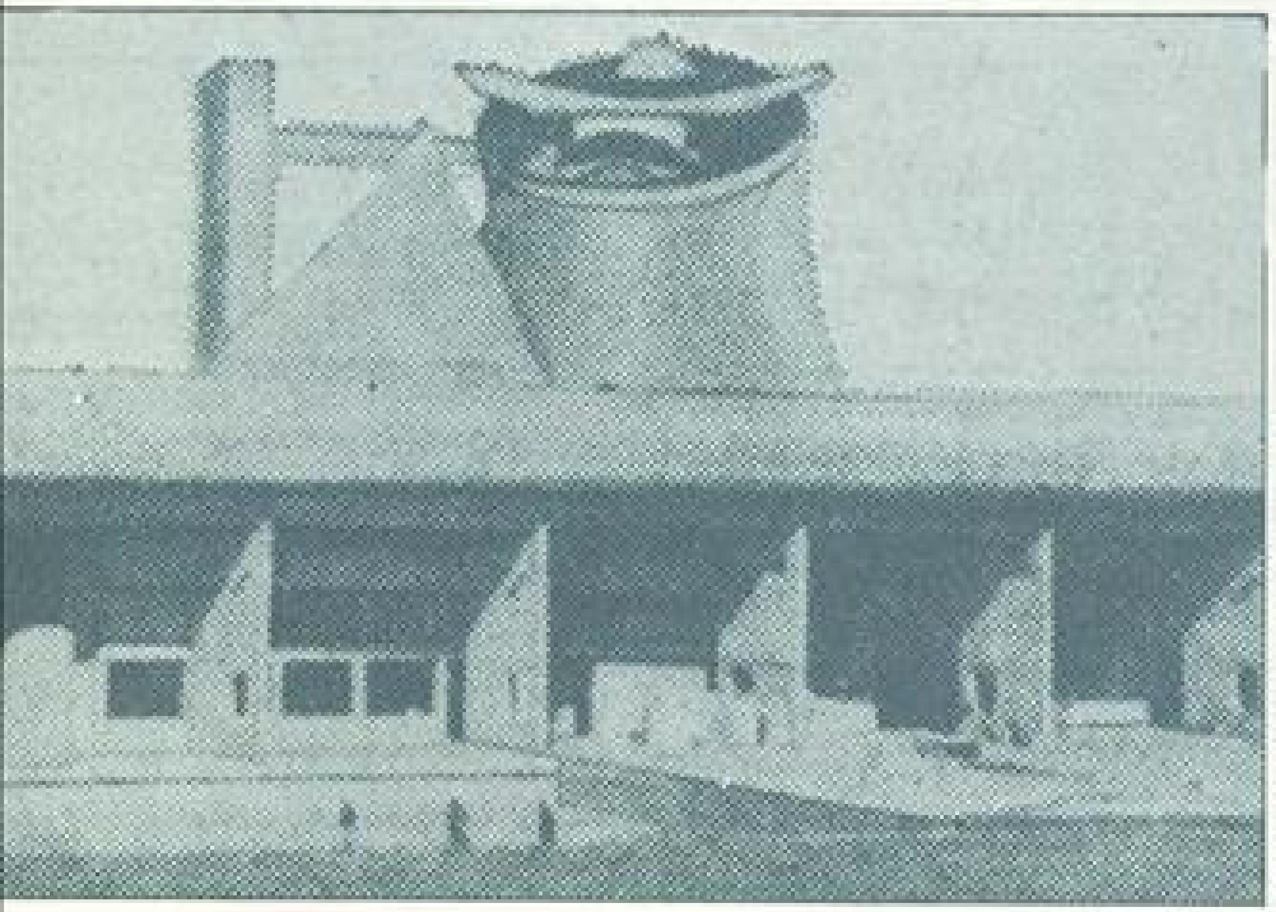

المعمارية في الهند اليوم باسمائهم . لقد انطلق المعماريون اثناء تصميمهم لجانديكار من مبدأ انساني يقوم على الاساس التالي ، توفير بيئة للانسان تضمن له ممارسة اقصى ما يمكن من النشاط .

فاية مدينة هي جانديكار ؟

لما كان التفكير بانشاء جانديكار قد جرى على اساس انها جسم حي نام فقد قسمت الى اقسام وفق وظائفها . اصبح ذلك القسم الذي يضم الكاپيتول بمبانيه الحكومية والذي يعبر عن وظيفة ادارة الولاية .. اصبح خارج المدينة نفسها وذلك لكي يكون بالامكان توسيعه في المستقبل حسب الحاجة . وعزلت المنطقة الانتاجية عن المنطقة السكنية بحزام اخضر . فيما اندمجت منطقة المباني التعليمية والرياضية بالمنتزه و « وادي الراحة » . اما المركز التجاري والعلمي ـ قلب المدينة ـ فانه يقع على مفترق الشوارع الرئيسية . واقيم مركز الخدمات الطبية على مقربة من المنطقة الخضراء . هذا وتخترق الاشرطة الخضراء المدينة في كل قطاعاتها من الشمال الى الجنوب .

تعتبر مشكلة النقل في ايامنا هذه واحدة من اعقد مشاكل بناء المدن . ان اهم مشكلة مطروحة امام معماريي المدن المعاصرة هي انشاء مدن لا يعاني سكانها من الضجيج والغازات الضارة التي تسببها وسائط النقل .

لقد حقق لي كوربوزيه هذا الامر في جانديكار فلا يوجد في المدينة كلها مبنى واحد بمنافذ على الشوارع المخصصة لمرور وسائط النقل السريعة !

لقد وضع لي كوربوزيه نظام الشوارع المتخصصة (للسيارات ، للمارة ، للدراجات ، الخ) في اساس تصميم المدينة . تقسم شوارع الوسائط السريعة المستقيمة الى ثلاثين حيا مصغرا لكل منها شبكته الخدمية الخاصة لقد وجه النقد الى نظام تقسيم الطرق على اساس وسائط النقل غير ان احدا لا يمكن ان هذا النظام يؤدي الى تنظيم حياة المدينة الداخلية بصورة ادق ويسهل معرفة الاتجاهات داخل المدينة يقلل من وقوع الحوادث الى الحد الادنى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعاد لي كوربوزيه الى الحياة ازقة الاسواق (البازارات) التقليدية بالنسبة للهند واقام مجمعات للمباني العامة على مفترقاتها : دار سينما ، مستشفى ، ناد .. الخ . وتقع في الازقة المذكورة الدكاكين التقليدية المتنقلة « ريخري » التي تجهز البيوت بالخضروات والفواكه والحلويات وغير ذلك من المواد الغذائية.

تتجسد ذروة تصميم جانديكار في مجمع الكاپيتول الذي يضم المباني الحكومية والذي يثير الدهشة بقوة التاثير الذي يتركه على الناظر . هنا يسود جو احتفالي مهيب . اندمجت هنا المعجزات التي صنعتها اليد بتلك التي صنعتها الطبيعة الصامتة والجليلة . فعلى خلفية من الخطوط المتداعية لسفوح الهمالايا الغارقة في دخان جوي ازرق تبدو بوضوح اشكال قصور الكاپيتول . لقد تم تصميم القصور بحيث لاتطغي على جمال المنظر الجبلي، وانما تندمج به. ترتفع ساحة الكاپيتول بحوالي 5 ـ 8 امتار عن مستوى الشوارع . ويقترب تكوين الكاپيتول من حيث جمال منظره من مجمع (انسامبل) القصور الرائع في فاتح پور صكري الذي يعود انشاؤه الى القرن التاسع عشر ، ولكن الكاپيتول يختلف عن الانسامبل بكونه لايسمو على الفضاء المحيط به ، وانما يندمج به . وفي أوقات المهرجان تتغير ساحة الكاپيتول حيث تقام فيها العروض المسرحية والاستعراضات والمسيرات وتتلألأ المباني المزدانة باضوية النيون .

منذ الصباح يسبح قصر الجمعية العامة وسط شعاع الشمس . وهو يبدو على خلفية الواجهة المزركشة لأمانة السر مهيبا رغم انه غير مرتفع . اما السطح الكونكريتي المسلح الضخم الزائد حيث القاعة الرئيسية فانه يشكل النواة التكوينية الاساسية لقصر الجمعية العامة . وعلى الباب في الوسط خط من الشمس ـ مصدر ومنظم حياة الانسان ، اما في الاسفل فقد رسمت صور ثور ثعبان وسلحفاة وهي حيوانات مقدسة في الهند . وكان لي كوربوزيه قد صمم السطح المذكور متاثرا برؤيته لقزانات التبخير التي تستخدم في استخراج الملح بمدينة احمد آباد . وبذلك حاول كوربوزيه التعبير عن روح التصنيع .

في مقابل مبنى الجمعية العامة وعلى خلفية السماء تبدو الخطوط المعتمة الواضحة لقصر العدل ذي الشكل المستطيل . وعند النظر اليه تصطدم العين فورا الكثافة المتعمدة وفظاظة الكونكريت المسلح . ان الكونكريت المسلح هو المادة المفضلة عند لي كوربوزيه فيعتبره حجر العصر الحديث الذي صنعته يد الانسان .

وتحتل التماثيل المتناثرة بلا انتظام مكانا هاما في مجمع الكاپيتول (لم ينجز بعد) . ففي وسط الساحة ، التي تغلق بصريا شارع المدينة الرئيسي المسمى جان مرك ، سوف يقام على ضريح الاخوة نصب هائل يعبر عن الدعوة الى السلام والوفاق في الارض . ويفترض انجاز النصب من الخشب المكسو بحديد خاص يستخدمه الصناع المحليون في صناعة أواني الماء، وسيكون ارتفاع النصب 27 مترا .

الى يسار قصر الجمعية العامة ينتصب بناء من المرمر يخلد «المناضلين من أجل حرية الهند». سعى المعماريون في عمارة مباني الكاپيتول الى

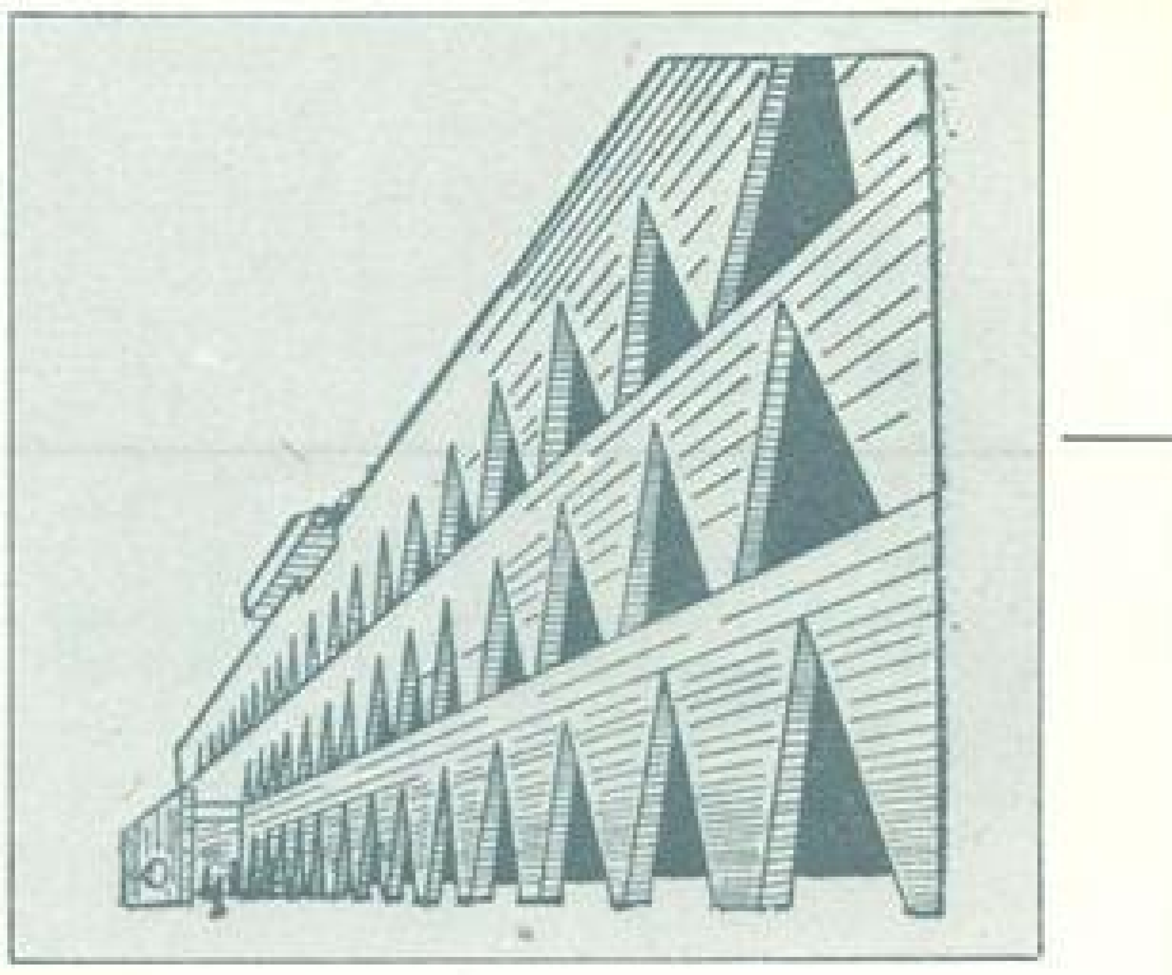

يونسكو

مشكلات الأعلام الحديث «القسم السادس»

التعبير عن عظمة الهند الجديدة التي بدأت السير في طريق الاستقلال والتقدم بعد مئات السنين من العبودية الاستعمارية . وحسب كلمات نهرو فان اهمية جانديكار لاتكمن « في اتفاقنا او عدم اتفاقنا مع الافكار المعمارية المطبقة فيها » ، وانما في ان هذه المدينة قد هيأت للهنود فرصة معرفةمعنى العمارة المعاصرة وانها اصبحت العامل المحفز على تكوين العمارة الهندية الجديدة وعلى تطوير افكار بناء المدن .

غير ان جانديكار لم تصبح تلك الصخرة التي تساعد بناتها على حل المشاكل الاجتماعية الجدية .

مما يلفت النظر هو الطريقة التي حاول بها المعماريون حل مشكلة السكن . ان ظروف توزيع ونوعية المساكن تكشف بصورة ادق تناقضات المجتمعات الطبقية . وتظل الهند بلد المفارقات الاجتماعية الكبيرة التي تحمل المدن الجديدة ايضا بصماتها . في جانديكار تتميز القطاعات بكثافة المباني ودرجة فخامتها وتشجيرها و ـ وهذا هو الأهم ـ حسب الحالة المادية للناس . يتراوح عدد سكان القطاعات بين 5 ـ 25 الف نسمة (حسب مدخولاتهم) . يشكل اصحاب المدخولات العالية جدا خمسة بالمائة فقط من مجموع سكان المدينة و تترکزدورهم في قطاعين مجاورين للكابيتول . هنا : ڤيلات الوزراء وقصور القضاة ورجال الدين وغيرهم من كبار المسؤولين . وفي القطاعات المزدحمة بالسكان يشكل الاغلبية ذوو الدخل الواطيء . وبالرغم من ظروف المناخ القاسية فان المبنى المكيف يعتبر ترفا يصعب توفيره على أغلبية السكان . ولعل افضل نموذج لمسكن المواطن العادي هو بيت خشبي اكثر تنظيما من حيث الخدمات . ولقد اصبح واضحا في الوقت الحاضر ان عاملا ذا دخل واطيء لايستطيع ان يمتلك حتى ارخص بيت في جانديكار . واذ يزداد عدد العاطلين عن العمل ، فان الاحياء البائسة تزداد عددا هي الاخرى سواء في جانديكار او غيرها من المدن . وتترك مصالح ملاكي العقارات تأثيرا سلبيا على ملامح هذه المدينة ايضا .

تثبت تجربة جانديكار ان تحقيق الانسجام في العالم بواسطة العمارة فقط امر لا يمكن تحقيقه . فهذه الوسائل لا تتمتع بتلك القوة السحرية التي تستطيع اعادة خلق الانسان والتي اراد لي كوربوزيه أن يوفرها ، الا انه نسي في غمرة فورته الابداعية عوامل الواقع والنوابض الاجتماعية الموجهة لتطور المجتمع والعمارة .

واذا كانت حرية الاعلام تتمتع بمركز الاولوية بين سائر حقوق الانسان ولاسيما الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، فان سبب ذلك يعود الى كونها تتيح ممارسة بقية الحقوق .

177 ـ وان مشكلة حرية الاعلام تستحق مزيدا من الدراسة والتعمق على ضوء نتائج المناقشات التي جرت أثناء الندوة الدولية حول البنى الاساسية لجمع ونشر المعلومات(ستكهولم، ابريل / نيسان 1978)ويمكن ان تتطرق الدراسة الى المفهوم في حد ذاته والى أسسه ومتضمناته الفلسفية والايديولوجية ومناهج تطبيقه ، وذلك على المستوى النظري وعلى مستوى الممارسات في مختلف الدول الخاضعة لنظم اجتماعية وسياسية مختلفة وحسب مرحلة النمو التي تمر بها .

178 ـ وينبغي ايلاء مزيد من العناية لاستمرار العقبات التي تحول دون الممارسة الكاملة لحرية الاعلام ، لأن التعويض عن العقبات والصعوبات القائمة في هذا المجال لا يزيد الوضع الحالي الا خطورة . ويتبين من استقصاءات اجريت مؤخرا أن هذه العقبات وان تباينت أنواعها تباينا شديدا ، يمكن تصنيفها في فئتين بحسب معايير موضوعية : (1) عقبات ومعوقات وضغوط ظاهرة : ضغوط وعراقيل مادية ؛ تدابير ادارية ؛ اجراءات قضائية متعلقة بآداب الاعلام وأخلاقياته؛ احتكارات اباحها القانون ؛ التنازل الارادي المزعوم عن حق الحرية في الاعلام كنتيجة لاجراءات تعسفية ؛ (2) عقبات وعراقيل غير ظاهرة ؛ ضغوط اقتصادية واجتماعية ؛ تدخل الاحتكارات الكبيرة او جماعات الضغط . الضرورات السياسية والمالية والتقنية ؛ العقبات الناتجة عن عدم تكافؤ العلاقات بين الناشرين والصحفيين ، الخ ... وبصورة عامة فان كل احتكار خاص او عام ، سياسي او اقتصادي ، يؤثر على تداول الاعلام ، يمكن ان يشكل تهديدا محتملا ان لم يكن فعليا على حرية الاعلام .

179 ـ ان مفهوم التداول الحر للاعلام كما حدد منذ ثلاثين عاما وكما يستخدم اليوم ، يمكن ان يشكل تبريرا لنظرية تخدم مصلحة الدول والتكتلات القوية وغالبا ما تمكنها من تأمين او مواصلة سيطرتها الثقافية تحت ستار من الافكار النبيلة . وفضلا عن ذلك فان هذا المفهوم ترفضه بعض الدول وتعلقه دول أخرى على احترام تشريعاتها الوطنية . وهنا تظهر الهوة التي تفصل بين الحقوق النظرية والحقوق الفعلية ، وهي هوة يزداد للاسف اتساعها .

180 ـ وتتسم المسؤولية في اوجه استعمال حرية الاعلام ، ولا سيما المسؤولية التي تقع على عاتق مهنيي وسائل الاعلام ، بأهمية كبرى . وتجدر الاشارة هنا بوجه خاص الى ان هذه المسؤولية لا تقتصر على الالتزامات التي يفرضها القانون او الحكومة ، ولكنها تشمل أيضا كل ما يمليه ضمير أو يستند الى المعايير والاخلاق المهنية وكل ما ينبع من المصالح الاجتماعية لجماعة ما او حتى للمجتمع الدولي ككل . ان موضوع هذه المسؤولية يستحق مزيدا من الدراسة والتعمق لا من جانب المسؤولين عن اتخاذ القرارات ومن قبل الراي العام ذاته على اعتبار انه من المفروض الا يؤدي قبول المسؤولية الى الحد من حرية الاعلام بلا مبرر .

181 ـ هذا ومن المفيد تحليل بعض الاوضاع حيث (1) يسعى البعض (بلاد او مؤسسات او جماعات ضغط) تحت ستار الاعلام ، الى النيل من سيادة الآخرين ؛ (2) وحيث يوضع الاعلام كلية تحت رقابة جهاز الدولة بحجة تحريرالاعلام من «أغلال الاستعمار» ؛ (3) وحيث تتخذ السيادة القومية كحجة لتبرير انتهاك حرية ممارسة حقوق الانسان .

ثانيا ـ دقة المعلومات وتحريف المعلومات

1 ـ الاسباب

182 ـ ان صحة ـ او عدم صحة ـ الاخبار تتوقف على عدة عوامل : (1) المقدرة على بلوغ مصادر المعلومات ؛ (2) احتمال وجود مصلحة معينة في تشويه الاخبار ؛ (3) اتاحة عدة قنوات للاعلام ؛ (4) عمليات فرز المعلومات وانتقالها مما يؤثر على مضمون الاخبار وعلى مواضع التأكيد فيها وعلى أسلوب عرضها ؛ (5) الكفاءة المهنية لدى الصحفيين ؛ (6) موقف الصحفيين من قواعد السلوك المهني والمعايير الاخلاقية ؛ (7) صعوبة فهم وتفسير ظروف واوضاع البلاد الاجنبية ، الامر الذي يرتبط بالميول العرقية ؛ (8) الشروط التي تتحكم في توضيح حقيقة الوقائع بشكل صحيح وكامل .

183 ـ وعلى المستوى العملي يمكن تصنيف ظواهر التشويه في الاعلام في عدد من الفئات يذكر منها على سبيل المثال ،

(أ) ابراز الاحداث التي ليس لها اية أهمية حقيقية أو المزج بين النوادر وما هو بعيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصلة عن الموضوع او مايعتبر مثيرا للاعجاب في البلاد المتقدمة مع الحوادث التي لها اهمية قومية حقيقية ؛

(ب) تركيب الاخبار عن طريق تجميع حوادث منعزلة وتقديمها ككل متكامل ، أو وصف جزء بسيط من الحقائق وتقديمه على أنه الحقيقة كلها ؛

(ج) عرض مضمون الاحداث عرضا مشوها بما يوحي بنتائج تتلاءم مع مصالح معينة ؛

(د) تشويه الاحداث بتكييفها تكييفا خاصا قبل نشرها ، وذلك بعرض وقائع معينة بطريقة تثير مخاوف أو ريبة مغالى فيها أو لا اساس لها ، او المبالغة في الاحداث بهدف التأثير على تصرفات الافراد او الجماعات او الحكومات ؛

(هـ) التشويه عن طريق السكوت عن بعض الاوضاع بحجة أنها لم تعد تهم الجمهور الذي يكتب له مراسلو الوكالات الصحفية . وهذا ما حصل بالفعل عندما توقفت الصحافة الدولية عن التحدث عن فيتنام بعد هزيمة الولايات المتحدة فيها رغم اهمية الجهود التي بذلتها فيتنام في سبيل تنمية البلاد بعد الحرب الطاحنة التي اجتاحتها ؛

(و) التشويه الناجم عن الرقابة الحكومية على الاخبار والحد من حرية الاستفادة من مصادر الاعلام وانتهاك حرية الصحافة .

ولما كانت الموضوعية المطلقة غير موجودة فان صحة الاعلام لا تحكمها معايير موضوعية وقابلة للقياس بقدر ما تتوقف على الاحكام والآراء الذاتية . ومن الطبيعي ان يرتبط ذلك بادراك المسؤول عن تقرير ما يتضمنه الخبر وباسلوب عرضه له ونشره ، فهو الذي يقدم للجمهور الصورة الواضحة أو المشوشة او المغلوطة للوقائع الثقافية وللاحداث والاوضاع التي لا يمكن له معرفتها شخصيا . ذلك أنه يتعذر الاعلام عن وقائع بدون تفسيرها .

ان هذه المشكلة مرتبطة ايضا بنقطة نوقشت في ندوة ستكهولم وهي تعريف « الخبر » والقيم التي يستند اليها مثل هذا التعريف . فالبعض يعتبر انه لا يمكن أن يوجد الا مفهوم واحد ل « قيمة الخبر » ، هو انه يجب ان يكون كاملا وصحيحا وموضوعيا وان يستند الى الوقائع والاوضاع والاحداث الحقيقية أو الى ظواهر هامة او بالاحرى فريدة أو غريبة . وهذا يكفي . والبعض الاخر وخاصة في البلاد النامية يعتقد على العكس ان المعايير التي تتحكم في كنه الخبر تتغير حسب حاجات كل بلد وكل جمهور ، وأن قيمة الخبر هي في النهاية مسألة حس ثقافي . ويبدو من الضروري توسيع مفهوم الخبر في البلاد النامية حتى يشتمل ليس فقط « حدثا » واحدا بل « عمليات » كاملة . فمشكلة الجوع مثلا هي « عملية » بينما يشكل الاضراب عن الطعام « حدثا » من أحداث هذه « العملية » . وحدوث فيضان هو في حد ذاته حدث بينما الكفاح الطويل للسيطرة على الفيضانات عملية . والمنشود هو ان يقبل الصحفيون والمراسلون تخصيص مكان أكبر « للعمليات »وللاتجاهات ذات الامد الطويل. وقد اصبح من الضروري ايجاد نمط جديد من العمل الصحافي يعطي للاخبار السارة نفس الاهمية التي يعطيها للاخبار السيئة . ذلك انه اذا طبق صحفيو الدول النامية نفس المعايير الغربية فانهم سيقصرون اهتمامهم على الجوانب القاتمة من الاخبار ، وبذلك تساهم وسائل الاعلام عمدا بهدم الايمان والثقة اللازمين لدفع التنمية والتطوير الى الامام . فاذا كان الاتصال ضروريا لكي تحصل جهود التنمية على دعم الجماهير وتعاونها فان على المسؤولين عن الاتصال والاعلام الا يقتصروا على عرض الاحداث التي تتالف منها الاخبار « الصحيحة »عرضا موضوعيا بل عليهم كذلك ان يقوموا بدور المحللين الاجتماعيين والمعلمين ، فيلعبون بذلك دورا حيويا في الكفاح القومي والدولي في سبيل تقدم الانسانية .

2 ـ تأثير الجمهور

184 ـ تتوقف صحة الاخبار ايضا على نظام القيم الذي يتبعه مجتمع ما أو بعض فئات هذا المجتمع . واذا كان من المؤكد ان الصحفيين يسعون الى ارضاء حاجات السوق آخذين بعين الاعتبار رغبات وطلبات الجمهور . فانه من المعروف أيضا ان الرأي العام ليس ظاهرة فريدة من نوعها وقائمة بذاتها بل تشكله سياسةالحكومة من جهة والاخبار الموزعة عن طريق وسائل الاعلام المختلفة من جهة أخرى . يضاف الى ذلك أن كمية الاخبار المستوردة منمصادر خارجية ودرجة تنوعها تلعبان دورهما في تكوين الرأي العام في كل بلد . وبهذا الصدد ، وبغض النظر عن أن جمهور بعض وسائل الاعلام هو جمهور دولي وليس بقومي أو محلي ، تجدر الاشارة الى المسؤولية التي تقع على عاتق وسائل الاعلام في تكوين راي عام اكثر تنوا واطلاعا واكثر ادراكا لحقيقة ترابط الامم واكثر احساسا للاخطار التي ينطوي عليها استمرار عدم المساواة بين البشر .

3 ـ الوقاية ضد التحريف

185 ـ ليس من الصعب البرهنة على وجود كثير من التشويهات . ومن الاهمية بمكان الاقرار بانه اذا درست مختلف أسبابها تبين ان اكثرها يبدو متعمدا وبعضها لا مفر منه . ذلك ان هذه التشويهات تعكس من جهة حقيقة العالم كما هو بتمزقاته وطغيان القوى المتسلطة فيه وتناقضاته البنيوية ، ومن جهة أخرى تصدر عن النزعة العرقية اللاشعورية الموجودة لدى الصحفيين أو تنجم عن نسبية مفهوم الموضوعية . بيد ان ذلك لا يعني أنه من غير الممكن أو الضروري الحد من التشويه او أنه يجب الكف عن البحث عن الحقيقة او تحسين وسائل الكشف عنها .

ثالثا ـ التوازن واختلال التوازن في الاعلام

1 ـ جذور اختلال التوازن

186 ـ يؤدي تفحص مشكلة الاختلال في الاعلام الى ملاحظتين : (1) أن في كل مجتمع من المجتمعات تحصل الفئات العليا (سكان المدن أو أصحاب السلطة) أكثر من الفئات الاخرى ، على قدر أكبر من الاعلام وهي كذلك مصدر نقله ونشره ؛ (2) أن الجزء الاكبر من الاعلام المتداول في العالم يأتي من البلاد المتقدمة صناعيا باتجاه البلاد الاقل تصنيعا . وقد يشكل هذا التدفق في اتجاه واحد أمرا مجحفا ، ان لم يكن بالغ الضرر لجهود التنمية الثقافية والفكرية والاقتصادية في البلاد الاقل تطورا . ولكن من ناحية اخرى ، فقد توحي تجربة اليابان في الماضي وتجربة الصين اليوم بانه يمكن للبلاد النامية أن تحقق قدرا من الفائدة من سيل الاعلام الصادر من البلاد المتقدمة تقنيا . وبعبارة اخرى فان الاختلال هو ظاهرة قومية داخلية ودولية في آن واحد ، وقد يمكن القول : انه لو زالت الاختلافات الداخلية لأصبحت اختلالات الاعلام على الصعيد الدولي أقل وطأة وخطورة .

187 ـ وعندما يجرى الحديث عن التداول الحر والمتوازن للاعلام فان الصعيد الدولي هو المقصود عامة أكثر من الصعيد الوطني . كما أننا ننزع الى اعتبار أن الجوانب الكمية على المستوى الدولي أكبر اهمية من الجوانب الكيفية اذ تغلب الحجم على المضمون . ويبدو انه من الافضل لهذا الوضع أن ينعكس .فالاختلال في الاعلام هو ظاهرة تاريخية لاتزال حتى الان تعكس الحقائقالاجتماعية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السياسية للمجتمعات . وقد تأثر الاعلام بالتكوين الحالي للمجتمعات كما تأثر في الوقت نفسه بانحسار الاستعمار وبالجهود التي بذلها عدد كبير من دول العالم الثالث للحصول على الاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي . وقد فهمت هذه الدول وازداد شعورها بما يتسم به مفهوم « الحرية السياسية » من ضعف وما ينطوي عليه من تضليل في عالم تسوده السيطرة التي تواصل ممارسة تأثيرها على كل جانب من جوانب المجتمع . ان نظام تملك ومراقبة النشر الجماعي والفوري للاخبار والمعطيات لصالح اقلية يعد اليوم مسؤولا لا عن التأثير في صياغة الشعوب لتصوراتها فحسب ، بل كذلك في الطريقة التي يعملون بها (أو لايعملون) ، ويأكلون بها (أو لايأكلون) ، ويتنفسون ويعيشون ويموتون .

188 ـ اليس من الضروري الاشارة أيضا الى ان القائمين على الاتصال قد يكونون مسؤولين هم انفسهم عن اختلال وتشويه جوانب معينة من الاعلام ؟ فعلى اعتبار أن القاعدة العامة هي في اغلب الاحيان استرعاء اهتمام الجمهور او اكتساب جمهور جديد ، فان الخط العام يبين نزوعا نحو (1) جعل البرامج أكثر ابتذالا ؛ (2) اعطاء الاخبار طابعا سطحيا وتافها ؛ (3) فصل الاحداث عن ملابساتها ؛ (4) اضفاء الصفة العابرة على الخبر .

2 ـ التفسيرات والتحديات

189 ـ تتفق مختلف تيارات الفكر والرأي اليوم فيما يبدو على وجود اختلال كمي وكيفي في تداول الاعلام بين الدول المتقدمة والدول النامية . ولكن الخلاف يظهر في تحليل أسبابه ونتائجه وعلى أنسب الطرق لمعالجته . واما الاطراف في هذا النقاش فهم كثيرون ومتنوعون:

(أ) ممثلو وسائل الاعلام في الغرب وبصورة خاصة وكالات الانباء الكبرى ؛

(ب) ممثلو وسائل الاعلام (مرتبطون بمن سبق ذكرهم ولكن مستقلون عنهم) ممن لديهم استعداد لمناقشة بعض المسائل المتنازع عليها بطريقة جدلية ؛

(جـ) ممثلو وجهات نظر أكثر اعتدالا ممن يسعون لايجاد تحسينات مقبولة من جميع الاطراف ؛

(د) اناس يعتقدون أنه لا مفر من ان يكون الاعلام مشوها في بعض المجتمعات وفي الوضع الحالي الحالي ؛

(هـ) ممثلو العالم الثالث ، حيث تحتل دول عدم الانحياز مكانا مرموقا ، ممن لهم آراء متقاربة في اختيار نوعية الحلول برغم مابينهم من اختلافات طفيفة ناتجة عن نظرتهم للاشياء وعن تجاربهم .

ومما لاشك فيه ان هذا التصنيف لا يعكس بشكل كاف ودقيق تنوع الآراء وختلاف درجات حدة التعبير عنها .

وايا كان الامر فانه اذ حصر النقاش في نطاق مجابهة بين « الشرق والغرب » او بين « الشمال والجنوب » فسيبدو تبسيطيا وسطحيا الى حد كبير وقد يكون مضرا . وقد ادى توسيع النقاش في هذا الصدد الى ابراز الامور التالية: (1) التنوع الكبير في الآراء والمشاعر حول هذا الموضوع ؛ (2) ميل الآراء المتصلبة او وجهات النظر المتعارضة الى أن تكون اخف حدة من ذي قبل ؛ (3) تحسين اولى في تداول الاعلام وتضاؤل التشويهات الملحوظة ، وذلك تحت ضغط البلاد النامية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

190 الا يمكن ان نستنتج من هذه الاعتبارات المؤقتة أن نجاح مقاومة التشويه والاحتلال في الاعلام يقتضي (1) تغييرا اجتماعيا وسياسيا يؤدي الى تقليص الاختلالات الاقتصادية والتخفيف من حدة التفاوت والتمايز الاجتماعي ؛ (2) ايجاد قدرات اعلامية في البلاد النامية مع تقليل الفارق بينها وبين البلاد المتقدمة في هذا المجال ؛ (3) برهانا قاطعا عن ارادة البلاد الصناعية استقبال وبث المعلومات الآتية من العالم الثالث او المتعلقة به بروح أكثر تحررا ؟ وهناك مسائل اخرى تقلق الساعين الى التعمق في بحث هذه المشاكل الاساسية :هل لا يوجد الاختلال الاعلامي الا بين البلاد المتقدمة والبلاد النامية ؟ الا يوجد ايضا فيما بين البلاد المتقدمة وفيما بين البلاد النامية ؟ وهل يكفي تطوير امكانيات الاعلام لتقليص هذه الاختلالات دون تحديد المعايير الخاصة بالمضمون وبالتالي دون مس بحرية الاعلام ؟ وهل تتضاءل حرية تداول الاعلام اذا تحقق التوازن أم أنها على العكس تزداد رسوخا ؟ وهل تستبعد الحرية والتوازن كل منهما الاخر ، أم يتحقق الترابط بينهما اذا قامت بينهما علاقة تكميلية ؟

رابعا ـ سلوك المهنيين ومسؤولياتهم

191 ـ يواجه الاعلام في كل بلد قواعد اخلاقية قد تراعى وقد لا تراعى في ممارسة الحياة اليومية . وتشكل هذه القواعد جزءا من التقاليد الاجتماعية والروحية لكل بلد . وليس ضروريا لضمان احترامها أن تكون موضوع تقنين معين أو أن يعهد الى مؤسسات معينة بأمر مراقبة الممارسات المستندة اليها . وهناك وسيلتان يجدر دراسة فوائدهما وفعاليتهما في هذا المجال :

(أ) وضع قواعد للسلوك المهني كوسيلة للالتزام الذاتي بالمعايير الاخلاقية .

(ب) انشاء مجالس للصحافة مهمتها مراقبة احترام المصلحة العامة بتحقيق قدر من دمج وسائل الاعلام وعملياته في المجتمع بشكل عام .

1 ـ قواعد السلوك بين ارباب المهنة

192 ـ اعتمدت منظمات الصحفيين والناشرين وأجهزة الاذاعة والسينما ومجالس الدعاية في عدد كبير من البلدان قواعدا للسلوك ، سواء كانت مدونة أو غير مدونة في مواثيق وطنية لآداب المهنة . وتركز هذه القواعد عامة على مفاهيم أساسية كالحياد والموضوعية والصدق واحترام الحياة الخاصة ، والشرف والنزاهة واحترام سرية المهنة والمسؤولية والدفاع عن حرية الاعلام . وترتبط هذه المعايير ايضا بحقوق معينة كالوصول الى مصادر الاعلام أو بالتزامات معينة كضرورة التدريب المهني . ويبدو أن فكرة قواعد السلوك مردها الرغبة في تحسين العمل والاحساس بان رقابة تأتي من الداخل هي خير من القواعد المفروضة من الخارج . وهكذا فالى جانب القواعد التي سنتها الدولة وضعت وسائل الاعلام والاتصال لوائحها الداخلية الخاصة بها والتي شكلت في بعض البلاد مصدرا مهما وأحيانا رئيسيا للحق في الاعلام والاتصال وذلك خاصة في البلاد التي يقتصر فيها تدخل الدولة على بعض المجالات وحيث تتمتع وسائل الاعلام بالادارة الذاتية المعترف بها قانونيا وتلعب دورا هاما .

ان مكانة وفعالية قواعد آداب المهنة تحظى بدرجات مختلفة من التقدير وتثير طائفة من الاسئلة ، هل تعتبر هذه القواعد اداة لا غنى عنها لحسن سير الاعلام ؟ وما هو مكانها في التشريعات الوطنية ؟ والى أي حد يمكن ان تكون كافية في ذاتها ؟ وهل تتناسب مبادئها مع المواقف الفعلية التي تواجه الصحفيين وموظفي الاعلام في نشاطهم

اليومي ؟ اليس من الصعب تطبيق المبادىء العامة كالموضوعية والحياد والصدق وحماية حرية الاعلام تطبيقا عمليا وهل تؤدي هذه المبادىء الى تفسيرات مختلفة بل متضاربة احيانا ؟ او ليس من الضروري لكي تصبح مقبولة ان تصاغ صياغة مبهمة تفسح مجالا لتفسيرات شتى ؟

193 ـ وقد يبدو أن هناك عددا من المواثيق الوطنية لقواعد السلوك المهني لا تتضمن المبادىء التي تنظم واجبات ومسؤوليات الصحفيين تجاه المجتمع الدولي او تجاه البلاد الاجنبية ، او انها لا تؤكد بما فيه الكفاية على هذه المبادىء . ويرجع ذلك في جانب منه على ما يبدو الى ان هذه المواثيق تستند بشكل عام على وجهة نظر من الاخلاقية الفردية تسعى الى تنظيم العلاقات بين الاشخاص (بين الذين ينشرون المعلومات والذين يتلقونها) ولا تعطى اهتماما كافيا الى ناحية هامة وهي ان المسؤوليات الناتجة عن هذه العلاقات هي ظاهرات اجتماعية تهم المجتمع بمجمله على كل من الصعيدين الوطني والدولي .

2 ـ المسؤولية المهنية والمصلحة العامة

194 ـ ان مثل هذه المسائل وغيرها تجعل من الضروري ان يواصل في كل بلد وينسق على الصعيد الدولي ما يبذل من جهود في سبيل وضع المعايير الاخلاقية للاعلام أو توضيحها أو تحسينها. وعلى الرغم من عدم كفاية المواثيق الموجودة فانها تشكل على كل حال نقطة انطلاق لتعميم هذه المعايير على النطاقين الاقليمي والدولي .

195 ـ وفي نفس الوقت اخذ هذا الاتجاه يتدعم ، فظهرت الى الوجود مجالس الصحافة ومجالس الاعلام وما الى ذلك مما يذكر باتحادات العامة التي كانت تنظم في الماضي ممارسة المهن والحرف . وتعتبر هذه المجالس ، من وجهة النظر هذه ، جزءا من عملية دمج الاعلام والاتصال في المجتمع وتنظيمها مهنيا ، وهو امر يمكن قبوله او رفضه .

وعلى الرغم من انه قد بدأ ظهور هذه المجالس في السويد في عام 1916 . فانها لا تزال تعتبر حديثة العهد اذ لم يبتدىء تعميمها الا في بداية الستينات . ويتخذ مجلس الصحافة البريطاني كنموذج لكثير من مجالس الصحافة . كما أن اكثر من نصف عدد المجالس الوطنية البالغ عددها 40 مجلسا في العالم قد انشىء في بداية السبعينات . ويلعب عدد من الهيئات المؤلفة من ممثلين عن جميع الفئات المعينة دورا يتجاوز اطار آداب المهنة فيضطلع بمهام تنظيم نشاطات الاعلام والقائمين عليه والتحكيم فيما بينهم . وتسعى مثل هذه الهيئات الى تحقيق هدفين (1) انتزاع جزء من صلاحيات السلطة السياسية (التشريعية والتنفيذية) في مجال الاتصال ؛ (2) الاقناع بضرورة مراقبة السلطة التي يمارسها من يسيطرون على وسائل الاعلام في كل مجتمع ديمقراطي . ومن الصعب ايجاد تعريف ينطبق على جميع مجالس الصحافة ، نظرا لان الظروف المحلية ادت الى انشاء هيئات تختلف من بلد لآخر من حيث تشكيلها ونطاق نشاطها ، وصلاحياتها بالنسبة لهذه الوسيلة الاعلامية او تلك ، ورسالتها الحقيقية او الوهمية ، وتفسيرها المعايير الاخلاقية التي تشكل بالنسبة لها القانون (وهو يتسم عموما بقدر من الغموض) القابل للتطبيق (وبالتالي فكرتها عن دور الصحفي وحرية الاعلام والمسؤوليات المترتبة عليها) الخ . ولا شك ان ايجاد تعريف عام لمفهوم مجالس الصحافة وللدور الذي تستطيع أن تلعبه في جعل الاعلام اكثر حرية واكثر مسؤولية امر سابق لاوانه .

196 ـ ومع ذلك فان المحبذين للفكرة والمرتابين منها يطرحون اسئلة كثيرة يذكر منها : (1) اليس من المحتمل ان تقع مجالس الصحافة بحسب علاقات القوى تحت سيطرة الصحف الكبيرة ؟ (2) الا يمكن ان تصبح أداة طبقية ؟ (3) الا يمكن ان تحول الدولة هذه المجالس من هيئات رقابة ذاتية الى هيئات رقابية بادخال ممثلين عنها بين اعضائها او بفرض لوائحها الخاصة عليها ؟ (4) اليس من واجب مجلس الصحافة ابعاد كل تمثيل حكومي وفي مقابل ذلك اتاحة تمثيل الجمهور الى جانب أصحاب وسائل الاعلام والصحفيين ؟ (5) الا يتردد اصحاب وسائل الاعلام في التعاون مع مجالس الصحافة خوفا من ان تحد من امتيازاتهم ؟ (6) وهل يقبل الصحفيون الذين تعودوا انتقاد الغير دون ان يتمكن أحد من انتقادهم أن يبدى ممثلو الجمهور، الذين يعتبرهم الصحفيون غير اكفاء ، رأيهم في عملهم ؟ (7) هل هناك اساس من الصحة للراي الذي يتبناه الكثيرون والقائل بأن الصحف الجيدة والصحفيين الاكفاء لا يحتاجون الى مجالس صحافة بينما يبقى السيئون منهم غير مبالين بها ؟ (8) وهل بامكان مجلس الصحافة التاثير على الحكومة او على المصالح الكبيرة بالنظر للعناصر التي يتألف منها وللوسائل الموضوعة تحت تصرفه ؟

197 ـ ويشكل الدور الذي تلعبه الدولة في اعداد وتطبيق قواعد آداب المهنة محورا اساسيا من محاور المشكلة على ما يبدو .فهل يمكن للدولة ان تتنصل من جميع المسائل التي تمس حياة الافراد من كل جوانبها تقريبا ؟ وما هو المكان الذي يمكن تركه لبقية الاطراف المعنية ؟ وما هي القيود التي يمكن فرضها على ممارسة الحقوق ؟ وعلى من تقع مسؤولية تحديدها وفرض احترامها؟ ان الجواب على مثل هذه الاسئلة وغيرها مرتبط باهداف الاعلام وغاياته . وهذه تتغير من بلد الى آخر وفقا لحاجاته الحقيقية او المفترضة . ويمكن أن يتناول البحث في هذا المجال اولا امكانية اتخاذ تدابير مماثلة لما ذكر آنفا على الصعيدين الاقليمي والدولي : من اعداد مواثيق معيارية وانشاء مجالس دولية واقليمية واقرار اجراءات للتحكيم، الخ ... ويمكن بعد ذلك استنباط بعض القواسم المشتركة للمعايير المهنية المطبقة في مختلف البلاد بحيث يتمكن الاعلام والاتصال بموجبها من الاسهام بشكل أكثر فعالية في التطوير الايجابي للشؤون العالمية وايجاد الحلول للمسائل الاساسية التي تواجه الانسانية .

خامسا ـ الاوضاع والفئات الاجتماعية المتميزة

198 ـ من الامور البديهية أن ظهور وسائل الاعلام وتطور بنى الاتصال (كما جاء وصفه بالقسم باء) لم يكن لهما نفس التاثير على كل عنصر من عناصر المجتمع وعلى كل وضع فيه . وينطبق ذلك أيضا بالنسبة لتاثير مختلف اشكال الاعلام والاتصال (كما هو مذكور في القسم جيم). ولكي تكون دراسة مشكلات الاعلام والاتصال شاملة فانه يجدر ان تستند الى بعض الاوضاع الخاصة والى جوانب اجتماعية معينة .

1 ـ الاقليات

199 ـ لا يزال يوجد في عدد كبير من البلاد كثير من الاقليات العنصرية او اللغوية في معزل عن شبكات وقنوات الاتصال . وينطبق الوضع نفسه على فئة كبيرة من سكان الارياف الذين يعيشون في مناطق معزولة جغرافيا او في ظروف مادية صعبة . وكذلك الامر بالنسبة لمختلف المجموعات الهامشية أو غير المندمجة اندماجا كاملا ككل . وتواجه كثير من الدول في مناطق كثيرة من العالم صعوبات ناتجة عن تعدد اللغات فيها وما يتبعها من تجزئة ثقافية . وهذا يشكل جانبا هاما من الاختلال الاعلامي داخل كل بلد كما ذكر آنفا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذه المشاكل جديرة بأن تدرس بالنظر لاهميتها الجوهرية ولانها تشكل عامل تفرقة قد تصل الى حد التمييز العنصري احيانا ، وليست وسائل الاعلام بغريبة عنه . والواقع أن وسائل الاعلام لا تبدو ملتزمة بما فيه الكفاية بالكفاح ضد هذه التحيزات بل وكثير ما تساهم ، اراديا أم لا ، وبشكل صريح أو مستتر ، في استمرار أو تقوية نزعتها .

2 ـ الفئات الاجتماعية الممثلة دون حقها

200 ـ وهناك مشكلة أخرى واسعة الابعاد كذلك ، تتعلق بمكان المراة ودورها في الاعلام والاتصال ، وذلك بالنظر الى اختلاف وتنوع الثقافات ، والى الطريقة التي تتناول بها وسائل الاعلام شؤون المراة والصورة التي تعرضها لها ، بل وبالطريقة التي تستغلها بها .وينبغي أن يكون الهدف هنا تحديد مساهمة الاعلام في تبني وتعميم المعايير وانماط السلوك التي تساعد على تغيير المواقف وردود الفعل المقبولة التي تسيء الى كرامة المراة أو ، على العكس من ذلك ، معرفة مدى اسهام الاعلام في زيادة التعصب والمواقف السلبية تجاه المراة من جراء تزمت الرجل وغلوائه .

201 ـ وينبغي كذلك ايلاء الاهتمام لدور ومكان النشء ، والاطفال خاصة ، في الاعلام والاتصال . ويمكن دراسة هذه المشكلة في اطار البحوث عبر الثقافات التي شجعتها منظمة اليونسكو حول الصور المقبولة في وسائل الاعلام. وقد يكون من المستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه وسائل الاعلام في تكوين او تحسين الصورة او الفكرة الموجودة لدى النشء عن الاجانب وما يمثلون من قيم وثقافات ، وعن العلاقات بين الشعوب والعنصرية وغيرها من الامور التي تؤثر على الاسس النفسية العميقة لبناء عالم عدالة واكثر اخاء .

3 ـ اوقات الفراغ والتسلية

202 ـ تجدر دراسة مشكلة العلاقات بين الاتصال وبين أوقات الفراغ والتسلية بالرغم من او ربما بسبب التباين الشديد في الاوضاع عبر العالم نظرا لاختلاف التقاليد الثقافية ومستوى التطور وانماط المجتمع . وتظهر أنشطة أوقات الفراغ اليوم وكأنها شكل سلبي من أشكال الاتصال . وفي كثير من البلاد ، ولا سيما الصناعية ، تلعب بعض وسائل الاعلام دورا رئيسيا في نشر وتنظيم مختلف أشكال انشطة اوقات الفراغ والالعاب والترفيه . بل ان الترفيه قد اصبح في بعض الحالات الوظيفة الاساسية لوسائل الاعلام الجماهيرية وخاصة التلفزيون وبرامجه الثقافية والموسيقية .

4 ـ العنف

203 ـ اي نوع من الارتباط يمكن ان يوجد بين مضمون وسائل الاعلام وبين الظواهر الخارجية التي تعتور المجتمعات الحديثة فتجعل منها مرتعا للازمات والتحولات العميقة؟ ان هذا السؤال العويص يطرح بوجه خاص بصدد ظاهرة العنف ومختلف صورها ولا سيما الارهابية منها، علما بان انتشارها في العالم متفاوت الدرجات . وهل من المفيد استنادا الى ذلك دراسة العلاقات بين الاتصال واجهزة الاعلام الجماهيرية من ناحية وظواهر العنف من ناحية اخرى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سادسا ـ الاختلالات وضروب التفاوت المادية

204 ـ ترتبط الاختلالات التي تلاحظ في مضمون وفي تداول الاخبار بالاختلالات وضروب التفاوت التقني والمادي والاقتصادي والمالي . ذلك أن المادية تؤثر في الواقع على الاعلام بمجمله. وأوجه التفاوت في هذا المجال صارخة ، وهي تظهر على جميع المستويات وفي مختلف الابعاد : في داخل كل امة ، وبين البلاد الصناعية والبلاد النامية ، وفيما بين البلاد المتقدمة وفيما بين بلاد العالم الثالث .

1 ـ النقص التقني

205 ـ يلاحظ ان توزيع وسائل الاعلام وشبكاتها الخاصة بنشر الرسالات (السياسية منها او الثقافية او غيرها) غير متكافىء بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية . فقنوات الاتصال في المركز أشد كثافة منها في الاطراف ، وتدفق المعلومات من المركز اغزر منه نحو المركز . كما ان العلاقات التي كانت سائدة بين المستعمرات القديمة والدولة المستعمرة بقيت على حالها بل توثقت عراها في بعض الحالات . وقد حال هذا الواقع ، حتى ولو لم يكن ذلك مقصودا ، دون اقامة علاقات جديدة ومتعددة بين بلاد العالم الثالث ، وخاصة بين البلاد التي لم تكن مستعمرة من نفس الدولة .

2 ـ تكاليف بث الانباء

206 ـ تشكل تكاليف بث الانباء عاملا آخر هاما يسبب التفاوت أو يزيد من حدته ، وذلك لانها مرتفعة ولان ارتفاعها يسهم في خلق واقع من التفرقة والتمييز . وكان قد طبق على بعض وسائل البث تعريفة مخفضة الا أن هذه الوسائل استبدلت بها الان التقنيات الجديدة . فمثلا بالرغم من أن الارسال من نقطة معينة نحو مجموعة من النقاط (كالاذاعة) اقل تكلفة من الارسال من نقطة الى نقطة اخرى ، فان هذه الطريقة الاخيرة قد اصبحت اليوم سائدة الاستعمال في العالم كله نظرا لما لها من مزايا . ومن جهة اخرى ، فانه من المفروض من حيث المبدأ ان تكون التعريفة واحدة في كلا الاتجاهين بين نقطتين محددتين ، ولكن يلاحظ في الواقع انها اكثر انخفاضا في حالة الارسال من البلاد المتقدمة باتجاه البلاد النامية منها في حالة الاتجاه العكسي . وينبغي أن يضاف الى ذلك ان السعر الحقيقي للاتصال يشكل عبئا ماليا اكثر وطاة على البلاد النامية بسبب ضعف اقتصاداتها بشكل عام .

207 ـ هذا وقد بحثت هذه المشكلة في ستكهولم كما عولجت في الوثيقتين الخاصتين باقامة نظام عالمي جديد للاعلام . وهي تتعلق بالتدابير الواجب اتخاذها لتخفيض تكاليف الاتصالات السلكية واللاسلكية ولتصحيح عدم الانتظام في نظم التعريفة الذي يؤثر على نقل المعلومات ونشرها ، وذلك مع مراعاة مصالح الدول النامية وضرورة توسيع وتنويع التداول الدولي للاخبار والمعلومات .

3 ـ انتاج السلع واستهلاكها

208 ـ يزداد الاختلال بين مختلف الدول في انتاج واستهلاك المواد والاجهزة الضرورية للاتصال . ولن نتناول هنا موضوع معالجة المعلومات عن بعد نظرا لان تطوره المتفاوت يطرح مشاكل معقدة ذات متضمنات خطيرة بالنسبة للمستقبل ، وسنكتفي في هذا العرض بذكر مثال انتاج واستهلاك الورق الذي يتحكم في تطور الصحافة المكتوبة وانتاج الكتب والوثائق وفي كثير من نظم المعلومات والاعلام العامة والخاصة . وتقوم كل من منظمة الاغذية والزراعة ومنظمة اليونسكو بتجميع البيانات الاحصائية وباجراء دراسات واسقاطات عن اتجاهات الانتاج والاستهلاك على الصعيد الدولي : الاولى فيما يتعلق بانتاج عجينة الورق وورق الصحف ، والثانية فيما يتعلق باستهلاك الورق للحاجات

بقلم

معارض

موسكو

الثقافية . كما شرع برنامج الامم المتحدة للتنمية في تنفيذ برنامج لتطوير صناعة الورق وورق الصحف . وقد بينت الدراسات ازديادا كبيرا في الاستهلاك خلال السنوات الاخيرة (زيادة 50٪ خلال العقد الاخير) . اما فيما يتعلق بالسنين القادمة ، فقد يزداد استهلاك ورق الصحف من 25ر6 مليون طن في عام 1976 الى 34ر7 مليون طن في عام 1985 . ويجب ان تدرس امكانية توخي المرونة في عرض الورق في السوق الدولية نظرا لان عدد البلاد المنتجة للورق في العالم لا يتجاوز 36 بلدا ، ستة منها فقط تصدر جزءا كبيرا من انتاجها . وليس هناك اليوم اية دولة افريقية منتجة للورق . والهوة شاسعة بين البلاد المتقدمة والبلاد النامية في هذا المضمار اذ ان استهلاك البلاد المتقدمة ذات اقتصادات السوق قد بلغ في عام 1974 تسعة اضعاف استهلاك بلاد العالم الثالث مجتمعة ، علما بان هذه الدول تصدر 55٪ من المواد الاولية اللازمة لصناعة الورق . لذلك فانه يجب البحث بدقة عن جميع امكانيات تنظيم انتاج الورق وترشيد استعماله بما فيها طرق توفيره ، خاصة وأن هناك مبادرة قد اتخذت بالفعل بالتعاون مع المنظمات الدولية المختصة لدراسة نتائج الوضع الحالي والمرتقب على الامدين القصير والمتوسط بالنسبة لتطوير الاعلام والاتصال حسب مختلف مجموعات الدول وعلى الصعيد الدولي .

سابعا ـ تكنولوجيا الاعلام ، متضمناتها وتناقضاتها

209 ـ في الوقت الذي تشهد فيه الدول الصناعية ثورة عارمة في عالم تكنولوجيا الاعلام والاتصال قلبت مؤسساتها راسا على عقب وعدلت أنماط الحياة وفتحت آفاقا هائلة أمام اثراء الشخصية الانسانية وتحقيق الاجتماعي في نفس الوقت الذي تهدد فيه القيم الاجتماعية ، فان الدول النامية تستفيد استفادة محدودة وبطيئة بالتجديدات التقنية والتي لم تكن على اي حال لتلبي متطلبات التنمية فيها ولم تأخذ بعين الاعتبار امكانياتها في التخطيط والادارة ، وكثيرا ما عجل بادخالها في اطر حياتها دون اعارة اهتمام لمشاكل التقييم والنقل او لما هناك من اعتماد متبادل بين الاجهزة المادية وبين البرامج الفكرية. وربما كان مجال الاتصال هو المجال الذي يزداد فيه اتساع الهوة بين البلاد المتقدمة والبلاد النامية بشكل خطير . وقد تسفر هذه الهوة عن نتائج لا يمكن تداركها اذا لم يعمد فورا الى اتخاذ تدابير تصحيحية . وايا كان الامر فان ذلك هو احد الجوانب الهامة للاستراتيجية الرامية الى تحقيق المساواة في توزيع الموارد والامكانيات والتي تعتبر احد مكونات النظام الاقتصادي الدولي الجديد .

1 ـ المتضمنات الايجابية

210 ـ الانسان هو الكائن الذي يستعمل الرموز . وتعتبر بيئة الرموز والرسائل من اهم البيئات التي ينشئها (او التي يلوثها) . والوسائل التي تعطى لأنظمة الرموز اشكالها هي اليوم على شفا ثورة حقيقية تنطوي على شفا ثورة حقيقية تنطوي على سلسلة من التغيرات التقنية المتشابكة التي تؤثر على الاعلام والاتصال وقد تحدث على نطاق وبسرعة يتضاءل الى جانبهما كل ما حدث من تغييرات في الماضي .

211 ـ ويدور التجديد في الاتصال حول التطوير التقني لاشباه الموصلات . وقد ادى استخدام الجوامد ذات الطاقة العالية الى الاستغناء عن التكنولوجيات التي كانت تعتمد على الانابيب الالكترونية . وقد ساعد ذلك على فتح الطريق امام نظام اتصال ذات اتجاهين اكثر فعالية ولاسيما بالنسبة لأجهزة الاتصال والتحكم المستخدمة في مجال الاستراتيجيات والتقنيات العالية الكفاءة . وتستعمل الآن دوائر متكاملة متقنة تسمح بتكثيف عدد هائل من الوظائف الالكترونية في شرائح مجهرية من السيليكون او غيره من المواد . ويمكن ان تدخل هذه الشرائح الجاهزة الصنع والمنتجة على نطاق واسع في انواع كثيرة من التجهيزات الالكترونية تشمل فيما تشمله الحاسبات الالكترونية وكاميرات التلفزيون الفضائية . وتضفي هذه الدوائر قدرا كبيرا من المامونية على التكنولوجيا الرقمية التي بدا استعمالها في مجال تسجيل الصوت والصورة (التحليل العددي) . هذا وقد استطاعت هذه العناصر الالكترونية ان تحرز تقدما كبيرا بفضل الطلب المتزايد على الاداء المتقن من جانب هذه الدوائر في مجالي معالجة المعلومات والتكنولوجيا الفضائية ، مما فتح آفاقا واسعة امام تطبيقاتها في مجالات الاتصال .

ويمكن تصنيف اهم التجديدات التي تؤثر اليوم في صميم حياة الافراد والجماعات والامم والمجتمع الدولي ذاته ـ على النحو التالي :

أ ـ التجديدات الخاصة بالحاسبات الالكترونية :

(1) الحاسبات الالكترونية المسافية ؛ (2) البطاقات المصغرة (الميكروفيش) ؛ (3) أجهزة تخزين المعلومات واسترجاعها ؛ (4) الحاسبات الالكترونية من الآلات الحاسبة السريعة الى نظم المعلومات المتشعبة ؛ (5) حاسبات الفيديو

ب ـ التجديدات في اجهزة التسجيل :

(1) اجهزة التسجيل ؛ (2) الاجهزة الخفيفة لتسجيل الصوت والصورة (جهاز لتسجيل صور التلفزيون على اشرطة عرضها ½ بوصة وتتفق معاييرها ومعايير الاذاعة والتلفزيون). وهذا يسمح للجمهور بالسيطرة على التلفزيون عوضا عن مجرد خضوعهم له كما يحرر اجهزة الفيديو من قيود الاستديوهات .

ج ـ التجديدات في مجال ارسال المعلومات :

(1) التكنولوجيا العددية المطبقة على الصوت وعلى التلفزيون (التلفزيون العددي) ؛ (2) تسجيل واذاعة الصوت المجسم (الستريوفونيك) ؛ (3) توابع الاتصال الصناعية الدائرة في مدارات استوائية بحيث تؤمن الاتصال بين القارات عن طريق الصوت والصورة (نقل الصوت والصورة ، ال « فيزيوفون » ، وعقد المؤتمرات بين اشخاص موجودين في اماكن مختلفة) ؛ (4) الكابلات الجديدة العالية الكفاءة وذات المحاور المتعددة او الموحدة المحور ، والتي تزيد عدد القنوات عابرة المحيطات المستعملة للمخابرات الهاتفية ونقل المعلومات المرمزة ؛ (5) الالياف البصرية والانابيب الضوئية القادرة على نقل كميات هائلة من المعلومات (ملايين الاشارات الصوتية وآلاف الاشارات التلفزيونية مثلا) ؛ (6) نقل الصوت والصورة عن طريق الموجات المتناهية الصغر ميكروويف ؛ (7) الميزر (المكبرات الاشعاعية) ؛ (8) اشعة الليزر التي اوجدت نوعا جديدا من الاجهزة التقنية منها اجهزة لاجراء العمليات الدقيقة ـ جراحة العيون مثلا ، كما تستعمل كادوات صناعية تفتح مجالات جديدة لا حدود لها في مجال الاتصال؛ (9) ارسال البرقيات والتخاطب الهاتفي بالراديو ، حيث تستخدم اطياف الراديو في اغراض كثيرة التنوع تمتد الآن عبر الايونوسفير الى الفضاء الخارجي .

د ـ التجديدات في مجال استرجاع المعلومات واستنساخها : (1) التصوير بالاوفسيت ؛ (2) الطرق الكيميائية لاستنساخ الوثائق ، اسطوانات الفيديو ؛ (3) مناضد الفيديو لتصحيح النسخ وبروفات الطبع ؛

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(4) التصوير البارز Holography

(5) استنساخ صفحات الصحف والمجلات بالهاتف الصناعي ؛ (6) ساعات ذات لوحات عارضة تعلن الوقت بالترقيم أو ببلورات سائلة وضوابط الكترونية لاستعمالات جديدة لشاشة التلفزيون ؛ (7) اساليب الطباعة الالكترونية التي تجمع بين تقنيات الحاسب الالكتروني وبين تقنيات الطباعة الحالية مما يغير تغييرا جذريا طرق انتاج الصحف والدوريات بزيادة سرعتها مع خفض تكلفتها باللونين الابيض والاسود أو بالالوان المتعددة ؛ (8) آلات طابعة تعمل بسرعة كبيرة تستنسخ في نفس الوقت الصور والالوان ؛ (9) الاستنساخ من بعد على الآلة الكاتبة ؛ (10) اجهزة فوتوغرافية مسافية ؛ (11) أجهزة مستقبلة للصور الالكتروستاتية .

212 ــ وهكذا فان تقنيات الاتصال الحديثة تهيىء لمنتجي الاجهزة ولمنتجي البرامج الاعلامية كثيرا من السبل الجديدة وامكانيات الخيار بين مختلف الاساليب . وتجدر الاشارة الى ان المنتجين في كلا هذين المجالين يتجهون نحو الاندماج فيما بينهم . وتؤثر هذه التقنيات الحديثة على القدرات الابداعية ، فقد تخنقها او على العكس قد تنشطها . ويتحدث الفنانون اليوم عن فن في متناول الجميع يمكن لجمهور واسع الاستفادة منه . وكذلك فان على السياسيين ان يواجهوا مشاكل جديدة ويوجدوا حلولا لها ، وقد يمكنهم افساح مجال اكبر امام الجمهور للنهوض بالمسؤوليات وممارسة الرقابة والمشاركة . وسيستفيد المعلمون من جهتهم من الاجهزة الجديدة والفعالة التي يجب استعمالها استعمالا رشيدا . وسيستطيع القائمون على الاعلام والاتصال ادخال نماذج جديدة للمشاركة على الصعيدين الوطني والمحلي ، وسيصبح من الممكن على الصعيد الدولي انتاج سيل من المعلومات اكثر توازنا و « حرية » . فاذا اسيىء تطبيق هذه التقنيات الجديدة فانها ستخلق وضعا بالغ التعقيد . أما اذا احسن تطبيقها وتقييمها من حيث فوائدها وتكلفتها ونتائجها وحسن تكيفها مع حاجات من يهمهم الامر ، فانها تستطيع المساهمة بشكل فعال في ايجاد الحلول لكثير من المشاكل . وبصورة عامة ، فانه يمكن ان يكون لتكنولوجيا الاتصال آثار ايجابية ولكن لن يكون استخدامها وحده كافيا لاحداث التغييرات المرجوة لوضع معين بشكل آلي .

2 ــ دواعي القلق الجديدة

213 ــ بالرغم من ان الاكتشافات العلمية والتجديدات التقنية تفتح باستمرار آفاقا جديدة فان ثمة ثلاث اسئلة هامة لاتزال تطرح وتزداد تعقيدا ؛

أ ــ يتعلق السؤال الاول بالقيمة الحقيقية للتغيرات التقنية وعلاقتها مع غيرها من النشاطات الانسانية وخاصة منها السياسية والاجتماعية التي ينبغي ان تكون لها الاولوية على التقنيات ؛

ب ــ ويتعلق السؤال الثاني بنقل التكنولوجيا والتأثير الاجتماعي الثقافي الذي تمارسه . فهي لا تقتصر على كونها مجموعة من التطورات والادوات التقنية اذ انها تشكل جزءا من وسط معين لا يمكن فصلها عنه . كما انها تؤثر ايضا على البنى الاساسية للمجتمع وعلى اسس الاعداد والتدريب فيه . لذلك فلا يمكن ان تكون محايدة :

(1) لأن اختيار تكنولوجيا معينة يؤثر في حد ذاته على تحديد اتجاه المجتمع ، كما يتبين من عديد من الامثلة ؛ (2) لأن تأثيرها واستخدامها يتوقفان على السياسة المتبعة في هذا الاستخدام وعلى الظروف المحيطة به (يمكن للاذاعة مثلا المساهمة في تعجيل ادماج دولة نامية ما في اطار نظام من النظم المتقدمة ، كما يمكنها على العكس مساعدة الدول النامية على الصمود في وجه مختلف الضغوط والمحافظة على درجة معينة من الاستقلال والذاتية الثقافية في سياق عملية التنمية الوطنية) .

ج ــ اما السؤال الثالث فيتعلق بحكمة النقل المكثف للتكنولوجيا من البلاد الصناعية الى البلاد النامية . وقد تكون تقنيات الانتاج واسع النطاق كثيف راس المال ، التي طورت في اوروبا وامريكا الشمالية واليابان عظيمة المفعول . ولكن ادخالها في المجتمعات الفقيرة والمتخلفة لا يحل من المشاكل بقدر ما يخلق . فهي عادة باهظة الثمن بالنسبة لدخول السكان وتتطلب من البنى الاساسية في التعليم والصناعة ما يلزم عشرات اسنين لاقامتها . وقد تتسبب في اضطرابات اجتماعية فجائية قد تكون ابلغ ضررا من الاضطرابات التي احدثتها في وسطها الاصلي . ولعل الاهم من ذلك كله ان ادخال هذه التقنيات قد يحول دون نمو القدرات الابداعية لدى الافراد ، وهو امر يعد شرطا اساسيا للتنمية الذاتية . كما تجدر معرفة ما اذا كانت التقنيات المزمع ادخالها مناسبة للمجتمع فان معيار التكلفة غير كاف في حد ذاته ما لم يخضع للاهداف . ان الاهتمام المتزايد بالتقنيات المناسبة تفسر بان قيمتها تكمن في مواءمتها للبيئة الاجتماعية والثقافية أكثر مما تكمن في امكانياتها الاقتصادية او سلامتها التقنية . وفي كثير من الحالات يتسبب نقل التكنولوجيا المتقدمة آثارا مضللة ومخيبة للآمال . فالتقنيات المستوردة تعمل دون مع البنى الاساسية العلمية والتقنية المحلية . فاذا اريد ان ياتي نقل التقنيات بالفائدة المرجوة فلابد من العمل على ماءمتها واستيعابها وتمثلها .

214 ــ وبالرغم ان المعضلة لا تخلو من عناصر الالتباس والخطر ، فانه يمكن الاشارة الى الامكانيات التي تقدمها التقنيات البسيطة وقليلة التكلفة ومحدودة النطاق والتي اذا ما أدخلت في بلد ما لا تثير مشاكل معقدة فيما يتعلق ببنى مؤسساته . وقد اغفلت امر هذه التقنيات الدول الصناعية وخاصة الاكثر تقدما منها ، غير أنها تشكل بالنسبة للدول النامية اهمية اكيدة .

3 ــ التناقضات والمساوىء

215 ــ لقد كان لنقل التكنولوجيا آثار ضارة ، شأنها في ذلك شان جوانب اخرى كثيرة لاستراتيجيات التنمية . ذلك انه دون استعمال واسع للتقنيات الحديثة فان كثيرا من المشاكل تبقى دون حل . وهذا واضح في ميادين الصناعة والزراعة وانتاج المواد الاولية والطاقة . ولا شك ان الاتصال هو أحد الميادين التي استفادت من هذه التقنيات . الا ان هناك الجانب الآخر لهذه الصورة ، اذ ان نقل التكنولوجيا (1) يقتصر على تصدير التكنولوجيا الغربية التي تعكس الظروف والممارسات الاقتصادية والاجتماعية لجزء من العالم ؛ (2) ينزع الى كثافة راس المال اكثر منه الى كثافة اليد العاملة ؛ (3) يخلق تبعية بالنسبة لراس المال الاجنبي ولمصادر الامداد الاجنبية وبالنسبة للاذواق والرغبات الاجنبية ؛ (4) تتولاه في أغلب الحالات من شركات متعددة الجنسيات تسيطر على التكنولوجيا . (5) يفيد قطاعات مصطفاة في المجتمع (كالصحف والتلفزيون والهاتف) أكثر مما يخدم الجماهير ؛ (6) لا يسهم كثيرا في تحقيق الاستقلال الاقتصادي ولا في اقامة علاقات التعاون فيما بين البلاد النامية ؛ (7) يشجع على الهجرة من الريف نحو المدن ويضاعفها .

علوم

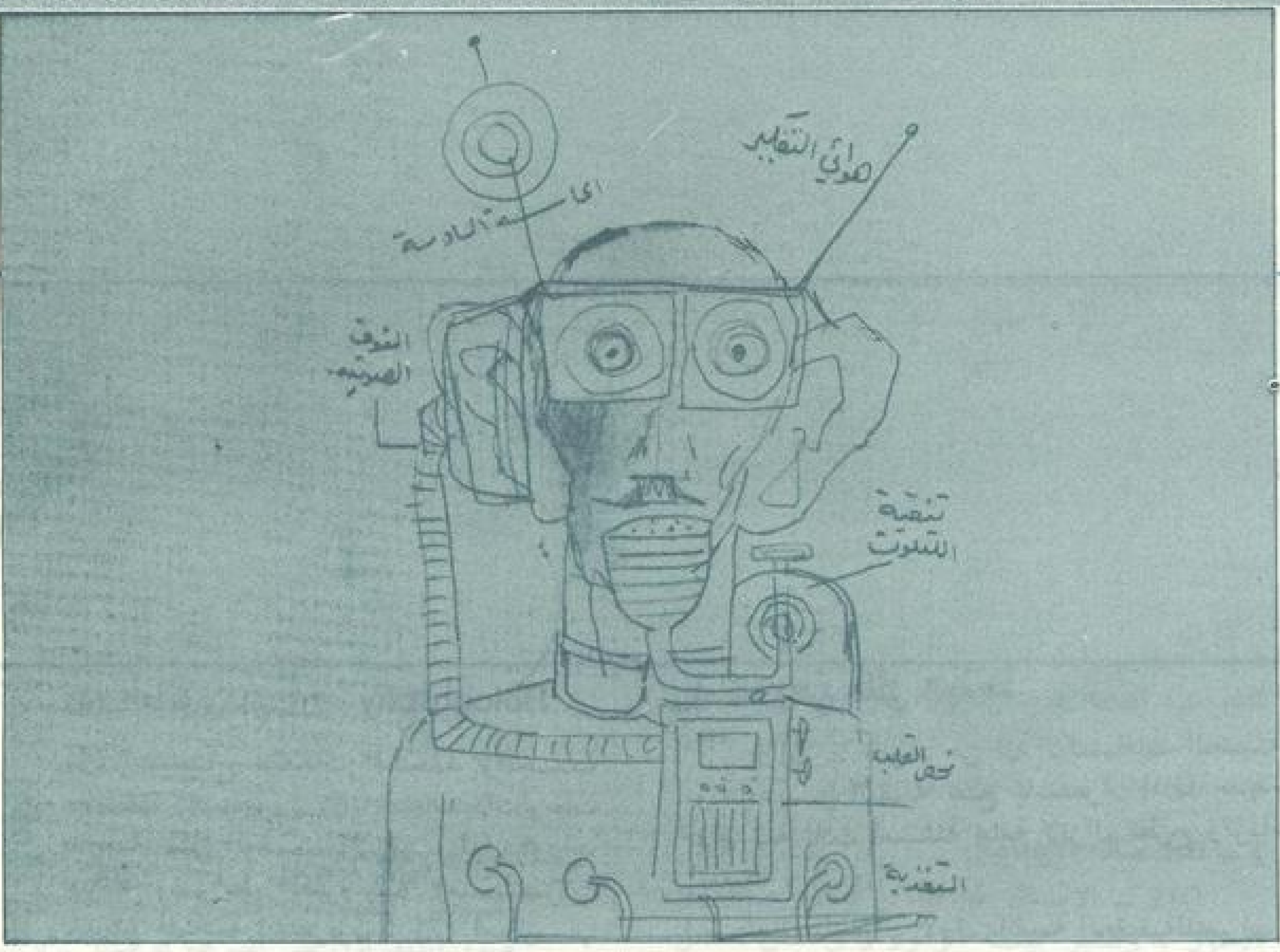

ادب الخيال العلمي و اراء حول انسان المستقبل

ان الانشطة الصناعية والعلمية في عالمنا اليوم قد حققت نتائج عملاقة ، ومستوى تطورها يمكن تشبيهه بالكوارث الطبيعية الجيولوجية . فتعاظم عدد المكتشفات العلمية ، والتأثير الصناعي السلبي على الطبيعة ،والاعداد الهائلة من المكائن والمعدات، التي اخذت محل الانسان في عمليات الانتاج ، قد اصبحت باجمعها من المشاكل الستراتيجية التي تواجه البشرية جمعاء . وهذه القضايا والمشاكل تشكل اليوم الموضوع الرئيس لادب الخيال العلمي . وعلى هذا الاساس ايضا ، فان تسمية هذا اللون الادبي ب « الناظور المكبر للحاضر » لم ترد عبثا .

قديما ، تصور الاديب المعروف جول فيرن ، ان العلم سيتيح امكانيات السيطرة على العالم بسبل سلمية . ولكن واقع الحياة قد برهن له ، على وجود نوعين مختلفين من العلوم ، رغم وجود الفكرة القائلة ، بان هدف العلم هو خدمة البشرية . ومع ذلك ، فان البعض ينظر الى العلم كوسيلة لاضطهاد الاكثرية من قبل الاقلية . فالعلم ينبغي ان لا يتجاوز اخلاقية الانسان ، والا فانه سيتحول الى خطر يهدد حياته . ان هذه المقولة تشكل الفكرة الرئيسة لآخر الروايات المثالية ـ الخيالية العلمية لجول فيرن .

ان القاسم المشترك الذي يجمع ادباء الخيال العلمي ـ التقدميون منهم بشكل خاص ـ هو موقفهم الاخلاقي ، لأن مايحفزهم على العطاء الفكري ، هي مسائل تكاد تكون متشابهة ،تتعلق بمسؤولية الانسان تجاه الحاضر والمستقبل . ومن جملة هذه المسائل التي تناولها هؤلاء الادباء، ضرورة توجيه الناس لتوظيف معارفهم بشكل منطقي ، والالتزام بتربية الاجيال بروح الحفاظ على كوكبنا الارضي وصيانته . فمذهب الانتصار على الطبيعة لجول فيرن قد حل محله اليوم مبدأ حماية الطبيعة على اساس عقلاني جديد . وهنالك مسألة اخرى ، يمكن استخلاصها مما سبق ذكره، وهي ضرورة ارشاد البشر للتحلي بالمثل الانسانية ، لكي يصبحوا افضل واطيب مما هم عليه الآن .

انسان المستقبل

كيف سيكون الانسان بعد مرور 200 او 500 او 1000 عام ، خاصة عندما سيتوسع نشاطه في الفضاء ؟

ان اجابات ادباء الخيال العلمي حول هذا التساؤل في غاية التعقيد ومشحونة بالآراء المتناقضة . فالنماذج الاجتماعية التي تقدم للقاريء ، تتحدد معالمها من خلال موقف كل منهم تجاه العالم ، ومن التصورات الناجحة عن تطور المجتمع البشري .

حول مستقبل الجنس البشري ، على سبيل المثال ، هنالك تصورات متباينة يتناولها ادب الخيال العلمي ، ومنها :

1 ـ سيكون الانسان ضحية للحضارة الاحادية الجانب . اي انه سيكون جزءا من نظام المكننة الاوتوماتيكية . فالتغذية المركبة الجاهزة ستؤدي الى انحطاط بيولوجي . اي ان الانسان سيتحول الى كائن ضعيف عديم الاسنان ، كبير الجمجمة ، هزيل الذراعين والساقين .

2 ـ ان الانسان سيبقى انسانا ، وسوف لن يتغير مظهره الخارجي . ولكنه سيكون تحت سلطة الاتمتة ، التي ستحل محله في كافة قطاعات الحياة . فالماكنة ستغذيه وستلبسه ملابسه وتوفر له امكانيات التدفئة والتبريد ... الخ ، بل وحتى انها ستحل له همومه ، وهكذا ستجعله عبدا لها . وفي ضوء ذلك ، فان التقدم التقني ـ العلمي سيوفر امكانية بناء كومبيوتر عملاق ،تتجمع فيه كافة المعارف الانسانية ،اي انه سيتحكم بالبشرية ، وسيبدو كالاله .

3 ـ ستحل محل الانسان كائنات آلية ، ستصنف الى مجاميع كمجموعة الفا او بيتا او كاما ، ولكل منها مهمة محددة . وهذه الكائنات يتم تكاثرها في اجهزة تفقيس . ويذهب بعض ادباء الخيال العلمي في نتاجاتهم . وخاصة في البلدان الراسمالية ، في تنبؤاتهم حول المستقبل بتصورات خيالية تفوق حدود الميتافيزيقية . فالانسان الآلي سيتقمص شخص الانسان والاخير بدوره سيتحول الى كائن آلي .

4 ـ ليست هنالك حاجة للتخوف من المستقبل . بل على العكس من ذلك ، فان التطور الانساني بامكانه ان يذلل اية كارثة قد تواجهه في المستقبل . فالاجيال القادمة ستتوفر لها امكانيات التقدم الاجتماعي الانساني في كافة قطاعات الحياة ، بالاخص الفكرية والثقافية ، سواءا كانت على كوكبنا الارضي او الكواكب الاخرى في مجمل الكون. فالبشر في القرن الثلاثين سيتمتعون بحياة سعيدة في ظل مجتمع تنعدم فيه الفوارق الطبقية .

ان ادباء « العالم الحر » يدعون انتناقضات المجتمع الراسمالي ستواكب مسيرة التطور الانساني في المستقبل ايضا ، بل انها ستنتقل ايضا الى عوالم الكون الاخرى . انهم يتحدثون في رواياتهم حول كائنات بشرية عنصرية غريبة الاطوار ، على نمط الانسان الآلي ، التي تستخدم ابشع اسلحة الدمار كاشعة ليزر لتهديم العالم . وعلى هذا المنوال ، فهم يحاولون تنبيه البشرية من الاخطار الرهيبة التي ستواجهها مستقبلا .

لقد ظهرت في خلال السنوات الماضية ايضا ، محاولات ادبية خيالية تدعي ان المخرج الوحيد من هذه الكوارث المستقبلية يكمن في « عالم حضاري بلا تكنيك » اي العودة الى العصور العريقة في القدم .

ان المستقبل في نتاجات ادب الخيال العلمي التقدمي يبدأ من الوقت الحاضر . فصياغة حياة المستقبل تتوقف على جهود الانسان نفسه . فقبل عشرات السنين ، اكد العالم الفلكي كونستانتين زيولكوفسكي على ذلك بقوله « ان كل انسان مدرك يساهم في صنع مستقبل افضل ، وسيادة التعقل في الكون » .

ترجمة واعداد : غانم محمود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المكتبة

الرومانسية

بقلم : هيو اونر

ان اغلب كتب الناقد « هيو اونر » تدور حول القرن الثامن عشر الذي يبدو بالنسبة اليه عصرا غير قمعي ومتسما بالحرية ،فقد اكتشف ان في تلك الحقبة شيئا من اللا معقولية التخيلية المدمرة .

لذلك فان احدى كتبه حول القرن الثامن عشر تتخذ في الغالب سمات الزخرفيه في الفكر والاسلوب معا . اما الكتاب الاخر فانه يتعلق بالاختراع غير المالوف ، المتسم بالغرابة ، والارض الذهبية الشجراء الجديدة .. القارة الامريكية .

واليوم ينجز هيو اونر تصوير الخصائص والشخصيات لتلك الفتره الزمنية بدراسة الثورة الرومانسية التي شهدها القرن الثامن عشر والتي دمرت نفسها .

وليس من شك بان اونر يعترف ويسلم حالا بالصدف و الاحداث غير المتوقعة من روح المبادهة التي تخللتها .

ان الرومانسية بطبيعتها الخاصة لايمكن تحديدها . .انها ترفض حتى ان تحجم زمنيا ، وان تكون موضوعية، ولا تقبل بان يطلق عليها ظاهرة تاريخية .. انها المزاج العالمي ، او النزعة المتسمة بالنزوة وسرعة الاحتياج .. أو تلك الحالة من الذهن الذي يدور في جميع الازمنة والثقافات، بل ان اطلاق صنعات القوانين او المبادىء العامة غير مسموح به ... انها تمثل الفردية في الرؤية التي تصر الرومانسية على السكنى في قرارتها ، التي تعبر عنها اللغة العادية من اشكال الاوزان الحسي والذهني ووسائل التعبير .

ولغرض منع تحديد مفهوم الرومانسية ، فان الكاتب اونر يقدم نوعا من الكمال ، بديلا مناقضا لذاته .

ان الفارس الدارع الجريح لـ «جريكولت» ولوحة الناسك المتعبد لـ « اوفر بيك »من جملة ما أشار اليهما اونر كبطلين رومانسيين

وبعبارة اخرى .. يعبر عنهما بانهما لايكمن ان يكونا شيئا في الوضع العادي . وحتى اسم الحركة النوعي يبقى عديم الدقة و متنازعا عليه .

اما بودلير .. فان الرومانسي بالنسبة له كان مرادفا للحداثة تقريبا ، وان معظم الرومانسيين الاصلاء مثل « غوته » و « بايرون » و « دي لاكروا » مثلا رفضوا بحنق واصرار اطلاق الصفة او الشعار ، واعتزوا بانفسهم ازاء نتاجاتهم الكلاسيكية .

غير ان العقبة المنهجية في البحث قد برزت فضيلتها من قبل اونر حيث وفر على نفسه مشقة الجهد النظري في عملية الاحصاء ، وكرس دراسته على عرض بياناته وتلوينها من خلال طرح ثلاث لوحات متناقضة لاعمال متباينة من قبل فنانين ينتمون الى جنسيات متعددة وهم كاسبار ديفيد فريدريك في لوحته « تسلق الجبل » و « ركام جليدي » لتورنر و « ارض المعركة » لكروس .. وفي كل لوحة منها اشار الى النوع المختلف من الانفصام والثغرات فيها مع عرض تقليدها الفني فنرى مثلا ان فريدريك ينقل السمو الديني في القرن الثامن عشر خلال وحدته .. الى التامل الباطني وصوفيته المبهمة ، بينما يشوش تورز طبيعة القرن الثامن عشر الهادئة الرائعة ، ويجعلها اداة تعذيب من العنف الفجائي العنيف ، كما ان كوارث تورز الاساسية تقلل من ضحاياها الانسانية ، وتنتقص من قيمة الجهد البطولي .

وعلى اية حال فان كروس ينكر صحة هذه القصيدة التشاؤمية ويناقضها في رؤيته الى ظفر نابليون، غير ان اسلوب كروس يتخذ شكلا معاكسا في الوقت نفسه من خلال لوحاته الناجحة ، وان تراكم الجثث في ارض المعركة يدفع به الى القناعة التامة بنابليون بونابرت ويرفع من ابطاله المدمرين بالنسبة للوحات الرومانسيين من بعده .

ان اونر يشير اليهم كمنابع لضحايا « غويا » وان اكلة لحوم البشر لجير يكونت يتكاثرون في « ميدوزا » أو يتاكلون ، وانهم ينتهون كما في لوحة دي لاكروا .

ان مناقشة اونر للوحات تبقى ناقصة من خلال هذه الطريقة ، لان الاسلوب الرومانسي نضج من العزلة الذاتية الفلسفية ، وان الاسلوب [illegible] لكل فنان عرف اتجاه الاشعة ، واعادة ترتيب العالم .. لذلك فانها ترسل الى توقعه الحالم .. ولان الاسلوب انحلال الطبيعة وذوبانها وتحويل اغراضها المغلولة الى اهداف ذهنية كما فعل « شيللي » في انكاره وجود القبرة اينما كان هناك طير في الحياة ، وكما فعل تيرنر في اسالة اشكال الصلدة .. انه يرسم الرومانسية وينزع اليها باتجاه التجريد عندما يكون الاسلوب حرا في النهاية الى حالة يجهر فيها باستقلالية العالم الخارجي .

وكما يؤكد الكاتب أونر ، فان هذا التطور قد اشير اليه من قبل « كونستابل » الذي وصف فنه بالتجريد والشاعرية لانه لايتم بدون الطبيعة ، ولكنه في بعض الاحيان يبقى خارج حدود اللاشيئية .

ولقد سبق لكونستابل الادعاء بانه لم يسبق له رؤية شيء قبيح . وكانت ملاحظته هذه تهنئة للطبيعة، ليس لها وحدها بل لتحويل قدرة احساسه بالفهم الذي يمنح الطبيعة جمالا لايمكن امتلاكه .

ولقد تجاهل « هازليت » على تجريدية تورز واتهم رسومه بانها كانت لاتمثل اغراض الطبيعة بشكل ملائم حتى في نسبية متوسطة بالقدر الذي ترى فيه .

ان الاقتحام الموضوعي الصارم للطبيعة يورط الفنان الرومانسي ويرسم ذاته في تمثيل غيابه الخاص ، ولذلك يكتب اونر فصلا اضافيا وقيما عن الاستحواذ الرومانسي المشبع بالفن التصويري للطبيعة .

اما أوتورونج فيصف المنظر الطبيعي الخلاب بانه التكافؤ الرومانسي للفن الكلاسيكي في مجال الرسم التاريخي .

ولما كان فن الرسم التاريخي يحتفل بالقدرات الموضوعية للفعل ، فان المنظر الطبيعي الجميل يرسم المنابع الموضوعية للفكر والاحساس، وعليه فان النحات « ديفيد انكرس » استطاع ان يقول بان فريدريك ابتكر نوعا جديدا من المنظر الطبيعي المأساوي الخلاب ، كما ان « وورد سورث » فعل الشيء نفسه في تراجيديا ميشيل التي سجلت على ركام من الصخور التي اخذت من بيت « مارغريت » المهدم لتغطى الحديقة بها .

ان المنظر الطبيعي الرومانسي كما يقول أونر يمنح ثقته لشكوك الانسان بالنسبة لمقتصده المجابه ، لذلك فان « خطائر الغنم » لميشيل و « حدائق » مارغريت تمثلان المحاريب المدنسة ، ومع ان الاله قد انسحب من الطبيعة ، الا ان الادراك الحسي الرومانسي يطرح وسيلة اختيارية من القداسة .

ولقد وصف هوفمان رسامي المناظر الطبيعية بانه منحه مقبولة من خلال الاستماع الى صوت الطبيعة المعاد بالابهامات اللا متناهية عبر الاشجار والهول والازهار والمياه والجبال .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وذات مرة عبر تورز : بان الشمس هي الله .. اما الفنان كروسي فانه يزود الغيوم بالملائكة .

ولكي نفهم الرقة الرومانسية ورؤاها الملهمة لابد من ان نتلاشى في الطبيعة ، وان أوز مهيا لاستبانة المجازات في اغلب المناظر الطبيعية ذات الابعاد القصصية الطليقة ...

فالفتيان على الجسر في لوحة « كريستين كوبك » يمثلون كما يرى رموزا تحدق الى حياة النهر ، الذي يندفع تحتهم بسرعة ، كما ان لوحة الحديقة الفينيسية الهادئة التي رسمها « فون انجيرت » تمثل جنة لدير ورع ، توجد فيها امراة مقطبة ، وهي تقرؤ في كتاب يجزم أونر بانه الانجيل .

وكأي انسان ينتمي الى القرن الثامن عشر ، فان اونر يرى بان الرومانسية تفضي الى الاعتلال العقلي الهائج .

ومن استنتاجاته الخاصة بهذا المعنى ، يقتبس من مساجلات جوليان لشميدت ، ويشير بان النقطة البارزة من التبجحات الحقيقية المنفصلة عن العالم الحقيقي تكمن في الجنون نفسه ، الذي يعبر عن الخيال الكلي المتحرر من الحقيقة .

ان كتاب أونر يرسم خريطة فريدة لهذا النوع من الانحلال .. مستهلا بالتمرين الخلقي للرسامين عبر المنظر الطبيعي ، لكنه ينتهي الى تقديس العبقري وانعطاف الفنان نحو الجنون وعوالم الاحلام الذاتية المفرقة في الغموض والابهام .

ان من الواضح بان المؤلف لم يتأثر بالاصابة الحقة بالعدوى الرومانسية، بيد ان من الممكن ان يكون هذا السبب هو الذي جعل من كتابه شيئا كبيرا يمتاز بالعدالة ، والقدرة الفائقة ، وبالشفافية والتأنق الصافي .

ترجمة : علي الحلي

الوالد الرهيب

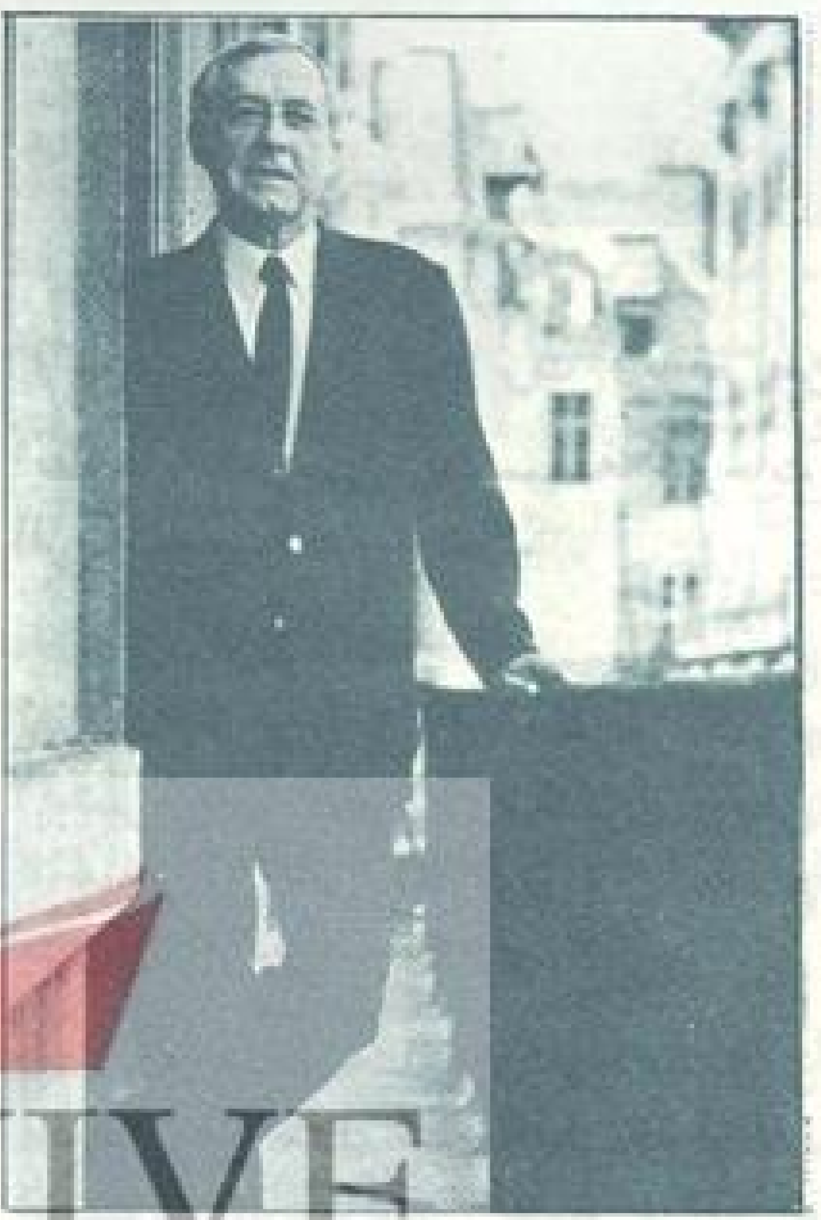

احدى الروايات التي صدرت اخيرا في باريس « ميراث الريح » للكاتب الفرنسي جون فروستييه . والمعروف ان الكاتب المذكور سبق وان صدر عددا كبيرا من القصص . الا ان قصته الاخيرة وكما وصفها أحد النقاد الفرنسيين في مقالة نشرت في مجلة « نوفل اوبزرفاتور « هبي »: كتاب يخفي سيرة ذاتية للكاتب وخيالا خصيبا . انه يطرح علينا صوتا واضحا ، جافا ، لايخطيء ، وجزء قاسيا من الحقيقة العارية « ميراث الريح » هي بالفعل سيرة ذاتية رائعة تركزت حول « مواجهة الابن لابيه » .

حين يتحدث الانسان عن نفسه فانه يتحدث في الواقع عن غيره ،وحين يتحدث عن الغير فانه يتحدث عن نفسه . هذه القاعدة الغريبة والحقيقية ذات الوقت تنطبق تماما على جون فروستييه وقصته الاخيرة. احداث القصة تدور حول ابن يحاول وصف ابيه وهو في ذلك يصف نفسه . تروى القصة على لسان راو وهو الطبيب بير الذي يصبح كاتبا يختار اسم واحد من اجداده ويتخذه لقبا له . هذا الجد كان يعمل بحارا في زمن الامبراطورية الاولى ، سجن فترة في انكلترا بعد هزيمة بحرية ثم يستقر في ليستراك حيث يصبح صيادا ورساما ساذجا يحاول دون كلل ولا ملل ان يصور المعركة الخاسرة . اختيار بطل الرواية لاسم هذا الجد هو التعبير الاول عن رفض شكلي لوالد يجر وراءه سنواته الست والتسعين في منزله في ليستراك حيث يرتمي ابنه منذ المراهقة في احضان الخمر والسجائر والمورفين ويبقى عبدا لها طيلة اربعين عاما .

اسلوب الياس :

ان مجرد كتابة هذه القصة هي تعبير اخر عن رفض الابن لوالده . الابن في الستين لا يريد سوى ان يتخلص من كونه ابنا لهذا الوالد وان ينتهي من احساسه بكونه مستعبدا لشيخ ليستراك . الا ان الكتابة تعلمه انه كلما تعمق في شخصية والده كلما ابتعد عنه الى مكان لا يعود يراه فيه . الا ان هناك ما هو اسوأ وهو انه اضطر الى الاعتراف بانه اراد ان يكون خلافا لوالده الذي كان يسيء معاملة زوجته ويحتفظ بعشيقات في مختلف زوايا المدينة ، الا انه وجد نفسه يسير في نفس طريق والده « انه يشبهه في محاولته للتميز عن الاخرين » .

الكتابة بالنسبة لهذا الابن هي مد وجزر مستمر ، مد يطرد وجزر يسترد . يطرد الوالد والماضي المليء بالثقوب « ليت والدي يموت فلا أعود أملك اي ماض » . ويسترد الوقت محاولا الامساك به ومنعه من المضي .

ان كتاب جون فروستييه مكتوب باسلوب يائس ، بسبب اليأس ، المشاكل ، الدموع ، ضرب الراس في الحائط الا انه ايضا اسلوب هاديء رزين وممتع اتاح المجال للكاتب في القول : « ليس أسهل من الصبر بالنسبة لاولئك الذين لا ينتظرون شيئا » . « ميراث الريح » هي افضل قصة لجون فروستييه كما انها ايضا افضل سيرة ذاتية كتبت حتى الان .

ميسون ابو الحب

مجلة «السياسة الجديدة»

صدر مؤخرا في مدينة هامبورغ العدد السادس من المجلة الالمانية الشهرية « السياسة الجديدة » التي تشرف على اصدارها دار نشر « نويه بوليتيك » . ان هذه المجلة تعير اهتماما خاصا للاحداث الجارية في الوطن العربي ، ولها مواقف ايجابية تجاه قضايانا العربية المصيرية ، اضافة الى تناولها لأهم الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية العالمية .

من بين ابرز المقالات التي وردت في هذا العدد الجديد من مجلة « السياسة الجديدة » :

■ مقالة رئيسة بعنوان « انعطافة تاريخية في الوطن العربي – بغداد ودمشق تتسلمان القيادة » لرئيس تحرير المجلة ولف شينكه ، اوضح فيها اهمية وفاعلية اللقاء التاريخي الكبير بين القطرين الشقيقين العراق وسوريا ، باعتباره خطوة رائدة نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ،

خاصة وان الوحدة العراقية ـ السورية تمثل القاعدة الصلبةلمواجهة التحديات والمؤامرات الامبريالية الصهيونية . كما واشاد بميثاق العمل القومي المشترك ،الذي وقعه الرئيسان احمد حسن البكر وحافظ الاسد .

حول الاهمية الاقتصادية للوحدة بين العراق وسوريا كتب رئيس تحرير المجلة « ليس ثمة شك في ان توحيد الامكانيات العراقية السورية سيقدم زخما قويا لكل المنطقة . ولو اخذ المرء بعين الاعتبار التحول السريع القائم في الاقتصاد الزراعي والصناعة ،استنادا الى المواد النفطية العراقية ، فان ذلك سيؤول الى نشوء اقوى سلطة اقتصادية في مجموع المنطقة العربية » . وكتب ايضا حول الاهمية السياسية للوحدة « سياسيا ، تعني الوحدة بين العراق وسورية ، حدوث انعطافة في مجمل تطور الوضع في الشرق الاوسط .. فحركة الوحدة العربية ستمتلك مركزا جديدا وقويا لقيادة النهضة العربية، الذي في طبيعته وتاريخيته ، انه كان الى ماقبل مرحلة معينة ، موطنا سياسيا وفكريا للحضارة العربية العريقة » .

■ البحث الكامل الذي اعده الاستاذ كاظم جواد حول موضوع « التعاون النازي ـ الصهيوني قبل واثناء الحرب العالمية الثانية » الذي سبق وان نشر على صفحات الجرائد والمجلات العراقية .

■ اللقاء الصحفي الذي اجراه رئيس تحرير المجلة في دمشق مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ابو ميزر ، وذلك تحت عنوان « حديث في دمشق ـ ابو ميزر : القضية الفلسطينية تاتي في المقدمة ـ اتهامات مريرة تجاه بون» . وهنا يجدر التنويه الى ان رئيس تحرير المجلة ولف شينكه ، قد قام بزيارة العراق وسوريا مرات عديدة وحضر مؤتمر القمة التاسع للرؤساء والملوك العرب في بغداد .

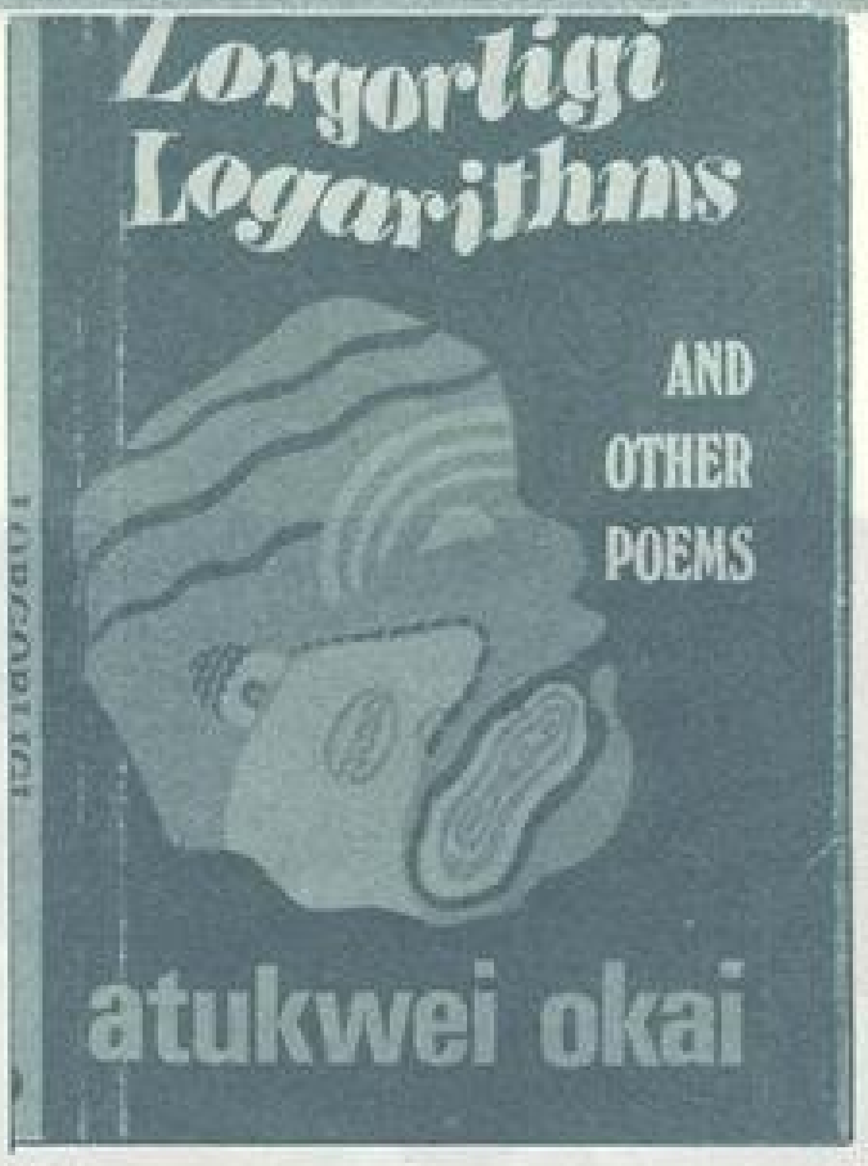

اللوغاريتمات

ديوان شعر : اتاكوي اوكاي

للشعر الافريقي المعاصر مناق خاص ، لا بل له لونه المتميز الذي انطبعت فيه صورة القارة السوداء وما تحمله من مخاض عسير اذكته الظروف والصراعات التي خاضتها وتخوضها هذه القارة المناضلة .

واذا كان الشاعر الافريقي المعاصر يحتل مكانة خاصة لدى مجتمعه فان ذلك متأت من دور الشعر الطليعي في التعبير عن قضايا الشعوب الافريقية وكفاحها العادل من اجل حريتها واستقلالها والقضاء على كل اشكال التمييز العنصري الذي كان ينخر في جسد الوطن الافريقي .

في افريقيا كتاب وشعراء كتبوا بالانكليزية والفرنسية والبرتغالية ذلك انهم تعرفوا على الثقافة الغربية بحكم عوامل واسباب عدة .

لشاعر « غانا » الكبير « اتاكوي اوكاي »صدر ديوانه «اللوغاريتمات» والذي يضم مجموعة كبيرة من القصائد كان قسم منها قد ظهر في انكلترا يوم كان طالبا في جامعة لندن وحصل على الماجستير في الفلسفة منها .

لقد اكتسب اوكاي شهرة عريضة في غانا وفي اوروبا بطرقته الفريدة في القاء اشعاره والتي عرف بها من بين شعراء القارة السوداء كما ان « اللوغاريتمات » يعتبر علامة مضيئة في الادب الافريقي ذلك انه صورة صادقة للحياة الافريقية بمختلف شرائحها الامر الذي جعل من اوكاي رئيسا لرابطة الادباء في غانا .

اما لغة الشاعر فهي تعبير متميز بكثرة الاستطرادات والاقتباسات من لغات اخرى ، الا ان الذي يعطي الشاعر مكانة منفردة هي الموسيقى الراقصة التي تنساب عبر مقاطعه الوثابة .

ناندا

تأليف : محمد حمد الصديغ

كثيرا ما يلجأ الشعراء والكتاب الى اكثر من وسيلة تعبيرية لتصوير احاسيسهم وآرائهم ـ ليس من باب التجريب وانما انطلاقا من ان تعدد الوسائل التعبيرية من شأنه أن يعين الكاتب على ترجمة أفكاره وما يعتمل في خاطره . من هنا نجد الاستاذ محمد حمد الصويغ في « ناندا » يطلع علينا شاعرا قاصا وكاتب خواطر حاول عبر هذه الصفحات وبلغة شاعرية محلقة أن ينتقل بالقارىء الى أجواء من الحوار الفلسفي الدرامي امسك بتلابيب القارىء حتى النهاية .

ان « ناندا » مزيج من عدة انواع ادبية يجمع بينهما خيط حواري كان له ان يسلط الضوء على هواجس الكاتب ورغبته في مهاجمة الواقع بكل الاسلحة المتوفرة لديه ، ولقد بلغت السخرية عنده حدا جعله يطلق الرصاص في اكثر من اتجاه مما حدا بالقارىء لأن يقف في عدة محطات وهو بانتظار القطار الذي لم يأت ومن هنا تكون المرارة التي نتلمسها في تضاعيف « ناندا »

مهما يكن من امر فان « ناندا » تنهض دليلا على قدرة « الصويغ » على رسم الصورة التي يريد لها أن تكون نافذة يطل منها على العالم ، ذلك الخضم الصاخب من التناقضات والمليء بالصراعات بين قيم الخير والشر .

صديقي

للشاعرة فاطمة حداد

الشاعرة فاطمة حداد شاعرة من سوريا تطل بوجها السافر من خلال شعرها الذي منحته كل وجودها وحياتها واغتسلت في بحيراته نافضة عنها كل ترسبات الألم والحزن .

في مجموعتها الشعرية «صديقي» التي تحتوي على اثنتين وثلاثين قصيدة تظهر سمات مختلفة وخطوط متباينة لشاعريتها تاخذ بالصعود احيانا ثم تميل قليلا قليلا الى مدارج الهبوط . وذلك لانها ـ كما يبدو ـ تكتب شعرها بعفوية اكثر مما ينبغي والشعر لم يعد في عصرنا هذا محض انسياب وعفوية في كل مضباته وينابيعه . وانما هو وعي داخلي وتجربة حياتية لها ابعادها وعوالمها المتغلغلة في اعماق الذات .

وقد استطاعت ـ بشكل ناجح ـ ان تكسب تجربتها في قصيدة « نشوى » التي أبدعت في بعض ابياتها مثل :

وخيام رمت لو اسكنها

وسحاب خلته ضوء القمر

آفة الانسان شؤم اسود

غاب في آفاقه الفجر الأغر

وبالرغم من ان أغلب قصائد المجموعة تتسم بالخط الوجداني والحس الذاتي الا أن بعضها تدور في محور القضايا الاجتماعية ذات الصفة النضالية ، مثل : « ثورة تشرين ، واقتناص الطائرة الليبية ، وقدسي ، وابن الشهيد ، وعوسج الكادحين ، وموكب الراحل جمال عبدالناصر » وفيها يبرز حبها للوطن والامة التي اطعمتها لهب الحب وسكبت في روحها شاعريتها العذبة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معارض

باريس ـ موسكو

اقيم في العاصمة الفرنسية مؤخرا أول معرض من نوعه تحت عنوان باريس ـ موسكو ، كرس لتطور الفنون والثقافة في الاتحاد السوفيتي وعلاقتهما بالثقافة الفرنسية. وهذا المعرض لن يتمتع بمشاهدته الجمهور الفرنسي فقط بل والجمهور السوفيتي ايضا اذ من المقرر ان ينتقل الى مدينة موسكو في السنة القادمة .

مقدمة

عندما يتغير مجتمع ما تغيرا جذريا كالذي حدث في روسيا عام 1917 ، فان الثورة تلتقي بالفن في النقطة التي هو فيها ، بكل اتجاهاته التي تغني بتنوعها الملامح التي تسبق الحركة الاجتماعية . كما تعترضها الاتباعية التقليدية على اختلاف أشكالها .

ان الواقعية لم تكن وليدة أكتوبر الاحمر او ما أفرزته الحرب الاهلية من صور بطولية لا جديد فيها . فقد تطورت على امتداد القرن التاسع عشر على أساس « فلسفة الاضواء » . ولكنها لم تستطع ان تصبح « فنا جماهيريا » في بلد تشكل فيه طبقة المزارعين التي خرجت لتوها من عهد القنانة ، اغلبية السكان .

كانت الطلائعية على الطريق منذ زمن بعيد . وهي هنا ممثلة بواحد من مبشريها الكبار هو « كاندنسكي » .

انها وليدة تأمل عميق جمع بين الموروث الثقافي بعيد الجذور وبين اسهامات اوروبا الجديدة .

أما العصرانيون الذين كانوا بدورهم كثيرين ، فانهم ولاشك كانوا أكثر قربا من عالم الايقونة (رسم على الخشب والمعادن يمثل مشاهد دينية) . غير انه كان من الصعب عليهم ان « يفهموا » بشكل أفضل في ظل الاوضاع الثقافية السائدة آنذاك .

ولا يفوتنا هنا القول بأنه سبق لهم وأن ساهموا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، في رسم صورة القرن العشرين وما حمله من حركة وسرعة معتمدين في ذلك على تجريدية واضحة كان التناقض بين الطموح والامكانات الابداعية الفنية من جهة والمستوى الثقافي العام من جهة اخرى ، ظاهرة اجتماعية سيكون على السياسة ، فيما بعد أن تاخذها بعين الاعتبار .

لقد كان للثورة الاشتراكية ، خلال السنوات الاولى ، الفضل في خلق ساحة صدام بين مختلف الاتجاهات الفنية . وكثيرا ما كان هذا الصدام ياخذ طابع العنف .

باريس ـ موسكو قبيل وبعيد 1917 . المعرض بسيط في تخطيطه ويغلب عليه الطابع الكلاسيكي . فعلى جهتي الممر المركزي الذي عرضت على امتداده الكتب والوثائق والمجلات والرسائل التي تشهد على انتقال الافكار بين العاصمتين .. توجد قاعات تعرض ، حسب الترتيب الزمني ، تاريخ الحركات التصويرية والثقافية الروسية ثم السوفيتية والفرنسية وتاثيرها المتبادل .

ويختلف هذا المعرض عن سابقيه :«باريس ـ نيويورك » و « باريس ـ برلين » في جانب جوهري منه . اذ ان محوره هو العام 1917 ، عام الثورة . فحول نموذج النصب الذي صممه تاتلين نرى الثورة بكل تفجرها ومظاهرها ... لقد نزل الفن الى الشارع وامتد ليشمل النشاطات اليومية . الثورة هنا تعني التحرير ، تعني اللقاء.

لقد منحت الاشتراكية التيار العصراني الروسي ـ الذي كان يطمح الى ازالة الحواجز من امام الفن ـ منحته الفرصة لان يحقق طموحه .

وهكذا كانت ، أي الثورة وراء نمو واضطراد هذا الحلم الكبير الذي كان يحوم في بداية القرن .

الطلائعيون

كان الفن ينمو ويتطور . وكانت الفترة الواقعة بين 1880 ـ 1905 . فترة مهدت لذلك. وكان الفن الروسي في بداية هذا القرن واقعا تحت تأثير البحث التشكيلي الجديد .

وتطورت بشكل متواز العديد من التيارات الجمالية : كالتأثيرية و « المودرن ستيل »والرمزية ورسوم الجوالين التي كانت في الوقت ذاته فنا واقعيا وشعبيا .

خلال تلك الفترة ، وبفضل الدور الذي لعبته حركة « عالم الفن » التي كان يقف وراءها الفنان « ديا غيليف » Diachilev تم اكتشاف غوغان وفان غوغ وبونارد ، كما تم اكتشاف الشاعرين الفرنسيين الرمزيين : بول فرلين وستيفان مالآرميه .

غير ان ثورة عام 1905 لم تحدث انقلابا في المعالجة الفنية . وكان لابد أن ننتظر حتى عام 1910 لنرى بان شيئا ما في أعمال بعض الرسامين كان قد بدا يجسد التحول الكبير الذي كان هدف الجميع والذي هو ضروري بالنسبة لحياة البلاد الجديدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

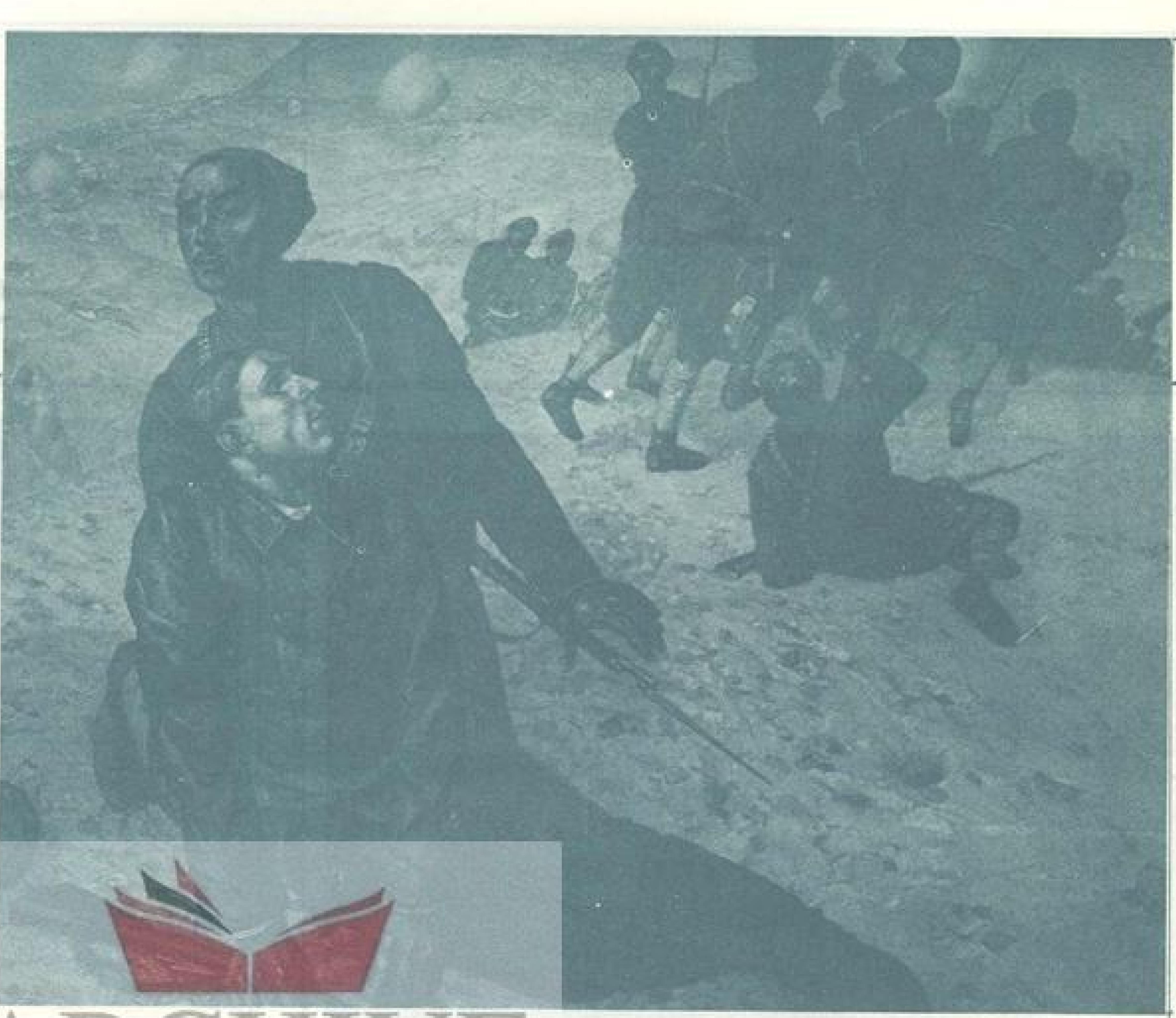

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ففي هذه الفترة بالذات اكتشف الروس ومعهم الفن العالمي الوظيفة المستقلة لأدوات الفن .

وهذا الانقلاب كان على علاقة متينة بالتجارب التي كانت تحدث في فرنسا والتي انتقلت الى روسيا بواسطة بعض جامعي الاعمال الفنية الذين كانوا يشترون من باريس اعمال بيكاسو وماتيس والتكعيبيين والوحشيين (خصص لهذه الاعمال جناح مستقل في المعرض) .

غير ان هذه المعرفة بالفن الفرنسي لاتفسد كل شيء : فقد كان لروسيا تجاربها هي الاخرى والتي كان من نتائجها ظهور اعمال فنانين من أمثال لاريونوف ، وكاندنسكي وتاتلين .

ففي عام 1910 ، رسم كاندنسكي اولى لوحاته التجريدية . كما تجاوز « مالفيتش » nalevitch التكعيبية برمزيته . اما تاتلين فقد بنى اولى رسومه المجسمة . كان ذلك مؤشرا لميلاد حركات متعددة : كالمستقبلية والتوفيقية والبنائية التي كانت بمثابة تتويج لابداع فني متحرر يطمح الى تحطيم الاشكال التقليدية ورفض وتهديم العالم القديم .. ابداع يتبنى المظاهر العصرية : الآلة ، السرعة ، الكهرباء ، المدن العملاقة .

اذا كانت المستقبلية في ايطاليا بقيادة « مارتيني » قد انتهت الى مساندة الفاشية مؤكدة ميلها الى العنف والدمار والشوفينية ، فان المستقبلية الروسية كانت على عكس سابقتها الايطالية تبحث عن ربط ممكن بين الثورة التي كانت تطمح الى تحقيقها على صعيد الفن وبين الثورة السياسية .

وقد عبر عن ذلك الشاعر مايكوفسكي : « كانت تلك هي الثورة . وكان ذلك بواسطة الشعر . الشعر والثورة توحدا في راسي » .

ان المعرض الذي نحن بصدده يعطي الافضلية للحركات الطلائعية ولكنه لا يكاد يعطينا شيئا يذكر حول ما تبقى من الحركات الفنية الاخرى . كالتيار المحافظ الذي كان يتمتع بقوة ونفوذ لا يستهان بهما . اذ شن هذا التيار ، منذ عام 1913 هجوما شبه متواصل ضد المجددين . كما ان المعرض لم يشر الى محاولات هذه التيارات المستميتة في فرض نفسها على الجمهور وعلى الجهات والاوساط الاكاديمية .

ان الطلائعية لم تسجل نعيا يذكر لا قبيل ولا بعيد عام 1917 . لقد غيرت ثورة اكتوبر الوضع كليا ولكنها لم تلغ المنافسات الحادة . وساعد النظام الجديد التيار الطلائعي وراءه وذلك بان وسع من قاعدته وجعله مثار اهتمام قطاعات واسعة من الجماهير . غير انها – اي الثورة – لم تصل به الى السلطة ..

كانت الارادة السياسية هي ان تضع شعبية الفن على راس برنامجها . ولا بد من ان نعرف أن هذه الاعمال المحافظة قد حوربت فيما بعد محاربة شديدة .

كما كانت المعارك محتدمة كذلك أشد الاحتدام بين منظمة البروليتكولت – والتي ، مع الاسف ، لم نشاهد لها اعمالا في هذا المعرض ، وبين الطلائعيين .

وكانت هذه المنظمة الجماهيرية تضم حوالي ثمانين الف عضو معظمهم من العمال والشباب خاصة في سنواتها الاولى كما كانت تثير قضية مهمة هي عدم احترافية الفن وخلق عالم يكون كل واحد فيه شاهدا ومبدعا في الوقت ذاته .

ومع مرور الزمن كانت التيارات «الواقعية» المختلفة تزداد اهمية فقد طرحت « جمعية رسامي روسيا الثورية » ، الواقعية الثورية كجزء من برنامجها مطالبة بمواضيع Themes تكون مرتبطة ببناء الاشتراكية ومعبرة عنها بلغة خالية من التعقيد .

وهكذا اصبحت الصور الشخصية لقادة الثورة (لينين في سمولني) والحياة اليومية للجنود والعمال والفلاحين ، القاعدة الموضوعية للرسم .

الهندسة المعمارية وتنظيم المدن

وقبل ان تشرف على نهايتها ، تحملنا الطريق باريس – موسكو الى الابنية المقببة ونصب تاتلين حيث تتجلى الهندسة المعمارية ونظام المدن خلال السنوات العشرين وعبقرية مبدعيها المفتونين بالآلة وديناميكية الحركة التي كانوا يسعون الى تجسيدها .

ان نموذج هذا النصب الذي لن ينجز أبدا والذي اهداه صاحبه الى الدولية الثالثة نموذج مدهش لما احتواه من ابتكارات تقنية . وطموح طوباوي . وهو يتكون من ثلاثة طوابق تدور حول نفسها . تستغرق دورة الطابق الاول أربعا عشرين ساعة وتستغرق دورة الطابق الثاني شهرا . اما دورة الطابق الثالث فتستغرق سنة كاملة .

وضم المعرض اضافة لما تقدم نماذج لتصاميم اخرى مذهلة لم تتحقق بسبب الوضع الاقتصادي الصعب للبلاد وبسبب ما يتطلبه انجازها من دعامة صناعية .

ورغم الاوضاع الصعبة التي اعترضت الثورة في سنواتها الاولى ، فان الهندسة المعمارية قد شهدت تطورا هاما . يشهد على ذلك جناح الاتحاد السوفيتي في معرض « فن الديكور » المقام في باريس عام 1925 ، والذي كان له وقع القنبلة في الاوساط الفنية .

وقد عرض في هذا الجناح المشاد كله من الخشب بعض نتاجات الحركة الطلائعية السوفيتية .

ترجمة : محمد خالدي

في سطور

تزويق الكتب

في ادبنا العربي اشتهر الفنان العراقي المشهور «الواسطي» بظاهرة تزويق الكتب حتى عدت رسوماته على مقامات الحريري اية من ايات الفن التشكيلي في العصر العباسي .

وفي الادب البولوني ذاع صيت الفنانة التشكيلية مايا برزوفسكا الذي اشتهرت بتزويقاتها للدواوين الشعرية في عشرينات هذا القرن . لقد عرفت هذه الرسامة بالاف الروائع من الرسوم والالوان المائية واللوحات الزيتية ولا سيما للزهور والتماثيل.

ولعل شهرة مايا برزوفسكا في بولندا والعالم قد جاءت من رسومها للعديد من روائع الادب العالمي ذلك انها نقلت الى لغة الفن اعمالا للشاعر الكبير غوته وهاين وفيون وباكاشيو اضافة الى عدد من كبار الشعراء البولنديين امثال ريج ، جان كوجانوفسكي ، ماكلاو بوتوكي وكراسيكي وغيرهم .

على ان هذه الفنانة الكبيرة معجبة بابداعات عصر النهضة ولذلك نجد في رسومها الثياب الطويلة الفضفاضة التي كانت شائعة ابان النهضة . كذلك فاننا نتلمس في رسومها العادات الشعبية والمشاهد التي تمثل العلاقات الانسانية .

ضيوف في متحف بوشكين

امام واجهة متحف بوشكين للفنون التشكيلية ، غالبا ما يشاهد المرء الرايات الوطنية للعديد من البلدان . فاضافة الى صالات هذا المتحف التي تحتضن نتاجات عمالقة الفنانين التشكيليين في العالم منذ القدم . هنالك ايضا قاعات خاصة لاقامة المعارض الفنية التي تستضيفها ادارة المتحف من مختلف انحاء العالم ، لتعريف المواطنين بالتراث الفني العالمي .

من المعارض الدولية الهامة التي شهدتها صالات المتحف ، معرض « متحف ميتروبوليتان » الامريكي ، الذي قدم 100 لوحة لكبار الفنانين المعروفين على نطاق عالمي ، ومنهم غويا وريمبرانت وغريكو وهالز وكريفيلي وفراغونارد وديلفت . كما واستضافت ادارة المتحف معرضا امريكيا اخر ، قدم نتاجات فنية انجزها سكان البلد الاصليين من عهد كولومبوس ، الهنود الحمر .

اما المتاحف الايطالية ، فقد اقامت العديد من المعارض الفنية ، كان من ابرزها معرض رسامي القرن السابع عشر ، الذين يمثلون مدرسة نابولي الفنية . وهنا تجدر الاشارة ايضا الى ان متحف بوشكين قد استقبل ايضا معارض فنية من متاحف بلجيكا وهولنده والنمسا وفرنسا .

ان السوسيولوجيين يطلقون صفة « الانفجار السكاني » على تصاعد نسبة عدد زوار المتحف اما المسؤولون عن ادارته فانهم في بحث دائم عن وسائل وامكانات جديدة حول كيفية توفير افضل الخدمات لزيارة المتحف .

بريطانيا والتدخين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ زمن طويل وبريطانيا بمؤسساتها المختلفة تقود حملة عالية لتبيان مضار التدخين والمضاعفات العديدة التي يتعرض لها المدخن وخاصة اذا كان من الجنس اللطيف.

ان احساس انكلترة بهذه المشكلة قد جاء من أنها تقف في طليعة العالم من حيث عدد المصابين بسرطان الرئة ذلك أن عدد المصابين بهذا المرض من الرجال والذين توفوا عام 1977 قد بلغ 705ر26 ومن النساء 274ر7 . وبالرغم من هذه الحملة الكبيرة لمكافحة التدخين فان مبيعات انكلترا من التبغ لم تؤشر اي انخفاض بل ان هذه المبيعات تمر بحالة صحية الى حد ان شركات الدخان تنفق سنويا ما يزيد على 100 مليون باوند على الدعاية لمنتجاتها مقابل مليون باوند تنفقها الدولة سنويا لمكافحة ذلك .

رجال السياسة في انكلترا يتذكرون كيف ان الملك جيمس الاول قاد حملة مضادة للتدخين عام 1604 مبينا أضرار التبغ التي تصيب العين والانف والدماغ والرئة وما الى ذلك .

وفي احصاء لمرضى سرطان الرئة قام به ريتشارد دول وأوستن برادفور هل عام 1951 تبين ان 5ر99 بالمئة من الذين يعالجون في المستشفيات البريطانية من هذا المرض هم من المدخنين . وقد خلص ذلك المسح الطبي الى ان « التدخين » من اهم العوامل الفعالة التي تؤدي الى الاصابة بالسرطان ، ولذلك فقد أوصى بمنع الدعاية للتدخين والى قوانين صارمة تصدرها الحكومة للحد من هذا الخطر المداهم . لقد ادى هذا التقرير الى قيام حملة عالمية لمكافحة التدخين الى حد ان منظمة الصحة العالمية دعت الى منع تام لكل أشكال التبغ المستعملة .

وقد نسبت هذه المنظمة وفاة 90٪ من حالات المصابين بالسرطان الى التدخين و 75٪ من الوفيات بالتهاب الشعب الرئوي و 25٪ من الوفيات بامراض القلب الناتجة عن انسداد في الشرايين .

هذا وقد هاجم أحد الاطباء المتخصصين بالسرطان المؤسسات الرسمية الانكليزية لموقفها الضعيف ازاء التدخين قائلا بان الموارد الكبيرة التي تحصل عليها الخزينة من الضرائب المفروضة على السكاير هي التي تشجع المؤسسات على اتباع سياسة التردد والضعف تجاه وباء السرطان بسبب التدخين .

غاز الميثان والهزات الأرضية

لقد قدم الدكتور توماس كولد نظرية جديدة حول العلاقة ما بين الغازات الموجودة داخل الارض وخاصة غاز الميثان وبين الهزات الارضية . وذكر بان الغاز الموجود داخل الارض يكفي لتوليد الطاقه لمدة مليون عام . وتتلخص النظرية الجديدة في ان الارض عندما تكونت قبل 4ر5 الف مليون سنة كانت مملوءة بالغازات والتي اهمها غاز الميثان وغاز ثاني اوكسيد الكاربون. لقد ذكرت النظريات التي سبقت نظرية الدكتور كولد بان غاز الميثان قد نفذ من داخل الارض غير ان النظرية الجديدة تؤكد بان ذلك غير صحيح وتستدل بان اكثر المواد الكاربونية الموجودة على سطح الارض هي نتيجة تسرب مستمر لغاز الميثان وغاز ثاني اوكسيد الكاربون . ولقد استخدمت النظرية مجموعة من الشواهد للتدليل على صحتها فعند حدوث هزة ارضية وانفجار بركاني تتكون كتلة كبيرة من النار ولقد ذكر الدكتور كولد بان سبب ذلك هو ان جزيئات التراب التي تخرج بسرعة كبيرة من داخل الارض تكون مصحوبة بغاز الميثان ونتيجة احتكاك الجزيئات تتولد شرارة تكفي لاشعال غاز الميثان الذي يولد هذه الكتلة الهائلة من النار . لقد حدثت في باكو في الاتحاد السوفيتي هزة ارضية نتج عنها شعلة ارتفاعها كيلومتران وقاعدتها 120 متراً وبقت هذه الشعلة لمدة ثمانية ساعات متواصلة وهذا دليل قوي على تسرب كبير للميثان من داخل الارض . لقد استدل الدكتور كولد على وجود الميثان بمراقبة بعض الظواهر التي تسبق تكون الهزة الارضية ومنها اولا زيادة نسبة الرادون 222 في الهواء ، ارتفاع وانخفاض الماء في الابار ، ظهور فقاعات غير اعتيادية في الابار ، تغير توصيل الارض التي تصيبها الزلازل وتغير سرعة الصوت في الصخور وظهور اعراض مرضية على بعض الحيوانات« تفسر النظرية الحديثة كل هذه الامور في ان حركة الارض تسببت في اطلاق كميات كبيرة من الطاقة المخزونة في الصخور تحت ضغط عالي ، ويحيط غاز الميثان هذه الصخور ويعمل كمزيت يمنع اتحاد واحتكاك هذه الصخور ببعضها ان هذا الوضع يساعد على احداث تشققات وانهيار في الصخور يزداد مع وصول الغاز الى درجة الحرارة الحرجة للميثان اذ ان غاز الميثان يندفع عند ذلك الى سطح الارض رافعا معه غاز الرادون المخزون داخل الارض ومسببا تغيرا في مستوى الماء وظهور الفقاعات الغازية .وتفسر النظرية المرض الذي يصيب الحيوانات قبل حدوث الزلزال في تصاعد الميثان على سطح الارض مطلقا كميات كبيرة من الغازات ذات الرائحة الكريهة والموجودة داخل الارض ومنها غاز H_2S ودليل هذا الاستنتاج مايذكره صيادو الاسماك في المناطق التي يصيبها الزلزال اذ بعد انتهاء الزلزال تظهر مجموعة كبيرة من الاسماك الميتة على سطح النهر ولقد فسرت النظريات القديمة هذه الظاهرة بان رجه تصيب الاسماك وتميتها غير اذ كولد رفض هذا التعليل ووجه هزات قوتها 8 رختر على مجموعة من الاسماك ولم يحدث لها اي شيء سوى انها فوجئت بالهزة لذلك فسر كولد موت الاسماك بتسممها بغاز H_2S والذي ينفذ من اعماق المحيط . كما ان كولد يفسر الظاهرة الغريبة الا وهي ظهور موجات عملاقة من الماء على جزر المحيط الباسفيكي ويعتقد بان هذه الامواج التي ترتفع لثلاثة امتار وتمتد لآلاف الكيلومترات قد تسببت عن اندفاع الميثان من اعماق الارض مولدا ضغطا عاليا يدفع الماء الى الاعلى . ان العلماء يقومون بدراسة هذه النظرية الا ان من المؤكد بانه لو ثبتت صحتها فان هذا يعني باننا نعيش على محيط مملوء بغاز الميثان الذي يمكن الاستفادة منه كمصدر دائمي للطاقة .

اعداد : د . سلمان رشيد

كهف المعجزات في منتزه مولو

في عام 1975 قررت حكومة ماليزيا اعتبار منطقة غونونگ – مولو الواقعة في شمال جزيرة كاليمانتان منتزها قوميا . ويشتهر هذا المكان بجمال تلاله ومنحدراته الصخرية البيضاء التي تتزاحم فيما بينها لكثرتها . ومنذ وقت بعيد كانت الاحاديث تجري بين الناس حول وجود كهوف في مملكة الصخور هذه .واخيرا قامت الجمعية الجغرافية البريطانية بارسال بعثة استكشاف الى المنطقة .

وقد احتاج ستة من مكتشفي الكهوف الى ثلاثة اشهر ليجروا مسحا ميدانيا في المنطقة ، فاذا بالنتائج تتجاوز اكثر الفرضيات جراة .فقد وجدت ممرات تحت الارض تمتد الى مسافة خمسين كيلومترا ، ولكن تبت فيما بعد بانها مجرد اجزاء ضمن شبكة كاملة من الممرات التحت ارضية .

ومن اكثر الاشياء التي لفتت انتباه الخبراء ذلك المكان المسمى هايدن ڤالي (الوادي المخفي) .فالى الجنوب من قمة جبل اپي وفوق منحدرات مولو يجري نهر ميليناو الضيق . يبلغ ارتفاع الصخور على جانبي النهر اكثر من 500 مترا . والامر العجيب هو ان هذا النهر لا مصب له اذ يتلاشى في الاحراش ، ولم يستطيع العلماء حتى الآن متابعة مجراه الا بواسطة الطائرات . ويفترض ان النهر يبدأ في الجريان الى داخل الارض عند دخوله منطقة الاحراش . ولكن الى اين يذهب بعد ذلك ؟ اصبح الجواب على هذا السؤال الشغل الشاغل للعلماء في احدى مراحل العمل .

الزيارة الاولى للوادي كانت مخيبة للآمال . فالنهر كان يختفي دون ان يترك اثرا تحت الصخور الملساء . ولذلك بدا البحث عن الكهوف من مجرى النهر ، وسرعان ماعثر على منفذ عند الصخور العالية شمال النهر . تشبه الصخور والجدران داخل الممر بجمالها المدهش ارضيات كريستالية ملونة . ويبدو ان الماء المتساقط من الاعلى ادى الى خلق اشكال غاية في الروعة من القطع الصخرية والجبسية وباحجام مختلفة . انه حقا كهف المعجزات ذلك الذي عثر عليه في اعماق جبل آپي مما جعله لؤلؤة منتزه مولو . ولا شك انه سيحافظ على جماله سنوات عديدة نظرا لصعوبة الوصول اليه . هنا . . في هذا القصر الصخري يجري ذلك النهر الغامض الذي كان يختفي في الاحراش .

وهناك اكتشاف مثير آخر هو نفق طوله كيلومتر واحد. كانوا يعرفون بوجوده منذ بعيد لسهولة الوصول اليه . ولكن البعثة الاخيرة هي التي اكتشفت وجود كهف هائل في نهاية النفق ، ويبلغ عرض الكهف 170 مترا وارتفاعه 120 م .

يعيش في هذا الكهف ملايين من الخفافيش التي تنطلق محلقة مع المساء دفعة واحدة لتغطي كل الفضاء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعقيب حول «اصول اسماء بعض محلات بغداد»

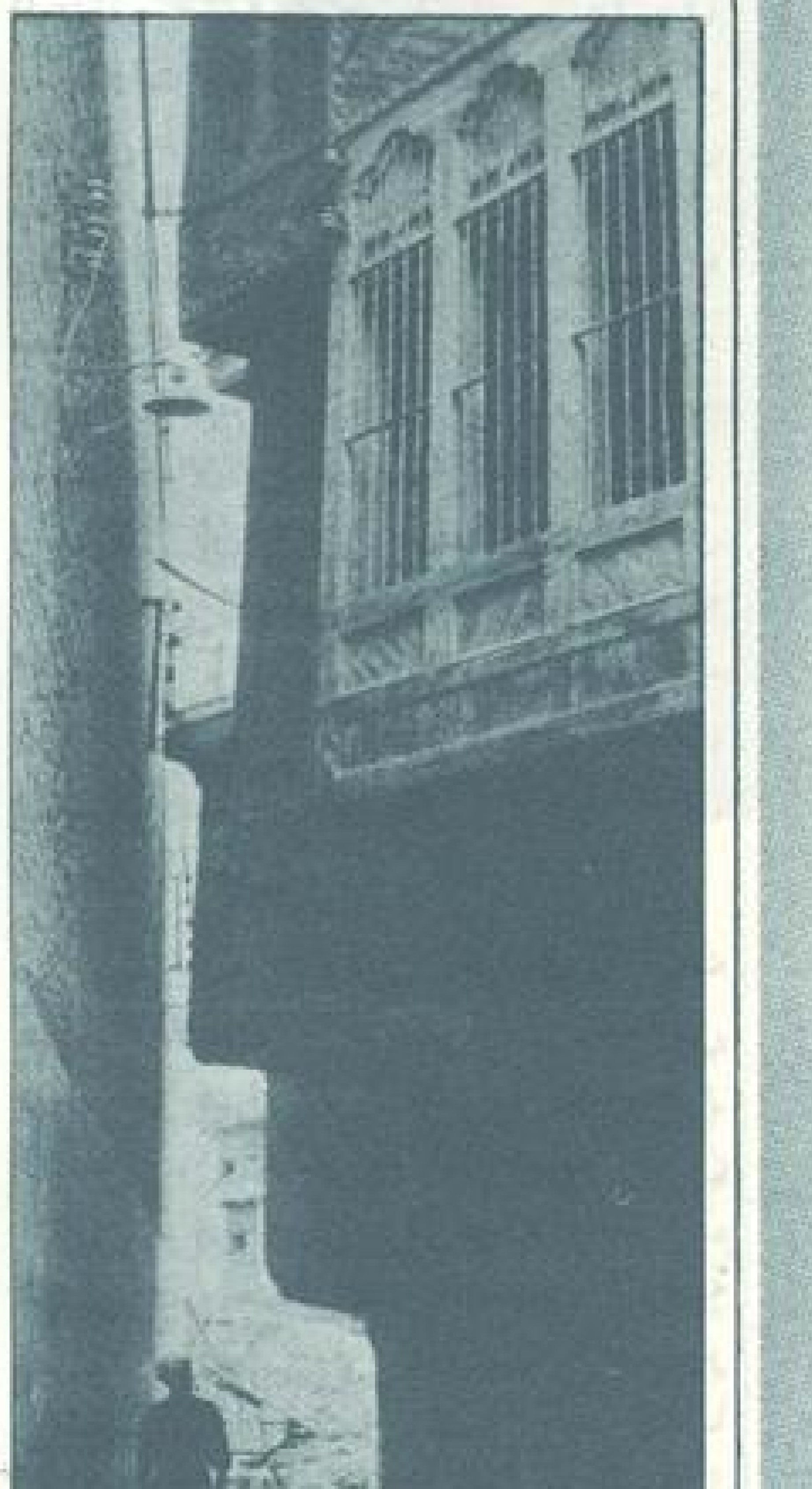

هذا تعقيب قصير على مقالة المحامي الاستاذ جمال بابان الموسومة ب « اصول اسماء بعض محلات بغداد ومواقعها » المنشورة في مجلة « آفاق عربية » الزاهرة الميمونة في عددها 15 حزيران 1979 .

اود ان اعقب واعلق على ما كتبه الاستاذ بابان ، وان صح التعبير لوصل ما انقطع فيما ذهب اليه بابان .

وقد عجبت حقا كيف فات الكاتب المحترم أن يذكر بعض خانات الكاظمية ومحلاتها الشهيرة وقد ذكر الكاظمية في صلب مبحثه آنف الذكر ، حيث لم يذكر ذلك ، ولنا في مقالة تالية سننشرها على صفحات « آفاق عربية » الموقرة ، نثبت فيها ، الاسواق والمقاهي ، والدرابين ، والفضوات ــ جمع فضوة ــ والعقود ، البغدادية والكاظمية القديمة .

* ■ *

وبمناسبة هذا التعقيب عن خانات ومحلات بغداد ومواقعها ، اقول ان بعض الخانات البغدادية ينبغي ان تصان وترمم كي تبقى على طابعها التراثي والآثاري الاصيل حيث امتازت بمميزات جمالية باهرة .

* ■ *

ان بغداد السابع عشر ، الثلاثين من تموز الاشتراكية التقدمية ، قد امتازت بمميزات فريدة حيث كانت بغداد خالدة خلودالدهر ولا تزال ، وقد قرانا في التاريخ ان بغداد كانت عاصمة العباسيين ومحط انظار العلماء والادباء . وبالتالي فهي عاصمة ثورة السابع عشر من تموز العظيمة .

* ■ *

اقول ثانية ، ينبغي أن تصان وترمم وترمم الخانات البغدادية لتبقى شامخة بشناشيلها وزخرفها وجماليتها ابد الدهر .

* ■ *

والآن نثبت بعض اسماء «الخانات » و « المحلات » البغدادية الشهيرة ، ولنا عودة محمودة الى الموضوع .

خان الاورتمة :

وقد اطلق عليه اسم « خان مرجان » يقع في رصافة بغداد ، وهو من الخانا تالاثرية القديمة اسسه امين الدين بك بن مرجان ، وقد اتخذ كمتحف للآثار، وهذا الخان يتالف من طابقين الاول يحتوي على 22 غرفة والطابق الثاني على 24 وقد زخرفت بواباته بمقرنصات بديعة جدا.

خان الباشا الصغير
والباشا الكبير

يقع خان الباشا الصغير في رصافة بغداد ، وفي سوق الصفارين الواقع على شارع السموال ، اما خان الباشا الكبير ، وهو الاخر في شارع السموال امام البنك العثماني اي يكون بين سوقي الطغمه والصرافين ، تباع في هذا الخان مختلف الحاجات .

خان التمر :

يقع في رصافة بغداد ، تباع في هذا الخان مختلف انواع التمور ، وهو قريب من خان الدفتردار ويوجد شارع عليه يؤدي الى نهر دجلة وهو يفصل ما بين خان التمر وخان الدفتردار .

خان الذهب :

تباع حاليا في هذا الخان مختلفانواع الاقمشة وهو يقع في جانب الرصافة ، اما باب هذا الخان فتكون قبالة سوق البزازين ومواجها لباب خان الاورتمة ، وسابقا كانت فيه دكاكين الصاغة .

خان فتح الله الحاج عبود :

يقع هذا الخان في رصافة بغداد ، وهو قريبا من زقاق تحت التكية القريب من سوق الشورجة وكانت تباع في هذا الخان قديما مختلف الالبسة القديمة .

خان النفط :

يقع في رصافة بغداد في محلة العوينة وكان يباع فيه النفط ، وقيل ان حريقا هائلا حدث فيه وقد اتى على صناديق النفط والبنزين الذي كان يباع فيه .

خان العادلية :

يقع في الرصافة جوار جامع العادلية الكبير قبالة المحكمة الشرعية في شارع المستنصر « النهر » ، وهذا الخان عبارة عن مجمع لخزين البضائع التي كانت ترد من البصرة وذلك لقربه من نهر دجلة الخالد .

خان الدفتردار :

يقع في رصافةبغداد على شارع المستنصر وهو مجاور خان التمر ، وكان يخزن فيه الصوف والقطن .

خان دله الصغير :

في رصافة بغداد في سوق البزازين مقابل لسوق الصرافين ، وله بابان واحد منها مقابل سوق الجايف ، تباع في هذا الخان مختلف الاقمشة والفرش .

خان الكمرك :

يقع في رصافة بغداد وهو قريب من محلة الخان الواقع بين المدرسة المستنصريةوخان الخفافين وتحول الى مقهى لا تزال ، وقديما كان يخزن فيه ما تصادره الحكومة آنذاك من بضائع مهربة .

خان اللاوند :

يقع في رصافة بغداد وهو قريبا منمحلة سراج‌الدين وقد هدم ، ولم يبق له اي اثر وكان يباع فيه العفص والملح ، وفي بغداد توجد ايضا محلة بهذا الاسم .

خان خضر الياس :

يقع في كرخ بغداد وهو مجاور لجامع خضر الياس المطل على نهر دجلة ، وكان يباع فيه ايام زمان البطيخ والرقي الذي كان ياتي به من مدينة سامراء ، وقد هدم هذا الخان بعد انشاء جسر 17 تموز عام 1977 .

خان المصبغة :

يقع في رصافة بغداد ، وهو مجاور جامع الخفافين فيسوق السراي القريب منالمدرسة المستنصرية ، وكان هذا الخان يحتوي على عدد كبير من دكاكين الصاغة .

خان الوقف :

يقع في جانب الرصافة في محلة الدهانة، وكان يحتوي على عدد من دكاكين البقالين التي تباع فيها الفواكه والخضار بانواعها .

محلات بغداد

ومن المحلات البغدادية الشهيرة التي لم يذكرها الاستاذ جمال بابان المحلات التالية : ــ

الصدرية :

محلة شهيرة في رصافة بغداد ، بني فيها مسجد باسم صدرالدين ، وفي ايام زمان كان فيها ساقية للسبيل حيث يمر الماء بالصدرية ، حيث جعلت اطواقا للشوارع تمر الناس من تحت الطاق وهم ذاهبون الى بيوتهم والماء يسير فوق الطاق .

الصابونجية :

محلة تقع في رصافة بغداد قريبة منمحلة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الميدان قيل انها سميت بالصابونجية لانه يعمل فيها الصابون .

العـزة :

محلة شهيرة تقع في رصافة بغداد وتنسب الى العشيرة التي سكنتها بعد الطاعون الكبير لسنة 1246 .

محلة الصفافير :

محلة تقع في رصافة بغداد وتشمل على الشارع الذي يدخل اليها من السوق المذكور وبعضها غير نافذ واحدهما في وسـط السوق وينتهي في شارع المامون واثنان يتصلان بسوق الخياطين .

محلة الطاطران :

محلة تقع في رصافة بغداد ، وقيل ان اهالي هذه المحلة ينسبون الى عشيرة بهذا الاسم في قضاء الخالص ، وقد نزحوا الى بغداد بعد الطاعون الذي وقع في بغداد عام 1946 هـ .

محلة العبيدة :

وهي محلة معروفة تقع في رصافة بغداد وتشمل على شارعين فقط ، وتنسب الى عشيرة العبيدة ، والتي نزحت الى بغداد بعد الطاعون الذي حدث في بغداد عام 1246 .

محلة الحيدرخانة :

تقع في رصافة بغداد وفيها جامـع الحيدرخانة الشهير .

محلة الدشتي :

محلة معروفة تقع في رصافة بغداد بين محلتي امام طه وباب الاغا .

محلة البقجة :

وهي محلة تقع بين السراي من الجنوب والشمال والميدان من الشرق ودجلة من الغرب .

محلة باب السيف :

وهي محلة شهيرة تقع في كرخ بغداد .

محلة التكارتة :

محلة معروفة تقع في كرخ بغداد سكنتها اناس جاءوا من تكريت وهي مجاور لمحلة خضر الياس ، والشيخ علي وسوق حمادة.

محلة التوراة :

وهي محلة معروفة تقع في رصافة بغداد، وهي مجاورة لمحلات قنبر علي وتحت التكية وباب الاغا وسوقي الغزل وعبيد

محلة الجوبة :

محلةتقع في رصافة بغداد وهي مجاورة لبستان الجوبة وتقع بين قره شعبان والمهدية والعزة .

الفنـاهرة :

محلة تقع في رصافة بغداد وهي محلة تقع بين المحلات المعروفة في بغداد مثل قهوة شكر وباب الشيخ ، والقاطنون بهذه المحلة قدموا اليها من قرية « فنهره » في مدينة الحلة .

محلة ابو دودو :

هذه المحلة تتوسط محلتي فرج الله والطاطران وهي من المحلات المعروفة .

محلة البو شبل :

وهي محلة قديمة وقد سميت بهـذا الاسم نسبة الى عشيرة البو شبل النازحة اليها .

وهناك محلات بغدادية شهيرة لم يذكرها الاستاذ بابان سناتي على ذكرها في فرصـة قابلة .

* ■ *

واخيرا اشكر مجلة « آفاق عربيـة » الزاهرة ، والاستاذ جمال بابان على اتاحتي هذا التعقيب الطريف والى عودة حميدة حول هذا الموضوع .

الهوامش : ـ المعجم الجغرافي لمدينة بغداد القديمة ـ تاليف السيد محمـد رؤوف السيد طه الشيخلي .

بغداد : مهدي حمودي الانصاري

الباب الشرقي في بغداد

ورد اسم هذا الباب في بحث الاستاذ المحامي جمال بابان عن (اصول اسماء بعض محلات بغداد ومواقعها) (آفـاق عربية ـ حزيران 1979) . وقد علل الكاتب الباحث هذه التسمية بانها (تستند على كون الباب يقع في الجهة الشرقية من بغداد القديمة اي حينما كانت مدينة بغـداد لا تتجاوز حدودها الشرقية منطقة الباب الشرقي الحالية) .

ولا نقر الباحث على هذا التعليل للاسباب التالية :

1 ـ ان الباب الشرقي يقع فعلا في جنوب بغداد .

2 ـ وهو قد وصف باب المعظم ، في نفس البحث ، بالباب الشمالي ، فيقابله اذن الباب الجنوبي لا الشرقي .

3 ـ ان سبب تسمية الباب الجنوبي لمدينة بغداد بالباب الشرقي هو ما اعتاد عليه اهل العراق في الماضي والحاضر على اطلاق لفظ الشرق على الجنوب ، فهم يسمون الريح الجنوبية الحارة (هوا شرجي اي شرقي) كما يسمون الريح الشمالية الباردة (هوا غربي) وهم يسمون اهل الجنوب بعامة (الشرجية) اي الشرقية) والمقصود بهم سكنة الشرق وهو الجنوب . وهم يقولون عن الذين اخذهم الحكم العثماني لحرب الروس في جبهة القفقاس انهم ذهبوا الى (الغربية) اي الى الشمال . وهم يسمون الصعود في دجلة الى الشمال (تغريبا) ويقولون عن الذاهب في النهر الى الشمال انه (مغرب) بتشديد الراء .

المحامي صالح الشالجي

بغـداد

اصول اسماء وبعض محلات بغداد

وردت كلمة العيواضيه في الصفحـة 79 من العدد 10 لسنة 1979 انها محرفـة من (الايواز) آيواز ، آيواز : كلمـة تركية AYVAZ

ـ سمي بها الشخص الذي يقوم بمساعدة الجراح الذي يعمل في السفن الحربية.

ـ سمي الجندي الذي يساعـده الطبيب الجراح في السفن الحربية .

ـ سمي بها الصبي الذي يعمل مساعدا او عاملا في مطابخ الدوائر الحكومية او في مطابخ البيوت الكبيرة .

المرجع : القاموس التركي لمؤسسة اللغة التركية لسنة 1974 انقرة .

يرجى التفضل بالعلم مع الشـكر والتقدير .

جميل امين عبدالقادر

ابو مسلم الخراساني

لقد اطلعت على مقال الدكتور فاروق عمر فوزي المنشور في عدد حزيران لسنة 1799 بعنوان (ابو مسلم الخراساني واسطورة البطل المنقذ) وقد سجلت بعض الملاحظات ارجو نشرها اتماما للفائدة وشكرا.

1 ـ ورد في صفحة (42) السطر السادس بان مقتل ابو مسلم الخراساني على يد ابو جعفر المنصور سنة 137هـ 754م والصحيح ان السنة الميلادية التي توفي فيها هي 755م وليس(754) حيث انه في هذه السنة لا زال المنصور وليا للعهد ولم يتسلم زمام الخلافة وعند توليه الخلافة ارسله لقتال عمه عبدالله بن علي في الشام (الموسوعة العربية الميسرة ص 39 و ص 1754).

2 ـ ورد في البحث اصطلاحان وهما : (الشيعة العلوية) و (الشيعـة

العباسية) ، المعروف ان الشيعة تطلق بشكل مطلق ويراد بها الشيعة العلوية ولم يستعمل المؤرخون (الشيعة العباسية) للدلالة على العباسيين بل استعملوا (العباسيين) فقط ، نعم استعملوا لفظتا (آل البيت) و (بنو هاشم)وارادوابها العلويون والعباسيون لكنهم لم يستعملوا الشيعة عندالاشارة الى العباسيين .

3 ـ قلنا في تعقيب على احدى مقالات الدكتور فاروق في عدد سابق من (آفاق عربية) ان الدكتور يستعمل احيانا مصطلحات حديثة واسماء لم ترد في كتب المؤرخين اطلاقا فهو مثلا اورد اسم (الايرانيون) و (الثوار الايرانيون) ويعني بذلك (الفرس) . اضافة الى ان مؤرخينا كانوا يسمون ايران الحديثة ب (بلاد فارس) .

ان (ايران) و (الايرانيون)استعملت بشكل رسمي عند سيطرة الاسرة الصفوية على بلاد فارس سنة (1499) م . هذا من جهة ومن جهة اخرى ماذا يعني الدكتور الفاضل ب (الثوار الايرانيون) التي وردت في ص 46 سطر (31) من هم هؤلاءالثوار؟ وما هي آراؤهم ؟ وهل يجوز لنا ان نسميهم بالثوار ؟ وهل يصح ان نستعمل هذا المصطلح الغريب ونطلقه

على متمردين خرجوا على السلطة؟ وشيء آخر احب ان اذكره هل ورد هذا المصطلح في مصدر او كتاب . اعتقد ان الدكتور حريص على ان يسمي الاشياء بمسمياتها .

4 ـ ان عبارة المنقذ المنتظر الذي سيعود الى هذه الدنيا (فيملاها عدلا بعد ان ملئت جورا) سمعناها كثيرا ولها علاقة بشخصية اخرى هي شخصية المهدي المنتظر ولا علاقة لها بشخصية ابي مسلم . وكان الاحسن ان يذكر الدكتور المصدر الذي استند اليه او اقبس منه ذلك .

5 ـ يكاد يتفق اغلب المؤرخين بان ابا مسلم كان داعية من دعاة الدعوة العباسية في خراسان وقد اعتمد عليه ابراهيم الامام في بث دعوته . وكان فارسيا متعصبا وقد ذكر ذلك كله الدكتور الفاضل وهي معلومات اطلعنا عليها في كتب التاريخ في اثناءالدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ولم يرد في المقال شيء جديد يتناسب مع عنوان المقال (ابو مسلم الخراساني واسطورة البطل المنقذ) اين هي الاسطورة ؟ ومن قال بها ومن هي الفئة التي اعتبرته بطلا شعبيا منقذا ؟ كل ذلك لم نعرفه .

6 ـ ان اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي يجب ان يستند الى اسس علمية بعيدة عن التهويل والمبالغة وليسمح لي الدكتور فاروق ان اقول انه كلما قرات مقالاته حول الحركات والاحزاب في العهد العباسي والاموي تصورت ان الناس جميعهم في ذلك الوقت وقفوا ضد الاسلام والعرب وهم ـ كما نعرفهم ـ اصحاب رسالة انسانية ودين عظيم وحضارة زاهرة يشهد بها اعداؤهم قبل مناصريهم . ان الاجدر بمؤرخينا ان يبرزوا النقاط المضيئة في تاريخنا وبخاصة الاحداث التي اجتمعت حولها امتنا وتوحدت ولاسيما ونحن نمر باشرس هجمة تتعرض لها امتنا هذه الايام ونتطلع بامل كبير الى وحدة العراق وسوريا .

واخيرا اتمنى ان يتحفنا الدكتور الفاضل (فاروق عمر فوزي) بمقالات اخرى تكون محورا لنقاشات علمية مجدية وشكرا .

عبدالقادر اللامي

تعقيب على تعقيب «الوثائق و التاريخ»

قرات تعقيب الزميل ابراهيم خليل احمد في العدد 8 نيسان 1979 ، حول مقالة الزميل ـ الاخر ـ الدكتور محمد مظفر الادهمي « حقائق عن الصراع الخفي بين بريطانيا والملك فيصل الاول » وقد تطرق الزميل احمد في خلال تعقيبه على المقالة الى موضوع استعمال الوثائق في كتابة التاريخ بصورة عامة والى الوثائق البريطانية بصورة خاصة ، وهو موضوع كنت اود ان اكتب عنه منذ فترة طويلة .

ان ما ذهب اليه الزميل ابراهيم خليل احمد لا يمكن ان يختلف عليه اي باحث في عدم الاعتماد على الوثائق فقط في البحث وفي « ان تصبح الوثائق المصدر الاوحد في اعادة كتابة التاريخ » على حد قوله ، واعتقد ان اي اطروحة (وحتى لو كانت مقالة قيمة) يعتمد الكاتب او الباحث في كتابتها على الوثائق فقط ـ ايا كان مصدرها ـ ستكون احادية النظر والبعد ، لا تعطي الشمولية والعمق المطلوب ـ وحيث ستوقع كاتبها في اخطاء ومتاهات وبالتالي لا يمكن ان توصف بانها دراسة علمية جدية ولا تستحق ان تعتبر اطروحة جديرة بالتقدير .

في نفس الوقت ، فان اية دراسة جدية لتاريخ العراق السياسي ـ خاصة منذ بداية القرن العشرين ولحد ثورة 14 تموز 1958 من دون الرجوع الى الوثائق المتوفرةبصورة عامة ـ والوثائق البريطانية بصورةخاصة، يفقدها مرجع اساس ، حيث ان الحكومة البريطانية وسفارتها في بغداد كانتالمهيمنة على امور العراق الداخلية والخارجية ـ وان جميع القرارات المهمة والتي تتعلق بالاوضاع السياسية العراقية كانتتصدر من وزارة الخارجية البريطانية والسفارة في بغداد وليس من المبالغة بمكان بان نقول بان السفير البريطاني ـ خلال الحكم الملكي كان اقوى شخصية سياسية في بغداد والاكثر تاثيرا واطلاعا بما يدور على خشبة المسرح السياسي العراقي من احداث وتحركات ، وبعد ذكر هذه النقطةيجب ان لا يكون الاعتماد فقط على الوثائقوحدها في كتابة اي مرحلة تاريخية ـ وفي نفس الوقت يجب الابتعاد عن خلق مدرستين (مجموعتين) متميزتين بالنسبة لمكان الدراسة ، فخذ طلبة وخريجي الجامعات البريطانية يعطون اهميةازيد مما تستحق في الاعتماد على الوثائق عامة والبريطانية خاصة ، بينما ينحو طلبة وخريجوجامعات قطرنا الى التقليل من اهمية هذه الوثائق في كتابة التاريخ ، فان هذه تشكل ظاهرة سلبية نحن في غنى عنها ، كما برزت في خلال هذه الفترة ظاهرة سلبية وغير علمية اخرى حيث بدانا نلاحظ بعض من زملائنا الباحثين والباحثات ، خاصة طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد (كليتي الاداب والقانون والسياسة) وبعض السادة ممن لهم الهواية او « الاحتراف » بكتابة المواضيع التيتتعلق بتاريخ العراق السياسي الحديث والمعاصر ، اخذوا يتبعون اسلوبا دعائيا وغير علميا في استعمال الوثائقوخاطئا في طريقة تحقيق الغاية المرجوة من هذه الوثائق ، فنقرا في احدى الاطروحات ان الكاتب يشكر احد الاساتذة على «اعارته» بعض الوثائق ونجد الاخر يشكر استاذا آخر على « ترجمة » بعض الوثائق الاجنبية، ونجد زميلا آخر يعلن على صفحات احد المجلات « الحصول على وثائق بريطانية « نادرة » والتي « لم تنشر من قبل » ويعلن باحث آخر عن حصوله « على مجموعة وثائق بريطانية لم تنشر من قبل » وهي « ملكه الخاص » .

وكخدمة للبحث العلمي وللباحثين الجدد، اود ان اوضح النقاط التالية :

اولا ـ ان جميع الوثائق ـ ايا كانت لغتها ومصدرها ـ هي ليست ملكا لاي شخص ، وهي اعتمادا على صدق كاتبها ومطابقتها للواقع ، انما تعود قيمتها للحقيقة والتاريخ ، وانوصف وثائق بريطانية بانها « نادرة » او انها « تنشر لاول مرة » انما مخالف للواقع ـ حيث انها موجودة في مركز الوثائق « العامة » وان بمقدور اي شخص ـ مهما كانت جنسيته او مستواه العلمي ـ الاطلاع على هذه الوثائق ودراستها وتصويرها (تكلف 16 فلسا للنسخة الواحدة) ويمكن الحصول على اي وثيقة بواسطة البريد وذلك بالكتابة الى مركز الوثائق البريطانية واعطائهم رقم الوثيقة ـ او الوثائق ـ ودفع التكاليف المترتبةعلى ذلك .

ثانيا ـ والاهم .. ان الفائدة الحقيقية من دراسة الوثائق لا تكمن في الحصول على بضعة وثائق ـ تقارير او رسائل ـ او وريقات تصف حادثة ما (وان كانت تساعد على فهم تلك الحادثة والقاء بعض الضوء عليها (، بل ان اهمية الوثائق ـ خاصة بالنسبة لطلبة الدراسات العليا ـ تكمن في دراسة متكاملة ومتسلسلة للوثائق لمجمل فترة البحث .

ان الدراسة المتكاملة للوثائق ولطوال فترة البحث ، تعطي الدارس عمقا في تفهم وتطور الاحداث السياسية وترسم له صورة قريبة (مشابهة) لهذه الاحداث ر وقوعها وتحسسه بروح تلك الفترة بالاضافة الى حصوله على معلومات تاريخية ـ تتكرر في معظم الاحيان فيستفاد من ذلك بالتاكد من صحتها والمقارنة بين وجهات نظر كاتبيها .

هذا الاسلوب في البحث والتعمق يمنع الكاتب من الوقوع في شباك « احادية النظر » بل تنمي قابليته في استخلاص ما يحتاج اليه من موضوع بحثه وتحسسه لما كان يريد ان يذهب اليه ويعنيه كاتب الوثيقة في تلك الفترة .

وهذا يدفعنا الى التاكيد على ان الفائدة القصوى تتم لو درست الوثائق بلغتها الاصلية واستوعبت بقالبها الطبيعي

— كما يجب ان لا يغيب عن بال الباحث ان كل وثيقة انما تمثل رأي كاتبها والظروف والوقت الذي كتبت به — .

ثالثا — ان اعتماد الوثائق في كتابة التاريخ لا يعني مطلقا التقليل من اهمية دراسة المصادر العلمية الاخرى — كدراسة الجرائد التي صدرت في تلك الفترة ومقابلة الشخصيات التي عاصرت المرحلة وعاشت الاحداث بالاضافة الى دراسة الجذور التاريخية وقراءة كل ما كتب عن تلك المرحلة والموضوع والبحث عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المؤثرة ثم الاطلاع على تقييم تلك المرحلة .. كل هذا من اجل اعادة كتابة تاريخنا بصورة جدية وبروح علمية اضافة الى تحليل الاحداث والمراحل الماضية وربطها بواقعنا وابراز محصلتها التاريخية للاستفادة من عبرها .

حول نظام الحكم الملكي في العراق

« حصلت مؤخرا على عدد من مجلة آفاق عربية (رقم 11 ، السنة الثالثة تموز 1978) وقرات في باب آراء/ردود تعقيبا للسيد نجدت فتحي صفوت على مقالة الاستاذ عبدالرزاق الحسني المعنونة «نظام الحكم الملكي في العراق » والمنشورة في العدد التاسع ، ايار 1978 .

وايضاحا للحقيقة ابين ما يلي :

يقول السيد صفوت انه لفت نظري قول الاستاذ الحسني ما يلي :

« وكان الانكليز غير مرتاحين لسلوك الملك غازي ، كما كان نوري السعيد حاقدا على الملك واتهامه بالاسهام في تدبير انقلاب بكر صدقي ، وهو الاتهام الذي اكدته الوثائق البريطانية السرية التي سمح بالكشف عنها لمرور ثلاثين عاما عليها » .

فيعلق السيد صفوت على هذا القول ويعقب متسائلا :

« وعلى الرغم من اني قضيت مدة تقارب السنتين في دراسة الوثائق البريطانية المتعلقة بالعراق ، فانني لم اجد بينها مثل تلك الوثائق التي يشير اليها الاستاذ الحسني في مقالته . فهل يتفضل الاستاذ ببيان ارقام تلك « الوثائق البريطانية السرية » التي اشار اليها وتواريخها ، ومكان حفظها ، ليسد هذا النقص في بحثه القيم من جهة ، ويقدم خدمة للمؤرخين والباحثين المعنين بهذه الموضوعات من جهة اخرى » (انتهى تعقيب السيد صفوت) .

ولا اعلم فيما اذا كان الاستاذ الحسني قد اجاب استفسار السيد صفوت ام لا — ولكني استميح الاستاذ الحسني والسيد صفوت في استجابة الطلب ، ليس من باب التطفل ، وانما محاولة متواضعة « لسد النقص في البحث القيم من جهة وخدمة للمؤرخين والباحثين المعنين بهذه الموضوعات (او المواضيع) من جهة اخرى » :

1 — ان الاستاذ الحسني — رغم وجوب ذكر مصادره وارقامها وتواريخها — فهو صائب عين الصواب — فيما ذهب اليه في كون الانكليز غير مرتاحين من الملك غازي وان نوري السعيد كان حاقدا عليه لاتهامه بالاسهام في تدبير انقلاب بكر صدقي — ولعوامل عديدة اخرى ربما تسمح الفرصة لتوضيحها مستقبلا — وقد ذكرت فعلا في الوثائق البريطانية عدة مرات وفي فترات مختلفة ، وللاسف انها قد فاتت ملاحظة السيد صفوت رغم قضائه فترة ليست بالقصيرة بين ادراج الوثائق البريطانية في لندن .

وهنا ساورد اربع وثائق مختلفة (من مجموعة اكبر) من وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في مركز الوثائق البريطانية العامة والتي حصلت عليها من خلال تحضيري لدراستي والتي تؤكد صحة ما ذهب اليه الاستاذ الحسني .

1 — الوثيقة الاولى :

تقرير السفير البريطاني في بغداد السير ارشيبولد كلارك كير والمعنون الى المستر ايدن — وزير الخارجية يصف به انقلاب بكر صدقي بكل دقائقه و وتطوراته تحت رقم F.O. 371/20014/E 7145 وتاريخ 2.11.1936

لغرضنا نقتطع الفقرات التالية : —

يصف السفير اجتماعه مع الملك غازي عندما استدعاه للتباحث ساعة اعلان الانقلاب ومجيء ياسين الهاشمي ونوري السعيد للقصر الملكي للتباحث والتداول بشان الانقلاب ايضا فاخبرهم ياسين انه تكلم مع بكر صدقي بالتلفون — قبل مجيئه — وسال بكر عن سبب قيامه بالانقلاب فطالب باستقالة وزارة ياسين فاجابه ياسين انه سيستقيل حال تاكده من عدم حوز وزارته لثقة الملك وبدون اي تردد وهنا اخبرهم ياسين برد بكر صدقي بقوله « اجاب بكر صدقي بان الحركة التي يقودها قد نفذت بمعرفة وتاييد الملك » .

ويقول السفير « وهنا جفل الملك بعض الشيء ولكنه انكر باصرار صحة هذه التصريحات » (ص 2 من التقرير) .

وفي الصفحة الرابعة من التقرير نفسه نجد السفير يصف التجاء نوري السعيد الى داره في مساء يوم الانقلاب وبعد سماع نوري بمقتل جعفر العسكري وفي نية بكر صدقي وجماعته قتله وقتل ياسين ورشيد عالي فامضى نوري تلك الليلة في بيت السفير ويصف السفير اليوم التالي (30 تشرين اول) فيقول :

« لقد قضيت معظم باقي اليوم مع نوري السعيد والذي كان في حالة عصبية كئيبة ، ولكنه بعد ان انتهينا من الاعداد (مع قائد الطيران البريطاني) لسفره بالطائرة الى مصر — عادت اليه معنوياته وبدا بالكلام بحرية تامة ، ان لم يكن بشيء من الطيش حول الازمة (الانقلاب) وسوف لا اتعبكم بكل ما جاء في حديثه الا ان اقول انه كان مصرا على اعتقاده بان الملك غازي كان مساهما في حركة بكر صدقي وان نوري قال ان هذا ايضا ما يعتقد به ياسين الهاشمي .

لقد راقبت (السفير) الملك غازي بصورة دقيقة عند مناقشته مع الوزراء (مع ياسين ونوري ، صبيحة يوم الانقلاب) حول احداث الانقلاب ، وانا ايضا اجد نفسي مدفوعا للقول باني قد توصلت الى الانطباع بان الانقلاب لم يات كمفاجاة لجلالته » .

الوثيقة الثانية :

تقرير السفير والمعنون الى وزير الخارجية ايضا يصف به تطورات ما بعد الانقلاب ويحلل اسباب ونتائج الانقلاب والاحتمالات المتوقعة

تحت رقم F.O. 371/20014/E 7147 تاريخ 4.11.1936

وقد ذكر التقرير ان للملك علاقة وثيقة بالمقدم محمد علي جواد — آمر القوة الجوية والذي كان له دور بارز في الانقلاب .

ويقول التقرير بان لجواد تاثيرا كبيرا على الملك غازي .

وقد علق جاي . جي . وارد (J. G. Ward) مسؤول في وزارة الخارجية البريطانية — دائرة شؤون الشرق الاوسط فكتب يقول بتاريخ 18 تشرين 2 ، 1936 :

« هذان التقريران (من السفير ، التقرير الاول المشار اليه في الوثيقة الاولى والتقرير المذكور اعلاه — الوثيقة الثانية) يؤيدان الانطباع الاول الذي تولد لدينا ، وبالاضافة الى ما صرح به ياسين باشا ونوري باشا عند هروبهم من العراق بان الملك قد ساهم مباشرة بهذا الانقلاب العسكري » .

الوثيقة الثالثة :

برقية من السفير البريطاني يوم الانقلاب يذكر بها وقوع الانقلاب العسكري والاطاحة بحكومة ياسين

F.O.371/20013/E 6784
dated 29.10.1936

علق عليها المستر وارد (Ward) قائلا :

« بالمناسبة ، انه من المحتمل ان يكون الملك العراقي مشتركا بهذا الانقلاب ، فقد كان يعاني من سيطرة ياسين باشا على حياته الخاصة وانه دائما كان على علاقة قوية « لخينة » مع الجيش العراقي » .

الوثيقة الرابعة :

تقرير المستر ادموندس (C.J. Edmonds) مستشار وزارة الداخلية العراقية ، والذي يشرح فيه الانقلاب بشكل تفصيلي ودقيق

رقم الوثيقة F.O. 371/20015/E 7625
تاريخ 17.11.1936

يصف ادموندس محاولات الحكومة في مواجهة الانقلاب حال سماعهم بالمناشير وباسقاط القنابل ويشرح الحالة في وزارة الداخلية ومحادثته مع رشيد عالي وزير الداخلية .

واخيرا يقول :

« وقد انهى رشيد عالي بك حديثه بهجوم مقرع على الملك غازي واتهمه بكونه مشتركا في الحركة » .

هذا وارجو ان استوفينا الموضوع حقه ونجحنا في سد النقص . وفي الاخير اود ان اذكر السيد الفاضل نجدت فتحي صفوت بان قضاءه ما يقارب السنتين في دراسة الوثائق البريطانية لا يعني بانه احتوى كل وثيقة من الوثائق مع تقديري .

مظفر عبدالله امين
جامعة درهام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com